الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
المجلس الأعلى للغة العربية

دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على اللغة العربية وأثره في الهوية اللغوية

أعمال ندوة

الجزء الأول

منشورات المجلس 2016

دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على اللغة العربية وأثره في الهوية اللغوية

أعمال ندوة

الجزء الأول

- **كتاب**: دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفـاظ علـى اللغـة العربية وأثره في الهوية اللغوية
- **إعـداد**: المجلس الأعلى للغة العربية
- **قياس الصفحة:** 15.5/ 23.5
- **عدد الصفحات: 432**

الجزء الأول

منشورات المجلس

ردمك: 978-9947-821-86-2

الإيداع القانوني:السوداسي الثاني 2016

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرانكلين روزفلت - الجزائر

ص.ب 575 **الجزائر _ ديدوش موراد**

الهاتف: 021.23.07.24/25 **الفاكس:**021.23.07.07

فهرس الكتاب

إشكالية الملتقى الدولي حول:

دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على اللّغة العربيَّة وأثره في الهُوية اللّغوية

كلمة السيد جيلالي علي طالب أمين عام المجلس 15

كلمة رئيس مؤسسة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس

د.عبد العزيز فيلالي 21

فضل جمعـيّة العلماء المسلمين في الحفاظ على الهُويّة اللّغويّة العربـيّة

الأستاذ الدكتور: ناصر لوحيشي 29

مقام اللغة العربية في التراتب العلمي لأبعاد الهوية عند جمعية العلماء

أ. كمال خليل 37

سياسة الاستئصال اللغوي بالجزائر في الوثائق الرسمية والخطابات السياسية الفرنسية من خلال كتاب: "السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر، أهدافها وحدودها، (1830-1962)"(كميل ريسلير) (ترجمة: نذير طيار)

الدكتور: نذير طيار- ج/ قسنطينة 59

مداخلة أد. صالح بلعيد

قداسة شعار الإسلام ديننا، العربيّة لغتنا، الجزائر وطننا

أ.أحلام بن عمرة 117

نماذج من استعمال العربيّة عند أعضاء الجمعية البشير الإبراهيميّ نموذجاً

أ. فاتح مرزوق 151

نماذج من استخدام اللّغة العربيّة عند أعضاء جمعية العلماء المسلمين الطّيب العقبي ومحمّد العيد آل خليفة أنموذجين.

سامية محيوت 171

دور جمعية العلماء المسلمين في ترقية العربيّة الفصيحة إبّان فترة الاستعمار

أ.حدّة روباش.....187

مقام اللّغة العربيّة عند جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين من خلال جريدة المُنتقِد

أ. حسيبة لعربي.....207

مقام اللّغة العربيّة عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين من خلال جريدة البصائر الجديدة (سلسلة عام 2014م أنموذجا).

أ. وردية قلاز 223

الإمام عبد الحميد بن باديس وريادة النهضة العربية

د. علي القاسمي الرباط 255

السياسة الاستعمارية الفرنسية في محاربة اللغة العربية قبل 1931

أ.كمال رمضاني جامعة الشلف 299

دور جمعية العلماء المسلمين في الحفاظ على اللغة العربية في منطقة وادي ريغ

د. جمال قوي.....353

مكانة اللغة العربية في المشروع الإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

أ.أحلام بوعلاق 365

جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في التخطيط للّغة العربيّة والارتقاء بها

نادية حسناوي ج/ عنابة 381

جهود ابن باديس التربوية وأثرها على الهُوية

د.عبد القادر بوزياني.....403

إشكالية الملتقى الدولي حول:

دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على اللّغة العربيَّة وأثره في الهُوية اللّغوية

ـ الديباجة:

من الحركات الإصلاحيَّة ذات الوجهة التَّربويَّة والتّعليمية التي ظهـرت في الجزائر الحديثة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لا تزال جهودها الأولى مثار كـثير مـن الآراء والأحكـام، وبخاصَّـة إذا مـا أخـذنا في الحسـبان تلـك السِّياقات التاريخيَّة والاجتماعيَّة المُصاحبة لنشأتها وعملها، وكـمِّ المضـايقات الاستعماريَّة والمحليَّة التي واجهتها.

ونظراً للدور الهام الذي لعبته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إبان فـترة الاستعمار الفرنسي، وما قامت به من تدبير سـؤال الهُويـة اللّغويـة مـا بعـد الاستقلال، إلى جانب تلك الأعمال الجليلة التي قـدّمها مُريـدوها في مختلـف المجالات، فإنّ المجلس الأعلى للغة العربية بمَعِية جمعية ابن باديس ارتأيا عقـد ملقى علمي بمناسبة (**قسنطينة عاصـمة الثّقافـة العربيـة**) في مدينـة قسـنطينة تقديراً لجهود مُؤسسيها الذين خدموا الشّأن العامّ الـوطني، حيـث بـذلوا مـا وسعهم الجهد من أجل الحفاظ على المُواطنـة اللّغويـة بكـلّ أبعادهـا. ولهـذا سوف يناقش الملتقى الدولي المُزمع عقده سؤال البُعد اللّغوي في فكر أعضاء الجمعيَّة، وتقييم منهجهم في التأسـيس لسياسـة لغويَّـة قائمـة علـى تعليميَّـة القرآن الكريم، وعلوم اللّغة العربية، وقراءة آلياتها في هندسة تخطـيط لغـوي

بشموليته وآفاقه، والوقوف على جدوى تركيزها على الأبعاد التَّشريعية والتَّعليميَّة والإعلاميَّة، وإدراج ذلك كلّه ضمن المنظومة المتكاملة لعناصر الهويَّة الوطنيّة الأخرى، وهو سؤال نعتقد أنّ ملتقىً واحداً لا يمكنه أنْ يفي بجميع مُتعلَّقاته، ولكنَّه يفتح باباً لبحوث ودراسات أخرى، ونأمل أن تُسهم مختلف المحاضرات في تقديم بعض الحلول التي تعيشها اللّغة العربية في أيامنا هذه، وبخاصة أمام المضايقات التقنية وإكراهات العولمة، وما هي السُّبل الكفيلة لجعل اللّغة العربية تقف نداً للندّ أمام اللغات العلمية، وهل من سبيل يمكن أن نُفيد من تلك النَّجاحات التي حققتها الجمعيةُ في الحفاظ على العربية وكيف يمكن تحيين ذلك الفعل القديم لراهن جديد مختلف.

ـ **الإشكاليّة**: بالنَّظر إلى نتائج جهود حركة إصلاحيّة في ذلك التَّوجه، وفي ظروف ومضايقات لا تزال بعض ملامحها قائمة، **ألا يمكن تفعيل مشروع جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين ومنهجها في البُعد اللّغوي؟ وما مدى الفعاليَّة التي يمكن أن يضمّها هذا المشروع في ظلّ معطيات جديدة ومتغيّرات أخرى؟ وما الآليات التي يمكن أن تحتضن هذا المشروع؟**

ـ أهداف الملتقى الدّولي:

يأمل الملتقى الدولي تحقيق الأهداف الآتية:

-بيان أهمية الحضور الفعلي للّغة العربيَّة في المجتمع الجزائري، وتعزيز مكانتها كمقوم للهويَّة الوطنيَّة؛

-تفعيل المشروع الإصلاحي للجمعيّة، وتمثل أسلوبها في الحفاظ على اللغة العربيّة؛

- إبراز دور علماء الجمعيةّ في التّعامل مع المسألة اللّغوية تأصيلا وتطبيقاً؛

-دراسة إمكانيَّة تحيين تجربة الجمعيّة في خدمة اللّغة العربيَّة على صعيد القطاعات المجتمعيّة الحيويّة؛

-تأسيس مشروع بيبليوكَرافيا أكاديمية بالأعمال اللّغويّة والأدبيَّة لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين.

ـ محاور الملتقى:

1- واقع اللّغة العربية في الجزائر قبل نشأة الجمعية.

2- مقام اللّغة العربية في التراتب العلمي لأبعاد الهوية عند جمعية العلماء.

3- خلفيات البُعد اللّغوي وآفاقه عند الجمعيَّة باستحضار رؤية أكثر عمقا لعناصر السيّاق التاريخي.

4- دراسة نقدية تقييميّة لجهود الجمعية في التّعامل مع مقوّم اللّغة كرافد للمواطنة اللّغوية.

5- موقع الأعمال اللّغوية لرجال الجمعية وأتباعها في الدِّراسات الأكاديمية والمنظومة التّربويَّة.

6 – فلسفة الجمعية إزاء البُعد اللّغوي، ومدى صلاحية آلياتها للتَّحيين.

ـ المُستفيدون من الملتقى:

ـ الطلبة والباحثون؛

ـ الأئمة ورجال الزّوايا والرِّباطات العلمية؛

ـ أعضاء المخابر في العلوم اللّغوية والإنسانيةوالاجتماعيّة؛

ـ الشّخصيات الفكرية؛

ـ رجال الإعلام؛

ـ تحريك الفعل الثقافي.

ـ تواريخ هامّة:

ـ تاريخ الملتقى: أيام 24 و25 و26 نوفمبر 2015.

ـ المكان: مدينة قسنطينة.

ـ آخر أجل لاستقبال المُلخصات: 30 جوان 2015.

ـ آخر أجل لاستقبال المُداخلات كاملة: 30 سبتمبر 2015.

ـ اللّجنة العلمية:

– جيلالي علي طالب الأمين العام للمجلس الأعلى للغة العربية

عبد العزيز فيلالي رئيس جمعية عبد الحميد بن باديس.

أ. د. صالح بلعيد مُنسقا؛

أ. عبدالرزاق بلغيث مُقرّرا؛

أ. خير الدين شريف عُضوا.

ـ لجنة التنظيم: اللّجنة الوطنية لـ (قسنطينة عاصمة الثّقافة العربية).

ـ روابط الاتصال:

ـ الهاتف المحمول:

ـ **الهاتف الثّابت:** 000021321230724/ 0021321230725

ـ النّاسوخ: 0021321230715

ـ البريدالإلكتروني:com.hcla@gmail.sg

:facebook

ملاحظة:

1ـ يتحمّل المنظّمون نفقات الإيواء والتنقّل في داخل الوطن، ومن الخارج.

2ـ تُستقبل المراسلات على روابط الاتّصال المذكورة، أو على البريد التالي:

المجلس الأعلى للغة العربيـة شـارع فـرانكلين روزفلـت. ص.ب: 575 ديدوش مراد، الجزائر.

كلمة السيد جيلالي علي طالب

الأمين العام للمجلس الأعلى للغة العربية في افتتاح فعاليات الندوة الدولية:

دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على اللغة العربية وأثره في الهوية اللغوية

السيد رئيس مؤسسة الإمام عبد الحميد بن باديس

السيدات الفضليات السادة الأفاضل من الأساتذة الباحثين،

وممثلي وسائل الإعلام

السيدات والسادة الحضور

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد

يطيب لي في مستهل هذا المحفل العلمي المتميز أن أتناول الكلمة لأرحب بكم أجمل ترحيب في هذا الفضاء العلمي - الثقافي من فضاءات المجلس الأعلى للغة العربية التي ما فتئ يخصصها للنقاش حول موضوعات تسعى إلى ترقية استعمال اللغة العربية وتحديث مضامينها، حتى يتسنى لها مواكبة التطور الذي تعرفه البشرية، خاصة وأن العالم أصبح عبارة عن قرية صغيرة يمكن الوصول فيها إلى أي بقعة وفي ظرف زمني قصير، في ظل عولمة جارفة لا ترحم أحدا؛ فلا هي تحترم النطاقات السياسية ولا الحدود الجغرافية، ولا هي تأبه بالخصوصيات الثقافية للأمم والشعوب التي لا تنخرط ضمن استراتيجياتها، والغريب في الأمر أن ذلك يسوق تحت مظلة المباديء

الإنسانية: كالحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحرية التعبير وغيرها، التي قد تداس عندما لا تتوافق واهتماماتها، ومن هنا فالهدف واضح كل الوضوح؛ ألا وهو خلخلة تلك المجتمعات الرافضة والصامدة، وتشتيت جهودها لتبقى متخلفة تابعة ومنقادة، مما يسهّل على الدول العظمى استغلال ثرواتها بما يخدم مصالح الدول المهيمنة سياسيا واقتصاديا، وتعزيز أوضاعها في المنطقة على حساب الشعوب والأمم التي ما تزال تؤمن بأن الخير يأتي من دول الغرب الكبرى، والواقع أن الحل الصحيح يكمن في أوطان تلك المجتمعات من حيث إعادة تنظيم أحوالها، واستثمار مواردها بنفسها وتوجيهها إلى ما يعود بالنفع على الساكنة من تلك المجتمعات، ولن يتم لها ذلك إلا بتضافر جهود أبنائها، وتسيير مواردها، باعتماد سياسة الترشيد والحكامة والتنمية المستدامة، وإعطاء أهمية للعمل بوصفه قيمة أخلاقية قبل أن يكون قيمة اجتماعية، وتثمين الجهد العضلي والفكري على السواء.

السيدات الفضليات السادة الأفاضل

تندرج هذه الندوة في إطار فعاليات تظاهرة قسنطينة عاصمة للثقافة العربية وضمن منبر حوار الأفكار الذي أنشأه المجلس خصيصا لتشجيع النقاش الهادف والحر بين النخب حول المواضيع الهادفة إلى ترقية استعمال اللغة العربية، خاصة وأن الندوة تنظم بمدينة قسنطينة مدينة العلم والعلماء؛ المدينة المضيافة، التي أنجبت أفذاذا صنعوا أمجاد الوطن وعبدوا بمساهماتهم وتضحياتهم الكثير من طرق النصر قديما وحديثا، من صاحب إفريقيا للأفارقة، إلى مقاومة أحمد باي إلى رائد النهضة الجزائرية الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس وصاحب رائعة: شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب، إلى الأديب الألمعي صاحب المقولة الشهيرة: الفرنسية منفاي، هذه الأفعال والمقولات التي تتكامل فيما بينها لتؤسس لدستور أمة، كما يصادف انعقادها الاحتفال بذكرى ثورة أول نوفمبر المجيدة والمضفرة باسترجاع سيادتنا التي

اغتصبت لمدة قرن ونيف من الزمن، حاولت فيها الكولونيالية الفرنسية طمس معالم المجتمع الجزائري من دين ولغة، بل حاولت وبكل الوسائل وبمباركة الحلف الأطلسي ومساعدته تشتيت الأمة الجزائرية ليسهل عليها إبادة الشعب الجزائري واندثاره، ولكن هذا الشعب الأبي لم يكن كما ظلت تروج له الكولونيالية ومن يدور في فلكها، إذ انتفض في هبّة واحدة وواعدة إلى أن حالفه النصر واسترجع سيادته، هذه السيادة التي ينبغي الحفاظ عليها باستماتة وبكل الطرق والوسائل، حتى لا تتعرض للمساومة أو التهديد، على غرار ما يحدث في بعض من المجتمعات.

السيدات الفضليات السادة الأفاضل

مما لا شك فيه ونحن نخصص موضوع ندوتنا للحديث عن دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في نشر اللغة العربية وترقية استعمالها، بوصفها مقوما أساسيا بعد الدين الإسلامي للحفاظ على الوطنية الجزائرية، يجدر بنا أن نعرج على هذه الجمعية التي نشأت في ظروف صعبة وحرجة وُولدت ولادة قيصرية نتيجة التضييق الذي كان يفرضه المستدمر على الجزائريين، وقد كانت ردا على تلك الاستفزازات التي صاحبت احتفال فرنسا بالذكرى المائة لضم الجزائر إليها، والتي تخللتها مهرجانات احتفالية صاخبة ظنا منها أن الجزائر أصبحت فرنسية وإلى الأبد، مما حفز الخيرين من أبناء الجزائر من سياسيين في الحركة الوطنية ورجال الدين الذين اقتنعوا بضرورة إنشاء تنظيم يجمع شملهم، فكانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ماي 1931، وأصبحت الفضاء المناسب للرد على أحلام الكولونيالية الفرنسية ومزاعمها، خاصة بعدما ركزت الجمعية نشاطها على نشر الدين الإسلامي الصحيح وتعليم اللغة العربية الفصحى، ومن ثمة نشر الوعي بالوطنية الجزائرية، متصدية للخطط الفرنسية التي كانت ترمي إلى الفرنسة والتمسيح.

السيدات الفضليات السادة الأفاضل

لقد اتخذت الجمعية اللغة العربية الوسيلة الأساس للتعليم والتعلم، وإلقاء الدروس والخطابة والتراسل، والنشر في الصحف، والتعامل بها في النوادي العلمية والثقافية مما جعل الفصحى تكتسح الوطن عبر تلك المؤسسات التي أنشأتها الجمعية، مما أكسبها ثقة الشعب الجزائري.

واعتبارا لما أنجزته هذه الجمعية لصالح اللغة العربية، فقد أرتأى المجلس تنظيم هذه الندوة عرفانا لجهود مؤسسيها المخلصين لثوابت الأمة والوطن؛ لأن اللغة العربية تظل الخيط الرفيع الذي يوحد بين الجزائريين تواصلا واتصالا، وإذا كانت العربية هي أساس الفهم الصحيح للإسلام، وتأدية شعائرنا بها، فإننا نطمح لأن تكون لغة نقل العلوم والمعارف والتكنولوجيات المتطورة وتوطينها ببلادنا، بهدف التنمية الشاملة للحاق بالمجتمعات المتقدمة، إذ تثبت تجارب الأمم – قديما وحديثا – أنه لم يتم أي تطور أو تقدم لأي أمة خارج لغتها الجامعة، وعلى هذا الأساس فإن العربية في الجزائر تظل صمام أمان لتجانس المجتمع وانسجامه، بل وتعتبر أهم صمام استراتيجي للأمن القومي، على غرار باقي المجتمعات التي أصبحت تعطي أهمية قصوى للأمن اللغوي ببلادها حتى لاتموت لغاتها ولا تندثر حضاراتها، ومن هذا الواقع فإن اللغة العربية بالجزائر لم تكن في صراع مع أية لغة، فقد تعايشت مع اللغة المازيغية ولهجاتها في وئام فدونت تراثها بالحرف العربي لمدة 14 قرنا من الزمن، وليست لها عداوة مع اللغات الأجنبية العالمية المنتجة للعلوم والمعارف التي نسعى لامتطاء موجاتها للاطلاع على ما ينتجه الآخر، والاستفادة منه في تحيين مضامين اللغة العربية، وترقية استعمالها لأن العربية راقية أصلا بفضل القرآن الكريم ونحن نعمل على ترقية الاستعمال، الذي ينبغي أن تتكاتف حوله الجهود بالاستعمال الصحيح لعربية فصيحة ووسطى، ومحاربة التهجين والتلوث اللغويين اللذين استشريا بين ظهرانينا

بعدما تساهل الجميع في التعبير عـن حاجياتـه بمختلـف الأسـاليب، وبكلمـة مختصرة إننا نريدها رائدة الدالات الثلاثة: لغة: الدنيا والدين ولغة الدولة.

السيدات الفضليات السادة الأفاضل

ستركز ندوتنا هذه على الدور الكـبير الـذي قامـت بـه الجمعيـة في نشـر العربية والحفاظ عليها بوصفها ركيزة أساسـية مـن ركـائز الهويـة والوطنيـة، ووسيلة للتعبئة وللتوعية بأهمية الوطن والوطنية، في مسعى تفعيـل مشـروع الجمعية وتطوير أساليبه لترقية استعمال اللغة العربية في جميع مناحي الحياة.

أرحّب بكم مرة أخرى وأشكركم على تلبية دعوة المجلـس للمسـاهمة في هذه الندوة التي نأمل أن تضيف لبنة لتعزيز مكانة اللغة العربية، إذ سـيتداول على المنصة نخبة من الأساتذة والباحثين لتوصيف حال العربية قبل الاحتلال وأثناءه وبعد الاستقلال، وكيـف اسـتطاعت الجمعيـة أن تؤصـل للمجتمـع الجزائري دينا ولغة وتاريخا، وإبراز مكانة روادها في المجتمـع الجزائـر ومـدى صلاحية منهجهم وأفكارهم في وقتنا الحالي.

أشكركم على كرم الإصغاء والسلام عليكم ورحمة الله

كلمة رئيس مؤسسة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس

د.عبد العزيز فيلالي

بسم الله الرحمان الرحيم

في البداية أتوجه بالشكر الجزيل للمجلس الأعلى للغة العربية على هذا التعاون العلمي الثقافي، والتواصل مع مؤسسة الإمام عبد الحميد بن باديس في هذا المجال، والشكر موصول أيضا لوزارة الثقافة وأخص بالذكر السيد الوزير عز الدين ميهوبي على الدعم المادي والأدبي لهذا الملتقى الدولي الذي يحمل عنوان "دور جمعية العلماء المسلمين في الحفاظ على اللغة العربية وأثره في الهوية الوطنية"، وهو موضوع مهم يحتاج فعلا للدراسة والبحث والتنقيب عما بذلته هذه الجمعية في إحياء دين الأمة ولغتها، في إطار قسنطينة عاصمة الثقافة العربية سنة 2015.

وبهذه المناسبة وفي هذا الإطار فإني أقول :

لقد استعمل الجيش الفرنسي كل أنواع القمع والإبادة للشعب الجزائري لاحتلال الجزائر والاستيلاء على أرضها، فقد سجل الضابط لامورسيير في تقريره عن الوحشية التي ارتكبها الجيش الفرنسي :"يبدو أن التاريخ لم يسجل أبدا حملة احتلال جرت وقائعها مثل هذه الفوضى حتى في العصور الأكثر وحشية" وقال العقيد بيليسيي: " أن كل شيء حي كان مآله الموت"، ويعني به الإبادة الجماعية ضاربين المثل بما صنعه الغرب المسيحي بهنود أمريكا وشعب الأبوريجين في أستراليا، وقبائل البوشيمان.

ورفع وزير الحربية "الدوق دي كليمون" الى الملك شارل العاشر الفرنسي تقريرا يقول فيه :" لسنا في حاجة الى اقتناع جديد، بأنه لا سبيل الى استقرار الأمن في الجزائر، إلا بإبادة أهلها عن بكرة أبيهم".

إذن فقد اتبع الجيش الفرنسي سياسة تدميرية وعدائية، وإجراءات قمعية عنصرية شديدة في الجزائر، تقوم على التقتيل والتجهيل والتفقير والتنصير والتجنيس، الذي يشترط فيه التخلي عن الأحوال الشخصية والهوية الإسلامية واللغة العربية ودفنها، وإحلال اللغة الفرنسية وتزوير التاريخ وتفسيره بما يخدم الاستعمار، وهدم المساجد وتحويلها الى كنائس أو ثكنات أو مستوصفات أو متاجر أو ملاه.

وقد كان في مدينة قسنطينة على سبيل المثال قبل الاحتلال، ما يزيد عن 80 مسجدا و90 مدرسة و7 معاهد عليا وأكثر من 16 زاوية كلها مؤسسات تربوية ودينية لأطفال قسنطينة، ويعني هذا أن الأمية في هذه المدينة كانت منعدمة حسب الكتاب الفرنسيين.

كما شجع الإرساليات التنصيرية والتبشيرية، وأحرق المكتبات وأتلف المخطوطات والكنوز العلمية والمعرفية، قصد القضاء على الذاكرة الجزائرية.

كما قام بطمس المعالم والأسماء العربية الإسلامية، وأحل بدلها معالم وأسماء غريبة، لا تمت بصلة للمجتمع الجزائري الإسلامي العربي .

وأغلق المدارس والمعاهد التي كانت تضم أزيد من 150 ألف طالب في الجزائر، وقتل العلماء والمدرسين وهجر العديد منهم قسرا، فحصل بسبب هذه الإجراءات مع مرور الزمن جهل عريض وأمية شاملة.

وكانت الجزائر قبل هذا التاريخ من البلدان الأولى، التي كان التعليم فيها منتشرا انتشارا واسعا، وقد جاء في الشرائع السماوية بأن موت الأمة بانتزاع

العلم منها، وحياتها بانتشار العلم فيها، وهو الشعار الذي أتخذه الإمام عبد الحميد بن باديس: "بأن الإنسان خاصية التفكير في أفق العلم، فمن حرم إنسانا فردا أو جماعة من العلم حرمه من خصوصية الإنسانية"، فبمنع التعليم عن الإنسان حرمانه من حقوقه الإنسانية.

لم يقتنع الاستعمار بهذه الإجراءات التي تعد جريمة ضد الإنسانية، بل ذهب الى إدماج الجزائر في فرنسا منذ السنوات الأولى للاحتلال، وأعلن أنها قطعة من فرنسا، وبالتالي العمل على تغيير لغتها العربية وحل محلها اللغة الفرنسية، فصارت هذه الأخيرة هي اللغة الرسمية في الجزائر، وأصبحت اللغة العربية لغة أجنبية في عقر دارها وبين أهلها، ولا يسمح بتعليمها إلا بترخيص من الحاكم، وحاولت أن تقنع الشعب الجزائري بأن هذا الوطن مرتبط ارتباطا عضويا وتاريخيا ومصيريا بفرنسا، منذ العهد اللاتيني أي الروماني، وكاد أن يتحقق لها ذلك...

وكان الإمام عبد الحميد بن باديس يعي كل الوعي بما يخبئه الاستعمار وما يخطط له، من إلغاء الشخصية الوطنية الجزائرية وهويتها العربية الإسلامية، واستبدالها بهوية فرنسية وبما ينهبه من ثروات واقتصاد البلاد، وقال في هذا الشأن: "اجتمعت في الجزائر كل أنواع الاستعمار من استعمار اقتصادي وثقافي وسياسي، فقد وضعت يدها على اقتصاديات البلاد كلها وحاصلاتها، وسنت لحمايتها القوانين السياسية الجائرة استثنائيا، وطبقتها كلما دعت مصلحتها الى تطبيقها، وزادت فمكنت للغتها في البلاد فلا لغة إلا لغتها، ولا ثقافة الى ثقافتها، حتى الدين إمتدت إليه يدها، فبسطت نفوذها عليه لتستغله عند الحاجة"، ثم يتساءل الإمام" فأي احتلال واستعمار أبشع من هذا الذي نعيشه في الجزائر".

وقد كرست الجمعية جهودها للإسلام وللغة العربية، بعد ان فصلوا في إشكالية اللغة الأمازيغية، عندما اعتبروها بعدًا وطنيًا يشترك فيه كل الجزائريين، بعد أن امتزجوا بالإسلام والعروبة لأن الفاتحين جاءوا لنشر الهداية لا لبسط السيادة وإقامة العدل كما ذهب الإمام عبد الحميد بن باديس الى ذلك.

فدخل ابناء الجزائر في الإسلام وتعلموا اللغة العربية عن طواعية، وأنتج الجميع صرح الحضارة العربية الإسلامية بلغة واحدة هي اللغة العربية، وأوضح الإمام بأن الإسلام هو الذي تبنى عليه عروبة الجزائر، لأنه يمثل مانعا لشخصية الأمة الجزائرية، ضد أي تهديد خارجي أو داخلي، فهو الحصن الحصين للأمة.

فعن الأمازيغية يرى بأنه لا من نكير ينكر بأن الأمة الجزائرية أمازيغية منذ قديم عهدها، وما من أمة من الأمم غزت الجزائر وحاولت أن تقلبها عن كيانها أو تدمجها في عنصرها إلا وفشلت ويقصد بذلك الرومان والوندال والبيزنطيين والفرنسيين.

وعلى هذا الأساس تعربت الأمة الجزائرية تعريبا طبيعيا اختياريا، فوقع اتحاد قلوب عناصرها وأرواحها وعقولها مع إخوانهم الفاتحين في الدين، ويظهر ذلك في وحدة اللسان وآدابه والاشتراك في الآلام والآمال، فصاروا عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر وأبوه الإسلام، حسب تعبير الإمام عبد الحميد بن باديس.

فقد آمن الإمام بعروبة الجزائر على أساس أنها عروبة تاريخ وحضارة، ويؤكد بأن الجزائر ليست فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا، في لغتها وأخلاقها وفي عنصرها ودينها، وقد رفض الرابط العرقي والطائفي للعروبة، مستندا الى

حديث الرسولﷺ "ليس العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي".

ولما قررت فرنسا منع التعليم العربي إلا برخصة وقررت عقوبة من يعلمها بدونها، كتب الشيخ مبينا أن هذا القرار لا يراد به إلا من يعلم اللغة العربية والدين الإسلامي.

وخطب في مدينة بجاية منددا بقرار الإدارة الاستعمارية القاضي باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية وما قاله :"إن هذا القرار قتلا لنا لأنه يطمس ديننا ولغتنا، فعلى كل الجزائريين أن يحتجوا ضده ومن لم يفعل ذلك فهو خائن لدينه ولغته ووطنه، سواء أكان عالما أم متعلما أم إماما أم مفتيا ويقول أيضا:

" هذه الأمة التي عملت يوما لإرضائها لذاتها، فإنما عملت وما أزال اعمل لإرضاء الله بخدمة دينها ولغتها.

كرس حياته للتربية والتعليم في المدارس والمساجد والنوادي، طوال النهار وشطرا من الليل، وكأنه يجري مع الزمن، فقد وقع بصره على طالب نام أمامه، فسقط الكتاب من يده فقال له :"كلنا في حاجة الى النوم، ولكن كيف ينام من أمته في مثل هذا الذل والهوان".

وقد رفض الإمام عبد الحميد بن باديس كل التهديدات والمغريات التي قدمتها له فرنسا، بحمله على تأييدها أو التخلي عن جمعية العلماء وعلى رئاستها، وقدمت له عروض مغرية أمام والده منها تعيينه في أعلى منصب ديني، كالإفتاء والقضاء، لكنه رفض وكان الإمام يذكر دائما إخوانه العلماء الذين آزروه وأعانوه ووقفوا الى جانبه، ويعتز بهم ويبين قيمتهم بقوله: " من حظ الجزائر السعيد ومن مفاخرها التي تتباهى بها على الأقطار، أنه لم يجمع في بلد من بلدان الإسلام، فيما رأينا وسمعنا وقرأنا مجموعة من العلماء

وافرة الحظ من العلم ...مخلصة النية والعزم متحابة في الحق، مجتمعة القلوب على الإسلام والعربية...مثل ما اجتمع للجزائر في علمائها الأبرار".

وعلى الرغم من الرقابة المشددة على مؤسسات جمعية العلماء ولإطاراتها والمضايقات القانونية، فقد كانت تحارب التعليم العربي الذي تديره الجمعية بدون هوادة. وتغض الطرف عمن يدور في فلكها، فقد كانت تحاصر نشاطها ومعلميها، وحاولت جعل وصاية الوزارة عليها لكن الجمعية رفضت بحجة أنها تعلم الدين واللغة العربية فقط، فاصطدمت جهودها بمعارضة شديدة من قبل الإدارة والمعمرين، بينما كانت محل إعجاب من بعض الموضوعيين من الفرنسيين فهذا الأستاذ "جاك مادول" يقول :" إن أغرب شيء رأيته وجذب انتباهي ودهشتي الشديدة، هو أن اللغة العربية التي هي لغة الأغلبية العظمى من سكان الجزائر، تعتبر لغة أجنبية، وهذا الأمر الذي جعل المسلمين من رجال جمعية العلماء وغيرها، ينظمون بجهودهم وإمكانياهم الخاصة وعلى حسابهم تعليم الأمة لغتها".

ثم يضيف :" لقد كنا ننتظر من الإدارة، أن تعترف على الأقل بفائدة هذا العمل، وحسن جدواه، وأن تظهر نحوه شيئا من العطف والمجاملة، ولكن تأكد لدينا أن العمل كان على عكس ذلك، وأن المدارس الحرة هي موضع مراقبة صارمة ومعاملة شعارها سوء النية".

وفي نفس الوقت أعلن رئيس الوفد الفرنسي الذي زار الجزائر سنة 1954، السيد ميتران عن تقديره لجهوده ولجهود جمعية العلماء المسلمين، في نشر التعليم واللغة العربية والدين الإسلامي والتكوين وإنشاء المدارس، حيث قال: "رأينا التعليم الحر الذي تقوم بنشره الجمعية وعلمنا، أن هذه الجمعية تشرف على أكثر من 150 مدرسة، (نصفها أسس سنة 1944) وأنها تعلم ما يزيد عن 45 ألف طالب من البنين والبنات، انتشلتهم من بين أيدي الجهل

والأمية والإهمال، ونحن لا يسعنا إلا أن نثني الثناء الحار، على هـذا المجهـود الصالح الذي تقوم به هذه الجمعية".

ثم قال :" لقد خرجنا بحقيقة لا غبار عليها، ألا وهي أن الدولة تعمل على قتل اللغـة العربيـة، وعلـى تحطـيم الـدين الإسـلامي، وعلـى تجهيـل الأمـة الجزائرية، والعلماء في جمعية العلماء المسلمين يعملون في خط مناقض لخـط الحكومة، فهـم يقومـون بـالجهود المحمـودة لإحيـاء الإسـلام، وتطهـيره مـن الخرافات ونشر اللغـة العربيـة، ورفـع الأميـة عـن الجزائـريين، غـير مبـالين بالعقوبات ووسائل الزجر والتنكيل.

وكذلك وصف مفتش أكاديمية محافظة قسـنطينة التعلـيم القرآنـي، الـذي يديره الإمام عبد الحميد بن باديس، ونشاط الشيخ فيه بالإيجابي وأثنى علـى جهوده في ميدان التربية والتعليم، فقد انتشل من الضياع مـا يزيـد عـن 900 تلميذ و150 تلميذة، إلا أن الإدارة الفرنسية جعلت من هذا التقريـر، الـذي نشره مفتش الأكاديمية في جريدة لاديبيش، محـل نقـد وتهجـم علـى المفـتش وعلى الإمام عبد الحميد بن باديس، كما هو مبين في التقرير الاستخباري.

فضل جمعيّة العلماء المسلمين في الحفاظ على الهُويّة اللّغويّة العربيّة

الأستاذ الدكتور: ناصر لوحيشي

لا شك في أن اللُّغَات أو الأَلْسِنَة هِيَ الأَوْعِيَةُ أو الأَوَاعِي الَّتِي تَحْفَظُ الحَضَارَاتِ، وَتُكَرِّسُ الأَمْجَادَ، فَتَبْنِيهَا وَتُطِيلُ أَعْمَارَهَا.

فاللسان العربي هو التُّرْجُمَانُ الَّذِي نَقَلَ الحَضَارَةَ العَرَبِيَّةَ الإسلاميَّةَ، وَفَسَّرَ أَسْرَارَهَا وَخَبَايَاهَا فَهُوَ أَدَاةُ التبليغ والبَيَانِ وَالإِفْصَاحِ، لِذَلِكَ فَإِنَّ الغَزْوَ، الاحتلال، الاِسْتِدْمَارَ -بِتَعْبِيرِ العَلاَّمَةِ مولود قاسم نايت بلقاسم -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى- يَسْعَى دَوْمًا إِلَى أَنْ يُدَمِّرَ كُلَّ شَيْءٍ ويفسده.لَكِنَّ اللُّغَةَ (اللِّسَانَ) هِيَ أَوَّلُ مَا يُبَادُ وَيُدَمَّرُ.وَكَانَ هَذَا شَأْن الاِسْتِدْمَارِ الفَرَنْسِيِّ فِي الجَزَائِرِ.

لَقَدْ وَاظَبَتْ فَرَنْسَا عَلَى تَشْوِيهِ مُقَوِّمَاتِ الشَّخْصِيَّةِ الوَطَنِيَّةِ الجَزَائِرِيَّةِ، فَاجْتَهَدَتْ فِي القَضَاءِ عَلَى: المَدَارِسِ، وَالكَتَاتِيبِ، وَالزَّوَايَا، وَالنَّوَادِي...

بينما كَانَ صَوْتُ النُّخَبَاتِ المُتَعَلِّمَةِ المُثَقَّفَةِ موَحدًا.. وهذا ما يُلَخِّصُهُ «مُحَمّد العَابد الجلّالِي» فِي قَوْلِهِ:

«عَلَى العُلَمَاءِ أَنْ يَسْتَحِثُّوا هِمَمَ الأُمَّةِ عَلَى تَأْسِيسِ الجَمْعِيَّاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ وَأَنْ يُمِدُّوهَا بِإِرْشَادَاتِهِمْ.».

هَذَا وَ«لَمْ يَكُنْ نِدَاءُ الإصلاح وَلِيدَ الْمُصَادَفَةِ، وَإِنَّمَا كَانَ اِمْتِدَادًا لِلْحَرَكَاتِ الإصلاحيَّةِ فِي البُلْدَانِ العَرَبِيَّةِ وَالإسلاميَّةِ الأُخْرَى»: كَإِصْلاَحَاتِ جَمَال الدِّين الأَفْغَانيِّ وَمُحَمَّد عَبْده.

فلقد عَرَفَ عَقْدُ العِشْرِينِيَّاتِ نَهْضَةً:

- ❖ أَدَبِيَّةً.
- ❖ وَعِلْمِيَّةً.
- ❖ وَدِينِيَّةً.
- ❖ وَاقتصاديةً.

بَشَّرَتْ كلها بِتَأْسِيسِ الجَمْعِيّةِ، فَفِي سَنَة 1924م زَارَ العلامة «ابْنُ بَادِيسَ» الشَّيْخَ « البَشِير الإِبْرَاهِيمِيّ» بِـ:سطيف، وَأَوْحَى إِلَيْهِ بِفِكْرَةِ إِنْشَاءِ جَمْعِيَّةٍ لِلْعُلَمَاءِ تَحْتَ اِسْم:« الإِخَاءِ العِلْمِيّ » يَكُونُ مَرْكَزُهَا العَامُّ بِمَدِينَةِ قُسَنْطِينَةَ – العَاصِمَةِ العِلْمِيَّةِ –التي جْمَعت شَمْلَ العُلَمَاءِ، وَالطَّلَبَةِ، وَوَحّدت جُهُودَهُمْ.

كَانَتِ الأُمَّةُ مُسْتَعِدَّةً لِهَذَا المَشْرُوعِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ «ابْنُ بَادِيسَ» فَانْقَادَتْ إِلَيْهِ بِشَعْرَةٍ، وَانْجَرَّتْ إِلَى بِنَاءِ صَرْحِهِ بِنَمْلَةٍ، كما جاء في سجلاّت مؤتمرات الجمعيّة.

«وَلَعَلَّ الانْحِطَاطَ الَّذِي أَصَابَ العَرَبَ الْمُسْلِمِينَ أَيَّامَ الحَرْبِ العَالَمِيّةِ الأُولَى هُوَ الَّذِي دَعَا إِلَى التَّفْكِيرِ فِي تَأْسِيسِ مُنَظَّمَةٍ إِسْلاَمِيَّةٍ تُحَافِظُ عَلَى الدِّينِ وَالإسلام مَعًا «، كما يرى الباحث عبد الكريم بوصفصاف.

ولقد تَحَقَّقَتِ الفِكْرَة، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْم: 17من ذي الحجّة 1350هـ/ 5 ماي 1931م

أماالمَبَادِئُ التي انبنت عليها الجَمْعِيَّةِ وتأسست فكَثِيرَةٌ، وجميعها لاَ تَخْرُجُ عَنْ دَائِرَةِ: الدين والعلم.فَلِلدِّينِ وَالعِلْمِ نَوَاحٍ كَثِيرَةٌ وَآفَاقٌ وَاسِعَةٌ كَمَا قَالَ «محمّد خير الدّين».

وَحِينَ تَأَسَّسَتِ الجَمْعِيَّةُ وَذَاعَ الخَبَرُ بَيْنَ النَّاسِ أَنْشَدَ الشَّاعِرُ «محمّـد العيـد آل خليفة:

طَلَعْتُمْ عَلَيْنَا كَالكَوَاكِبِ فِي الدُّجَى وَسِرْتُمْ إِلَيْنَا كَالسَّحَائِبِ فِي الحَرْبِ
شَكَرْتُ لَكُمْ يَا رِفْقَةَ العِـلْمِ وَصْـلَةً أَعَدْتُمْ بِهَـا مَعْنَى السُّرُورِ إِلَـى قَلْـبِي

التَّعْرِيفُ بِالْجَمْعِيَّةِ:

يُعَرِّفُهَا « البَشِيرُ الإِبْرَاهِيمِيُّ « بِأَنَّهَا: جَمْعِيَّةٌ عِلْمِيّـةٌ، وَدِينِيّـةٌ، وَتَهْذِيبِيَّـةٌ... تَدْعُو إِلَـى:

- العِلْمِ وَتُرَغِّبُ فِيهِ.
- تَنْشِيطِ الفِكْرِ وَبَثِّ الوَعْيِ .
- مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ .
- تَعَلُّمِ الدِّينِ وَالعَرَبِيَّةِ .

أهداف الجمعية وغاياتها:

أما أهداف الجمعية وغاياتها، فيمكن إجمالها في:

- إحياء الإسلام بإحياء الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.
- إحياء اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَآدَابِهَا.
- إِصْلاَح أَسَالِيبِ التَّعْلِيمِ، وَتَوْسِيع دَائِرَتِهِ.
- مُحَارَبَة البِدَعِ وَالْمُنْكَرَاتِ العَامَّةِ كـَ:الطُّرُقِيَّة...
- مُقَاوَمَة التَّبْشِيرِ قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ.
- إحياء التَّارِيخِ الإِسلامِيِّ، وَآثَارِ رِجَالِهِ الْمُخْلِصِينَ.

وَقَدْ أَجْمَلَهَا « ابْنُ بَادِيسَ « عليه رحمة الله فِي قَوْلِهِ:

«نُجَدِّدُ لَكُمْ عَهْدَ اللهِ عَلَى السَّيْرِ بِالجَمْعِيَّةِ، أَوْ مَعَ الجَمْعِيَّةِ، عَلَى خِطَّتِهَا الدِّينِيَّةِ العِلْمِيَّةِ لِنَشْرِ العِلْمِ وَالفَضِيلَةِ، وَمُحَارَبَةِ الجَهْلِ وَالرَّذِيلَةِ... القُرْآنُ إِمَامُنَا، وَالسُّنَّةُ سَبِيلُنَا، وَالسَّلَفُ الصَّالِحُ قُدْوَتُنَا، وَخِدْمَةُ الإِسلام وَالمُسْلِمِينَ، وَإِيصَالُ الخَيْرِ لِجَمِيعِ سُكَّانِ الجَزَائِرِ غَايَتُنَا.«.(من سجلّ مؤتمرات الجمعيّة، ص:76)

تَنْظِيمَاتُ الجَمْعِيّةِ وَنشَاطَاتُهَا:

لقد أدرك العلامة الشيخ «عبد الحميد ابْنُ بَادِيسَ» حقيقة الدعوة إلى الله وجوهرها وخباياها حيث يقول:

«إِنَّمَا يَنْهَضُ المُسْلِمُونَ بِمُقْتَضَيَاتِ إِيمَانِهِمْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ إِذَا كَانَتْ لَهُمْ قُوَّةٌ، وَإِذَا كَانَتْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ مُنَظَّمَةٌ تُفَكِّرُ، وَتُدَبِّرُ، وَتَتَشَاوَرُ، وَتَتَآزَرُ، وَتَنْهَضُ لِجَلْبِ المَصْلَحَةِ، وَلِدَفْعِ المَضَرَّةِ، مُتَسَانِدَةً فِي العَمَلِ عَنْ فِكْرٍ وَعَزِيمَةٍ ».

وَتَتَمَثَّل تَنْظِيمَاتُ الجَمْعِيَّةِ وَنَشَاطَاتُهَا فِيمَا يَأْتِي:

التَّعْلِيم، الصِّحَافَة، النَّوَادِي وَالجَمْعِيّات.

- أما التَّعْلِيم فمَسْجِدِيّ، ومَدْرَسِيّ

وأما المدرسي فكان من خلال المَدَارِس الحُرَّة ومَدَارِس التَّرْبِيَة وَالتَّعْلِيم

- وأما الصِّحَافَة فنشطت عبر الجَرَائِد وَالصُّحُف التي كانت تصدرها الجمعية وتنشرها: كالشِّهَاب، والأُمَّة، والسُّنَّة، والبَصَائِر.

- كما كان للجمعية نشاطات أخرى خارج مدار التعليم والصحافة تمثلت في النَّوَادِي وَالجَمْعِيات التي كانت تشجعها وفي المُلْتَقَيَات والنَدَوَات التي كانت تعقدها وفي الفِرَق الكَشْفِيَّة التي أسستها وكانت تدعمها.

• الجَمْعِيَّةُ وَالتَّعْلِيمُ:

يعد التعليم محورا أساسيا لبلوغ أهداف الجمعية وغاياتها، حيث يَقُولُ الإِمَامُ « البَشِيرُ الإِبْرَاهِيمِيُّ»:

«التَّعْلِيمُ الَّذِي انْتَهَجَتْهُ الجَمْعِيَّةُ هُوَ ذَلِكَ التَّعْلِيمُ الَّذِي تُلتَزَمُ فِيهِ كُتُبٌ مُعَيَّنَةٌ فِي العُلُومِ الدِّينِيَّةِ مِنْ تَفْسِيرٍ، وَحَدِيثٍ، وَفِقْهٍ وَأَخْلاَقٍ، وَالعُلُومِ اللِّسَانِيّةِ مِنْ قَوَاعِدَ، وَلُغَةٍ وَأَدَبٍ، وَالعَلُومِ الخَادِمَةِ لِلدِّينِ مِنْ تَارِيخٍ، وَحِسَابٍ، وَغَيْرِهِمَا.(الآثار، ج:2، ص: 170).

وَكَانَ شعار الجَمْعِيَّةِ مَا قَالَهُ « أَحْمَدُ شَوْقِي»:

فَعَلِّمْ مَا اسْتَطَعْتَ لَعَلَّ جِيلاً سَيَأْتِي يُحْدِثُ العَجَبَ العُجَابَا

لَقَدْ بَذَلَتِ الجَمْعِيَّةُ جُهُودًا مُضْنِيَةً لِنَشْرِ دَعْوَتِهَا، وَكَانَ «التّعْلِيمُ العَرَبِيُّ» هَدَفًا مِنْ أَهْدَافِهَا الرَّئِيسَةِ، فَاتُّخذت المَدْرَسَة سِلاَحًا لِمُحَارَبَةِ الاحتلال الفَرَنْسِيِّ، وَآمن الجزائريون أَنَّ المَدْرَسَةَ هِيَ جَنَّةُ الدُّنْيَا، وَشِعَارُهُمْ فِي هَذَا كَانَ:- كُلُّ شَعْبٍ لاَ تُبْنَى لَهُ المَدَارِسُ، تُبْنَى لَهُ السُّجُونُ -.

لذا تمثّلوا جميعا هذا الشعار وضحوا بالنّفس والنّفيس من أجل تعليم الأبناء على الرغم من الظروف القاهرة التي كانت تعتورهم، فلقد كَانَتْ بَعْضُ مَدَارِسِ جَمْعِيَّةِ العُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ فِي تِلْكَ المَرْحَلَةِ تَتَكَوَّنُ مِنْ غُرْفَةٍ وَاحِدَةٍ، وَبَعْضُهَا الآخَرُ يَتَكَوَّنُ مِنْ غُرْفَتَيْنِ أَوْ أَكْثَر.وَكان يُدِيرُ هَذِهِ المَدَارِسَ مُعَلِّمٌ وَاحِدٌ، أَوْ بَعْض من المُعَلِّمِينَ.

حيث بَلَغَ عَدَدُ هَذِهِ المَدَارِسِ العَام 1935 م (70 مَدْرَسَةً)، تَضُمُّ غُرْفَةً أَوْ غُرْفَتَيْنِ، وَهُنَاكَ عَدَدٌ قَلِيلٌ مِنْهَا يَضُمُّ غُرَفًا مُتَعَدِّدَةً، مِثْلَ مَدَارِسِ الجَمْعِيَّةِ الَّتِي أُنْشِئَتْ فِي الجَزَائِرِ العَاصِمَةِ، وقُسَنْطِينَة، وَتِلِمْسَان، وَيُقَدَّرُ عَدَدُ تَلاَمِيذِ هَذِهِ المَدَارِسِ فِي ذَلِكِ العَامِ قرابة (30000 تِلْمِيذٍ) مَا بَيْنَ فَتًى وَفَتَاةٍ.

هَذَا وَكَانَتْ أُولَى المَدَارِسِ الَّتِي أَسَّسَتْهَا الجَمْعِيَّةُ مَدْرَسَةُ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ بِقُسَنْطِينَةَ، وَمَدْرَسَةُ الشَّبِيبَةِ الإِسلامِيَّةِ بِالجَزَائِرِ، وَمَدْرَسَةُ تَهْذِيبِ البَنِين بِمَدِينَةِ تبسّة.

أَثَرُ تَأْسِيسِ الجَمْعِيَّةُ

كَانَ لِتَأْسِيسِ جَمْعِيَّةِ العُلَمَاءِ أَثَرُهُ البَالِغُ فِي أَهْلِ العِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ، مُحِبِّي الإِصلاح، المُتَطَلِّعِينَ إِلَى غَدٍ مُضِيءٍ مُشْرِقٍ، فَكَتَبُوا عَنْهَا فِي الصِّحَافَةِ، وَتَحَدَّثُوا عَنْهَا فِي المَجَالِسِ المُخْتَلِفَةِ، مثلما يقول محمّد الصّالح الصّدّيق، فأَثْمَرَتْ جُهُودُ الجَمْعِيَّةِ ثِمَاراً يَانِعَةً، وَنَتَائِجَ طَيِّبَةً تَمَثَّلَتْ فِي:

- إِقَامَةِ مِئَاتٍ مِنَ المُؤَسَّسَاتِ الثَّقَافِيَّةِ المُتَنَوِّعَةِ.
- تَأْسِيسِ المَدَارِسِ، وَالمَسَاجِدِ، وَالنَّوَادِي...

فَالمَدَارِسُ:لِلنَّاشِئَةِ تَتَلَقَّى دُرُوسَ الدِّينِ، وَالأَخْلاَقِ، وَقَوَاعِدِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَالتَّارِيخِ، ...

وَالأَنْدِيَةُ:لِلشَّبَابِ تَجْمَعُ شَتَاتَهُ، وَتَقِيهِ شَرَّ الفَسَادِ وَالضَّيَاعِ، وَتُعِيدُ إِلَيْهِ ثِقَتَهُ بِنَفْسِهِ، وَدِينِهِ، وَوَطَنِهِ، وَقَوْمِهِ...

هَذَا وَلَقَدْ سَعَى المُعَلِّمُونَ وَالمُتَعَلِّمُونَ إِلَى العَمَلِ بِنَصِيحَةِ شَاعِرِ الجَمْعِيَّةِ « مُحَمَّد العِيد آل خَلِيفَة « حِينَ رَغَّبَهُمْ فِي تَعَلُّمِ الفُصْحَى قَائِلاً: [وَتَعَلَّمُوا فُصْحَى اللُّغَاتِ فَإِنَّهَا عُلْوِيَّةُ الأَسْرَارِ...]

« كَانَ الإِمَامُ « ابْنُ بَادِيسَ» – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يُحِبُّ أَنْ يَسْمَعَ طَلَبَتَهُ يَتَحَدَّثُونَ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ الفُصْحَى فِي مُنَاقَشَاتِهِمْ، وَكَانَ يَحُثُّهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِهَا فِي التَّخَاطُبِ بَيْنَهُمْ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ إحياء لَهَا وَتَطْبِيقٍ لِقَوَاعِدِهَا.»

وما يجمل ذلك كله قَولُ «ابْنُ بَادِيسَ»:

«دَخَلَ الأَمَازِيغُ مِنْ أَبْنَاءِ الوَطَنِ فِي الإسلام، وَتَعَلَّمُوا لُغَةَ الإسلام طَائِعِينَ، فَوَجَدُوا أَبْوَابَ التَّقَدُّمِ، وَاتَّحَدُوا فِي اللُّغَةِ، وَالآدَابِ، فَأَصْبَحُوا شَعْبًا وَاحِدًا، وَامْتَزَجُوا غَايَةَ الاِمْتِزَاجِ، وَأَيُّ افْتِرَاقٍ بَعْدَ أَنِ اتَّحَدَ الفُؤَادُ وَاللِّسَانُ!!.»

قصيدة تُرْبُ السُّهَا

شعر ناصر لوحيشي

يَا سَاهِرَ الغَيْمِ هَلْ تَدْرِي سَجَايَانَا
أَمْ هَلْ تَلَمَّسْتَ فِي أَمْسِي مَزَايَانَا
أَنَّى ابْتِدَائِيَ؟ وَالجُودِيُّ مُلْتَحِفٌ
لَيْلَ المَجَرَّاتِ، فَاعْبُرْ مَوْجَكَ الآنَا
وَخُذْ بِضِعْفِ الرُّؤَى تَقْطِفْ لَنَا ثَمَرًا
الضَّادُ طَلْعَتُهُ هَمْسًا، وَتَحْنَانَا
يَا سَاهِرَ الحَرْفِ وَالأَمْوَاجُ تَدْفَعُنَا
وَلَيْسَ مِنْ عَاصِمٍ إِلاَّكَ مَرْقَانَا
قَلْبِي وَقَلْبُكَ، لاَ كَلٌّ وَلَا مَلَلٌ
يَا نُدْحَةَ العَيْنِ يَا مَا ضَمَّ قَلْبَانَا
قَدْ آذَنَتْ رِيحُكِ الخَجْلَى بِمَا حَمَلَتْ
عَرْبَاؤُنَا وَاصْطَلَتْ بُشْرَى نَجَاوَانَا
«إِنَّا رِئَاتٌ وَلَمْ نَنْكُثْ مَوَدَّتَنَا
وَذِي حَنَايَا الرُّؤَى»تَهْفُو لِمَسْرَانَا

يَـــا سَـــائِلَ الطَّلْـــحِ حَـــدِّثْنَا حَـــدِيثَ هَـــوًى
ظَلَلْـــــتَ فِـــــي دَمِنَـــــا نَبْضًـــــا، وَعَرْبَانَـــــا
إِنِّـــــي تَسَـــــقَّطْتُ نُسْـــــغَ الضَّـــــادِ مُلْتَهِبًـــــا
حَتَّـــــى اسْـــــتَوَى ظِلِّـــــيَ المَمْـــــدُودُ رَيَّانَـــــا
وَيَزْدَجِـــــينِي إِلَـــــى الإِشْـــــرَاقِ مَلْمَحُهَـــــا
فَـــــأَزْدَهِي نَشْـــــوَةً، أَجْلُـــــو مَرَايَانَـــــا
نَمَـــــتْ فُرُوعُـــــكِ فِـــــي تُـــــرْبِ السُّـــــهَا فَـــــدَنَا
نَـــــبْتُ الغُـــــرُوبِ تَـــــدَلَّى قُـــــرْبَ مَرْسَـــــانَا
هُنَـــــا تَشَـــــرَّبْتُ نَبْـــــعَ البَـــــاءِ كُنْـــــتُ إِذَا
دَنَـــــا المَسَـــــاءُ أُرِيـــــجَ السِّـــــرِّ نَيْسَـــــانَا

مقام اللغة العربية في التراتب العلمي لأبعاد الهوية

عند جمعية العلماء

أ. كمال خليل

جامعة محمد لمين دباغين. سطيف2.

لقد انطلقت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عملها للدفاع عن الجزائر وشعبها من الثلاثية التي رسمها لها الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889-1940)، وهي: الإسلام واللغة العربية والوطنية (الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا). وبذلك شكلت العربية إحدى الركائز المهمة التي اعتمدتها في الخطاب الديني والصحفي وحتى التربوي. حيث اهتمت بفتح المدارس والدفع بالتعليم العربي والإسلامي إلى الأمام، وانتشرت دور التعليم في كامل القطر وأصبحت العربية هي اللسان الأول في الجزائر بعد أن أعلن الاستعمار حربه وحقده عليها في حين راهن البعض على عروبة الجزائر.

وقد لعبت الجمعية دورا مهما تحت رئاسة الشيخ الإبراهيمي (1889-1965)، الذي أولى عناية بالغة للتعليم العربي ولغته، وكان يحث على ذلك في كتاباته المتواصلة خاصة في البصائر حيث خصص له أعمدة طويلة في ذلك (التعليم العربي والحكومة). هذه المقالات التي تشكل تراثا علميا مهما يستفيد منه الباحث لمعرفة موقف الجمعية ومسؤوليها من المسألة

اللغوية في الجزائر، والدور الذي لعبته في الحفاظ على عروبة الجزائر طيلة أزيد من ثلاثين عاما (1930-1962).

ومن هذه المقدمة البسيطة نطرح الإشكالية التالية، ماهو الدور الذي لعبته جمعية العلماء المسلمين للدفاع عن اللغة العربية؟ وكيف ساهمت وسائلها الخاصة في ذلك من خلال المساجد والمدارس والصحف...؟ وهل حققت الجمعية رسالتها التي سطرتها؟ هذا ماسنجيب عليه في هذه المداخلة المتواضعة التي تتوزع عبر العناصر التالية:

1- سياسة فرنسا الثقافية في الجزائر.

2 – جمعية العلماء المسلمين وأهدافها في الدفاع عن الهوية الجزائرية.

3- دورها في الدفاع عن اللغة العربية.

4- نتائج الدراسة.

1- سياسة فرنسا الثقافية في الجزائر

بسقوط مدينة الجزائر تحت الغزو الفرنسي سنة 1830 انتهت جميع مظاهر سيادة الشعب الجزائري الذي فشل في حماية بلاده وممتلكاته، وفي الدفاع عن دينه ومقوماته، ورغم ذلك كله واصل نشاطه الدؤوب عبر سلسلة المقاومات الشرسة التي لم تنته إلى غاية خروج الاستعمار.

وبدخول الفرنسيين تغيرت أوضاع الشعب الجزائري وانقلبت جذريا، حيث مارس الغزاة جميع أساليب البطش والإرهاب قصد تغيير بنية الشعب التي تأثرت بالتغييرات التي عاشتها فرنسا في حد ذاتها مثل: النظام الملكي (1830-1848)، والجمهورية الثانية (1848-1852)، والنظام الإمبراطوري (1852- 1870)، والجمهورية الثالثة (1871-1940). أو مايطلق عليها بمرحلة النظام المدني الذي حكم الجزائر الذي حكم الجزائر ومن هنا أصبحت

المستعمرة مخبرا حقيقيا للتجارب الكولونيالية التي تفننت في كيفية إخضاع هذا الشعب بشتى الطرق والوسائل.

أ. **الفرنسة:** تجلت هذه السياسة منذ الأيام الأولى للاحتلال، وذلك بعد تنظيم إدارة الجزائر حيث جاء في التعليمات الرسمية الصادرة عن حكام الجزائر غداة الاحتلال أن إيالة الجزائر لن تصبح حقيقة مملكة فرنسية إلا عندما تصبح لغتهم هناك قومية، والعمل الجبار الذي يترتب عليهم إنجازه هو: السعي وراء نشر الفرنسية بين الأهالي بالتدريج إلى أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة بينهم.

وجاء في تقرير رسمي سنة 1849: "لاننسى أن لغتنا هي اللغة الحاكمة، فإن قضاءنا المدني والعقابي يصدر أحكامه على العرب الذين يفقون في ساحته بهذه اللغة، وبهذه اللغة يجب أن تصدر – بأعظم مايمكن بسرعة – جميع البلاغات الرسمية، وبها تكتب جميع العقود، وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا، فإن أهم الأمور التي يجب أن يعتني بها قبل كل شيء هو السعي وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة عامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على إستمالتهم إلينا، وتمثيلهم بنا، وإدماجهم فينا، وجعلهم فرنسيين..."[1]

وبذلك نفهم أنه من الأهداف الرئيسية التي سطرتها الإدارة الاستعمارية، وعكف مفكروها وروادها على تطبيقها هي فرنسة الجزائريين وذلك على إعتبار اللغة الفرنسية هي الأم واللغة الرسمية، أما اللغة العربية هي أجنبية .لغة العرب الغزاة لشمال إفريقيا، وحصر التعليم في جميع المدارس الرسمية بهذه اللغة عن طريق تكوين فئة من أبناء الجزائر يتكلمون بها، وتحل محل لغتهم الأصلية وبالتالي تساهم في تعزيز وتثبيت الثقافة الجديدة التي تهدف

---

[1] رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الوطنية الجزائرية، ش، و، ن، ت، الجزائر، 1981، ص:109 .

إلى إخراج المجتمع من التخلف إلى مبادىء الحضارة التي اعلن عنها ساستها، وهي مبادىء الدولة الفرنسية التي تعتبر الجزائر جزءا منها. ولم تكتف هذه الإدارة بفرض اللغة الفرنسية في التعليم والإدارة بل ذهبت أبعد من ذلك حيث طلبت من الأعيان والطبقة البرجوازية إرسال أبنائهم إلى فرنسا، وذلك لحسن التعليم والتحصيل من المنبع الأصلي للغة ولإثبات حسن النية في الإرتباط بالوطن الأم.

وفي هذا يقول حمدان خوجة: "وبهذه المناسبة جمع السيد: م. كودي شيخ بلدية والمجلس البلدي وكنت عضوا فيه لتهنئة الجنرال كلوزيل بالعودة سالما، وعلى إثر الزيارة أخبرنا بالتقارير التي وصلته وقال بأنه: عملا على راحته، وللتدليل على الثقة للحكومة الفرنسية، يجب أن نجمع على الأقل (50 طفلا) من أبناء الأعيان ليرسلوا إلى فرنسا ليتعلموا اللغة... أيد شيخ البلدية هذا الطلب واقترح أن يشرع في تنفيذه وقال: "إن رفض إرسال الأطفال إلى فرنسا يعتبر خروجا عن طاعة الفرنسيين، والذي لا يريد الامتثال إلى هذا الإجراء يجب أن يخرج من مدينة الجزائر"[1].

ومن هنا تتجلى الخطة التي باشرت فيها الإدارة الاستعمارية، وهي تكوين أفراد ومجموعات تكون قادرة على تسهيل المهمة الإدارية في تسيير البلاد بمجموعات بعيدة عن الجزائريين من حيث تكوينها، وثقافتها المنبوذة، وأقل درجة من الفرنسيين أصحاب الشأن في البلاد وبالتالي دورها هو تسيير مصالح الاستعمار في الجزائر لا غير.

وبوصول نابوليون الثالث إلى الحكم في فرنسا، برزت سياسته بالنسبة للإهالي، والتي اعتبر فيها الجزائريين مواطنين فرنسيين ضمن المملكة العربية

---

(1) حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، م.و.ف.م. الجزائر .2005. ص: 217.

حيث قال: "إن الجزائر ليست بلادا مستعمرة بالمعنى العام المفهوم من هذه الكلمة، بل هي مملكة إمبراطورية على الفرنسيين واريد أن أستفيد من شجاعة العرب وشهامتهم على أن أستغل فقرهم وبؤسهم"[1] فأصدر قرار 14 جويلية 1865 للحصول على الجنسية ولكن بشرط التخلي عن الأحوال الشخصية للأهالي، وبالتالي رفضه المعمرون والقادة العسكريون على الرغم من أنه لم يكن في صالح الأهالي وذلك في إطار القضاء على الشخصية الجزائرية ويصبح الجزائري رافضا لانتمائه العربي الإسلامي القائم على التخلف، وما اورده أحد اعضاء جماعة النخبة لزميل فرنسي له في المجلس البلدي للعاصمة خير دليل على ذلك حيث قال: "بأنني أشعر بالخجل من عربيتي..."[2]

ويصف محمد فريد حالة التعليم في الجزائر بعد زيارته إليها سنة 1901: "إن حالة التعليم في الجزائر سيئة جدا، ولو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل العربية في جميع المعاملات، بل ربما ستندرس العربية بالمرة مع مضي الزمن، فلا الحكومة تسعى في حفظها ولا تدع الأهالي يؤلفون الجمعيات لفتح المدارس...ويستمر قائلا: هجرت ربوع التعليم، وخربت دور الكتب وصارت الدنيا مرتعا للجهل والجهلاء، وكادت تندرس معالم اللغة الفصحى، وتطرقت إلى اللغة العامية الكلمات الأجنبية، بل أصبحت اللغة الفرنساوية هي لغة التخاطب في العواصم مثل وهران وقسنطينة وعنابة وغيرها..."[3].

---

(1) عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ط1، دار الأمة، الجزائر، 1999، :52 (الهامش).

(2) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930)، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ص: 298.

(3) أحمد الخطيب :جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، م، و، ك. الجزائر، 1985، ص:64.

لتكوين جيل متفتح على ثقافتها وحضارتها بدأت في فتح أبواب التعليم الفرنسي، بعدما حاربت بكل قوتها التعليم العربي الإسلامي الذي اعتبرته تقليديا ضعيفا وعقيما في حين باعتراف مفكريها ومؤرخيها أن الحياة الثقافية في الجزائر كانت مزدهرة قبل مجيئهم.

ب- التعليم الفرنسي: بعد سلسلة المقاومات التي قادها الجزائريون والتي دامت اكثر من 15 عاما، ونقصد بها مقاومة الأمير عبد القادر (1832-1847)، وبسط الاستعمار نفوذه على الجزائر فكر في تنظيم التعليم الفرنسي للأهالي، وبذلك صرح وزير الحربية الجنرال شرام من باريس يوم: 6 أوت 1850: "إن الظروف الحالية، وبعد حرب دامت 17 سنة، فإنه يتعين على فرنسا القيام برسالتها الحضارية وإرساء قواعد التعليم الفرنسي في الجزائر."[1].

وبذلك انشئت المدارس العربية الفرنسية في عهد الجمهورية الثانية (1848-1852)، بمرسوم رئاسي في: 14 جويلية 1850 في المناطق المهمة بالسكان، وهي مدارس ابتدائية أين تدرس اللغتان الفرنسية والعربية، إضافة إلى القراءة والكتابة في كتب موضوعة تحت الرقابة الاستعمارية، وكذلك يدرسون الحساب والتاريخ والجغرافيا والرسم وتكوين فرق الموسيقى للأغاني الوطنية التي تغنى كل يوم من طرف هؤلاء الأطفال.

وهي لم تقتصر على الذكور فقط، بل أنشئت أيضا من أجل الفتيات المسلمات لتعليم الخياطة والقراءة والكتابة، وذلك قصد إحداث ثورة في الأسرة المسلمة، وكان الغرض الأساسي من تأسيسها ذا طابع سياسي أكثر منه تعليمي حيث أوضح أحد الفرنسيين مبينا النية من ذلك في سنة 1861: "إن الغرض من نشر التعليم الفرنسي بين الجزائريين عن طريق المدارس

---

[1] عمار هلال: أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1962)، د.م.ج، الجزائر، 1995، ص: 112.

المختلفة -العربية الفرنسية- هو القضاء على المدارس العربية الإسلامية الخاصة والحرة"[1].

ووصل عددها في بادىء الأمر إلى 6 مدارس، ثم إزداد إلى أن بلغ 38 مدرسة سنة 1861، وكانت تشرف على حوالي 13 ألف طفل جزائري، وقد اعتبرت احسن سنوات تعليم الجزائريين، لأنه بعد ذلك شهدت هذه المدارس معارضة من طلرف المعمرين الرافضين لتعليم الأهالي وإلى البلديات التي كانت تشرف عليها، ولكن الحقيقة ان هذه المدارس عرفت انتعاشا في العهد العسكري وقد بين الدوق دومال الغرض من هذا التعليم قوله: "إقامة مدرسة بين الجزائريين أحسن وافضل من كتيبة عسكرية لفرض الأمن والتغلغل داخل الجزائر، فهو الذي سمى نظريته هذه بسياسة (ضمان توجيه الأفكار)، أما بيدو فقد سماها: الاستيلاء على إدارة التعليم وتوجيهه."[2]

ثم بدأت تسير نحو الزوال والاندثار منذ وضعها تحت إشراف البلديات للإشراف عليها، وبذلك بدأ النشاط التعليمي في الضعف لقلة النفقات البلدية إبتداء من 1861، ورفضت هذه البلدات إعانة المدارس، وهو ما ادى إلى غلقها شيئا فشيئا في المدن: مثل البليدة وملیانة .... أورليان فيل (الشلف) ومابين 2 ماي إلى 11 ماي صدر مرسوم حكومي نص على وضع المدارس العربية الفرنسية تحت مسؤولية البلديات في المناطق المدنية، لكنها وجدت رفضا من طرف البلديات لتقديم اي مساعدة بدعوى وجود المدارس المختلطة والتي يستطيع الأهالي الالتحاق بها.

---

(1) عبد القادر حلوش: المرجع السابق، ص: 4 .

(2) Georges voisin: L'Algérie pour les Algériens, Michel Lévy Frères –Libraires ,Ed, Paris ,1861 ,P :45

لقد رفض الجزائريون الالتحاق بهذا النوع من المدارس لأنه يوفر تعليما ضعيفا عما هو موجود في الزوايا وخوفا من تأثيرهم على شخصيتهم وابنائهم خاصة بعد افتقارها للمدرسين الجزائريين الذين رفضت البلديات إعطاءهم مستحقاتهم بدعوى قلة النفقات الموجهة لهذه المدارس.

وأمام هذه الوضعية السيئة، وهجرة التلاميذ للمدارس العربية الفرنسية، لم تجد الحكومة العامة سبيلا في إرجاعهم سوى إصدار مرسوم سنة 1859 والذي يقضي بتحديد عدد الكتاتيب والمدارس القرآنية بقرارات ولائية في كل مقاطعة، وفي تقرير عامل عمالة وهران إلى الحاكم العام في هذا الموضوع قال: "للوصول إلى رفع عدد تلاميذ المدارس العربية الفرنسية، هناك إجراء واحد، هو القضاء كليا على الكتاتيب الموجودة في المدن، حيث يكون بالإمكان تأسيس مدارس عربية وفرنسية"[1].

كما تجلت سياسة فرنسا في تمسكها بإضعاف اللغة العربية، وإهمالها كليا، بل ومحاربتها وتركيز جهودها على نشر اللغة الفرنسية واعتبارها لغة التعليم في جميع المدارس وجميع المعاملات الرسمية كالمستندات والوثائق الإدارية حيث لا تقبل أي وثيقة أو عقد أو تصريح خارج اللغة الفرنسية، والغرض من ذلك خلق بيئة فرنسية أمام الجزائريين وذلك بتغيير أسماء المناطق وجعلها فرنسية، وأسماء الشوارع وجميع المرافق الضرورية كانت بالفرنسية حتى يكون لفرنسة التعليم سند قوي في فرنسة الإدارة والمحيط الاجتماعي كما أنها رفضت السماح للأهالي بتأسيس وفتح المدارس والمعاهد لتدريس اللغة العربية ولو بأموالهم الخاصة والحرة، كما كانت دائمة الرقابة على المدارس الموجودة، وكلما لاحظت إخلالا أو خروجا عما هو مسموح به فإنها تقوم بغلقها ولو بالقوة وتغريم أساتذتها، أو نفيهم أو الزج بهم

---

[1] عبد القادر حلوش :المرجع السابق، ص: 56 .

في السجن، كما اشترطت الحصول على الرخصة خاصة عندما نشطت الحركة التعليمية مع بدايات القرن العشرين.

ج- محاربة الدين الإسلامي: تعهدت الإدارة الاستعمارية بقيادة الماريشال دي بورمون عند إمضائه معاهدة التسليم يوم 5 جويلية 1830 مع الداي حسين باحترام الدين الإسلامي وصيانة ممارسة الشريعة الإسلامية، لكن هذه المعاهدة سرعان ماضربت عرض الحائط وتنكر المسؤولون لها رغم تعهدهم بشرف الملك شارل العاشر.

وقد اعتبر الفرنسيون سقوط الجزائر هو سقوط إحدى قلاع الإسلام، لذلك يصف سعد الله تلك المرحلة بأنها قمة الاستهتار بالجزائريين، حيث احتفل الغزاة يوم 11 جويلية 1830 في الساحة الرئيسية للقصبة وقد حضره كبار الضباط والجنود بقيادة دي بورمون بعدما رتلوا آيات الإنجيل بمناسبة نجاح عملية الغزو[1].

وتشير بعض التقارير أن الحملة الفرنسية التي إتجهت نحو الجزائر كانت مزودة بحوالي 16 قسيسا وذلك لمباركة عملية الغزو، وتذكير الجنود بدورهم في نشر المسيحية باعتبارهم سيكونون شهداء المسيحية في الجزائر، وعندما تم توقيع المعاهدة صرح دي بورمون لهولاء القساوسة: "إنكم أعدتم معنا فتح الباب للمسيحية في إفريقيا، ولنأمل أن تينع قريبا الحضارة التي إنطفأت في هذه الربوع..."[2]. وامر في اليوم الموالي بوضع علامة الصليب على اعلى مبنى بالمدينة.

---

[1] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1900)، ج1، المرجع السابق، ص: 79.

[2] عبد الجليل التميمي: التفكير الديني والتبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر في القرن 9، م. ت. مغ، ع1، تونس، 1974، ص:14.

لقد بدأت السياسة الاستفزازية إتجاه الإسلام والمسلمين منذ 1830 بغلق 13 مسجدا كبيرا و140 مسجدا صغيرا و12 زاوية بالجزائر العاصمة وحدها، وما إن حلت سنة 1862 لم يبق للمسلمين سوى 4 مساجد كبيرة و17 مسجدا صغيرا ومن بين المساجد التي مسها الحيف والجور مسجد كتشاوة الذي حول بتاريخ 18 ديسمبر 1832 إلى كاتيدرائية (سيدة الجزائر)، وتحويل مسجد علي بتشيني إلى (كنيسة سيدة النصر) سنة 1868، وفي معسكر حول مسجد عين البيضاء الذي أعلن من على منبره الأمير عبد القادر الجهاد إلى مخزن حبوب للجند، وتواصل استمرار السلطات الاستعمارية في الاعتداء على ممتلكات المسلمين ومؤسساتهم الدينية، وهذا ما ولد اندلاع العديد من المقاومات وردود الأفعال الأولية والتي كان سببها ودافعها الرئيسي هو الجهاد لحماية المقدسات التي دنسها الكافرون.

ثم ابتدأت الحرب الصليبية المنظمة التي قادها الكارديال لافيجري، الذي اكد على ضرورة اعتماد المشاريع في الأعمال الخيرية مثل: انشاء المستشفيات ومأوى الأيتام وإنشاء المدارس وتدعيم ثقافة المستعمر وركز كثيرا على ذلك قائلا: "إن الإحسان واللطف والإخلاص والعدالة المنصفة ثم الحمية المتبصرة واليقظة، وهي الخصال التي فرضتها علينا العقيدة المسيحية هي القادرة وحدها على إنجاز الأعمال التي فرضت بادىء الأمر عن طريق السيف..."[1].

وقد استغل لافيجري مجاعة الستينيات (1867-1868) والتي صاحبها خطر الجراد الذي اتلف المحصولات في إقليم مجانة بين 1868-1870، وكذلك البؤس الاقتصادي والإجتماعي بانتشار المجاعة والأمراض والأوبئة مثل:

---

[1] عبد الباسط دردور :أقطار المغرب العربي وتحديات الغزو الثقافي العربي- دراسة وصفية تحليلية – ط1، كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ص: 273 .

الكوليرا والتيفوس، وأصبح الناس يموتون بالجملة. ومن هنا تحولت هذه الكارثة إلى عنصر حيوي للتنصير حيث اغتنمها لافيجري فقام بجمع عدد من اليتامى الجزائريين تحت أعين وحراسة السلطة العسكرية، وقام بإنشاء ملاجىء لهم لحمايتهم وقصد (تعميدهم) وتربيتهم تربية مسيحية.

وفي سنة 1869 اشترى لافيجري قطع أراضي في نواحي الشلف وذلك قصد إنشاء قريتين لفائدة هؤلاء اليتامى "المسيحيين"، حيث شيد الأولى سنة 1872 وهي قرية "سان سبيريان "(أسقف قرطاجة – تونس)، ثم اسس الثانية سماها" سانت مونيك "(أم القديس اغسطين)، حيث مارس فيها النشاطات الزراعية والرعي وبعض الأنشطة الصناعية.

والحقيقة ان ممارسات لافيجري ومجهوداته في خدمة الاستعمار والكنيسة كانت تصب ضمن سياسة عامة في الحرب المعلنة على الإسلام وعلى الجزائر، ولهذا تحرك المبشرون في إتجاه التعليم بفتح المدارس التبشيرية أو العمومية التي جلبت إليها مختلف التلاميذ لمحاربة اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن، ونشر اللغة الفرنسية بدلها وفي خطابه للحاكم العام يصرح لافيجري بنواياه من هذا العمل:" إنني أؤكد لكم أنكم بالعمل على تقريب الأهالي إلينا بتعليم الأطفال، وتقديم الإحسان للناس جميعا فإنكم ستقومون بخدمة فرنسا. إن فرنسا لا تنجب كثيرا من الرجال لتعمير الجزائر، وعليه وجب أن نعوض ذلك بفرنسة المليونين من برابرتنا المستعمرين"[1].

2- جمعية العلماء واهدافها في الدفاع عن الهوية الجزائرية:

مع حلول عام 1930 بدأت فرنسا تحشد نفسها للاحتفالات المئوية (1830-1930) بسيطرتها على الجزائر ومنه شمال إفريقيا، وإبراز عظمتها أمام مختلف

---

[1] عبد الباسط دردور: المرجع السابق: 286.

الأمم والشعوب، وهذا ماحرك الضمير الوطني الجزائري الذي استنكر هذه الأعمال الاستفزازية التي ستدوم 6 أشهر في شكل استعراض عسكري[1] في مختلف المدن الجزائرية وبثياب مماثلة للتي كان يرتديها غزاة الحملة، إضافة إلى التصريحات المهينة في حق الشعب الجزائري، والتي تهنىء بذكرى الانتصار حيث صرح الحاكم العام في المرسى القديم أمام المهنئين بالذكرى:" في هذا المكان، حيث كانت اللصوصية تضرب أطنابها، وحيث كان الظلم والطغيان، وحيث كانت أوروبا تخضع لهول وفضاعة القرصنة، نستقبلكم أيها السادة وقد ساد الأمن، وعاد الرخاء ونشر العدل بساطه وزالت اللصوصية، وانمحت القرصنة إلى الأبد تحت لواء فرنسا العظيم والمنتصر".

ظهرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يوم 5 ماي 1931 تحت القيادة الرشيدة للإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس وثلة من العلماء والمصلحين، حيث سطرت لنفسها نهجا وطريقا في الإصلاح والدفاع عن الجزائر وهويتها العربية والإسلامية وذلك من خلال:

أولا: الوعظ والإرشاد والتثقيف:

حيث أكد أحدهم: "إن هذه الجمعية بالإضافة إلى كونها دينية، فهي تهدف إلى تثقيف وتهذيب المسلمين، وتدعو القوم إلى ترك الخرافات الدخيلة عن الإسلام والرجوع (للإسلامية البسيطة الأساس، النقية المبادئ) وان هذه الجمعية ليس قصدها الإصلاح (اللاهوتي) وحده بل هي ترمي إلى تثقيف وتهذيب القوم دينيا، وأدبيا، وعلميا"[2].

---

[1] احمد الخطيب: المرجع السابق، ص: 99

[2] الشهاب: المجلد العاشر، ج5، ماي 1934، ص: 260-261 .

ثانيا : الدروس التعليمية:

وهي دروس تربوية تكون في أوقات الفراغ أو بعد الانتهاء من الدروس الفرنسية، قصد تلقين التلاميذ مبادىء القراءة والكتابة باللغة العربية ومبادىء الدين الإسلامي وتصحيح التشويه الذي يتعرض له الفرد الجزائري الذي يتلقى دروسًا عن انهزامه، وعن أمتداد جذوره إلى الغاليين، وأن شمال إفريقيا هو جزء من اوروبا ...والهدف من هذا هو ربط التلاميذ بماضيهم العربي والإسلامي وبوطنهم الجزائر. ولهذا يقول الشيخ الإبراهيمي:"كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة المنورة (سنة 1913) في تربية النشء، هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلاميذتنا"[1].

ثالثا : تربية النشء تربية صحيحة:

اهتم الشيخ عبد الحميد بن باديس بهذا الجانب منذ عودته من تونس عام 1913، حيث خصص كل جهده ووقته لتربية النشء وتعليمهم اللغة العربية وتعاليم الدين الإسلامي الصحيحة وهذا قبل الدوام في الكتاب وبعده.

وقد حرص على العناية بالتعليم الابتدائي لأنه القاعدة الصحيحة لكل تعليم، وهو غرس بذرة العلم في النفوس الضعيفة التي ستشب على حب الدين والوطن، كما ركز على الاهتمام بتدريس اللغة العربية وفروعها لأنها الرابطة الوحيدة بين الشعب الجزائري ودينه وهو النهج الذي سارت عليه الجمعية من بعده حيث قال الشيخ الإبراهيمي:" اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية ولهذه اللغة على الأمة حقان أكيدان... أحدهما انها لغة

---

[1] أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص: 129 .

دين الأمة... وحق ثان أنها لغة جنسها بحكم أن الأمة عربية الجنس ففي المحافظة عليها محافظة على جنس ودين معا[1].

3- **دورها في الدفاع عن اللغة العربية:**

أولا : الدور التربوي:

لقد وضعت الجمعية في حسبانها خطة تعمل عليها منذ تأسيسها وهي تعليم أبناء الشعب الجزائري والنهوض به، ومحاربة الجهل والخرافات، والتأكيد على تدريس القرآن الكريم، وعلوم اللغة، والتاريخ الإسلامي وتاريخ الجزائر.

وإزداد نشاطها واهتمامها في مجال اللغة العربية في:

1-إصلاح اللغة التي أصبحت من العامية (الدارجة)، والعمل على إعادتها إلى نقائها الأصلي.

2-إعادة اكتشاف الآداب والفنون والعلوم التي أصبحت مجهولة على مر الأجيال[2].

كما اهتمت الجمعية بالمواد التي يتم اعتمادها في مدارسها المنتشرة في كامل ربوع الوطن: هي القرآن الكريم، والشريعة، والنحو والآداب والتاريخ ... كما ساهمت الصحافة أيضا في لعب هذا الدور وتدعيمه من خلال تخصيص فقرات وأعمدة مختلفة على صفحاتها لنشر المعارف لجميع فئات الشعب دون استثناء.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر (التعليم العربي)، دار الأمة، الجزائر، 2007، ص: 24.

[2] مازن صلاح حامد مطبقاني: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية (1931-1939)، ت: أبو القاسم سعد الله، عالم الأفكار .الجزائر . 2011 .ص: 102

وقد أولت عناية بالغة للاهتمام بالبرامج التعليمية التي تدرس في أقسامها وصفوفها حيث اقتنت من الكتب أجودها في التاريخ العربي والإسلامي قديمه وحديثه، وفي تفسير القرآن الكريم اعتمدت على أحدث التفاسير في تلك الفترة (تفسير المنار) للشيخ عبده ورشيد رضا، وفي علم الحديث اختارت (الموطأ) للإمام مالك بن أنس. كما كانت حريصة على مراقبة كل مايدخل من كتب وتيارات عابثة بعقول الشعب لتتصدى لها وتحاربها بلا هوادة.

وهناك دور آخر قامت به الجمعية لتطوير التعليم العربي الحر هو توحيد برامجها المختلفة في الكتاتيب والزوايا والمساجد والمدارس، حيث تقوم كل هيئة بعمل مستقل عن غيرها[1].

ثانيا: الدور التعليمي:

منذ تأسيس الجمعية سعت إلى الاهتمام بفتح المدارس العربية للتعليم الحر في مختلف أرجاء الجزائر، وكانتا أولى مدارسها: مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة عام 1936، ومدرسة الشبيبة الإسلامية بالجزائر، ومدرسة تهذيب البنين بتبسة[2].

وكان الهدف منها تخريج الإطارات والمعلمين لمواصلة النهج الذي سطره رائد النهضة العربية والإسلامية في الجزائر.

لقد استطاعت الجمعية توسيع حركة التعليم حيث شهدت الفترة بين 1944-1945 فتح 73 مدرسة عبر كافة أرجاء القطر، ثم ازداد العدد عام 1948 إلى 140 مدرسة، وباندلاع الثورة التحريرية المباركة سنة 1954 بلغ

---

(1) رابح تركي: المرجع السابق، ص: 263

(2) عبد الكريم بوالصفصاف: جمعية العلماء المسلمين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية (1931-1945)، ط1، عالم المعرفة، 2009، ص:14

العدد 150 مدرسة، وتواصل العدد في الإرتفاع حيث سجل عام 1955 بـ:175 مدرسة وهو يتقارب مع ما ذكره احمد توفيق المدني ان العدد كان 170 مدرسة.

والاهتمام بالمدرسة لا يكفي وحده دون إعطاء الأهمية للمربي الذي يعد الركن الأساسي والمحوري في العملية التعليمية، حيث أولته الجمعية عناية كبيرة بعقد مؤتمر للأساتذة والمعلمين (المدارس العربية الحرة) بنادي الترقي في شهر سبتمبر 1937 وكان الهدف منه تنسيق الجهود وتنظيم العمل قصد الوصول إلى توحيد البرامج والمناهج وطرق التدريس في مختلف مدارس الجمعية. كما طلبت منهم تقديم اقتراحات وآراء قصد الإصلاح والنهوض بالمجتمع[1].

وفي سنة 1948 أسست الجمعية (لجنة التعليم العليا) قصد الإشراف على شؤون التعليم والمعلمين وحل مشاكلهم وتسهيل مهمتهم، وهذا بتنظيم ندوات وملتقيات علمية لتطوير الأداء التربوي ومناقشة مشاكلهم والمساعدة على حلها.

كما قررت عام 1951 اعتماد الشهادة العلمية في التوظيف مثل (التطويع) من جامع الزيتونة، وفي 1953 اتبعت ذلك باختبار مهني.

وحسب جريدة البصائر فإن عدد المعلمين بلغ 275 سنة 1951، حيث تتوج المرحلة الأولى للدراسة بالشهادة الابتدائية منذ 1952، وكانت آخر دورة امتحان لهذه الشهادة أثناء الثورة سنة 1955 حيث ترشح 415 طالبا[2].

---

(1) عبد الكريم بوالصفصاف: المرجع السابق، ص: 143

(2) يعيش محمد وآخر: تجربة التعليم الحر لدى الحركة الإصلاحية الجزائرية، أعمال الملتقى الوطني الأول حول التعليم. عنابة 14-15/ 6 / 2009 ص163

ثالثا : معهد إبن باديس:

بعد انتشار المدارس في مختلف أرجاء القطر، وتخرج مئات الطلبة منها، أصبح لزاما على الجمعية مواصلة الجهد، والسعي إلى فتح مدرسة أو معهد او مؤسسة عليا لمواصلة التلاميذ دراساتهم، فكان معهد إبن باديس بقسنطينة عام 1947، ليلتحق به الحاصلون على الشهادة الابتدائية لمواصلة دراستهم إلى الصفوف العليا.

وكان هذا المعهد " تاج لمدارسها، وغرة لأعمالها، بل أعظم أعمالها خطرا، وأعلاها قدرا، وأكثرها نفعا، لأنه يعمل على تهيئة أبناء الأمة لأن يصبحوا قادة لحركاتها، ومسيرين لنهضاتها في جميع الميادين الحيوية فمنه تخرج البعثات العلمية التي ترسلها الجمعية إلى معاهد وجامعات الأقطار العربية في المشرق والمغرب"[1].

لقد الحق هذا المعهد بجامع الزيتونة المعمور بتونس في الامتحانات والمناسبات وبلغ عدد طلبته عام 1951 ب:702 طالبا، وفي 1955 ب: 913 طالبا، وكان نظامه داخليا حتى يظمن الاستقرار والاستمرار لطلبته وتلاميذه. وقد كان به 15 أستاذا متفرغا يعكفون على تدريس العلوم الدينية واللغوية، أما المواد العلمية فإنه ينتدب إليها أساتذة متطوعون.

واستمر هذا الصرح العلمي يؤدي دوره إلى غاية عام 1957 حيث أغلقته الإدارة الاستعمارية وصادرت ممتلكاته وحولته إلى ثكنة عسكرية، وبقي حاله كذالك إلى غاية الإستقلال.

---

[1] رابح تركي: المرجع السابق، ص: 282

رابعا- بعثات الطلبة (البعثات العلمية):

لقد تميزت البعثات العلمية أول عهدها بالمبادرات الفردية خاصة نحو المشرق، ثم أخذت شكلا منظما بالتدريج مثل البعثات الميزابية منذ 1914[1]، ثم واصلت الجمعية على هذا النهج منذ 1951 بتخرج أول دفعة من معهد إبن باديس حيث أرسل 26 طالبا نحو القاهرة، ثم ازداد عددهم فيما بعد خاصة بعد خروج الشيخ البشير الإبراهيمي نحو المشرق سنة 1952 قصد تامين هذه البعثات وتوزيعها على البلدان العربية. حيث استقبلت العراق بين(1952-1953) 11 طالبا، كما استقبلت سوريا في نفس السنة 10 طلبة، والكويت 14 طالبا.

ثم توالت البعثات نحو مختلف البلدان مثل : مصر، والسعودية، واليمن، والكويت حتى وصل عدد الطلبة في هذه الأقطار عام 1955 إلى 109 طالبا[2].

وعند اندلاع الثورة الجزائرية سعت السلطات الفرنسية إلى إغلاق المدارس الحرة ومعهد إبن باديس، فقامت جبهة التحرير الوطني بتشجيع هجرة الشبان إلى مختلف الجامعات والمعاهد العربية قصد تكوين إطارات وقيادات شبانية قادرة على مواصلة الكفاح أو البناء.

وهكذا يتبن لنا حجم الجهد والنشاط الذي أولته ج.ع.م.ج. للدفاع عن الشعب الجزائري وهويته العربية والإسلامية تحت شعار (الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا).

---

(1) يعيش محمد وآخر: المرجع السابق، ص167

(2) أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص: 218

4 : **نتائج الدراسة:**

من خلال هذه الدراسة العلمية، نستخلص بعض النقاط المهمة حول الجهد الذي قامت به جمعية العلماء المسلمين في الدفاع عن الدين الإسلامي واللغة العربية، وهو استمرار لنضال الشعب الجزائري ضد الهمجية الاستعمارية إلى غاية نيله استقلاله وحريته. واهم ما توصلت إليه هو:

*- فشل سياسة الفرنسة ومشاريع الإخضاع التي حاول الاستعمار الترويج لها، بسبب رفض الشعب الجزائري التخلي عن لغته وهويته العربية الإسلامية، وتأكيده على ترابطه الأبدي، وعدم الانسياق وراء الأوهام بان فرنسا جاءت لتحرير الشعب الجزائري ونقله إلى الحضارة والتطور الغربي.

*- تمسك الشعب الجزائري بدينه الإسلامي ورفضه لسياسة التنصير التي قادها الكاردينال لافيجيري الذي اعتبر تخلف الجزائر بسب تمسكها بالإسلام، وتخليها عن مسيحيتها القديمة، لكن نيته ليست تكوين مواطنين متعلمين قدر ماكان يسعى لتكوين اعوان لخدمة الاستعمار.

*- دور جمعية العلماء المسلمين في إرساء قواعد الهوية الجزائرية والدعوة إلى الحفاظ عليها، والسعي في ذلك عبر المشاريع المختلفة التي أقامتها والتشجيع على التعليم العربي الحر في أوساط الجزائريين (للبنات والبنين)، وربط الجزائر بموروثها العربي والإسلامي من خلال الإرساليات المختلفة، والمناهج المعتمدة في التدرس.

*- التاكيد على عروبة الجزائر التي لايمكن لها ان تكون فرنسية مهما كانت المشاريع الاستعمارية، وبعدها الحضاري في انتمائها للعالم العربي والإسلامي، ودحض المؤامرات والنظريات الرامية إلى تشويه تاريخها وماضيها.

*- تكوين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لجيل يعتز بمبادئه وقيمه العربية والإسلامية، ساهم في الثورة الجزائرية بنفسه وقلمه من اجل التحرير وكان في الصفوف الأولى للبناء والتشييد.

- قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث:

1-الإبراهيمي محمد البشير: عيون البصائر، دار الأمة، الجزائر، 2007.

2-بوالصفصاف عبد الكريم: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية (1931-1945)، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2009.

3-تركي رابح: التعليم القومي والشخصية الوطنية الجزائرية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981.

4- التميمي عبد الجليل :التفكير الديني والتبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر في القرن 19، المجلة التاريخية المغربية، ع1، تونس، 1994.

5- حلوش عبد القادر: سياسية فرنسا التعليمية في الجزائرية، ط1، دار الأمة، الجزائر، 1999.

6-الخطيب أحمد: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، م. و. ك، الجزائر، 1985.

7- خوجة حمدان بن عثمان: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، م.و.ف.م. الجزائر، 2005.

8- دردور عبد الباسط : أقطار المغرب العربي وتحديات الغزو الثقافي – دراسة وصفية تحليلية – كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا.

9- سعد الله أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930)، ج2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1992.

10- هلال عمار: أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1962)، د.م.ج. الجزائر، 1985.

11- مطبقاني مازن صلاح حامد : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية(1931-1939)، ت: أبو القاسم سعد الله، عالم الأفكار، الجزائر، 2011.

12- يعيش محمد وحميدي أبو بكر الصديق: تجربة التعليم الحر لدى الحركة الإصلاحية الجزائرية، الملتقى الوطني الأول حول التعليم في الجزائر أثناء الاحتلال (1830-1962)، عنابة 14-15 جوان 2009.

13 - Georges voisin: L'Algérien pour les Algériens ،Michel.Lévy Fréres Libraires ،Ed ،Paris.1861.

سياسة الاستئصال اللغوي بالجزائر في الوثائق الرسمية والخطابات السياسية الفرنسية من خلال كتاب: "السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر، أهدافها وحدودها، (1830-1962)" (كميل ريسلير) (ترجمة: نذير طيار)

الدكتور: نذير طيار- ج/قسنطينة

لماذا هذا الكتاب؟

يكتسي هذا الكتاب أهمية بالغة من عدة جوانبَ:

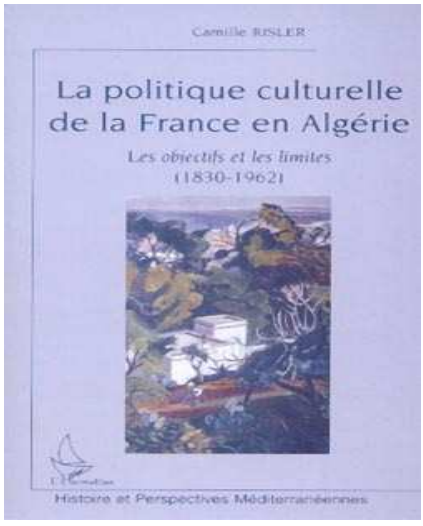

أوَّلها: أنَّه بيان مختصر جديد لحقيقة الاستدمار وماهيته على الصعيد الثقافي، وقد عبَّر عنها أمير البيان - العلاَّمة محمد البشير الإبراهيمي - قائلاً: «الاستعمار كلُّهُ رِجْسٌ من عَمَل الشيطان، يَلْتَقِي القائمون به على سَجَايَا خبيثة، ذو غرائزَ شَرِهةٍ، ونظراتٍ عميقة إلى وسائل الافتراس، وإخضاعِ الفرائسِ، وأَهَمُّ تلك الوسائل

َقتلُ الـمعنويات، وتَخديرُ الإحساسات الروحية.»[1]... «يا معشر الجزائريين: إنَّ الاستعمار كالشيطان الذي قال فيه نبينا ﷺ: ((إن الشيطان قد يئس أنْ يُعْبَد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أنْ يُطَاع فيما دون ذلك))، فهو قد خرج من أرضكم، ولكنه لم يخرج من مصالح أرضكم، ولم يخرج من ألسنتكم، ولم يخرج من قلوب بعضكم. لأجل هذا، ارتأينا أن نترجم الكلمة الفرنسية colonialisme إلى كولونيالية، إشارةً إلى المضمون التاريخي، كما فضَّلنا ترجمة colonisation إلى **استِدْمار** في كثير من الأحيان للمضمون الدلالي السلبي، المعبِّر صراحة عن حقيقة هذا الشيطان، ورحم الله عالمنا الكبير مولود قاسم نايت بلقاسم رحمات واسعة. فالكولون colons همُ المستدْمِرون (بكسر الميم)، والمستدمَرون (بفتح الميم) هُمْ les colonisés..إلخ.

ثانيها: أن مؤلِّفة الكتاب **كميلْ ريسليرْ** Camille Risler فرنسية، من مواليد سنة 1975، وهذا يعني أنها من جيل لم يشهد الحقبة الاستدمارية الفرنسية للجزائر، كما أنها نشرت هذا البحث سنة 2004 خلال دراستها بمعهد التاريخ، في جامعة مونتريال (كندا)، الأمر الذي قد يُحَرّرُ البحث العلمي من أجواء الضغوط الإعلامية والفكرية والسياسية الفرنسية الممجِّدة لجرائم الاستدمار. ورغم أنَّ هدف الكِتاب، كما تُقَرِّر صاحبته، هو: تسليط الضوء بـ "الجزائر الفرنسية"، على وجود عنصر تقليدي من السياسة الخارجية لفرنسا في العالم، منذ عصور الأنوار، ممثَّلا في استعمال ثقافتها لترسيخ تأثيرها، وخدمةِ مصلحتِها السياسية بمفهومها الواسع، على المدى البعيد جدا، بإمكاننا أنْ نعتبره اعترافا غير مباشِر من باحثة فرنسية بجريمة الإبادة الثقافية الفرنسية بالجزائر، في انتظار اعتراف السياسيين الفرنسيين بجريمة الإبادة الشاملة للجزائريين خلال الحقبة الاستدمارية. فهي لا تقوم بتوصيف

---

[1] جريدة البصائر سنة 1949. العدد 83.

المسألة على هذا النحو، كما تتجنَّب إصدار أي حكم قيمي، قد يدين أيَّ ممارسة سياسية أو ثقافية فرنسية، بل تتعامل ببرودة تامة أحيانا مع جرائم ثقافية بَيِّنة، ولكنَّها تقول ما هو أهمُّ من ذلك: تترك القادة الفرنسيين أنفسهم يقدمون اعترافاتهم، وتستخرج من الأرشيف الفرنسي المتعلق بالجزائر (أو الأرشيف الجزائري الذي تحتكره فرنسا)، جميع الأدلة المثبتة للحكم دون أن تنطق به. وهذا دون أن ننكرَ، أنَّ كثيرا من هذه الأدلة مبثوث في بطون كثير من الكتب الجزائرية، وأنَّ كُتَّابا فرنسيين انتقدوا الممارسات الاستدمارية، على نحو غير استقصائي.

ثالثها: أنَّ هذا الكتاب هو أبلغ رد علمي فرنسي على جميع التصريحات الرسمية الفرنسية الممجِّدة للاستدمار، سِيَّما تصريح الرئيس الفرنسي السابق **نيكولا ساركوزي** الذي جاء فيه : «إنَّ الوجود الفرنسي بمصر والجزائر والمغرب كان **حلما حضاريا** لا استعمارا[1]. والذي قدَّم خلفيته الفكرية في تصريح آخر له، قال فيه : «إنَّ مأساة أفريقيا، تكمن في عدم دخول الإنسان الأفريقي إلى التاريخ بالقدر الكافي، الفلاَّح الأفريقي الذي جعل بقاءه متناغما مع الطبيعة، مثلَه الأعلى في الحياة، لا يعرف إلا الإعادة الأبدية للزمان... في هذا المتخيَّل، حيث كل شيء يتكرر دائما، لا مكان للمغامرة الإنسانية ولا للفكرة التقدمية. فلا الإنسان ينطلق نحو المستقبل، أبدا. كما لا ترد عليه، أبدا، فكرة الخروج من التكرار، لابتكار مصيرٍ ما لنفسه»[2]. لقد كان الاستدمار "من أسوأ الفترات في العلاقات الدولية، وكانت الجزائر في

---

[1] الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي خلال حملته الانتخابية للرئاسيات في يوم 5/ 5/ 2007.

[2] الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي بداكار – السينغال نهاية جويلية 2007.

طليعة الضحايا لهذا النظام الجائر"[1]، ولقادة فرنسا من كل ألوان الطيف السياسي أنْ يقرروا تقديم تاريخ بلادهم السياسي والعسكري والثقافي بما يرضي صورتهم عن بلادهم، وللنوستالجيين والشوفينيين أنْ يختاروا المساحيق التي تخفي الحقائق وتحرِّف الوقائع، ولكنْ لضحايا الظلم والعدوان أن يرفضوا تبييض الجريمة[2]. وقد تصدى بعض الساسة والمفكرين الأحرار من الفرنسيين للتنديد بأسطورة مساهمات فرنسا المتعددة بالجزائر في المجالات العلمية والتقنية والإدارية والثقافية واللغوية، أحصى منهم الأستاذ **كلود ليزو** ما يزيد عن 300 فرنسيا حرا، الذين حكموا على قانون تمجيد الاستعمار بقولهم: إنه ليس تاريخا بل هو ضد التاريخ[3]. وسنطلِّع في هذا الكتاب على هذه الحقيقة، ثقافيا، حيث تقول كل المصادر الفرنسية المستشهد بها هنا، أنَّ فرنسا لم تفكر أبدا في تقديم شيء واحد لمصلحة الجزائر، وكل ما فعلته كان لمصلحتها هي فحسب. قد يُشكِّل هذا الكتاب، من خلال بعض فصوله، مساهمةً متواضعة غير مباشِرة، في "فقه التحيز[4] المعرفي الغربي"، على حد تعبير المفكر د.**عبد الوهاب المسيري**، أو دليلا جديدا على ما أسماه مفكرنا الكبير **مالك بن نبي** "الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة[5]"، أو وجها بيِّن

---

[1] الاستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي. أعمال ملتقى وزارة المجاهدين 2006. محاضرة الأستاذ عبد الحميد مهري. ص20.

[2] الاستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي. أعمال ملتقى وزارة المجاهدين 2006. محاضرة د.محمد العربي ولد خليفة. ص159.

[3] المرجع السابق.

[4] إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد. عبد الوهاب محمد المسيري. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. 1998

[5] لصراع الفكري في البلاد المستعمَرة. مالك بن نبي. دمشق. دار الفكر. .2000.

الملامح، لما فصَّله الدكتور **غريغوار مرشو** في كتابه "مقدمات الاستتباع[1]"، أو تأكيدا علميا للخطاب **الإدواردي**[2] "النقدي للفكر الغربي، اللاَّموضوعي غالبا في قراءته للآخر. مع العلم، أنَّ هذا الكتاب لا يطرق إلا جانبا واحدا للاستدمار، هو سياسته الثقافية.

رابعها: أنَّ هذا الكتاب يضع أمام أعيننا وبشكل مُرَكَّزٍ، الترسانة الضخمة التي جنَّدتها فرنسا، والأدوات الجبارة، العلمية والإعلامية والثقافية والتربوية، التي استعملتها طيلة 132 سنة، كي تبقى بالجزائر إلى الأبد. وقد ظلت غير مُصَدِّقة بضرورة رحيلها عن الجزائر، حتى بعد اندلاع الثورة التحريرية الكبرى. كما ظلت التقارير المرفوعة إلى الحكومة العامة بالجزائر، متفائلة بنجاح المشروع الاستدماري سنوات بعد الثورة وإلى غاية إعلان الاستقلال. ولم يتحدث الكتاب إطلاقا عن التحركات الشعبية والجمعوية والحزبية الجزائرية إلا عند استدعاء السياق لذلك، لأن البحث مخصص، كما أسلفنا، للسياسة الثقافية الاستدمارية، ومنْ أراد أنْ يطَّلع بالتفصيل على الفعل أو رد الفعل الجزائري، الشعبي والجمعوي والحزبي من منظور المستدمَر نفسه، فليفتح موسوعة شيخ المؤرخين الجزائريين الدكتور أبو القاسم سعد الله، فقد أحبَبْنا مرة أخرى، أنْ يدان الاستدمار بلسان واحدة منهم. لأجل هذا لا يحتوي الكتاب على أسماء القادة الكبار من صنَّاع الوعي الثقافي الذاتي بالجزائر، خلال المرحلة الاستدمارية. إنَّ القارئ سيكتشف بنفسه خواء النسق المعرفي الاستئصالي وبطلان كثير من أدلته، المستعملة لأجل الإبادة الحضارية للآخر، على لسان قادة فرنسيين

---

[1] مقدمات الاستتباع، الشرق موجود بغيره لا بذاته. غريغوار منصور مرشو. 1996.

[2] الاستشراق: المعرفة – السلطة – الانشاء. إدوارد سعيد. تحقيق كمال أبو ديب. 1993. بيروت. وكذلك: الثقافة والإمبريالية. إدوارد سعيد. ترجمة كمال أبو ديب. بيروت. دار الآداب .1998.

استدماريين. لأجل هذا لن نكلِّف نفسنا بالرد على كثير من الدعاوى المتهاوية بداهة. وإلاَّ تطلب الأمر تأليف كتاب مواز للكتاب المترجم.

خامسها: أنَّ هذا الكتاب رغم بعض مآخذنا القليلة عليه (**وهو ما سجلناه في هوامشنا النجمية داخل الكتاب**)، يبقى نفعُه أكبر بكثير من ضرره. فهو يُبْرِزُ دون وعيٍ من صاحبته، عظمة الشعب الجزائري بعلمائه وقياداته ومجاهديه، حيث ثَبَتَت الأغلبية على دينها ولغتها رغم كل ما تعرَّضت له من إبادة شاملة. وأنا شخصيا، باعتباري واحدا من جيل الاستقلال، أنظر بعين الإكبار والإجلال لهذه الأغلبية، التي أنجبت رغم كل ذلك، عالما وأديبا وصحفيا بمقام أمير البيان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ومفكرا حضاريا كبيرا بمستوى مالك بن نبي، وهما نموذجان رِسَاليَّان أُقَدِّمُهُما على سبيل المثال فقط، ولا نظير لهما في جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي. وشخصيا لا يثير في نفسي، حديثُ الكاتبة أحيانا عن مجد فرنسي بالجزائر في مرحلة معيَّنة، سوى إحساسٍ بالفخر والاعتزاز والكبرياء، لأن كل تلك الأوهام الفرنسية سقطت على أرض الواقع وانكشف زيفها لاحقا وإنْ ظلت مُعَشِّشة في بعض الرؤوس.

سادسها: أنَّ الكتاب يكشف عن غير قصد، فضيلة كبرى من فضائل الثورة التحريرية الجزائرية الكبرى، لم تلق عناية كبيرة لدى الباحثين والعلماء، رغم مرور أكثر من سبع وأربعين سنة على استعادة الجزائر لسيادتها. سنتابع في هذا الكتاب تفاصيل المجزرة الفرنسية الرسمية بحق العلم والمعرفة، في شتى الاختصاصات والمجالات، من علم الآثار وعلم الأعراق والأنتروبولوجيا إلى اللسانيات وعلم ما قبل التاريخ، وهذا منذ احتلال الجزائر سنة 1830، وإلى غاية انتزاعها استقلالها بقوة السلاح العسكري والسياسي والثقافي. كما سنرى أيضا، كيف تصاعدت وتيرة تلك المجزرة الوحشية الواقعة على الحقيقة العلمية والنزاهة المعرفية، مع اندلاع الجهاد

الجزائري للمرة الأخيرة، ضد العدوان الفرنسي الجائر. وباختصار شديد نقول: لولا الثورة التحريرية الكبرى، التي انتهت بتوفيق من الله، إلى تحقيق النصر المظفَّر، لاستمرت جرائم الاكتشافات الأثرية، المرتكبة عن سبق إصرار وترصد، بأيدي الجمعيات الأثرية الفرنسية بالجزائر، وبتحريض من السلطات العسكرية والسياسية الاستدمارية الفرنسية.

السياسة الثقافية الفرنسية واللغة العربية بالجزائر:

1- مفهوم السياسة الثقافية:

الثقافة مقولة معرفية، والسياسة مقولة تقوم على أساس القوة، وفي العلاقة بين الثقافة والسياسة، تتجلى الثقافة في كونها تعبر عن ذلك الجانب الذي يتصل بالنظر، في حين تتجلى السياسة في ذلك الجانب الذي يتصل بالعمل. فالثقافة ترجع في اشتقاقاتها اللغوية والمعجمية إلى معاني الفهم والحذق والفطنة والتهذيب والذكاء، وجميع هذه المعاني تتصل بجانب النظر. وترجع السياسة في اشتقاقاتها اللغوية والمعجمية إلى معاني الإدارة والزعامة والقيادة وغيرها، وجميع هذه المعاني تتصل بجانب العمل.

والخطر دائماً كان في انفلات القوة من رباط المعرفة، لهذا ظل السعي الدائم في المعرفة لكبح القوة ولجمها، لتكون القوة في خدمة المعرفة، لا أن تكون المعرفة في خدمة القوة. والمفارقة الغريبة أن الغرب استخدم المعرفة بصورة أساسية في خدمة مجتمعاته، واستخدم القوة في سلوكه مع المجتمعات الأخرى غير الأوروبية التي استدمرها وفرض سيطرته عليها .ففي داخل حضارته وظّف الغرب القوة لخدمة المعرفة، وفي خارج حضارته وظّف المعرفة لخدمة القوة.

مفهوم السياسة الثقافية ناظر إلى حضور السياسة في الثقافة، وفي المجال الثقافي، الحضور الذي يعبّر أيضاً عن حاجة الثقافة للسياسة. ويفسر هذا

الحضور بذات الطريقة، إما أنه استدعاء من الثقافة للسياسة، أو تدخل من السياسة في الثقافة وفي المجال الثقافي. إن مفهوم السياسة الثقافية هو مفهوم التزامي، يرتبط بتطبيقات البرامج والخطط والمشاريع الثقافية .ويراد من السياسة في هذا المجال أحد أمرين، أو كلاهما معاً. الأمر الأول :التعبير عن الحاجة إلى الإرادة السياسية، التي تلتزم بتنفيذ ورعاية وتطبيق البرامج والخطط الثقافية. والأمر الثاني: أن تكون الخطط والمشاريع الثقافية قادرة على التكيّف والتناغم مع المجتمعات، وتلبي الحاجات الفعلية لهذه المجتمعات. ويكشف مفهوم السياسة الثقافية أن السياسة لها فاعلية ثقافية، وتصدر منها مثل هذه الفاعلية .وهكذا يصدق القول أيضاً على أن هذا المفهوم جاء ملتفتاً لتلك الفاعلية ومصوراً ومفسراً لها.

2-السياسات الثقافية باعتبارها محورا للعلاقات الخارجية الاستدمارية:

تُعَدُّ دراسةُ السياسات الثقافية، باعتبارها محورَ السياسات الخارجية، شأنًا في طريقه إلى تحصيل ألقاب الشرف في مجال تاريخ العلاقات الدولية. ويُثير انتشارُ الثقافة في الدائرة الدولية الفضولَ، بعد زمن طويل، من التدقيق في مضمون التبادلات الدبلوماسية؛ وبعد زمن قصير، من تحوُّل الاقتصاد والبُنَى الاجتماعية والمؤسسات والذهنيات والعلوم، وكذا «قوى عميقة» كثيرة أخرى في الحياة الدولية، إلى موضوعٍ لاهتمامٍ مسنودٍ. الثقافةُ بوصفها أثرا مُشِعًّا، ثم الثقافة باعتبارها وسيلةً للتحكُّم وأداةً للسياسة الخارجية التي تديرها الدول عن وعي[1].

سياسةٌ ثقافيةٌ تُوضَع للمدى البعيد، هي أكثرُ مِنْ حملةٍ دقيقةٍ لأجل هدفٍ آنيٍّ: هي مسارٌ للاختراق الثقافي واللغوي والعاطفي، للسحر، والتسلل،

---

[1] سمير صول (أستاذ التاريخ المعاصر- جامعة مونريال) - السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر (1830-1962)- كميل ريسلير- دار أرماتان 2004.

وللاستئثار بالخيالات، بلْ لتجريد المجتمع المستهدَف مِن شخصيته، هي تعملُ في السر وعلى المدى البعيد داخل القواعد الذهنية للجماعات. وليست الغايةُ السياسية، في هذا الشأن، أقلَّ بروزا، مهما بدت بعيدة أو غير مُعَرَّفةٍ، استدراج الآخر إلى التحالف والرضوخ والإذعان، تلكَ هي الأهداف التقليدية للسياسة الخارجية. وتُضاف الاستفادةُ من خدمات الركائز الثقافية، إلى الشبكة الكلية للأدوات المستعمَلة على الساحة الدولية. تنبثق دراسة السياسات الثقافية والبعد الثقافي للسياسات الخارجية، بصفتها حقلا في طور الاستصلاح ضمن تاريخ العلاقات الدولية، لِتُسَلِّطَ الضوء على واقع ظل مجهولا لفترة طويلة، وتحيطَ بطابعه الإشكالي، وتُعرِّفَ متغيراتِ المنهجية الخاصة بهذا الاختصاص الجزئي[1].

3- كميل رسلير ومصادرها عن السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر:

يكمن الابتكار في دراسة **كميلْ ريسلير** وكذا أهميتها وإسهامها-كما يقول كاتب مقدمة كتابها- في "تحَرُّرها من المسالك المعهودة واكتشافها للجزء الثقافي من السياسة الفرنسية بالجزائر. ينفتح أمامَنا عالَمٌ جديد، بعيدٌ عن الريبة، مرسومٌ بدقة ورصانة، وصراحةٍ مُقْنِعة، هي فضلا عن ذلك مطبوعة بالتجرد المميِّز للعمل العلمي".

إنَّ التحديَّ عظيمٌ: «تحليل المجموع، الذي يبدو للوهلة الأولى، منفصلا عن الحركات المباشَرة في مختلف مجالات الثقافة بتحريكٍ من الدولة، أو تحت رعايتها أو باستعمالٍ منها»؛ القيام بذلك «تبعا للمتطلبات السياسية والتحوُّلات الحاصلةً في ظروف الحضور الفرنسي». يتمثل الموضوع

---

[1] المرجع السابق ص 6.

في التحقق، إنْ كانت هذه الحركات «صادرةً فعلا عن رؤية كلية حاملة لمميزاتِ سياسةٍ ثقافية»[1]

إنَّ الدراسة في معانقتها للمائة والاثنين والثلاثين سنة، من المرحلة الفرنسية في تاريخ الجزائر، ودون إغفالها لأي نشاط ثقافي، تجتاز تلك السنوات بخطوة مرِحة ومنتظمة، شعاعُها الهادي في ذلك هو مسألة العلاقة بين الحركة الثقافية والسياسة العامة.

كانت الثقافة في وفاقٍ مع السياسة، في جميع المراحل المختلفة، إذْ لكل سياسة عامة، سياسةٌ ثقافية موافقة لها. فالتصميمات السياسية والممارسات الثقافية، تتقارب وتتداخل وتتآزر فيما بينها. تكتشف **كميلْ ريسلير** «انسجاما شبه-منهجي بين معنى (ومبنى) الحركات المباشَرة في مختلف مجالات الثقافة، وبين الصياغة العامة للسياسة الاستدمارية الفرنسية وفقا للإيديولوجيات المتعاقبة المحدِّدة لها». تُعَيِّنُ السياسةُ دائما، تَبَعًا لعواملَ متضافرة، الخيارَ في مجال الثقافة، **ولهذه السياسة هدفٌ ثابتٌ هو ديمومة فرنسا بالجزائر.** من اللائق إحالة القارئ إلى البرهان الدقيق والمنشِّط للمولِّفة عن التوتر الطارئ عند الانتقال من مرحلة إلى أخرى، **والانفصال الواقع في نهاية المطاف بين الغاية السياسية والنتائج الثقافية**[2] .

تقول مؤلفة الكتاب: "الإشكالية بسيطة، فالأمر يتعلق برسم مقابلة بين الحياة الثقافية لـ"الجزائر" المستدمَرة... وبين التوجه العام للسياسة الاستدمارية....وبتسليط الضوء بـ"الجزائر المستدمَرة"، على وجود عنصر تقليدي من السياسة الخارجية لفرنسا في العالم، منذ عصور الأنوار، ممثَّلا

---

[1] المرجع السابق ص 6-7.

[2] المرجع السابق ص8.

في استعمال ثقافتها لترسيخ تأثيرها، وخدمةِ مصلحتها السياسية بمفهومها الواسع، على المدى البعيد جداً".

"عبر تحليق، غير شمولي بالضرورة، للحياة الثقافية، لـ"الجزائر المستدمَرة" في سياقاتها السياسية المتعاقبة، سندرك الوجود الفعلي لترابطٍ بين إرادة سياسية، وبين حركات ثقافية عمومية وخاصة، كانت خاضعة لها مباشرة أحيانا، أو في خدمتها كَرْها غالبًا.

وقد اعتمدت المؤلفة على المصادر التالية:

-**"الأرشيف الوطني لما وراء البحار"** (CAOM) (بإيكس أونبروفانس قرب مدينة مارسيليا). وهو الأرشيف الذي يتعلق بالحرب والعسكريين ويضم " أرشيف الجزائر" لا يوجد بمقر مديرية الأرشيف في باريس، بل بوزارة الدفاع."

الحكومة العامة: التعليمات العمومية والفنون الجميلة. التعليمات العمومية- التعليم العالي-الفنون الجميلة العلوم والآداب-الذكرى المئوية- التعليم بالعربية- المسرح.

ديوان الحاكم العام:

Georges LeBeau جورج لوبو

Marcel Peyroutou مارسال بيروتو

Marcel Edmond Naegelon مارسال بيروتو نيجلون

Roger Léonard روجي ليونار

Jacques Soustelle جاك سوستال

Robert Lacoste روبير لاكوست

Paul Delouvrier بول دو لوفريي

Jean Morin جون موران

-تقارير الحكومة العامة:

-الأرشيف العسكري- المصلحة التاريخية للجيش البري (فور دو فنسان (Fort de vincennes

إنشاء وتنظيم وحل مكاتب الحركة السيكولوجية 1955-1961-أهداف وطرائق الحركة السيكولوجية 1954-1957.

4- كاميل ريسلير ودراسة السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر:

قسمت **كميل ريسلير** موضوع الدراسة على ثلاث مراحل تاريخية:

المرحلة الأولى: غزو الجزائر (1830-1870) السياسة الثقافية وسياسة الإدماج.

حاولت فرنسا إعادة تعريف الهوية اللغوية الجزائرية لهذا كان تغريب الجزائريين أحد أهدافها، كما تقول **ريسلير**، ولأجل هذا تحركت على الجبهات التالية:

- **اللغة (نظريات الكلام واللغات في خدمة السياسة الاستدمارية)**

سعت السلطات الاستدمارية الفرنسية، في بداية هذه المرحلة – كما تقول **ريسلير**- إلى تطوير ثقافة مختلطة، ومزدوجة، عربية-فرنسية. لاعتبارات سياسية. فقد بدت العربية، أداة ضرورية لإدارة الأهداف السياسية على نحو جيد. وسيلةً للاختراق السياسي، أكثر من كونها عنصرا للثقافة الفكرية. كانت الحملة العسكرية مجهَّزة بهيئة كافية من المترجمين. بدأت المحاضرات التعليمية للغة العربية منذ سنة 1832. وأصبح هذا التعليمُ مُرَسَّمًا بخلق كراسي عمومية في المدن، ابتداء من سنة 1836. وقد **ألقى لوي بريسنيي**، أوَّل

حائز على أول كرسي (بالجزائر العاصمة)، خطابا افتتاحيا صريحا قال فيه :« إن دراسة هذه اللغة هي الوسيلة الحقيقية لكسر الحاجز، الذي نصبته لغةٌ وعاداتٌ مختلفة عن عاداتنا، بيننا وبين الشعوب التي علينا العيش معها في انسجام». وقد بدا، أنَّ وراء الجانب العملي الآني، يقف مستقبل المشروع الاستدماري كلّه، فقد كانت العربية مراعاة لأجل جانبها النفعي.

من ناحية أخرى، شارك اللغويون في مهمة ترقية اللغة الفرنسية. وبوساطة التصنيف الكمي للغات، الذي تُشَكِّل فيه العائلة الهندو-أوروربية قمة السُلَّم، أُقْحِمت فكرة اللغات، ذات البُنى البدائية والواقعيات الأولية[1] التي كانت تساهم في تبرير شرعية التوسع الاستدماري عبر تفوق المستدمِر. وُضِعت نظرية الكلام واللغات إذنْ، في خدمة السياسة الاستدمارية الفرنسية". ويتحدَّث **موريس أوي** Maurice Houisعن "كفالة علمية للسياسة الاستدمارية"، ..... وتنقل **ريسلير** وصف **مصطفى الأشرف** رحمه الله لمسار تهميش اللغة العربية وهو يقول:"أُعْلِنَتِ الفرنسية لدى الشعب لغة الحياة الدنيا، في مقابل العربية التي أصبحت لغة الاستحقاق الروحي في الحياة الأخرى" :

تحتل اللغة الغالبة (الفرنسية هنا) المجال الدنيوي. أيْ كل ما يتعلق بالحياة اليومية، الإدارة، والعدالة، والتقنيات، والسياسة، والدراسة، إلخ.. في حين أن اللغة المغلوبة* (العربية هنا) دُفِعت إلى المجال المقدَّس. وهكذا أصبحت المقابَلة بين اللغة الغالبة واللغة المغلوبة، محوَّلة إلى مقابلة بين القديم والجديد:

---

[1] Louis-Jean Calvet, *Linguistique et colonialisme - Petit traité de glottophagie*, Paris, Petite bibliothèque Payot, 1979, p.38.

* الغالب والمغلوب هنا، ليسا صفتين ذاتيتين ملازمتين للغتين، بل مرتبطتين بالحالة العسكرية – السياسية لأهل اللغة.

فاللغة المغلوبة، مجبورة تقريبا على تقبل حال اللغة الإيمانية الرجعية، وهي الصورة التي تقدِّمها عنها وسائل الإعلام على الأقل[1].

كان تحقير اللغة العربية يترافق مع حطٍّ من قيمة الثقافة التي تحمِلُها، ويساعد المشروع الاستدماري الذي كان بحاجة إلى فرض الفرنسية لغةً للتقدم وللمستقبل. هناك استثناء جدير بالذكر، ذكرته **الكاتبة**، فقد استعمَلت فرنسا بالضبط اللغة الأمازيغية ضد التعريب، بل أنشأت أبجدية غير عربية لإعادة تدوين لهجاتها. نشرت وزارة الحرب في سنة 1844 قاموسا فرنسيا-بربريا عنوانه اللهجة المكتوبة والمنطوقة من سكان القبائل في منطقة الجزائر العاصمة.

ومهما يَكُنْ مِنْ أمر، وكما تقول **ريسلير**، كان الكثيرون يعتبرون الفرنسية عنصرا رئيسيا في الحضور الفرنسي، و«أكثر الأدوات فعالية» (**ديوو دو** روفيقو Due de Roviguo، 1832) لإحراز تقدم في تحقيق المصالح الفرنسية بالجزائر. لم يكن بمقدور فرنسا أن تحافظ على وضعيتها دون أن تجعل من لغتها اللغة الأولى، لغةَ الإدارة والتربية. كان على اللغة الفرنسية أن تمكِّن الحضارة الأوروبية من التدخل في الدائرة الثقافية، لكي تتسلل شيئا فشيئا إلى مجتمع الأهالي وتتحكم فيه. كدَّت السلطات الاستدمارية إذن، في تعزيز نشر اللغة الفرنسية، التي تَوَفَّر لها الدعمُ النشط لجهاز الدولة:"كانت السلطات الاستدمارية الفرنسية تتسامح مع المدارس القرآنية وتدعِّمها، تلك التي برهنت عن «حكمتها» بقبولها تخصيص خمسة عشر ساعة أسبوعيا للغة الفرنسية".

---

[1] Ibid., pp.76-77.

➢التعليم وسياسة الغزو الروحي للجزائريين

أدركتْ السلطات الفرنسية الاستدمارية في وقت مُبَكِرٍّ جدا–كما تقول **ريسلير**– أنَّ نشر اللغة والثقافة الفرنسيتين، يمر عبر المدرسة* حتما. وقد حاولت فرض هذه المدرسة بنشر واسع للوسائل وعلى نحو شبه "استحواذي". ويرى بعض الكتَّاب أنَّ «الرسالة التمدينية» الممثَّلة في المدرسة الفرنسية، قد بدت منذ البدء، أداةً للهيمنة في خدمة المغامرة الاستدمارية. في سنة 1848، أخذت السلطات العمومية الاستدمارية بزمام الأمور، وتحوَّلت الجزائر إلى أكاديمية وأعيد تنظيم التربية. وقُسِّم التعليم العام، إلى فرعيْن مختلفيْن: **فإدارة التعليم في المدارس الفرنسية والإسرائيلية من الاختصاص الحصري لوزارة التعليم العام، بينما سيظل التعليم العام في المدارس الأهلية الإسلامية موضوعا ضمن صلاحيات وزارة الحرب،** لأن «التعليم المخصَّص للمغلوب –كما يشرح ذلك هو نفسه– كان دافعه الاعتبارات السياسية لا المدرسية».

كان على المدرسة الفرنسية أنْ تقومَ بالغزو الروحي للجزائريين، تُوَعِّيَهُمْ بتفوُّق حضارتها وتُعَزِّزَ هيبتها، وتُشَرْعِنَ الحضور الفرنسي، وتَصْنَعَ سكانًا أقلَّ عداء وتَنْشُر اللغة والثقافة الفرنسيتين، لأجل خلق ظروف مساعِدة في نهاية المطاف على الديمومة السياسية للغزو. «إنَّ فتح مدرسة وسط الأهالي يَعْدِلُ كتيبةً مخصصةً لإخماد الرفض في البلد» كما كان يقول **دوك دومال** Duc d'Aumale. انكبَّتْ فرنسا إذنْ، على مهمة صعبة، هي نشر تعليم عربي–فرنسي مخصَّص للأهالي، له أهمية سياسية عظيمة، لهذا لم يكن ممكنا ترك أيِّ شيء فيه للصدفة. في سنة

---

* كل الذين درسوا موضوع التعليم بالجزائر غداة الاحتلال اندهشوا من كثرة المدارس وحرية التعليم وكثرة المتعلمين ووفرة الوسائل من أجل التعليم. للإطلاع على الحالة المزدهرة للتعليم بالجزائر قبل سنة 1830، (أنظر: د. أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. الجزء الثالث. طبعة البصائر2009.)

1849، قدَّمت الحكومة مشاريع قوانين عن التعليم العام الأهلي، لأجل المصادقة عليها. يتعلق الأول بالمدارس الإسلامية تحديدا، تَبَنَّاه المجلس خلال جلسة 24 ديسمبر 1849؛ والثاني بالمدارس العربية-الفرنسية، تبناه المجلس نفسه خلال أسبوع 24 جانفي. وكانت الحكومة قد عرضت على الوزارة الاعتبارات التي أدت بالمجلس إلى تبني هذه المشاريع:

في الوضع الحالي للأمور، يجري تعليم الشعب العربي خارج مجال تأثيرنا. والمؤسساتُ المكلَّفة بإدارته، ونظرا لعدم تلقيها أيّ شيء منا وعدم تعرضها كلية أو تقريبا لرقابتنا، مجبرةٌ على تجنب غرس أفكارٍ مشجِّعة لهيمنتنا في عقول التلاميذ العرب، بحيث أن الجيل المربَّى لن يكون أقل عداء، من الجيل الذي هو مهيأ لخلافته، إذا لم نأخذ حذرنا من ذلك. ولتحاشي ذلك، يجب أنْ نجعل أساتذة الشبيبة في صفنا، يجب إذنْ، أنْ نمنحهم مزايا بحيث يكون من مصلحتهم خدمتنا [...]. [في الظرف الحالي] حتى أشدُّ الأهالي ولاء لقضيتنا لديهم نفورٌ كبيرٌ جدا من تعليمنا [...]. والهدف الذي نقترحه من وراء هذه القوانين الجديدة هو أن ندرج في مبدأ المدارس الإسلامية عناصر غير تلك التي تشكِّلها حاليا. علينا النفاذ داخل هذه المادة اللطيفة عبر زاوية حادة، وستنفتح الزاوية تدريجيا وسنصل فيما بعد إلى الهدف الذي بإمكاننا استشفافه - وليس تحقيقه- منذ الآن[1].

وقد بدا أنَّ المرسوم المؤرِّخ في 14 جويلية 1850، الذي صادق عليه ووقَّعه رئيس الجمهورية، **لوي نابليون بونابرت**، يتابع هذه الاعتبارات:

نظرا لاقتراحات الحكومة العامة بالجزائر، ومداولات مجلس الحكومة بتاريخ 21 و24 جانفي 1850 حول مشروع قانون متعلق بتنظيم المدارس الإسلامية الفرنسية [...] الذي يعتبر أنَّ مِنَ المهم تيسير نشر اللغة الفرنسية

(1) CAOM, 22S/1, Secrétariat général du Gouvernement, Alger, le 23 février 1850.

وسط السكان المسلمين للجزائر، فقد قرر [...] رئيس الجمهورية (الفصل الأول، فقرة مدارس الذكور، المادة الأولى) أنْ تُنشَأ في كل واحدة من مدن الجزائر التالية: قسنطينة، بونة (عنابة)، وهران، بليدة، مستغانم، مدرسةٌ ابتدائية للتعليم المزدوج للعربية والفرنسية لصالح التلاميذ المسلمين. وسَيُوسَّع إنشاء هذه المدارس بالتتابع، إلى المدن ذات الأهمية العامة المعترف بها لدى الحكومة العامة بالجزائر، باقتراح من الوالي [...]. (المادة الثانية) التعليم الابتدائي بالمجان، ويشمل: قراءة العربية وكتابتها، وعناصر اللغة الفرنسية، وقراءة الفرنسية وكتابتها، وعناصر الحساب، والنظام الشرعي للثقل والقياس [...]. (فقرة مدارس البنات. المادة 7) تُنْشَأ مدرسة ابتدائية للفتيات المسلمات في مدن الجزائر التالية: قسنطينة، وهران وبونة. (وسَتُوَسَّع هذه المؤسسة تدريجيا) [...]. (المادة 8) ومثلما هو الحال مع الذكور إضافة إلى أعمال الخياطة [...][1].

وضعت السلطات الاستدمارية –كما تقول **ريسلير**– منذئذ يدها كلية على تعليم الجزائريين، وكانت الاعتبارات السياسية تشمل تنظيمه على جميع المستويات. كانت الكتيِّبات المدرسية، مثلا، جزءًا جوهريا من النظام وكانت تُصَمَّمُ بعناية: بل كَلَّفت اللجنةُ المؤسَّسة بمرسوم 16 جوان[2]، أكاديميةَ الجزائر العاصمة بـ"تحضير عدد من الكتب الأولية وتحريرها، وترجمتها إلى العربية بعد الموافقة عليها، وهي كتب مخصصة لتعليم التلاميذ المترددين على المدارس الإسلامية ذوات المستويات المختلفة [...] ومذكور في التعليمات أنَّ الكتب المحضَّرة من اللجنة لن تُتَرجم إلا بعد الموافقة عليها. وترى اللجنة أنَّ

---

(1) CAOM, 22S/1.

(2) CAOM, 22S/1, Algérie, le 16 juin 1849, Arrêté du général de division gouverneur général de l'Algérie, Art. 1: «Une commission est instituée à Alger dans le but de rédiger des ouvrages élémentaires en langue arabe destinés à l'instruction des élèves des écoles indigènes de l'Algérie et d'en préparer l'adoption du gouverneur général».

هذه رقابة سياسية تراد ممارستها على هذا العمل عوضا عن الرقابة الأدبية. وَهِي مُسْتعدَّة لأن تخضع لذلك، بهدف تجنُّب إفلات أيِّ شيء من السيطرة، بإمكانه إيقاظ مشاعر العرب والإضرار بقضيتنا[1].

اتفقت الحكومة العامة بالجزائر ووزارة الحرب على اعتبار التعليم العام للمسلمين أولويةً حرجةً، تتطلَّب تنظيما يمنحهما سلطةً أكبر في القرار. وتشهد مراسلاتهم على ذلك، كما تعطي فكرة جيدة عن نتائجها السياسية، المعترَف بها للمنظومة التربوية أكثر فأكثر، بحكم الدور المراد لها لعبه وسط السكان الجزائريين، **لدعم مهمة الفرنسة ومحو الإسلام**، وهذا لتعويض المنظومة التربوية التقليدية في نهاية المطاف، شيئا فشيئا، وتكوين نُخَب جديدة في صف القضية الفرنسية. وعلى إثر رسالة مؤرخة في 19 أوت صادرة عن الحكومة العامة بالجزائر، أرسل وزير الحرب الردَّ التالي إلى رئيس الجمهورية (سبتمبر 1850):

وسط المسائل المهمة التي يُؤَثِّر حَلُّها حتما على مستقبل هيمنتنا بالجزائر، هناك في المقام الأول التعليم العام للأهالي. لم يعد تدخل الحكومة ضروريا في أيِّ مكان لتنظيم ومراقبة وإدارة التعليم العام. وإذا كان على الرعب المستوحى من أسلحتنا، أنْ يظل طويلا الضمانة الرئيسية لديمومة خضوع سكان متمردين، يفصلنا عنهم بشدة، العرقُ والدينُ، علينا أن نعترف أن عدلَ حكومتنا، وخدماتِنا للشعب، بإمكانهما طمأنة الأهالي بشأن نوايانا، وتهدئة قلقهم نتيجة غزو الاستدمار الأوروبي التدريجي لجزء من أراضيهم الزراعية. ولا شك، أن العناية الممنوحة للتعليم العام ستخدم هذه النتيجة. في مجال الاعتقاد، يثير العنفُ الوعيَ بينما يمكننا عبر التطوير المتدرِّج والذكيُّ للدروس أنْ نأمل في تجاوز التعصب وإبطال مفعوله. إنَّ إعادة إنشاء مدارس

(1) CAOM, 22S/1, Académie d'Alger, Université de France, Rectorat d'Alger, le 25 juillet 1849.

الأهالي، تحت وصايتنا، في الأماكن التي تخضع أكثر لهيمتنا، هو تهيئةٌ للسكان العرب لتقبل تدخلنا في أشد المجالات تعقيدا. وعبر اختيار الأساتذة، لدينا وسيلة للتأثير على أبعد الطبقات عنا، طبقات رجال العلم والدين. بعد أن أجرينا حساب الذين نسميهم رجال السيف ويسميهم العرب رجال البارود، علينا أن نضم إلينا أولئك الذين يُؤَثِّرون على العوام، من خلال سلطة التقاليد وقوة الكلام، وهو التأثير المسلَّم به أكثر من غيره[1].

وقد اقترح الوزير لاحقا إعادة تنظيم المدارس العليا في حين تظل المدارس الابتدائية والثانوية تحت سلطة الحكومة العامة بالجزائر. في 30 سبتمبر، ردَّ قرارٌ رئاسي بالإيجاب على توصياته ووضع المدارس الإسلامية تحت سلطة الحكومة العامة.

نلاحظ، عند قراءة الأرشيفات المختلفة (قوانين، مراسلات، قرارات) أنَّ إحدى وسائل الحركة والذي بدأ انبثاقه واستمرَّ يتعزز لتيسير انتشار هذه المنظومة التربوية و«شعبيتها»، هو وسيلة المِنَحِ. كما يمكننا أن نقرأ تحديدا، في المادة 2 من القرار المذكور آنفا أن «رأسمالا سنويا مسَجَّلا في ميزانية الدولة سَيُوجَّه للموافقة على علاوةٍ للمدرِّسين المميَّزين وأكثر التلاميذ جدارة». ولا تؤكد هذه الفقرة إلاَّ الطابع السياسي لنظام الاستحقاق في التعليم الأهلي كما رُسِّمَ سنتين قبل ذلك في المادة 8 من تنظيم التعليم العام[2] «تعيين ثلثي التلاميذ المستفيدين من المنح مِنْ حق وزير الحرب» وفي المادة 9 «في حالة الدعم المخصَّص لإشراك الأهالي المسلمين الجزائريين في التعليم داخل المدارس الفرنسية، يكون تعيين هؤلاء الأهالي من حق وزير الحرب، دائما وحصرا».

---

(1) CAOM, 22S/1.

(2) CAOM, 1S/1, ministère de la Guerre sur l'Arrêté de la présidence du conseil en date du 30 mai 1848 – L'administration de l'instruction publique en Algérie est remise au ministère de l'Instruction publique.

في تقرير مؤرخ في جويلية 1848 لوزير الحرب، يمكننا أن نقرأ بهذا الصدد: [...] إنَّ نص المادة نفسها (8) الذي يخوِّل لوزير الحرب على نحو حصريٍّ، تعيين التلاميذ المسلمين المستفيدين من المنح، هو نتيجة للمبدأ الذي يُبْقي ضمن مهام دائرته جميعَ الشؤون المتعلقة بالسكان المسلمين. وستكون مِنَح هذا الصنف، بالإضافة إلى ذلك، مُقَرَّرَةً وفقا لاعتبارات سياسية، وحده الوزير بإمكانه تقديرها، والذي من مهامه الحكم العام للبلاد»[1].

حاولت فرنسا بكلِّ الوسائل، جذْب الشباب الجزائريين نحوها، و«ترسيخ التعليم العربي-الفرنسي وتطويره»[2]. انطلق كلُّ شيءٍ لأجل هذا الهدف رغم ممانعات السكان: هناك مِنَحٌ، بالتأكيد، ولكنْ توزيع جوائز أيضا[3]، وعلاوات مختلفة، ومكافآت يومية، وتسامح ديني (تقبلت الجمهورية الثانية والإمبراطورية الثانية الصلاة الإسلامية بالمدرسة الفرنسية). وإذا كانت النتائج قد تمثلت تحديدا في جلب أشد التلاميذ فقرا، فإن السلطات العمومية الاستدمارية أظهرت تفاؤلا معينا بشأن ترددِ الطبقات الميسورة أكثر على مدارسها، والآفاقِ المستقبلية للمدرسة العربية الفرنسية. شكَّل تكوينُ المعلِّمين عنصرا جوهريا في السياسة المدرسية الفرنسية. إذ كانوا يمثِّلون في مجال التربية، صورةَ ثقافةٍ، وحواملَ صرحٍ بأكمله، وضماناتِ نجاحٍ باختصارٍ شديد، ولم يكونوا القوى الموجِّهة لرؤية العالم بشكل من أشكال، فحسب. إنَّ المصداقية التي اكتسبوها وسط السكان ما فتئت ترفع هذه الأهمية في عيون السلطات العمومية الاستدمارية. ولم يكن ممكنا رغم ذلك، نقل الحضارة الفرنسية، ومعاييرها، وقيمها، إلا عبر المدرسة، التي ما تزال غير منتشرة، ولا تمس إلا جزءًا يسيرا من السكان الجزائريين. وهكذا، وُضِعَتْ أَدَوَاتٌ

---

(1) *Ibid.*

(2) Y. Turin, "Une page de publicité scolaire: la distribution de prix des écoles arabes-françaises à Alger en 1852", *Revue d'histoire maghrébine*, n°21-22, avril 1981, p.72.

(3) Ibid; p.72.

مُسَاعِدةٌ أخرى في خدمة هذا المشروع الكبير، الذي كان المُبَشِّرُ به هو النـاطقُ بِلِسانِ رِسالةٍ، تحمل في ذاتها، وفيما وراء دلالتها الدينية، أَحَدَ أُسُسِ الحضارة الغربية نفسها. بعد أربعين سنة من الحضور بالجزائر، غزتْ فرنسا أرضـا، لا يربطها بها شيءٌ سلفا، وفَرْنَسَتْها جزئيا. وسيُثبت تنصيبُ النظـام المـدني، أنَّ فرنسا بعد بضع عشرات مـن السـنين، لم تكـن بحاجـة أبـدا لاسـتعمال قـوة السلاح؛ كانت الجزائر **تبدو** محصَّلة بشكل نهـائيٍّ. خـلال كـل هـذه الفـترة، شهدنا انتشارا مُهِمًّا للوسائل الثقافيـة الـتي مَوَّلتهـا واسـتَخْدمتها السـلطات العمومية الاسـتدمارية علنـا، في سـبيل القضـية الاسـتدمارية، ولم تـتردد في الاعتراف بأنَّ **الثقافة كانت مفتاحا للهيمنة**. ولم يترك العسكريون، الماسكون بإدارة السياسة أيَّ شيء للصدفة.كانت هناك فعلا سياسة ثقافية، هـي جـزء مكمِّل للسياسة الاستدمارية، المحدِّدة لها بالتضافر، في اتجـاه المصـلحة العليـا، وبقاء الجزائر فرنسية وإدماجها الكليِّ في فرنسا.

المرحلة الثانية: ذروة الاستدمار (1870–1939): **السياسة الثقافية في إطار سياسة التشارك**

أكَّدت الجمهورية الثالثة رسميا، إرادتها في استعادة مسلك الإدماج بشكل أكثر فعالية. وكان **أرتور جـيرو** Arthur Girault، أحـد المنظِّـرين الرئيسـيين للتشريع الاستدماري، والذي كان يؤمن إيمانا صادقا بفضائل الإدماج، يشرح في سنة 1894 إلى أيِّ مـدى تظـل رومـا الـتي نجحـت في نشـر لغتهـا ودينهـا وعاداتهـا بـبلاد الغـال وإسـبانيا وأفريقيـا، مثـالا سياسـيا لفرنسـا الإمبراطورية:«نحن الفرنسيين، لاتينيون، شكَّل تأثير روما عقولنا طيلة قرون، ولا يمكننا الإفلات من هذا الاستحواذ، وسيكون انحرافُنا عن الدرب الـذي خطته لنا، تكليفًا لأنفسنا بما لا تطيق. نحن لا نجيـد، وبالتـالي لا نمـارس، إلاَّ

الإدماج»[1]. وكان الشباب الجزائريون، نتاجُ الثقافة الفرنسية، قليلي العدد، ولكنَّهم نشطون، سِيَّما بواسطة الصحافة والدعاية السياسية، يجلبون تعاطف الرأي العام والطبقة السياسية الفرنسية. وكان بعض رجال السياسة بالحاضرة الفرنسية، يحذِّرون الطبقة السياسية من مخاطر هذه السياسة المضلِّلة في نظرهم، بل التي تمثل حسبهم خطرا على الديمومة الفرنسية بالجزائر، وكانوا يطالبون بسياسة جديدة مع الجزائريين، أكثر مرونة على المستوى الثقافي تمكِّن من تشكيل طبقة من الوسطاء intermédiaires، مفرنسة قليلا، محاوِرة ومتميِّزة، قائمة بين الثقافتين. ابتداء من سنة 1901 سيُتْرَكُ الإدماجُ، الذي لم يعد يصنع منافسين، مكانه تدريجيا لسياسية جديدة، متوافقة أكثر مع أفكار العصر ومتطلبات السياسة. في 14 جوان 1901، كان رئيس المجلس آنذاك، **والديك روسو**، يطلق رسميا فكرة «سياسة أهلية» في خطاب شهير بالغرفة: «بالنسبة للأهالي، دون أنْ ننخدع بأمل جلبهم نحو تحضُّر مستحيل، علينا أنْ نثابر في جعلهم يدخلون طريق التقدم، باتجاه صفاتهم ومنطقهم، وعاداتهم وتقاليدهم، ونحملَهم -إنه التعريف الأكثر سحرا الذي يمكنني العثور عليه- على تطوير أنفسهم ليس داخل حضارتنا وإنما حضارتِهم»[2]. وهكذا انفتحت الطريق لهذه «السياسة الأهلية»، المتمثلة في إرخاء القبضة الثقافية المرتبطة بسياسة الهيمنة مع ترك الاستمرارية للهوية التقليدية، أيْ الكد لتطوير كلِّ تجمُّع عرقيٍّ داخل وَسَطه الخاص بالإبقاء على خصوصياته، وعاداته الخاصة»[3] (داخل ثقافة، هي في الواقع، مختزَلة في الرتبة الثانوية، كما أبقت المصالح الفرنسية قبضتها عليها[4]). ولكنَّها كانت سياسة

---

(1) A. Girault, *Principes de colonisation et de législation coloniale*, t.1,1894, P.34. Cité dans Ageron, *France coloniale…*, p.196.

(2) Cité dans Ageron, *France coloniale…*, p.219.

(3) Déclaration du gouverneur William Ponty, 1909, cité dans *ibid.,* p.221.

(4) Vatin, "Exotisme…", *loc. cit.,* p.170.

استدمارية أكثرُ لطافة، تزعم إشراك السكان المحليين في إنجاز مشترك للتقدم، حيث على الجميع، أوروبيين ومسلمين، أنْ يكونوا مستفيدين. كان الهدف، هو جلب السكان المحليين نحو القوة الاستدمارية بملء رغبتهم، مع البرهنة لهم أنَّ في ذلك مصلحتهم. كان **شيلاي-برت** Chailley-Bert يزعم بهذا الشأن، وجوب توفر «علم للسياسة الأهلية»، سياسة مدروسة بدقة، تُحَفِّزُها أسبابٌ محدَّدةٌ جدا، وتطبَّق بذكاء، وهذا بالإضافة إلى أن التقديرات بالجزائر نفسها، كانت ترى أنَّ من الضروري العثور على بديل لسياسة الإدماج التي يجب «رفضها بسبب المصلحة العليا للدولة»[1] لتجنب تحوُّل السكان ذوي الأصل الأوروبي إلى أقلية غير ذات بال.

تحدَّدت النظرية، المضطرِبة قليلا، لـ «السياسة الأهلية» تدريجيا، واتضحت لتأخذ اسم «سياسة التشارك». وتأكد الطعن الرسمي في صلاحية سياسة الإدماج سنة 1905 بواسطة وزير المستدمرات colonies، **كليومنتيل** Clémentel، الذي قدَّر أنَّ من الضروري «استبدال سياسة التشارك بسياسة الهيمنة»، وسيتواصل هذا التوجه الجديد للسياسة الاستدمارية إلى غاية نهاية الجمهورية الثالثة، رغم أنَّ الضرورات الملاصقة لنظام الاستدمار نفسه، ساهمت من حيث الممارسة، في إدامة مبادراتٍ من النمط الإدماجي. "وهذا **بنون** Penant على سبيل المثال عند إدانته للإدماج، يستدعي أمانيَه عن اليوم الذي يتمَكَّنُ فيه المستدمَرون-المنبعثون عبر مسيرة الزمن ومن خلال التعاطف الذي سيثيره لديهم موقفنا الجديد (التشارك)- من استقاء عاداتِنا عند الاحتكاك بحضارتنا"[2]. **هو يوضح بهذا، الالتباسَ الجوهري الذي يشمل كل السياسة الاستدمارية، أيْ عدم التوافق بين الخطاب والواقع السياسي،**

---

(1) Brouillet, chef de Cabinet du gouverneur général Cambon, puis chef du service de l'Algérie au ministère de l'Intérieur, 1901.

(2) Cité dans Y. Paillard, "L'Association, une nouvelle politique coloniale. Discours et pratique (1905-1914)", dans *Histoires d'Outre-Mer, Mélanges…*, P.82.

بين الخطابة الإيديولوجية والمصلحة الوطنية. وضمن هذا المنظور ستلعب السياسة الثقافية، أيْ سياسة الظاهر، دورا أساسيا أكثر فأكثر.

تُصَاغ السياسة الثقافية، التي أساسها المصلحة العليا للدولة، بالحاضرة الفرنسية، على مقاعد القاعات نصف الدائرية، والدواوين الوزارية. كان الحزب الكولونيالي، الحاضر في جميع أجهزة الدولة، أحدَ الروَّاد في مجال صياغةِ السياسة الثقافية والوعيِ بأهميتها، في مسار تأكيد الإمبريالية الفرنسية. وقد سمح له «امتداده السياسي» الواسع بتطبيق نظرياته على المستوى الحكومي. "كان حاضرا في المسار الثقافي داخل جهاز الدولة نفسه، الذي يملك دورا من الرتبة الأولى في هذا المجال"[1]، ولكنْ أيضا عبر الاستعمال المكثَّف للأجهزة الثقافية المدرسية، والإعلامية والفنية، وكان أعضاء كثيرون من الحزب الكولونيالي معنيين بهذا إلى أعلى درجة، مثل **أوجين إيتيان** Eugène Etienne، أحد زعمائه، الذي كان أيضا نائبا عن وهران مدة 47 سنة.

انطلاقا من منعطف القرن، بدأت السياسة الثقافية للعهد الأوَّل تؤتي ثمارها الأولى، وانطلاقا من العشرينيات، أصبح بإمكاننا القول أنَّ "البُنى الثقافية الجَمْعية [...] التي ما زالت في مرحلة ما قبل الحرب، وواقع النخب «المفرنسة» الضعيفة، تحديدا [...] كانا يميلان نحو المستوى الشعبي"[2]. كان الأهالي مستقبِلين أكثر فأكثر لهذه الثقافة الغربية التي بدأوا منذ تلك اللحظة في استيعابها. تكيَّفت السياسة الثقافية مع هذه الوضعية الجديدة وانقلبت أكثر لطافة بحيث أنَّ إيديولوجيا التشارك عوَّضت رسميا إيديولوجية الإدماج، مع حظر كل مبادرة للمثاقفة القسرية. لم يكنْ بإمكان جوٍّ الغليان الكبير، الفكريٍّ

---

(1) Marc Lagana, *Le Paris colonial français*, Québec, Presses de l'Université du Québec, coll. Éléments d'Histoire, 1990, p.141.

(2) Meynier et *al., op. cit.,* Tome II, p.192.

والثقافيِّ الذي ميَّز تلك المرحلة البهية، أنْ يترك نخبا أهلية مثقفة غير مباليـة، فقـد خدمت، عن وعي أو بدونه، مصالح الحاضرة الفرنسية.

بالجزائر، تميزت الحياة الثقافيـة في هـذه الفـترة بالحـاكم **جونـار** Jonnart. وشكَّل تقريرُ **أرسان ألكسندر** عن وضعية الفنون بالجزائر، بإمرة **جونار** سنة 1906، "منعطفا في العلاقة الثقافية بين الحاضرة الفرنسية والمستدمَرة"[1]. بإدانته للوضعية الكارثية للفنون الأهلية والأوروبية على حـد سـواء، كـان يُسَـجِّل بداية سلسلة نشاطات مهمة مباشَرةٍ سعيا لمعالجة هذه الوضـعية. وقـد تجلَّـى بوضوح، تدخُّل السلطات العمومية الاستدمارية انطلاقًا من هذا التـاريخ في جميـع المجـالات الـتي تُلامِـس عـن قـرب أو عـن بعـد الثقافـة والفنـون الجميلة...باختصار، كان هناك بالتأكيد، موقف سياسي جديد إزاء الثقافة. "إنَّ البنية التسلطية التي نُصِّبتْ شيئا فشيئا، ولكنْ رفقـة ارتجاجـات وضـلالات، نَقَلت الجزائر من علاقةٍ أساسُها القيادة السياسـية المهيمِنـة إلى علاقـة قائمـة علـى الإدارة الثقافيـة الرئيسـية"[2]. كانـت الجامعـة والبـاحثون، وراء إنتـاج خطابٍ مُشَرْعِنٍ، وكان أنصار المدرسة الأوروبيـة بـالجزائر يهتفـون بالنجـاح الفرنسي، وكنا نشهد فرنسا واثقةً من نفسها في كل مكان، لم تعد غازيـةً، بـل ساعية لتعزيز بصمتها وجذب الآخرين وإبهارهم.

ستشهَد هذه السياسة ذروتهـا بمناسـبة احتفـالات الـذكرى المئويـة، الـتي أحاطت، طيلة عشـر سـنوات، النجـاحَ الفرنسـي بهالـة، وأعلنـت «الاتحـاد السرمدي بين فرنسا الحاضرة وفرنسا الأفريقية، ،،،ثمرة المجهود المشـترك»[3].

---

(1) François Pouillon, "Echange agonistique et marché des valeurs artistiques: situation de la peinture en Algérie: l'image dans le monde arabe", *Annuaire de l'Afrique du Nord*, 1993, vol.32, p.166.

(2) Vatin, "Exotisme…", *loc. cit.,* p.180.

(3) CAOM, 64S/51, Commissariat général du centenaire de l'Algérie, L'œuvre du centenaire.

وُضعت دعاية رسمية موضع التنفيذ:«إنَّ مصيرَا فرنسا هذه وفرنسا تلك قد اتحدا إلى الأبد: ستكون كلٌّ واحدة كبيرة بالأخرى، وتُدْرِك الجزائر جيدا ما تَدِين به لأمِّها فرنسا*، لهذا هي لا تفكِّر، في أشدِّ أحلامها طموحا، أنْ تتحرَّر من سلطتها الشرعية. ماذا يمكن لهذه الأعمال أن تكون؟ هي تلك التي سَتُشِعُّ أحسن داخل هذا البلد بعبقرية الوطن-الأم، حاضرة الفنون والحضارة هذه [...]»[1]

➢ **صناعة نخبة أهلية مُفَرْنَسة ولكنْ ليس بالقدر الكبير**

في حرب الحضارات هذه، كما تصفها **ريسلير**، كانت فرنسا تستعمل الثقافة بطرق شتى في محاولة لاستخراج الأحسن، وفي الوقت المطلوب، أيْ فرض معاييرها الخاصة بها أو معايير جديدة متكيَّفة مع ديمومتها السياسية. لأجل هذا، كان الأمر يتطلَّب ناطقين باسمها مقتنعِين بها، ولكنْ ذوي مصداقية كذلك. فرضت الضرورة نفسها بـ «تلقين حضارتنا وعاداتنا وجميع معارفنا لأناس شباب، سيكونون وسطاء نافعين بيننا وبين إخوانهم في الدين»[2]. ووجب على هؤلاء المبشِّرين بالقضية الفرنسية أنْ يكونوا مفرنَسين تماما دون أنْ يفقدوا، رغم ذلك، خصوصيتَهم الثقافية كُلِّية:« [...] من كان بعيدا جدا عن الغرب، كان أقرب إلى ثقافته الأصلية، لقد بقي عربيا (أو قبائليا). ولكنْ من كان قريبا جدا من الغرب، كان أبعد عن ثقافته الأصلية، لقد أصبح مجرَّدا من إسلامه وعروبته، هو يظن نفسه فرنسيا. نتوقف عن كوننا ممتازين بمجرد عبورنا لدائرة الثقافة التقليدية. ولن نكون كذلك، مادمنا لم

* وذلك لأنَّ العكس هو الصحيح، ففرنسا هي المَدينة للجزائر، نتيجة ما ارتكبته بحقها من جرائم على جميع المستويات، لأجل هذا فكرت الجزائر وقررت منذ احتلالها بثورات عدة للتحرر.

(1) Ibid.

(2) Ministre de la Guerre Bernard en 1839, cité par Lanasri, op. cit; p.35.

نلج إلى دائرة الثقافة الغربية»[1]. كان **جون ميليا** Jean Mélia يُوَضِّحُ خصوصيةَ النظام هذه، بسرده للحظ العاثر لشاب جزائري مفرنس، حاصل على الليسانس في الحقوق، يلتقي ممثل الحكومة العامة لاستجداء منصب قايد، قوبل بالرد التالي: «ولكنَّك لم تُفَكِّرْ في الأمر! فأنت تلبس على الطريقة الأوروبية، إذ تضعُ قبعة، أنتَ مْطُورْني m'tourni! لن يتعرف عليك إخوتك في الدين، وإنْ تعرَّفوا عليك سيكون بمقدورهم الإساءة إليك»[2].

كانت المدارسُ، باعتبارها المكان المفضَّل لتكوين الوسطاء الأهليين المستقبليين، أحدَ العناصر الجوهرية في السياسة الثقافية الفرنسية. ويُقدِّم الحاكم العام مخطَّطا جيِّدا عن أهميتها في مراسلة عنيفة إلى وزيره سنة 1880[3]، التي تمكِّن في الوقت نفسه من رؤية أنَّ فرنسا، وإلى غاية بداية القرن، لم تكن تأخذ فعلا احتياطات بشأن السياسة الدينية. فالمدارس التي لم تكن دينية، أُسِّست، حسب رأيه، «لكي يتم تكوين طلبة الدين المسلمين تحت تأثيرنا وإدارتنا، وهو التكوين المنفلت تماما من رقابة الدولة في المدارس، المسلمة كلية». كانت المدارس تشكِّل المكان المفضَّل لتكوين المحامين، وأئمة الشعائر الإسلامية، ومختلف موظفي الإدارة الكولونيالية، «الذين عليهم أنْ يتلقَّوا إدارةً غير تلك التي قد تُمْنَحُ لهم في ظل المساجد». كانت تمارس تعليما للفقه الإسلامي «مستخرج من النزعات العدائية الموجودة لدى كل العلماء المرتبطين بالمساجد أو مديري الزوايا الحرة، تقريبا». كانت المدارس، وسيلة فعالة لـ«الكفاح ضد التحركات المعترف بها نوعا ما، من أحزاب دينية إسلامية، يمثلها أئمة ومدرِّسون وقيادات دينية وشيوخ زوايا»، قليلة التعاون مع فرنسا، مادامت تسحب من تأثيرهم النخب الأهلية المستقبلية. عملت

---

(1) Fanny Colonna, *Instituteurs algériens 1883-1939*, Alger, OPU, 1975, p.169.

(2) Cité dans Lanasri, op. cit; pp.40-41.

(3) CAOM, 24S/1.

السلطات الاستدمارية كلَّ شيء، كي تقتلع منها «جذريا» دراسات علم الكلام، وتستبدل بها مواد لم يكن أئمة الشعائر الإسلامية قادرين على تدريسها (الفرنسية، التاريخ، الحقوق...) ولكنْ يُحَتِّمها دبلوم مطلوب للدخول إلى الوظيفة العمومية. كانت التجسيد الفعلي لسياسة متَّبعة بضراوة، وبشكل مستمر، منذ 50 سنة. ستبقى المدارس في مركز انشغالات السلطات العمومية الاستدمارية. وسيبني الحاكم **جونار** Jonnart منها اثنتين جديدتين بالعاصمة ووهران سنتي 1904 و1905، مُبْرِزا بذلك العنايةَ التي تُوليها السلطة الكولونيالية للتكوين العالي للأهالي وللرقابة على رجال الشعائر الإسلامية.

ولأجل إنجاح سياسة الفرنسة، تحرك الاستدمار عبر الجبهات التالية:

➢**اللغة العربية** (دعم ظرفي-استخباراتي)

بُذِلَتْ جهودٌ لدعم اللغة العربية بهدف سدِّ النقص الحاصل في المرشحين القادرين على النهوض بأعباء مناصب الإدارة الأهلية. في هذه الفترة، كان رجال المدرسة الأوروبية بالجزائر algerianistes، يحاولون، مَنْهَجَة تطوير اللغة العربية لدى الأوروبيين. وبدا أنَّ هذه الإرادة تتوافق مع توجه إيديولوجي "تشاركي" associationniste أكثر، كان يميز السياسة الاستدمارية في بداية القرن العشرين، وبين 1904 و1914، أصبحت العربية المنطوقة إجبارية على التلاميذ الفرنسيين في المدارس الابتدائية بالجزائر. وقد تطلبت هذه المبادرات ترتيبات، وتطويرات لبنى تعليم اللغة العربية، ولكنَّها تدهورت مع بداية الحرب العالمية الأولى. لم تُكَرَّر التجربة مع انتهاء الحرب، رغم أن العديد من رجال السياسة أبدوا دعمهم لهذا المبدأ. في سنة 1937، على سبيل المثال، وعقب محاضرة عن شمال أفريقيا، انعقدت بباريس تحت رئاسة **ألبير سارون** Albert Sarrant حول مسألة تعليم العربية، كلغة إجبارية في ثانويات أفريقيا الشمالية، تمخَض عن

ذلك، أنَّ ترقية العربية وسط السكان الأوروبيين بالجزائر، كان وسيلة لتحسين فعالية الإدارة بإتاحة مزيد من "الاحتكاك مع السكان الأهالي"[1]. وكانت مذكرةٌ صادرةٌ في سنة 1938 عن توسيع معرفة اللغات الأهلية وسط الموظفين ومختلف عناصر السكان الأوروبيين، تؤكِّد هذه الإرادة في تطوير العربية داخل الإدارة الفرنسية[2]: وكان الموظفون الأوربيون يشجَّعون عبر منحهم علاوات، جراء اكتساب اللغات العربية والبربرية (مرسوم 4 ديسمبر 1849 الموسَّع بمراسيم متعددة لمختلف أصناف العاملين بالمستدمَرة). كانت المنحة من 200 إلى 400 فرنك. وكانت المذكرة تقدِّر أن عدد الحاصلين عليها ونسبة زيادته (10%) غير كافيين.

كانت مَعْرِفَةُ العربيةِ، من ناحية أخرى، مفروضةً على بعض العاملين لأجل التقدُّم في الرتبة (إداري ونائب إداري للبلديات المختلطة) أو لأجل التثبيت في المنصب (محافظ محقق بالملكية الأهلية).كان مدير أكاديمية الجزائر العاصمة، يعطي رأيه للحاكم العام بهذا الموضوع:"أضيف أنه من الضروري أنْ نمتلك وسط كل جيل عددا من المعرَّبين، ضليعين أو مبسِّطين (للعامة)، قادرين على إبقاء الاحتكاك مع العالم الأوروبي والعالم المسلم، وكذلك على أنْ يكونوا **مُخْبِرينَ** informateurs [...]. كان عدد هؤلاء المخبرين الأكفاء، والإداريين والقضاة، القادرين تماما على فهم المتعاملين معهم والمتقاضين إليهم، يتناقص بشكل محيِّر جدا"[3]. وحسب رأيه، على المجهود أنْ يُبْذَلَ على مستوى التعليم (الابتدائي والمتوسط والثانوي) :"إذا عدَّلنا قليلا نصَّ قوانين

---

(1) CAOM, 3 CAB 77, Lettre du GGA G. Le bureau au recteur de l'université d'Alger, 17 novembre 1937.

(2) CAOM, 3 CAB 77, Lettre du GGA G, Direction générale des affaires indigènes, Alger, 1er mars 1938, 2ème Bureau, Administration générale.

(3) CAOM, 3 CAB 77, Lettre du recteur de l'Académie d'Alger au gouverneur général de l'Algérie.

البكالوريا، يمكننا رُبَّما أنْ نُسَهِّل التوجيه الذي نريده"، أيْ جعل العربية إجبارية إلى جانب الإنجليزية والألمانية؛ وعلى مستوى الجامعة بتسهيل دراسة العربية بسانت سير Saint-Cyr وداخل مدارس الإدارة. ويشرح أنَّ مِنَ الضروريِّ 1) تنظيم تعليم وسيط للعربية بين البكالوريا وبين مسابقات المدارس الكبيرة أو امتحانات التوظيف الإداري. 2) الفرض الإجباري لمعرفة العربية بالقدر الكافي بمجرد الدخول إلى الوظائف الإدارية أو القانونية الممارَسة بالبلدان العربية.

➢توسيع اللغة الفرنسية واستئصال العربية

رغم ذلك، لم تَعُدْ الجزائر في الستينيات، سِيَّما بعد عودة الجمهورية، «مملكةً عربيةً»، وإنما «مقاطعة فرنسية» منذ تلك اللحظة. وبالتالي أصبحت الفرنسية إجبارية على نحوٍ مشروعٍ[1]. وإذا أراد الأهليُّ الاندماجَ، كان عليه تَبَنِّيَ اللغة الفرنسية للعمل أو الكتابة أو التعلم أو قضاء الحوائج الإدارية. في المدارس الريفية، كانت الجهود تُبذلُ لصالح تقدُّم الفرنسية، دون المرور بالعربية. "كانت البيداغوجيا الأولى متمحورة حول تعلُّم اللغة الفرنسية بطريقة ملائمة: ليس بالرجوع إلى لغة الأم وإنما على نحو مباشِرٍ، بالتطبيق المتكرِّر للكلمة على موضوعها"[2].

رغم ممانعات سكان القبائل لتقنين ثقافتهم في مواجهة الثقافة العربية، كانت الإدارة تكِدُّ في إرادتها لفرنسة بلاد القبائل، يُغريها في تحقيق ذلك، المدرسةُ قبل كل شيء، والإدارة كذلك. قرر **جول فيري** Jules Ferry، في إطار «سياسته البربرية» bèrbère، إيجاد ثماني مدارس ابتدائية بالقبائل على

---

(1) النتيجة المنطقية لذلك، إعلان العربية لغة أجنبية بالجزائر، مرات عديدة (1935، 1938).
Cité dans Pervillé. Op. cit..p.25.

(2) Goinard, op. Cit.. p.248.

حساب الدولة. سُمِّيت «مدارس وزارية». وكان جهدُ الفرنسة أهمَّ وضوحا، في بلاد القبائل من بقية المقاطعة. وفي حين كانت العشيرة القبائلية بْني يَنِّي Beni-Yenniتملك أكثر من مدرسة بالقرية الواحدة (الأمر الذي يجعلها الأكثر تمدرسا بالجزائر في 1914)، لم تكن **فليب فيل*** بالمقابل، قد فتحت مدرسة أهلية واحدة. في 1906، على سبيل المثال، «وبهدف استبدال اللغة الفرنسية تدريجيا **بـ**اللغة العربية** في جميع العقود المنجزة بالقبائل»[1]، كان القضاة الموثّقون مجبَرين على تحرير عقودهم بالفرنسية.

استفادت السلطات العمومية الاستدمارية كثيرا من هذه السياسة **في استئصال العربية لصالح الفرنسية**. ولا حاجة لتحديد المصلحة السياسية البديهية لهذا التعديل الثقافي العميق: كانت النتائج لا تُعَدُّ ولا تُحْصى. وكان على هذه الفرنسة أنْ تترافق حتما مع تهميش للغة العربية، التي أصبح عليها منذ تلك اللحظة النزول إلى مجال المقدَّس، والانغلاق داخل صنف ثانوي باعتبارها لهجة محلية.

هناك في الواقع، معتقَدان لا يمكن للكولونيالية القاتلة للغات الأخرى glottophage أنْ تقتصد فيهما. الأول هو المعتقد الذي يكون المستدمَرون وفقه رابحين كل شيء بتعلمهم لغتنا، التي ستدخلهم إلى الحضارة والعالم المعاصر. الثاني يَنُصُّ على أن اللغات الأهلية تبقى عاجزة في كل الأحوال عن أداء هذه الوظيفة، وعن نقل المفاهيم المعاصرة والتصورات العلمية، وعاجزة عن أنْ

---

* سكيكدة حاليا.

** الباء متصلة بالمتروك.

[1] Gouverneur Jonnart au Ministre. A.G.G. G 28 rapport du 22 aout 1906. Cité dans Ageron, Les Algeriens musulmans…, p.880.

تكون لغة تعليم أو ثقافة أو بحث [...] نبحث عن بيان أنَّ الْتِهَام اللغات الأخرى أمر بديهي، لا مفرَّ منه، وفوق هذا يتمناه المستدمَرون أنفسهم[1].

وكتوضيح لهذا المبدأ، يطرح **لوي جون كالفي** Calvet خطابا لـ**جورج مارسيه**، رغم كونه معرَّبا محترَما، مستخرَجا من العدد الأول من المجلة البيداغوجية (1931):

من غير العملي، وغير المعقول، ومن النادر في الواقع، أنْ يتعايش لسانان حضاريان طويلا جدا في بلد واحد. حينما يحظى المتنافسون بمقام كهذا، يُعَبِّرون، على نحو ملاحَظ، عن الأشياء نفسها، وينطقونها جيدا بهذا وذاك على حد سواء، مع مبررات شاعرية مساعِدة، فإنَّ بإمكان هذا الإسراف في القوة أنْ يتمدد. ولكنْ، حينما تكون إحدى اللغتين هي لغة المسيِّرين، وتفتح الباب على حضارة معاصرة كبيرة، وتكون واضحة، ويكون التعبير المكتوب بها والتعبير المنطوق للفكر متقاربين بأقصى قدر؛ وأنَّ اللغة الأخرى هي لغة المسيَّرين، وتعبِّر في أحسن كتاباتها عن مثال من القرون الوسطى، وتكون ملتبسة، وتأخذ حين نكتب بها شكلا مختلفا عن نظيره حين ننطق بها، فالجولة ليست متكافئة حقا: وعلى الأولى أن تَصُدَّ الثانية حَتْمًا[2].

يبدو أنَّ السلطات العمومية الاستدمارية، نجحت عبر سياسة رئيسية فعالة، في احتواء العربية بشكل أحسن، ضمن وضعية المُوَجِّه للثقافة الكلاسيكية، والبرهنة تبعا لذلك على عدم ملاءمتها للتقدم. في سنة 1896، أنشأ **الإخوة أحمد** (1872–1917) و**قدُّور الرودوسي** (1878–1973)، في قلب القصبة، أول مطبعة–مكتبة عربية للجزائر (*المطبعة الثعالبية*) التي أصبحت لاحقا أول دار نشر عربية. "حاجة السوق المحلية، ومنافسة المطبعة الشرقية

(1) Calvet, op. cit., pp.123-124.
(2) Ibid. p.125, note I.

والفرنسية (كان هناك طابعـان-مكتبيَّـان-ناشـران فرنسـيان، متخصصـان في النشر باللغة العربية قد استقرا بالعاصمة: **أدولف جـوردان وبـيير فونتانـا**). كانت التقييدات الإداريـة (مثـل حظـر بيـع ونشـر عـدد معـين مـن الكتـب والدوريات، عبر مقص الرقابة الحكومية) تَحُدُّ مِنْ كَـمِّ وكَيْـفِ المنشـورات. ولهذه الأسباب، كان علـى الأخـوين **رودوسـي** بـلا شـك أنْ يلـوذا بمجـال الثقافة الكلاسيكية[1].

➢**اللغة الأمازيغية ضد التعريب.**

كان الكفاح ضد التعريب يمر عبر ترقية اللغة القبائلية*، التي سعت فرنسـا إلى الحفاظ على لهجاتها المختلفة، كي لا تكون العربيـة في هـذه المنـاطق لغـة الثقافة أو لسان التخاطب. نُسَجِّل، مِنْ بين مبادرات عديـدة مُتَّخَـذة في هـذا المجال، إنشـاء كرسـي للـهجات البربريـة في 1885 بـدار الآداب بالعاصـمة. وكانت دراسة العربية غير مشجَّعة بالقبائل بل محظورة في المدارس الفرنسية، وهما العنصران المحرِّكان لهذه «السياسة البربرية». في 1910، طلبـت الحكومـة العامـة تحقيقـا عـن توزيـع اللغـة البربريـة بـالجزائر اسـتثمره قـوتيي Gautierو**دوطي** Doutté. "وهما مُدَرِّسان كُلِّفا بفرز النتائج والتعليـق عليهـا. ولكنْ لحساب الدولة، والإدارة. ليس هو بحثٌ جامعيٌّ، وإنما مشروع رسميٌّ يَتَطَلَّبُ جامعيين"[2]. وقد نتج عن التحقيق الاندثار التـدريجي للغـة القبائليـة لصالح العربية. وظل الكفاح ضـد التعريـب مُكَثَّفـا. وفي سـنة 1915، أُكْـرِهَ القضاة-الموثِّقون على تقديم شهادة في اللغة القبائلية كـي يمارسـوا مهنـتهم.

---

(1) Bencheneb, loc.cit., p13.

* لا تلغي هذه الحقائق التاريخية مشروعيةَ تعلم الأمـازيغي للغتـه، كمـا يـتعلم الفارسـي لغتـه، والتركي لغته إلى جانب اللغة العربية. كما لا تعني هذه الحقائق غفلة علماء زواوة عـن المشـروع الاستدماري في تلك المرحلة.

(2) Lucas et Vatin, op.cit., p46.

وكثيرون هم الذين كانوا ما يزالون يعتقدون، زمن الحرب العالمية الأولى، على غرار الحاكم **لوطو** Lutaud أنَّ «الأهليَّ المعرَّب يأخذ وعيه أكثر بذهنيته الإسلامية وبالمسافة التي تفصله عنا»[1] وبالتالي كانوا يعتبرون أكثر من أيٍّ وقت مضى ضرورة مواصلة استئصال العربية، سيَّما بين سكان القبائل.

المرحلة الثالثة: من حرب عالمية إلى ثورة تحريرية (1939-1962): السياسة الثقافية والبحث عن الإدماج

نلامس هنا - كما تقول **ريسلير**- مسألة جوهرية أثارتها الحرب العالمية الثانية بحدة، وشكّلت رهانا للسياسة الفرنسية بالجزائر إلى غاية الاستقلال. لم يَعُدْ بإمكان فرنسا منذ تلك اللحظة أنْ تأمل في الحفاظ على الجزائر دون **تقديم تنازلات كبيرة على المستويْن الثقافي والديني**. أصبحت فرنسا خلال هذه المرحلة مرمى لحملتين دعائيتين خارجيتين، أضعفتا سلطتها على السكان المسلمين بالجزائر. فمن جهة كانت الدعاية الإسلامية التي أغرَقها فيها، مكتبُ المغرب العربي لصالح مغرب كبير موحَّد، ونظَّمها المفتي السابق للقدس الشيخ أمين الحسيني، ونشطت، بشكل خطيرٍ، يقظة الهوية الجزائرية التي كدَّت فرنسا في مكافحتها سنوات طويلة وعديدة. ومن جهة أخرى هناك دعاية أمريكية "متَّهَمة بالمسؤولية عن تمجيد الشعور القومي"[2]. لأجل هذا أصبح المسلمون، محلَّ كلِّ الاهتمامات. وكان نظام الرقابة المفروض جرَّاء حالة الحرب، يضعُ شروطًا خاصة جدا، تجري على كل ما يمسُّ المسائلَ المتعلقة بالعالم الإسلامي، وبالسياسة الخارجية للدول المسلمة، وبالمسائل العرقية أو الدينية[3]. وبصفة عامة، وقد تعلق الأمر، بوضع حركة سيكولوجية على عدة

---

(1) Cité dans Ageron, Les Algeriens musulmans…, p.884.

(2) Ageron. Les chemins de décolonisation de l'empire français, 1936-1956. Colloque organisé par l'IHTP 4/5 octobre 1984. Paris, Ed. CNRS. 1986. p.345.

(3) CAOM, 6 CAB 5. Commandement en chef français civil et militaire, secrétariat à l'information "Nomenclature des consignes de censure", mai 1943, n° 1 – 15 pages.

مستويات: أحدها هو وجوب كسب ثقة المسلمين الجزائريين بأي وسيلة، بأنْ تُبَيِّنَ لهم أنَّ فرنسا لا تمارس تمييزا عنصريا وأن الاستدمار لا ينفي هويتهم الثقافية* والدينية. في خطاب رسمي بثته الإذاعة، كان **مارسيل بايروتو** Marcel Peyroutou، سفير فرنسا والحاكم العام الجديد للجزائر، يقول:

نحن قوة إسلامية، أعرق من أنْ نجهل أن الروحانية الجزائرية مشكَّلة من عناصر متعددة كلها محترَمة وعلينا أن نمتنع عن التدخل فيما بينها. [...]

* من الملاحظ أنَّ اضطهاد الاستدمار الفرنسي للمثقفين الجزائريين، موضوع لا يجرؤ كثير من الباحثين الفرنسيين على طرقه، إذ مع ثورة التحرير تصاعدت وتيرة الاضطهاد، من تعذيب وقمع واغتيال بطرق شنيعة. وقد شاعت قصص اغتيال الدكتور بن زرجب، والمحامي ولد عودية، والمحامي علي بو منجل، وقاسم زيدون، والأمين العمودي، وأحمد رضا حوحو، والسعيد الزاهري، والعربي التبسي، والربيع بو شامة، وعبد الكريم العقون، ومولود فرعون....ومعروف أن الفرنسيين قد خصصوا سجونا معينة لكل فئة اجتماعية، وقد صدرت كتب في هذا المجال، منها "ضد التعذيب" لهنري سيمون، و"حرب الجزائر" لجول روا، وقد أسهم جان بول سارتر في الموضوع بـ "عارنا في الجزائر"، و"الجلادون"، وسارجان شريبر بـ "ليطنان في الجزائر"، وهناك "الاستجواب" لهنري علاق الذي سلطت الصحافة الفرنسية الأضواء على قضيته، دون أن تذكر شيئا عن اختطاف الشيخ العربي التبسي، ولمالك بن نبي تحليل معمق للمسألة في كتابه "الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة". ويتحدث الشيخ محمد الصالح بن عتيق عن الشيوخ الذين التقاهم في السجن وهم: عبد القادر الياجوري، علي بن سعد، السعيد صالحي، محمد الشبوكي، أحمد سحنون، الجيلالي الفارسي، حمزة بو كوشة، مصباح حويذق، وجميعهم أعضاء بارزون في جمعية العلماء وفيهم الأديب والشاعر والخطيب والواعظ...وكان ذلك سنوات 1956–1959. كما ذكر الشيخ ابن عتيق: د.رابح كربوس، د.أحمد عروة، د.ابن خليل، د.بوعياد، د،جناس، د.ابن عربية، د.ماطي، د.بلوزداد، إضافة إلى طلبة الزوايا الذين كانوا يصرخون تحت التعذيب بالماء والكهرباء وقطع الأظافر. قد يقول قائل: إن هذا الاضطهاد شمل جميع أنصار الثورة بمن فيهم المثقفين. هذا صحيح، بيد أن اضطهاد المثقفين كان يستهدف في المقام الأول قطع الثورة عن روحها المحركة لها، باعتبار الثقافة أساسا لكل حركة ثورية. وإذا استحضرنا السياسة الثقافية الفرنسية طيلة فترة ما قبل الثورة، سنفهم أكثر لماذا يستهدف المثقفون جميعا بهذه الحملة الاستدمارية. (أنظر: د.أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 9/ 146–156. طبعة البصائر2009.)

دورنا هو أن نضمن للجميع، في إطار الهدوء والنظام، الممارسةَ الممكنةَ للإيمان. لن نخرج عن ذلك. لن نتسامح مع أي شكل من أشكال التعصب ولكننا لن نقصي أي شكل من أشكال الورع [...].

➢**السياسة الثقافية بين مجازر ماي 1945 ومؤتمر الصومام 1956**

كانت الجهود مبذولة بين أعضاء "أحباب البيان والحرية" لتكوين جبهة موحدة، وقد انعقد مؤتمر لأحباب البيان أسفرت عنه المطالبة بإلغاء نظام البلديات المختلطة والحكم العسكري في الجنوب **وجعل اللغة العربية لغة رسمية..... وفي غمرة انتصار الحلفاء على النازية، خرج الشعب الجزائري في كامل التراب الوطني للتعبير عن فرحته بتنظيم مسيرات سلمية مرخصة مطالبا فرنسا بتجسيد وعودها في إعطاء الحكم الذاتي للمستعمرات الفرنسية بعد الحرب. وتمثل الرد الاستدماري في مجازر رهيبة وحملة إبادة راح ضحيتها ما يناهز 45 ألف شهيد** . كانت فكرة التحرر، الموضوعة تحت الأضواء خلال الحرب العالمية الثانية، والمشجَّعة لاحقا من سياق دولي ملائم، تتقدم بخطوات كبيرة [**]. وبالجزائر، تصلَّب الجوُّ، وكانت الثقافة الغربية منبوذةً من هؤلاء «المثقفين» الذين كان يمكن لفرنسا أنْ تعتمد عليهم قبل الحرب العالمية. إنَّ الكينونة السياسية الجزائرية التي كان الوطنيون الجزائريون يطالبون بها، كانت قائمة على كينونة اجتماعية-ثقافية ودينية لم تنجح فرنسا في شل فعاليتها. توجب على فرنسا السعي لإقناع العامة من الشعب، أن هذه الكينونة وهمية، ولكنْ مع أكبر الاحتياطات، وبمراعاة الاستعداد الجديد للجزائريين. وتمثل الموقف الرسمي للحكومة العامة الفرنسية لأجل تحقيق هذا الهدف، في ترقية هذا «الانصهار» بين المكوِّنات المتوسطية، المختلفة ولكنْ

[**] لا نجاح لأيِّ ثورة بدون قوة داخلية، هي المحرك الأول، أما العامل الدولي فيبقى مساعدا ليس إلا. وهذا الكلام ينطبق على كل دعم خارجي للثورة الجزائرية.

داخل جزائر فرنسية[1]. وانبعثت اللغة العربية، وازدهر المسرح والصحافة الأهليْن. وكأن فرنسا، ولأجل إثبات أن منافع الحضارة الغربية غير متوافقة مع بقاء ثقافة تقليدية، كانت تشجِّع هذه الأخيرة وتهدِّئ بالتالي التمرُّد المجلجل والرأي العام الدولي. مع أنها كانت، في الوقت نفسه، تعلم أنَّ خمائر الاستقلال موجودة تحديدا في هذه الثقافة التي عليها ترقيتها، وهي العنصر الجوهري لوحدة السكان الجزائريين.

مهما يكن من أمر، وحتى السنوات الأخيرة للثورة التحريرية، ورغم هذا الاعتراف الثقافي بالواقع الإسلامي، فإنَّ السلطات الفرنسية كافحت لأجل فكرة الجزائر الفرنسية. وهكذا، أصبحت السياسة الاستدمارية الفرنسية تحت سلطتين، رغبتها في إبقاء الجزائر فرنسية والضغط الدولي والداخلي المؤيِّد لاستقلال الجزائر، لهذا كان عليها لعب الورقة العربية الإسلامية، وتقديم علامات على حسن النية وعلى الليبرالية الثقافية، وبالتوازي، محاولة التقدم بالثقافة الفرنسية وفكرة فرنسا لدى السكان الجزائريين، الذين كانوا في اعتقاد فرنسا، أقرب إليها وأكثر من أيٍّ وقت مضى.

الثورة التحريرية الجزائرية، والحركة السيكولوجية الفرنسية

سجلت الثورة التحريرية ذروةَ السياسة الثقافية الفرنسية، وانكشف سريعا، أنَّ المناهجَ العسكرية الكلاسيكية غيرُ فعالة في مواجهة ثوار يقودون حرب عصابات. وكان على فرنسا أن تتكيَّف مع الوضع وتفكِّرَ في وسائل أخرى للكفاح. كان عليها لقتال المجاهدين، الحفاظ على دعم السكان أو كسبهم لصالح بقائها في الجزائر "لم يعد الرهان يكمن أساسا في غزو الأرض، وإنما في الغزو السياسي والسيكولوجي والأخلاقي، وعلى كل المعسكرات

(1) Cité dans Jean Déjeux, "La revue algérienne Soleil (1950-1952)" fondée par Jean Sénac et les revues culturelles en Algérie de 1937 à 1962, Présence francophone, n°19, automne 1979. p.17.

الموجـودة أن تُعْنـى بغـزو الجمـاهير، بمراقبتهـا وكسـبها إلى صـف قضـيتنا وتحريكها لصالحها[1]. بين خريف 1954 ونهايـة 1955، أنشـأ الجـيش مـذهبا جديدا ونظَّم بنى متكيفة تمكِّن من تنفيذه. وقد رَسَّم إنشـاءُ مكتـبٍ للحركـة السيكولوجية بالمنطقة العسكرية العاشرة في جويلية 1955[2]، الوضعَ الفعلـيَّ للاستيراتيجية الجديدة، وأعطت تعليمةٌ في أكتوبر إشارةَ الانطلاق لـ«السلاح السابع». كان على الحركة السـيكولوجية أن تُمكِّـن مـن «الطـرح الخـدماتي المنهجي لإجراءات ووسائل متنوعة مهيَّأة للتأثير علـى آراء خصـومٍ مُعْلَـنين (جيشا وسكانا) وعلى مشاعرهم ومواقفهم وسلوكاتهم، وهـذا باتجـاه يخـدم الخطـطَ والأهـداف، الـتي عرَّفتهـا الحكومـةُ والقيـادةُ بشـكل يُضْـعِف إرادةَ المقاومة المعادية»[3]. منذ تلك اللحظة، ستخدم طرائق محـددة وتنظـيم دقيـق هذه الاستيراتيجية، التي أُريد لها أن تكون«تعبيرا عن سياسة معرَّفة جيِّدا»[4].

ستغدو الحركة السيكولوجية، بـين سـنتيْ 1955 و1958، السـلاحَ الأساسـي «للحرب الثورية» والمنتهـى العسـكري للسياسـة الثقافيـة. وقـد عُـدِّلت وأعيـدَ تعريفها وحُسِّنت وكُثِّفَتْ. وُضعت وسائلُ متنوِّعة للعمل كَمَّلت جهازَ السياسـة الثقافية الكلاسـيكية، المُـدمَج هـو الآخـر والمكثَّـف والمـؤدلَج (الثقافـة العربيـة الإسلامية، اللغة، الفنـون الجميلـة، وسـائل الإعـلام، الثقافـة بكـل أشـكالها): الصحافة (نشْرُ صـحيفة الـبلاد، تحريـر نشـرة رسميـة، اسـتعمال مقـالات مـن

(1) Raoul Grardet, L'idée coloniale en France, Paris, La Table Ronde, pp.250-251.

(2)SHAT, 1H 2408, Directive sur l'action psychologique sur le territoire de la Xème région militaire – Alger, 27 juillet 1955 – Le général Lorillot.

(3) SHAT, 1H 2408, Directive sur la guerre psychologique – Ministère de la Défense et de forces armées – Etat-major des Forces armées – Bureau psychologique – 4 octobre 1955 – signée Koenig, ministre de la Défense nationale et des forces armées.

(4)SHAT, 1H 2409, Extrait du rapport du commandant supérieur interarmées, commandant la Xème RM – Secrétariat d'Etat aux forces armies «terre» - Etat major de l'armée – 3ème Bureau – colonel Capodanno, chef du 3ème bureau de l'EMA – à l'Etat-major de l'Armée Bureau moral et informations.

الصحافة العالمية لأغراض الدعاية المحلية)، السينما المتنقلة (cinébus)، حركة شركات مكبرات الصوت والمنشورات، الإذاعة (التي "هي لحرب الجزائر كالرشاش لحرب 1914 وكالدبابة لحرب 1940[1])، التأطير الإداري والاجتماعي- السياسي للسكان عبر المصالح الإدارية المختصة SAS والمصالح الإدارية الحضرية SAU. أصبح الجنديُّ مربيًّا ومؤتمنا على الأسرار، وكُلِّفَ بالاندماج في الحياة اليومية للأهالي، إذ عليه التقرب منهم وتحصيل المخراطهم الثقافي والسياسي. سعت الدعاية المباشَرة لـ «تهييج السكان لإعطائهم أسبابا للحماس بإمكانهم تَقَاسُمها مع فرنسيي الجزائر والحاضرة الفرنسية»[2]. وبالإضافة إلى هذا، ستتطور إيديولوجيةٌ سياسية، كلازمة ضرورية لـ «الحرب الثورية»، داخل صفوف الجيش، باعتبارها تبريرا ثقافيا لهذه الحركة السيكولوجية، وإجماع القول على صيغة «الإندماج»[3] integration، البديل الجديد لإيديولوجيتي الإدماج والتشارك، اللذين أثبتا فشلهما.

انطلاقا من سنة 1945 تبنت فرنسا، **سياسة ثقافية ملتبسة**، فقد شهدت اللغة العربية - التي أصبحت من لغات الإمبراطورية – تدريسَها المنظَّم على جميع المستويات. كما عملت السلطات الاستدمارية كذلك، على أن يكون ضمن الفائزين بالجوائز الأدبية والفنية عدد معين من المسلمين. وقد أُسِّسَت جائزة أدبية «مخصَّصة لمكافأة مؤلِّف أحسن كتابٍ في التاريخ، والعلوم والأدب، محرَّرٍ بالعربية الفصحى ويعالج موضوعا جزائريا بشكل خاص»،

---

(1) CAOM, Aff pol FM71, Coordination des émissions radiophoniques concernant l'Afrique du nord.

(2) SHAT, 1H 2403, Objet: renforcement des moyens de l'action psychologique pour l'Algérie et création de trois unités tactiques de guerre psychologique – par le secrétaire d'Etat aux forces armées «terre» - Etat major de l'armée – cabinet section psychologique et du moral – le 23 juin 1956.

(3) Voir Pahlavi, op.cit

وهذا بقرار 27 أفريل 1948 مزوَّدٍ بمنحة مقدارها 50000 فرنك[1]. في سنة 1952، اقترح الحاكمُ العام أن تكون المنحة دورية مع رفع قيمتها. وقد رُفِعَت قيمة الجائزة باستمرار إلى أن توقَّفت. وكانت معظم المبادرات المتخذة في المجال الثقافي والتربوي، تبيِّن في الواقع -كما تقول **ريسلير**- التحكمَ السريَّ للسلطات العمومية في الثقافة العربية-الإسلامية. فقد أُلْحقت المدارس سنة 1944 بنظام المؤسسات الثانوية، بهدف حبسها نهائيا داخل الإطار التربوي المؤسسي الفرنسي، حيث تحولت إلى «ثانويات فرنسية-إسلامية».

كما أسَّست الإدارة أيضا معهدًا للدراسات الإسلامية (القسم الأعلى القديم للمدرسة) سنتيْن بعد ذلك بالعاصمة، الذي أصبح مكلَّفا، تحت رقابة السلطات العمومية الاستدمارية، بتهيئة القضاة المسلمين، وأساتذة العربية، والموظفين، والمترجمين. وكان المعهد يشتمل سنة 1954على ثلاث شُعَب تحضِّر لثلاث أنماط مهنية: تكوِّن الشعبة «التقليدية» موظفي العدالة الإسلامية عبر دراسة الفقه الإسلامي، وتكوِّن الشعبة «البيداغوجية» أساتذة العربية للابتدائي والثانوي عبر دراسة اللغة والأدب العربي، مع تاريخ وجغرافية أفريقيا الشمالية، وأخيرا تكوِّن الشعبة «الإدارية» موظفي الإدارة عبر دراسة القانون الفرنسي، والترجمة، وتاريخ وجغرافية أفريقيا الشمالية. في بداية الثورة الجزائرية، أبدت السلطات الاستدمارية الواعية بأهمية هذا المعهد في محاربة التطرف والحركة الوطنية، إرادةً في تطوير هذا المسلك التكويني، ورفع مستواه وجعله «مركزا مهما للثقافة العربية الإسلامية» ولكنْ تحت الرقابة الفرنسية. ويمكننا أن نلاحظ بهذا الشأن، أنَّ 40% من مِنح

[1] CAOM, 10 CAB 163.

الحكومة العامة للجزائر سنة 1954، أسندت إلى طلبة المعهد (33)، أي ما يعادل عدد المنح المقدَّمة إلى طلبة الكليات الأربع لجامعة الجزائر (34)[1].

رغم أن النظام الأساسي قد منح الشعائر الإسلامية واللغة العربية نشاطا جديدا، فقد اعتبر تدخلا من الحاضرة الفرنسية ورفضه الجزائريون المسلمون. بترسيم العربية لغةً للإمبراطورية، لم تكنْ مع ذلك إجبارية و«قدَّم مفتشو التعليم الابتدائي في مارس 1954، مُذَكِّرة ضيقة الأفق، حيث يجعلون من العربية العامية لهجة محلية، ومن العربية الفصحى لغة ميتة، ومن العربية المعاصرة لغة أجنبية؛ وخَلُصوا إلى التوصية بإبعاد تعليم هذه اللغة معتبرين إيَّاها في هذا البلد، شكلا قمعيًّا للتعريب»[2]. وللمفارقة، وبينما كانت العربية رسميا أكثر حضورا من أي وقت مضى، والسلطات الاستدمارية تبدو راغبة في تطويرها، كانت أكثر عرضة للتهميش من المرحلة السابقة. "كيف التعجب منذئذ، إذا كانت الجزائر في سنة 1954 لا تضم معرَّبين أكثر مما تضمه فرنسا من متخصصين في اللغة والأدب اليونانييْن؟"[3]، كما يلاحظ ذلك **جورج مارسيه** Georges Marçais. وتشير الأرقام المقدَّمة من الحكومة العامة أن 6554 طالبا اختاروا العربية الفصحى لغةً أولى حية، في حين أن 23635 اختاروا الإنجليزية. فيما يخص اللغة الثانية تأتي الإسبانية (5915 طالبا) قبل العربية العامية (4154 طالبا)[4]. في 1954، "كان ثلاثة أرباع المتعلِّمين، كليا أو جزئيا، ذوي ثقافة فرنسية"[5]. وهنا يكمن هدف السياسة

---

(1) Gouvernement général de l'Algérie, Exposé de la situation générale de l'Algérie en 1954, présenté par M. Jaques Soustelle, Gouverneur général de l'Algérie, avec la collaboration de Maurice Cuttoli, secrétaire général du GGA, pp. 502-503.

(2) Pervillé, op. cit., p. 26.

(3) Cité dans ibid., p. 26.

(4) Gouvernement général de l'Algérie, Exposé de la situation générale de l'Algérie en 1954, op. cit., p. 485.

(5) Pervillé, op. cit., p. 27.

الثقافية، إعطاء الانطباع بدعم الثقافة الأهلية في حين يتم تحكُّم السلطات الاستدمارية فيها، ومحاصرتها واحتواؤها لها، وضعفها على مستوى الممارسة تبعا لذلك.

المسرح باللغة العربية واللعبة المزدوجة

يُشكِّل المسرحُ باللغة العربية البيانَ الأكثر صراحة، لِلُبس السياسة الثقافية الفرنسية ولأسبابِ موقفها هذا. فمن ناحية، أظهرت فرنسا في مناسبات عديدة إرادةً في تطوير الفنِّ الإسلامي والمسرح الشعبي خصوصا. وفي بعض الأحيان، كانت تأتي المبادراتُ الثقافية من الحاضرة الفرنسية مباشَرة.

كانت السلطاتُ الاستدمارية تَتَحَدَّث مسرورة عن «الجهود المطلوبة لصالح تجديد الموسيقى والمسرح العربي»[1]. ويبدو بهذا الصدد، أنَّ الحصص باللغة العربية التي تبثها إذاعة الجزائر، قد ساهمت في ذلك على نحو واسع، بسعيها إلى إنشاء مدارس للموسيقى وفرق كلاسيكية وحديثة، باللجوء إلى القيام بتسجيلات وتحديث للقطع العربية الكلاسيكية «التي يعرفها موسيقيون شيوخ فقط»[2]، وباستعمال ناشطي المسرح الأكثر شعبية وبالترجمة إلى العربية لمسرحيات **موليير** وحكايات **برنو** Pernault لاقتباسها وتحويلها إلى البث الإذاعي. وحينما التمس **الأستاذ ماري** مدير مسرح وهران، سنة 1947، من الحكومة العامة للجزائر دعما مهما لتشكيل فرقة للمسرح، والرقص والموسيقى والعروض باللغة العربية، تقوم بجولات في المدن الرئيسية الساحلية والداخلية، أبدت السلطات الاستدمارية حماسة عظيمة وقدمت ملاحظة عن «الاهتمام

---

(1) CAOM, 9CAB/74, pour le chef de cabinet du gouverneur général de l'Algérie. S/C le secrétaire général du gouvernement, Alger 18 Avril 1947, Objet: Projet de M.Mari relatif à la formation d'une troupe de théâtre en langue arabe. p.2.

(2) Ibid.

الذي توليه السلطات العمومية الاستدمارية لهذا المشروع، بل لكل المشاريع الموجَّهة نحو الأهداف نفسها المرجوة من ترقية الثقافة»[1].

من ناحية أخرى، بدا في مناسبات عديدة، أنَّ هذه الإرادة في تجديد المسرح العربي ترافقت، بشكل محيِّر، مع إجراءاتٍ رقابية فعالة، لم تمر دون إثارة مظاهرات مستنكِرة لها. في سنة 1946 كتبت سلطات الحاضرة الفرنسية إلى الحكومة العامة كي تحثها على توخي الحذر، نظرا لبروز أمارات الاستياء على الأهالي.

بعد مطالبة الحاكم العام بتفسيرات مِنَ المحافظ، ردَّ عليه هذا الأخير، مؤكدا أنَّ هذا الحظْرَ كان مبرَّرا بأسباب سياسية:«ردًّا على برقيتكم (المؤرَّخة في 18 أوت 1946)، يُشَرِّفني أنْ أُعْلِمَكُمْ أنَّ موقف **الأستاذ بابا أحمد محمد كبير**، رئيس الفرقة المسرحية "الكوكب المسرحي التلمساني"، ما يزال محلَّ شُبْهةٍ من الناحية السياسية، ولا يبدو لي مناسبًا أنْ نتراجع حاليا عن قرار يملك كل أسباب الثبات عليه (...)[2]. مع أنَّ التشريع، كما في الحاضرة الفرنسية، في مجال حرية «تمثيليات الفن الدرامي والساخر [وكذا] مقاهي الغناء وقاعات الموسيقى والكباريهات الفنية، وعرائس الغراغوز، والسيرك، والعروض والرقصات الغنائية والعروض الفضولية والمنوَّعات»[3]، قد تلطَّفَ على نحو كبير بعد الحرب العالمية الثانية، ورَتَّبت السلطات الاستدمارية الأمورَ لأجل حفظ حقِّ النقض. بقيت العروضُ إذنْ، تابعةً للسلطات السياسية. وكانت المطالبة بترخيص مسبق قد انمحت، في الواقع، ضمن شروط الحاضرة الفرنسية نفسها. ولكنَّها ظلَّت في إطار القانون، نظرا

---

[1] Ibid., p.1.

[2] CAOM, 8 CAB 15, Le préfet d'Oran, au ministre plénipotentiaire, gouverneur général de l'Algérie, 7 octobre 1946.

[3] CAOM, 9 CAB 74, Police des spectacles (12 mars 1947).

لعدم قابلية الأمر المؤرَّخ في 13 أكتوبر 1945 للتطبيق بالجزائر. فقد كان بإمكان السلطات الاستدمارية (الوالي، رئيس البلدية) إذنْ، حظرُ التمثيل المسرحي (أو أيِّ عرض آخر) تحت ذريعة، غياب الترخيص المسبق. ضف إلى ذلك، أنَّ رئيس البلدية، بحكم قانون 15 أفريل 1884، المادة 97، كان يمكنه حظر مسرحية عُرِضَتْ سلفا، وذات صبغة مربكة للنظام العام، نظرا لظروف محلية، وكان الوالي يملك السلطات الاستدمارية نفسها، في بلدية بعينها، أو على امتداد مقاطعته. كما كان بالإمكان حظر كل نشاط تابع لفرقة مسرحية في إقليم محدَّد[1].

كان هذا الجهاز يُمَكِّن من إتمام حركة مقص الرقابة، العاجزة غالبا عن التحكم في استعمال المناضلين للمسرح، كمنبرٍ سياسيٍّ، إذ ثمة حِيَلٌ، وتعابيرُ أسلوبيةٌ، وتلاعباتٌ لفظيةٌ، ومقارناتٌ تاريخيةٌ، كانت السلطات الاستدمارية تقف أمامها عاجزة عن الحركة، وكان لها أثر مُدَمِّر على مصداقيتها وسط الأهالي، لأنها كانت تثيرهم وتوحي إليهم بتساؤلات ومراجعات. وقد أَشْرَكَ والي قسنطينة في انشغالاته الحاكمَ العام، بخصوص دورات مسرحية، نظمها مناضلو *حركة انتصار الحريات الديمقراطية والدستور الجديد* المنتظرة داخل مقاطعته: «[...] إنَّ نص المسرحيات التي سَتُمَثَّل، يبقى كالعادة لا قيمة له. ولم يبدو لي ممكنا، ضمن هذه الظروف، وتبعا للوضع الحالي للتشريع، الرفضُ المسبق لطلباتهم [...] . أعتقد في النهاية، واجبَ جذبِ انتباهِكم إلى العدد المتزايد لطلباتٍ من الصنف نفسه، بَلَغَتْني منذ بعض الوقت، وهي طلباتٌ يمكنها أنْ تتوافق، كما يبدو مع تحقيقِ مخطَّطٍ. سأكون

[1] Ibid.

شاكرا لكم، بِتَلَقِّي تعليمات جديدة [...]»[1]. وكان الكـابتن **كـاري** Carret يؤكِّد هذا الواقع قائلا:

«الانفصاليون الجزائريون، خصوصا حزب الشعب الجزائري وحركة انتصـار الحريـات الديمقراطيـة – لم يَفُـتْهُمْ أنْ يـروا في المسـرح أداةً للدعايـة ولاخـتراق الجماهير الشعبية [...] باستعمالهم لطابعه التعليمي، فقد حاولوا أنْ يصنعوا منـه مسرحًا مكافِحًا، رسالته توجيه الرأي العـام، وتمجيـد الشـعور الـوطني، وحـب الحرية والاستقلال. وقد أصبح الطـابع السـاحر للمسـرحيات أعنـف بمهاجمتـه للأقوياء، وتحوُّلـه بالتـالي إلى صـدى للمطالبـات الشـعبية. وقـد تُخْتـار بعـضُ المسرحيات، لما تتيحه من مقارباتٍ بين أحداث مشتقة من الماضي ومـن الخـارج وبين النظام الحالي القائم بالجزائر، المنعوتِ بالمضطهِدِ والقامِعِ والمستبِدِّ. وهكـذا تشتمل مسرحية **حنيبعل**، لتوفيق المدني مقاطع عديدة ذات علاقة بطغيان رومـا عبر تعليقات حاذقة تستهدف أساليب "الرومـي" (الرومـاني) الراغبـة في اسـتعباد السكان الأصليين. لا يوجد فصلٌ من المسرحية، خالٍ من الحديث عـن التحـرُّر من نير المضـطهِدِ وعـن اسـتقلال أفريقيـا. محدِثـةً بـذلك حتمـا، تصـفيقاتٍ لا تتوقف، وكذا هتافاتٍ. إنَّ هـذه المسـرحية، هـي بـلا ريـب، تلمـيحٌ حـاذقٌ إلى الحضور الفرنسي بأفريقيا الشمالية[2].

وبعيدا، كان يُعَلِّق على الوسائل الموضـوعة للتنفيـذ، بهـدف مجابهـة هـذا الوضع، مثل تنصيبِ لجنةٍ للقراءة سنة 1947، «مكوَّنةٍ مـن عـددٍ معـيَّن مـن المسلمين المختارين لثقافتهم العربيـة أو لنـزاهتهم» أو طـرحِ نصـوصٍ حـول شُرْطة العُرُوض المسرحية، بيد أنه كان حزينا لأنَّ هذه الإجـراءات النظاميـة

---

[1] CAOM, Le préfet de Constantine, à M. L'Ambassadeur de France, Gouverneur de l'Algérie, Discussion de la sécurité générale, 3 mars 1948.

[2] CAOM, Alger S 4\24, février 1950, Le théâtre algérien d'expression arabe, par le capitaine Carret.

بـدت غـير فعَّالـة غالبـا. وخَـتَمَ تقريـرَه مطالبـا بتعزيـز هـذا «الانصـهار المتوسِّطي»...المراد استدعاؤه أكثر فأكثر، خلال هذه الأوقات المضطربة:

ثمة جهدٌ عظيم يُبْذَلُ منذ 30 سنة، لتزويد الجزائر بمسرحٍ ناطق بالعربية [...] يزعم البعض أنَّ فرنسـا، بِتَحَرُّكِهـا علـى هـذا الخـط، سَتَصْـنَعُ سـلاحا ينقلـب ضدَّها، على أساس أنَّ كلَّ ما يساعد على انتشـار الثقافـة العربيـة بـالجزائر، لا يمكنه إلا أنْ يَضُرَّ بمصالحها داخل البلد. ولكنْ هلْ علينا بعد التسليم، بـأنَّ هـذه الفهوم مبرَّرةٌ جزئيا، أنْ ننتظر راعيًا مُسْلِمًا، أو فرقةً من المسلمين تأخُـذُ المبـادرة، بإيجاد أكاديمية مسرحية عربية واستدعاء تقنيين مصريين؟

كان المسرح سلاحا، تتزايد خطورته أكثر فـأكثر، وفَضَّـلت الإدارة، بـلا ريب، استعمالَ هذا السلاح على أنْ تَتَلَقَّى طعناته ! وهكذا كانت السلطات العمومية الاستدمارية تعترف بـ «الأهمية العظيمة، مـن وجهـة نظـر ثلاثيـة، سياسية وثقافية واقتصادية» التي يمثلها إيجادُ فرقةٍ، كتلك التي عناهـا الأسـتاذ **ماري** M.Mari، برعاية يمكن أنْ تظل سرِّية»[1]، وهـي رعايـة وزارة التربيـة الوطنية والفنون الجميلة. من جهة أخرى، أثار هذا المشروع اهتمام فرقة **تِيَّار** Tyar (فرع **للمانيفست**) والشيوعيين. وكادتْ حركاتٌ مسيَّسـة مـن الحركـة الوطنية أنْ تَفْتَكَّهُ سريعا، وتستغلَّه لصـالحها، وهـذا كمـا تخوَّفـت السـلطات الاستدمارية. ونظرا للحظوة الكبيرة لهذا الشعاع الثقـافي الشـعبي، فقـد كـان يبدو للسلطات، أنَّ المأمول هو التصدي لهذا المنظور، بـدعم مشـروع **مـاري** القوي جدا، لتجاوز منافِسين مُحْتَمَلين:«يبـدو أنَّ مـن الأفضـل، ومـن عـدة نواحي، أنْ يتحقق هذا المسرح العربي في شكل محايـد ومسـالم، ويأخـذ تبعـا لذلك طابعَ مساهمةٍ فرنسيةٍ في الثقافـة الشـعبية»، ضـمن روح عالميـة، هـي

[1] CAOM, 9CAB/74, pour Monsieur le chef de cabinet du gouverneur général de l'Algérie. S/C le secrétaire général du gouvernement, Alger 18 Avril 1947, Objet: Projet de M.Mari relatif à la formation d'une troupe de théâtre en langue arabe, op. cit., p.1.

بالتالي فرنسية في العمق[1]. هذه المبادرة التي أريد لها أن تكون لا سياسية، كان لها إذن، أهميةٌ سياسية بديهية، هي محاربة الحركة الوطنية، وإبراز صورة فرنسا صديقة الإسلام والثقافة العربية بالجزائر، و«العالم الإسلامي» و«الانصهار المتوسطي» للثقافتين: العربية والفرنسية.

الثقافة الفرنسية والحركة السيكولوجية.

العمل على تَمَدْرُس المسلمين، والفَرْنَسة المكثَّفة لهم.

إتماما لهذه الحركة الثقافية الملتبسة إزاء الثقافة العربية- الإسلامية، بدأت فرنسا مشروعا تربويا مكثَّفا لصالح الأهالي. وكان مشروع قسنطينة يتوخى تَمَدْرُسَ ثُلُثَيْ الأطفال الجزائريين المسلمين. وإذا كان المثال الجمهوري والكرم التمديني يُدَعِّمان دائما هذا المشروع، فمن غير المنكر أنَّ الضرورات السياسية كانت تجعله أشدَّ أهمية وأكثر من أي وقت مضى. وبينما كانت هوية ثقافية ودينية جزائرية تتقدَّم، مهدِّدةً سلطة الحاضرة الفرنسية، كان على التعليم، على الطريقة الفرنسية، أنْ «يُجَدِّدَ كل الذهنيات، ، ينشئَ داخل العقول كلَّ الطرق التي سيمر عبرها المستقبلُ نفسه، ، ويعجنَ الروح الجزائرية على صورة الروح الفرنسية نفسها»[2]. وقد كانت المدارس الريفية والتقليدية، من جهة أخرى، محلَّ صَهْرٍ في سنة 1947، مُبَرْهِنة أكثر من أيٍّ وقت مضى، أنَّ السياسة الثقافية الفرنسية، في مجال التربية، ما تزال وفية للمبادئ القديمة عن الإدماج الثقافي، كوسيلة وحيدة فعَّالة لضمان السلطة السياسة. وكان تعزيز الفرنسة جزءًا مُهِمًّا من السياسة الثقافية، وبينما استمر تهميش اللغة العربية على نحو خفيٍّ، أصبحت الفرنسية أقوى تجذرا وأكثر تمتعا بالحماية من أي وقت مضى. عملت السلطات العمومية الاستدمارية في

---

[1] Ibid.

[2] Jean Mélia, L'épopée intellectuelle de l'Algérie, Alger, La Maison des livres, 1950, note préliminaire p.11. cité dans Vatin, "Exotisme…" loc. cit., p.163.

الخفاء على توجيه الضربة القاضية للعربية والفرض النهائي لهيمنة الفرنسية، المحدَّدة، باعتبارها لغةً وحيدةً لتهيئة المستقبل: وكان **ديزيري تيبول** Désiré Thébault يصرِّح في الكراريس الشمال أفريقية أنَّ: «فَرْنَسة الجزائر [...] تبدو، الحدثَ اللغوي الأهم لمستقبل هذا البلد. هي تتوافق مع الحاجات الحقيقية لهؤلاء السكان، وإذا لم يكن الأمر كذلك، على المستوى العاطفي، فهو متحقِّق على مستوى أملهم في حياة أحسن، داخل مجتمع حديث، حيث يُهيَّأ لهم موقع فيه»[1]. يمكن القول، بصفة عامة، إنَّ إرادة سياسية في الفرنسة، وفي الإلحاق، بل حتى في الإدماج الثقافي مع الحاضرة الفرنسية، كانت تتأكد باعتبارها حلا وحيدا، جاهزا للتنفيذ في مواجهة الأطياف الانفصالية المؤسَّسة على شعورٍ بالانتماء إلى كيان ثقافي وديني مختلف. لم تكن السياسة الثقافية رهانا بمثل هذه الأهمية أبدا، ولكنَّها لم تكن كذلك أبدا بمثل هذا التخفي، في مواجهة سكان أصبحوا يشكِّلون خطرا أكثر، بقدر تلقيهم الدعم من الرأي العام الدولي في كفاحهم.

- الجامعة والبحث

سَجَّلت سنوات الثلاثينيات بداياتِ قطيعةٍ، اشتدت في البحث الثقافي والعلمي بشأن الجزائر، إذ تَنَوَّعت الخطابات، وتضعضعت يقينيات عهد الانتصار، وكانت تُسمع أصواتٌ غير متناسقة تبتعد عن الخطاب الكولونيالي التقليدي (مثل **شارل أندري جوليان** في تاريخه عن أفريقيا الشمالية، المنشور في سنة الاحتفال بالذكرى المئوية نفسها). في العمق، كانت الخطابات الجديدة تتوافق نوعا ما، مع التوجهات الجديدة للسياسة الفرنسية بالجزائر. كان التاريخ الكولونيالي، على سبيل المثال، يتحرر رسميا من الإطار الإمبراطوري، الذي كان يتطور داخله، دون الانفلات بالقدر نفسه من

[1] Cité dans CAlvet, op. cit., p.124, note 1.

عقال السلطات. ويبدو بالأحرى، أنَّ التاريخ الذي تحتاجه السلطات الاستدمارية هو الذي تَغَيَّر بالنظر إلى السياق السياسي والدولي الجديد. من ناحية أخرى، كان من الجوهري لدى السلطات العمومية الاستدمارية..تطوير وجهة نظر جديدة، عن الجزائر، سعيا لفهم مسألة الحركة الوطنية، ومحاولة احتوائها بشكل أحسن، استجابةً لمتطلَّباتٍ سوسيو-ثقافية وسياسية، لأجل تجنُّب انتقادات الأهالي والمتعاطفين معهم، بعد الخطوة السيئة للذكرى المئوية، التي مرَّت على نحو سيئ، وتفادي الاحتجاجات الناتجة عن الحرب، بهدف تلبية رغبات الرأي العام الدولي، المتصلِّبة أكثر فأكثر. كان على السياسة الفرنسية الجديدة بالجزائر، منذ تلك اللحظة، أنْ تتحالف مع الواقع العربي-الإسلامي، باعتباره مركِّبة كاملة العضوية ضمن الشخصية الجزائرية. كان التاريخ يتبع منطقيا هذه الوجهة. وتُسَجِّل الدراسات المتعلقة بتاريخ الاستدمار [...]، انطلاقا من سنة 1945، تَحَوُّلا في وجهة النظر، مقارنةً بالدراسات السابقة (أنظر: J.Franc Démontés)، عبر مراعاة العلاقات بين «المجتمع الأهلي» والاستدمار، وفق إشكالية قريبة من التساؤلات السوسيولوجية: آثار الاستعمار على الحياة الأهلية (R.Thinthouin، H.Isnard، X.Yacono ثم A.Noushi)[1].

كان على فرنسا، رغم ذلك، بالتوازي مع هذه المراعاة الإجبارية للواقع الأهلي، أنْ تبذل كل ما يقع تحت سلطتها، لأجل أنْ لا تَفْقِدَ الجزائرَ. كما رأينا، لم يكن نادرا، أنْ نرى الإنتاج الثقافي والعلمي، وهو يضيف أحجارا للصرح السياسي، ببيانه عدم تجانس الجزائر العربية الإسلامية. وقد وقع هذا، مرة أخرى، تحتَ العين الراعية للسلطات، أو بدعمٍ، ومبادرةٍ منها أحيانا. كان المَوْشُورُ الاستدماري يُتيح الاحتفاظَ من هذه الفترات، المميَّزة افتعالا، بمظاهر سلبية، وعواملَ تفرقة لا توحيد، فحسب. ظَلَّ العالَمُ الملاحَظُ مُفَتَّتًا في المدخل،

[1] Leimdorfer, op.cit., p.89.

مجزَّءًا، لأجل تقديم هذا الغبار، عن العشائر والمشيخات، المدعُوَّة إلى إعادة الهيكلة على أيدٍ أجنبية[1]. وجاءت اللاَّتاريخية، المؤسَّسة على افتقاد آثار مكتوبة وبقايا مادية، لتعزيز الخطاب الرسمي.

من حق [...] الغربيين أنْ يقدِّموا إلى الجزائريين أسلافَهم الخاصين بهم، ويُزَوِّدوهم بالخطوط العريضة والتفاصيل على حد سواء، المنتقاةِ بتأن، والمغلَّفة داخل تفسيراتٍ ملائمة. مع الانزلاق سريعا إلى ما يتوافق مع توجُّه المرحلة. بعد سنة 1954 [كما يوضح **فاتان** Vatin]، كان الاستعمال السياسي للوثائق جزءًا من الدعاية الرسمية، كما يشهد على ذلك كتاب «الجزائر في سنة 1830 من خلال شهادات المرحلة» من وثائق جزائرية، الصادر في 1957، [...] إنها رؤية مجتزأة لجزائر ما قبل الاستدمار، كانت موضعَ بثٍّ واسع. والهدف المتابع، هو برهنة أنَّ الجزائر قبل 1830 لم تكن تملك أيَّ وحدة، مهما صرَّح الوطنيون بعكس ذلك، وقد ترافق هذا الهدف، مع هدف الكُتَيِّبات الصغيرة المدفوعة «لمجنَّدي السكان الأصليين» منذ 1956، والمُبْرِزَة للقواعد التي تجاوزها الزمن، لشخص يُدعى فرحات عبَّاس يبحث في كل مكان عن آثار أمة جزائرية[2].

كان تاريخ الجزائر المقدَّم، هو تاريخ أرض مستعبَدة منذ الأزل، لم يتمكَّن أهاليها أبدا من صناعة أمة. وفي الوقت الذي كان يُشَجَّع الرأيُ العام والجنود، كان الأهالي يُثَبَّطون سعيا لإقناعهم بفقدانهم للقدرة على حُكْم بلد بأيديهم، كما يثبت التاريخ ذلك لهم.

ضمن هذا المنظور، كان علم الآثار محافظا على كل قيمته. وكانت السلطات العمومية الاستدمارية واعيةً، أكثر من أي وقت مضى، بالفضائل

---

(1) Vatin, L'Algérie politique..., p.49.

(2) Ibid., p.48.

المستقاة من استغلال الآثار الرومانية. في حوار مع يومية **لاديباش** (20-21 نوفمبر 1952)، تحت عنوان "لا شيء أقرب إلى الراهن اليومي من علم الآثار"، كان **غرونيي**Grenier، المدير السابق لمدرسة روما، وعضو المعهد، والمفتش العام للآثار القديمة ومتاحف الجزائر، يصف بمفردات غير ملتبسة الأهمية السياسية للآثار بالنسبة لفرنسا:

في أوقات اللا إستقرار هذه، كان علم الآثار يشكل دائما بوتقة للشرعنة، ليس في عيون الفرنسيين فحسب، وإنما في عيون العالم الخارجي، وقد استمر في إسناد المصلحة السياسية ماديا، تلك المصلحة المتمثلة غايتها في دعم الجزائر الفرنسية. كانت السلطات العمومية الاستدمارية تدعِّم إذن علم الآثار، وتشجِّعه، وتشرف عليه (مبادرة بالبحوث والتنقيبات، مساعدة مالية، تنظيم مؤتمرات، دعم إصدارات علمية ومؤلفات شعبية، قروض للمتاحف...). وتبتهج المذكرة الثانية عن العِراقة (إثنوغرافيا)، وما قبل التاريخ، وعلم الآثار، والفن الإسلامي، والفنون الجميلة من 1948 إلى 1954، بـ "التقدم المحقق (...) إن النتائج الباهرة المحصَّلة في كل مكان، راجعة بداهة في المقام الأول، إلى العناية المستنيرة للحكومة العامة. وقد يعود، كذلك، تقدم البحوث والتنقيبات ما قبل التاريخية إلى مبادرة الحكومة العامة (...)"[1]. في نوفمبر 1954، لم تضعف الأهمية السياسية للآثار وعلم الآثار، بل على العكس من ذلك، لأنه كان يشكل منذ تلك اللحظة سلاحا للسياسة الثقافية، أمام الرأي العام الدولي المدافع عن الحركة الوطنية الجزائرية.

وتتحدث كميل **ريسلير** كذلك عن الفنون ووسائل الإعلام..في هذه المرحلة. ..وترى أن الجهاز الثقافي كله كان في خدمة الفرنسة. وقداستعملت فرنسا.. في سياستها الثقافية...خلال هذه المرحلة، **الفنون الجميلة** (في بداية

---

[1] CAOM, 11 CAB 39.

الثـورة التحريريـة، كانـت جميـع المسـائل المتعلقـة بـالفنون، والآثـار القديمـة والنصُب التاريخية، مجمَّعة ومدروسة لدى مصلحة مركزية للفنون الجميلة[1]. ففـي سـنة 1957، تـاريخ إنشـاء المكاتـب الخامسـة للحركـة السـيكولوجية، أُدمِجت مصلحة الفنون الجميلة، داخل جهاز معمَّـم، لتنصـيب بُنـىَ محـدَّدة للحركـة السـيكولوجية و«الحـرب الثوريـة».)، و**الأدب** (مدرسـة الجزائـر العاصمة أوالمتوسِّطية méditerranéisme: وهي تيـار فكـري وأدبـي، ممثَّـل بـ **روبليس**، و**أوديزيو**، و**روس فلدير**، و**جول روي**، و**جـون بـيير ميليكـام**، و**مارسيل موساي**، و**روني جون كلو**، و**كـامو**،) وآخـرين.... كـان هـدفها «التعبير عن الواقع الجزائري بالاستناد إلى تنوُّع أصوله: المواجهة بين «الفكـر المتوسطي وفكر الصحراء، بين الرسالة الشرقية والرسالة الرومانية، بين البُنى الأوروبية والبُنى الإسلامية». وكان أحدُ موجِّهي الحركة، **غابريـال أوديزيـو** Audisio Gabriel، المسؤولَ الثقافي بالحكومة.لم يكـن هـذا الأدب، مُهَمَّشًـا، كما وقع مع المدرسة الأوروبية بالجزائر باعتبارها حركـة أدبيـة ثانويـة، لأنـه شهد ترقية في وضعيته القانونية. وكان الجهد المبذول لصالح **الأدب العربـي** أو القبائلي باللغة الفرنسية، مرفوقا بصرامة غـير مسـبوقة. و**مكتبـة الجزائـر العاصمة** (تأسَّست سنة 1853، على يـد **بربروغـر** Berbrugger، واكتسـبتْ، أهمية عظيمة في السنوات الأخيرة للمرحلة الاستدمارية بـالجزائر. وكانـت، عبر مصلحتها للقراءة العمومية مموِّنة لــ 310 مكتبـةً: وكـان جهـازٌ مركـزيٌّ للإعارة، نُصِّبَ من سنة 1949 إلى 1959، يُمَوِّنها مجانا عبر أجزائـه ألــ45000 من خلال مكتباته المتنقلة ونظامٍ للصناديق المتجولة، المسـتبدَلة ثـلاث مـرات سنويا، تصل إلى غاية الواحات الصحراوية المزوَّدة هـي نفسـها بــ25 مكتبـةٍ مهيَّأةٍ. كان لهذا المجموع الاستثنائي، قيمـةَ "الرمـز النهـائي"[2]، وكـان يتحـرك

---

[1] CAOM, 11 CAB 39, Cabinet Soustelle, 2ème Sous-direction, M.Rols, sous direction, 5ème Bureau, attributions détaillées, 1955-1956, A. Administration centrale.

[2] Ibid., p.288.

لمصلحة بث الثقافة الفرنسية.)، و**الإصدارات** (الإصدارات الرسمية: كانت الجزائرُ تتوفَّر على مصلحةٍ للإعلام والتوثيق، في سنة 1947، أعادتْ السلطاتُ الاستدمارية تنظيم الوثائق غير المنشورة، لكي تصنع منها *الوثائق الجزائرية*، الإصدار الرسمي، الذي سَيَظْهَرُ إلى غاية الاستقلال على شكل كُرَّاسات. وكانت، تُطْبَعُ في 10000 نسخة، وتُوزَّع سنويا مجانا على 35000 مستلِمٍ دائمٍ لها. كانت هذه الإصدارات تَبُثُّ بالإضافة إلى ذلك، أوراقا تركيبية عن السياسة والاقتصاد، والإعلام والثقافة وفق توجيهات الإدارة الكولونيالية، وتخدِم سياستَها الثقافية والمصالح الفرنسية. وضِمْنَ الاتجاه نفسه، مكَّنتْ **ألجيريا** Algeria بعضَ الجزائريين، من التعبير في صفحاتها، في اتجاه إبقاء فرنسا بالجزائر. موضوع أفريقيا اللاتينية: كان الموضوع المفضَّل لهذه الإصدارات الرسمية أو تلك التي تُدَعِّمُها السلطات العمومية الاستدمارية، هو علم الآثار اللاتيني. وفي سنة 1951، تضاعفَتْ هذه المنشورات، وهي تبرهن أنَّ الأمرَ يتعلق ببرنامج مُتابَعٍ، وحركة محددَّةٍ»[1]. المجلات الثقافية لمدرسة الجزائر: أعقبتْ الفكرةَ الكولونيالية عن التشارك والوصاية، روحُ الإنسانية والمساواة. وأصبحت مدرسةُ شمال-أفريقيا ذائعةَ الصيت. هي تريد أن تؤكِّد من خلال ذلك، هذا الانصهارَ المتوسِّطي المسجَّلَ ضمن مستقبلِ أفريقيا الشمالية»[2].. كانت السلطات العمومية الاستدمارية تُفضِّل، دعم الإصدارات الواقعة تحت رقابتها وإلى غاية الاستقلال، بدلا من هذه المجلات الثقافية التي كانت تبث عند الحاجة أفكارا تحريرية خطيرة، رغم التوافق النسبي لخطابها مع الواجهة الإيديولوجية الكولونيالية.) **والصحافة** (كانت السلطاتُ العمومية الاستدمارية تمتلك على المستوى الإداري أداةً فعالة للسياسة الثقافية، هي مصلحة الصحافة والإعلام، التي تُقَدِّم إسهاماتها

---

[1] CAOM, 10 CAB 84, Journal des arts, vendredi 10 août 1951.

[2] Cité dans Déjeux, La Revue algérienne…", p.17.

يوميا. وإلى هذه الوصاية على الإعلام، كان يُضافُ مقصٌّ الرقابة، بلا رحمة أحيانا، ليس إزاء الصحافة الإسلامية فحسب، بل مع الصحافة الفرنسية كذلك.)، و**الإذاعة** (ساهم تنصيب جهاز البث بـ**الأوكاليبتوس** المشيَّد لأجل الذكرى المئوية، في جعل الإذاعة أحد الأدوات المفضلة في السياسة الثقافية الفرنسية انطلاقا من الثلاثينيات. كانت تبث برامج متنوعة ذات أهداف سياسية. كان المسرح، المبثوث عبر الإذاعة، مثلا، يُستَغلُّ غالبا لتحقيق تآلف جمهور أمِّي واسعٍ وصعب بلوغه، مع الثقافة الفرنسية. وكانت السلطات العمومية الاستدمارية ترى في نشر الموسيقى الفرنسية، عامل تعلق بفرنسا. بيد أنَّ السلاح الأهم، المستعمل بوساطة الإذاعة، كان يتمثل، بلا ريب، في الحصص الرسمية باللغة العربية والقبائلية[1]. وتقدِّم وثيقة عن الدعاية الفرنسية بعض التدقيقات حول الدور السياسي الذي كانت السلطات الاستدمارية تمنحه للإذاعة بالجزائر[2]. وسنحتفظ ببعض العناصر الجوهرية

---

[1] حدَّد مشروعٌ تمهيدي ميزانيةَ حصصٍ من هذا النوع، للسنة المالية 1950 بـ 61000000 فرنكا، وهو ما يُمثِّل في تلك الفترة مبلغا ضخما جدا. وكان البرنامج يَنُصُّ بوجه خاص على: قراءات للقرآن، ثلاث قراءات إخبارية بالعربية العامية، قراءتان إخباريتان بالقبائلية، مجلة للصحافة الفرنسية والأجنبية، مجلة للصحافة شمال الأفريقية والعربية. درس في تفسير القرآن، وآخرفي تفسير السنة، محادثة تعالج تطور وازدهار الإنجازات وكل النشاطات الفرنسية بوساطة السلطات العمومية الفرنسية، وللحفاظ على أقصى فعالية لهذه الأداة، كانت مصلحة الإعلام والتوثيق (فرع حصص باللغة العربية) تزوِّد كل شهر الحكومة العامة بالجزائر، بتقرير عن برامج العربية والقبائلية لإذاعة الجزائر.

[2] **وسنحتفظ ببعض العناصر الجوهرية التي يمكن اعتبارها أجزاء متمِّمة لهذه «الدعاية» الاستدمارية.** الحصص باللغة الفرنسية، ولكن على وجه الخصوص الحصص باللغة العربية، محادثات عن القانون-الإطار" التي نجد فيها جملا مثل "الجزائر جزء مكمِّل للجمهورية الفرنسية"، "في 125 سنة، تشكلت شخصية جزائرية، ووُلِد تجمع ثقافي وسياسي، فرنكو-إسلامي حقيقي. فالزمن ليس **للحركة الوطنية البليدة**. لم تعد كلمة استقلال تمثل شيئا [...])

التي يمكن اعتبارها أجزاء متمِّمة لهذه «الدعاية». لم تزدْ الثورة التحريرية الجزائرية، ونَصْب هياكل للحركة السيكولوجية، الأهميةَ السياسية للإذاعة إلا اتساعا. وكان تقريرٌ صريحٌ للسلطات العمومية حول الدعاية يُذكِّر المسؤولين بالدور الجوهري الواجب عليهم لعبه، ويمنحُهم الموضوعات المتواترة التي على هذه الحركة السيكولوجية المدروسة علميا أنْ لا تتردَّد في استغلالها[1].) **والسينما*** («لتيسير التكيُّف مع الحياة الغربية، لدى المسلمين»[2]. «هي تسمح بلفت الانتباه، والاستيلاء عليه، بل إيجاد حالة تنويم مغناطيسي، لأنها تستعمل لغةَ صورةٍ، مجَسَّدةً »[3]. وهذا عبر أفلام التربية القاعدية، والدورات السينمائية لشاحنات الحكومة العامة داخل المناطق النائية جدا. وتكشف الدراسةُ، النقابَ عن الأهمية السياسية للسينما المضادة للحركة الوطنية الجزائرية. ومع اشتداد الثورة التحريرية، ومعها

---

[1] رغم صعوبات لحظة سياسية ملتبسة غالبا، من اللائق أن يستحضر مسؤولو الحصص في أذهانهم أهميةَ عرضٍ ديناميكي شعري-مؤثر بالنسبة لمستمعين عرب-مسلمين، ويقتربوا قدر الإمكان منهم. عليهم أنْ لا يتردَّدوا في تكرار الموضوعات نفسها دائما: عظمة الأمة الفرنسية، شباب فرنسا وديناميَّتها التقنية، ترقية الشباب العربي، تساوي كل الجزائريين وتآخيهم، الكفاح لأجل الحرية الفردية التي يريد الإرهاب خنقها، الكفاح ضد العنصرية، الكفاح ضد إخضاع شعب بوساطة بعض المثقفين الشباب المتعطشين إلى السلطة .... [...]

* درس عبد الغني المغربي تاريخ السينما الفرنسية بالجزائر وخرج بنتائج مهمة. منها: عدم تأثر الجماهير بها. وسخريتها من الجزائري وتشويه صورته. وقد أثرت على بعض القنات الاجتماعية ولكنها كانت قليلة أو شاذة. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 5/ 304-305. طبعة البصائر2009.)

[2] CAOM, 12 CAB 192, Ministère de l'Intérieur, Direction des affaires d'Algérie, Bureau des affaires sociales musulmanes, paris le 27 avril 1956, lettre du ministre résident en Algérie.

[3] Ibid.

الدعاية والحركة السيكولوجية الفرنسيتان، كان دور السينما المتنقلة يتعاظم. وقد وُضِعَ برنامجُ بثٍّ شهري للأفلام القصيرة سنة 1961، موجَّهَةٍ إلى جمهور المسلمين القَرَوِيِّين وأشباه القرويين[1]. ورغم طابعها الترويحي، يمكننا أن نفهم بقراءتنا للبرامج، كل الخلفية الفكرية، الإيديولوجية والسياسية التي تسندها.)، **والمسرح باللغة الفرنسية** (كان المسرح يمكِّن ليس فقط من الإبقاء على علاقة ثقافية بين السكان الأوروبيين وثقافة الحاضرة الفرنسية، وإنما أيضا مِنْ مواجهة العالم الأهليِّ بالواقع الغربيِّ، بثقافته ولغته، وهذا بفضل مقاربة مسلية، خفية ولكنها فعالة.)، **والتأطير السوسيو-الثقافي للشباب** (المراكز الاجتماعية ومصلحة الحركات الشبابية والتربية الشعبية...ثم التربية البدنية والرياضات الجماعية).

خلاصة عامة

وتصل **كميل ريسلير** في نهاية دراستها إلى النتائج التالية:

- الموقع الأساسيُّ للثقافة في تاريخ الجزائر الفرنسية. ومِنَ مرحلة الغزو إلى مرحلة القضاء على الاستدمار، ومن نظام عسكريٍّ إلى آخر، هي تتدخَّل في جميع المراحل، وعلى كلِّ المستويات. تُعَدُّ الثقافة، بصفتها مكوِّنا أساسيا للنظام الاستدماري، مَوْشُورا يمكننا من خلاله، أنْ نُلْقيَ نظرة جديدة على عمل هذا الأخير، وتطورَه وآلياته، ونقاطَ ضعفه والتباساته.

- يكشف التاريخ الثقافي للجزائر المستدمَرة انسجاما شبه-منهجي بين معنى (ومبنى) الحركات المباشَرة في مختلف مجالات الثقافة، وبين الصياغة العامة للسياسة الاستدمارية الفرنسية تبعا للإيديولوجيات المتعاقبة المحدِّدة لها. انطبعت الثقافة بالفترة التي كانت تَتَطَوَّرَ فيها، فانتقلت مِنْ تمدينيةٍ إلى إدماجيةٍ، ثم أصبحت وصائية وتشاركية، لتتطوَّر أخيرا نحو متوسِّطية

[1] CAOM, 15 CAB 148, Délégation générale en Algérie. Direction de l'information.

واندماجية. ليست الثقافة إذنْ، حقلا متميِّزا عن السياسة، بل هي على النقيض من ذلك.

تُحِيلُ هذه الواجهات الإيديولوجية المختلفة، للتاريخ الثقافي للجزائر خلال المرحلة الاستدمارية، على واقع كشفته دراستها المعمَّقة، ألا وهو تطابقها الدائم (في العمق)، على المدى الطويل، مع المصلحة العليا للدولة الاستدمارية، فقد كان هدفها الثابت هو الديمومة الفرنسية بالجزائر. لم تَضُرّ الحركاتُ المباشَرة في مجال الثقافة بالنظام، بل خَدَمَتْه دائما.

– حددت السياسةُ دائما، الخياراتِ في مجال الثقافة، شكلا ومضمونا، بحيث يمكن في النهاية، اعتبارُ كلِّ الحركات الظرفية، الدقيقة، والمستقِلة عن بعضها البعض، كُلاًّ متكاملا، يُسَمَّى السياسة الثقافية.. وثَمَّةَ تناقضٌ جوهريٌّ ملازمٌ للنظامِ، وَيُمَكِّنُ مِنَ تسليط الضوء عليه بحدة مستحدثة: ويتعلَّق الأمر بالتأقلم المستحيل للممارسة أمام ثباتِ الإكراهات الخاصة بنظامٍ للهيمنة.

–كان التحكُّم الكليُّ في المستدمَر، وتقبلُّه الطوعيُّ قدر الإمكان للنظام، هو الشرط اللازم للسلام والديمومة السياسية. لأجل هذا، كان من اللازم إبادة كل خميرة احتجاجية أو وحدوية، أيْ كلَّ الثقافة العربية الإسلامية، الواقع العميق الوحيد السابق للغزو. ولكنْ، لكي يتقبَّل المستدمَر الهيمنة، عليها أنْ لا تبدو في شكل قهري، وإنما أنْ تبرهنَ على تسامح معيَّن. على الغالِب أنْ يصنعَ له قدرا بتقديم تنازلات على أرضيةٍ تَهُمُّ المغلوبين، وهي ثقافتهم العربية الإسلامية أو البربرية. وهكذا، وبينما كان على فرنسا أنْ تكافح لأجل منع الثقافة من توحيد الجزائريين داخل أمةٍ، كان يجب عليها بالمقابل، أنْ تَبْدُوَ أكثر تحررية، بقدر ما كان السياق الدولي يتقدَّم فعلا باتجاه

تحرير الشعوب. كان على فرنسا إذنْ، أنْ تسمح، طَوْعا أو كَرْها، بصناعة السلاح الذي سيهزمها.

– إذا كان من الصعب أنْ نقيس بدقة النتائج الفورية للسياسة الثقافية، يمكننا بالمقابل أنْ نقول: هي لم تكن كافية لمواجهة الضغوط الخارجية وإبقاء السيادة الفرنسية، لكنها نجحت في أنْ تجعل الجزائر بلدا أكثر تفرنسا مما كنا نعتقده. في زمن الاستقلال، كان جزءٌ مهمٌّ من السكان فعلا ذا لغة وثقافة فرنسيتين، وهي حقيقة لم يعدِّلْها الاستقلال*. مِنَ المهمِّ أنْ نلاحظ كلَّ قوةِ السياسة الثقافية عبر نجاحها على المدى البعيد، وهذا رغم فشل الغاية السياسية التي كانت تضُمُّها.

– إنَّ السياسة الثقافية ظاهرة تكتسب اليوم، أهميةً، معتبَرَةً أكثر فأكثر في مجال العلاقات الدولية. ويرى كثيرون منذ الآن، أنَّ حروبَ الغد ستكون دماغية وأنَّ الثقافة ستكون عن قريبٍ المرجعَ الوحيدَ للهوية، المقبولَة في مجتمعٍ عابرٍ للقوميات. وضمن هذه الشروط، يبدو، من الملائم، أنْ نحاول فهم البعد الثقافي في العلاقات بين الدول، بشكل أحسن قليلا. وإذا كانت دراسةُ حالةٍ خاصةٍ، لا تُشَكِّلُ سوى خطوة أولى في هذا المشروع الرحب، فَيُمْكِنُها أنْ تُقَدِّم سلفا مساهمةً في علم الثقافة culturologie الذي تستحق أن تُفْرَدَ لها دراسة معمَّقة.

* لا أعتقد أن هذا التقييم للواقع الجزائري الحالي دقيق، بيد أنه رغم عظمة المشاريع الرسمية وغير الرسمية في مجال ترسيخ الهوية العربية الإسلامية بالجزائر، فإن المسافة كانت طويلة بين النص والواقع، وكان بإمكان الاستقلال أنْ يفعل أكثر مما فعله حتى الآن، أما استمرار الاستدمار فقد كان سيؤدي لا محالة إلى أسوأ مما تركنا عليه.

قداسة شعار الإسلام ديننا، العربيّة لغتنا، الجزائر وطننا

أ.أحلام بن عمرة
[جامعة مولود معمري، تيزي- وزو]

مقدّمة:

تعرّضت الجزائر لأقسى استعمار مباشر جثم على صدرها ما يزيد على قرن وربع قرن من الزّمن، حيث أراد الاستعمار للجزائر أن تكون فرنسية، أرادها أن تكون أندلسا جديدة؛ حيث عدت على الشّعب الجزائريّ العوادي، فنسي مجد العروبة، ولكنه لم ينسى أبوّتها، ابتلاه الاستعمار عن قصد بالبلبلة؛ فانحرفت فيه الحروف عن مخارجها إلاّ الضاد، ولم يبقَ من العروبة مع هذا إلاّ سمات وشمائل، احتلها ناسيا أنّ للجزائر أبطالا، الحقيقة الّتي لا يختلف فيها اثنان.

إنّ ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كان عسير الوضع، شاق الظهور؛ ذلك أنّ إنشاء جمعية إصلاحية في بلاد كالجزائر تخضع لاستعمار ضاغط يشق على النّاس أنفسهم، ولكن ما جعل الأمر ممكنا هو وجود أشخاص مؤمنين إيمانا راسخا بالإصلاح، متأثرين بالوضع المتردّي الّذي يعانيه أبناء أمتهم، ولم يعد من دواء لهذا الوضع سوى النّهوض بالمجتمع العربي في الجزائر، نهوضا يستهدف التّغيير في الحياة السياسية والدّينية

والعقلية وكان العلم، والنظام، والتّضحية، ومعرفة المنعطفات الّتي تتفادى إثارة الإدارة الحكومية، هي الوسائل التي تمكن بها ابن باديس وصحبه من تأسيس جمعية العلماء المسلمين والسبر بها بين الأشواك.

تأسست جمعيّة العلماء المسلمين من أجل رسالة نبيلة ثلاثية الأهداف، جسّدها شعار الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا؛ حيث أصبح هذا الثالوث المقدس الشغل الشاغل الذي ناضل من أجل تحقيقه ثلة من العلماء؛ بغية إعادة الدّين إلى ضيائه كما في عهد السلف الصالح. كما كان لعلماء الجمعية قدم راسخة في الذود عن لغة الضاد، والمنافحة عنها باعتبارها كيانا يضم بين طياته تراثا وفكرا وثقافة وحضارة، فهي وعاء الدّين وحافظته. وقد سعى الاستعمار إلى طمسها بكلّ ما أوتي من قوّة وإمكانات.

هكذا يتبيّن لنا مدى الجهد والنّشاط الذي بذلته جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين؛ لبعث النّهضة في الجزائر فرغم الصعوبات والعراقيل استمرت في مسيرتها وتمكّنت بفضل جهدها الحثيث وتخطيطها الواعي أن تحافظ على دعائم الشخصيّة الجزائرية الّتي تقوم على ركيزتين أساسيتين هما العروبة والإسلام.

انطلاقاً ممّا سلف سنعالج في بحثنا هذا دور الجمعية في الحفاظ على أبعاد الهويّة من خلال الإجابة عن الإشكالية الّتي يطرحها الموضوع وهي: **ما هي الطّرق والأساليب التّي سلكتها هذه الجمعيّة في سبيل الحفاظ عن قداسة شعارها؟**

1. نشأة جمعية العلماء المسلمين:

حاول الجزائريون التّصدي للمشروع التغريبي الفرنسي بمختلف تقلباته، والّذي استهدف لغتهم ودينهم كأهم عناصر الشخصية الوطنيّة، مستعينا بالزوايا والمساجد؛ أمّا المحاولات الجادة والميدانية فتظهر مع بداية القرن العشرين، والّتي كان لزيارة محمد عبده في 1903م للجزائر أثراً كبيراً؛ حيث تجلّت المبادرة في ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 1931م، التّي

أخذت على عاتقها مهمّة الحفاظ على مقوّمات الشعب الجزائري، التّي أصبحت مستهدفة من قبل الاستعمار الفرنسي أكثر من أيّ وقت مضى؛ لأنّه في هذه الفترة قد أحكم سيطرته على كامل الجزائر تقريبا[1].

كان ابن باديس صاحب فكرة تأسيس هذه الجمعية، إذ كان يؤمن بالعمل الجماعي المنظّم، وكان يقرن الدّعوة اللّفظية بالعمل، ومن هنا كانت دعوته إلى إنشاء جماعة تفكر وتدبر؛ لأنّ النهضة الإصلاحية في نظره تقوم على الفكر والتخطيط والتنظيم والانضباط فهو القائل: «**إنّما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله، إذا كانت لهم قوّة، وإذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتآزر، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرّة، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة**»[2]؛ حيث تعود البدايات الأولى للتّفكير في إنشاء تنظيم يجمع شمل العلماء الجزائريين، إلى اللّقاءات الّتي جمعت عبد الحميد بن باديس برفيق دربه محمد البشير الإبراهيمي إثر إقامته بالمدينة المنوّرة، أين كانا يتدارسان معا قضية الجزائر الجريحة، والسبيل الناجع للنهوض بها من الوضع التعيس والمتخلف في جميع ميادين الحياة، ويتحدّث الإبراهيمي عن هذه الاجتماعات الّتي وضعت خلالها البرامج المفصلة لنهضة الوطن الأم الجزائر، وتمّ على إثرها تحديد الوسائل المناسبة التي ستعين الشعب الجزائري على الخروج من دائرة الجمود والجهل فيقول: «**وأشهد الله على أنّ تلك اللّيالي من عام** 1913م **ميلادية هي الّتي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلّا في عام**

---

[1] الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، ط4، الجزائر: 1994، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ص28.

[2] عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس، د، ط، الجزائر: 1964، دار الكتاب الجزائري، ص428.

1931م»[1] نادى ابن باديس العلماء إلى ضرورة تشكيل حزب إسلامي إصلاحي يعمل على تطهير الدّين مما أدخله عليه الجاهلون من خرافات وضلالات والعودة به إلى أصوله الصحيحة المتمثّلة في القرآن الكريم، والسنّة النّبوية المطهّرة، وذلك بعد مرور شهور من احتفال فرنسا بمناسبة مرور قرن كامل على احتلالها لأرض الجزائر؛ حيث قام بتوجيه نداء على العلماء الإصلاحيين جاء فيه: «**أيّها السّادة العلماء المصلحون المنتشرون بالقطر الجزائري، إنّ التعارف أساس التآلف والاتحاد شرط النجاح فهلمُّوا إلى التّعارف والاتحاد بتأسيس حزب ديّني محض غايته تطهير الدّين مما ألصقه به الجاهلون من الخرافات والأوهام والرجوع إلى أصلي الكتاب والسنة وما كان عليه في عهد القرون الثلاثة... إننا نرغب من كلّ من يستحسن هذا الاقتراح ويلبي هذه الدعوة من أهل العلم من كلّ من يحب الإصلاح إن يكاتب إدارة الجريدة ببيان رأيه حتى إذا رأينا استحسانا وقبولا من عدد كاف شرعنا في التأسيس**»[2] الفكرة ذاتها نادى بها محمد رشيد رضا من منبر "المنار" العلماء والمثقفين العرب المسلمين، حين دعاهم إلى تشكيل حزب إسلامي عريض يشمل العالم العربي والإسلامي، والأمر ذاته حدث مع الأمير عبد القادر حن دعا إلى تأسيس جامعة إسلامية.

أرجع ابن باديس سبب الضلال والتمزق الّذي يعيشه الشّعب الجزائري على تفريط العلماء لأمر الاجتماع، وانكفائهم على ذواتهم وجلوسهم داخل بيوتهم، غير مبالين بما يحدث في الواقع من استبداد المستبدين،

---

[1] شهرة شفري، الخطاب الدعوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دراسة مقارنة بين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، باتنة: 2009، ص54.

[2] عبد الحميد بن باديس، نداء إلى العلماء الإصلاحيين(جريدة الشهاب، العدد3، 26 نوفمبر 1925) نقلا عن علي مراد الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر(1925- 1940)، ص 143.

واستفحال وباء الجهل الّذي هوى بعقله إلى أسفل السافلين وفي اليوم الخامس من شهر ماي عام 1931م، اجتمع لفيف من العلماء تعددت منازعهم ومشاربهم، وتنوعت اتجاهاتهم الدينية: موظفين دينين في الإدارة الحكومية، وطرقيين وأصحاب الزّوايا المستقلة، والعلماء الأحرار خريجي جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بمصر المتأثرين بدعاية المنار في الجزائر العاصمة بنادي الترقي؛ حيث تدارس المجتمعون أمر الشروع في تأسيس الجمعية، وقاموا بوضع القانون الأساسي للجمعية، صاغه البشير الإبراهيمي، وأقرته الهيئة الإدارية «**بالإجماع وقررت ترجمته باللّغة الفرنسية، وتقديمه للحكومة طالبة منها التّصديق عليه**»[1] تمّ انتخاب أعضاء المكتب الإداري الثلاثة عشر والموافقة عليهم، كان من بينهم عبد الحميد بن باديس الذي اختير غيابيا رئيسا للجمعية، ولم يحضر إلاّ باليوم الثالث والأخير للاجتماع. كما انتخب محمد البشير الإبراهيمي نائبا له، والأمين العمودي كاتبا عاما، والطيب العقبي مساعدا للأمين العام، ومبارك الميلي أمينا للمال، وإبراهيم بيوض مساعدا لأمين المال. إضافة إلى مجموعة من الاستشاريين: المولود الحافظي، مولاي بن الشريف، الطيب المهاجي، السعيد البحري، حسن الطرابلسي، عبد القادر القاسمي، ومحمد الفضيل اليراتني، جمعتهم وحدة المشرب، ووحدة الفكرة، ووحدة المنازع الاجتماعية والسياسة، ووحدة المناهضة للاستعمار[2]؛ وعليه فإنّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي: جمعية إصلاحية وجدت بعد نقاش دام خمس سنوات ونصف (نوفمبر 1925، 1931) لأجل تعليم الدّين واللّغة العربيّة والدعوة إليهما للكبار

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، مج 4، ج1، ط1، لبنان: 1997، دار الغرب الإسلامي، ص72.

[2] ينظر: شهرة شفري، الخطاب الدعوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دراسة مقارنة بين عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي.

في المساجد، وللصّغار في المدارس، وللشباب في النـوادي. كمـا وجـدت لأنّ تغرس مكارم الأخلاق في النفوس، وتحارب الرذائـل الاجتماعيـة، وتعـرّف الشعب الجزائري بتاريخ وطنه ويعـرف البشـير الإبراهيمـي جمعيـة العلمـاء المسلمين الجزائريين بقوله: «**جمعية العلماء جمعية علمية دينية تهذيبيـة، فهـي بالصفة الأولى تعلّم، وتدعو إلى العلم، وترغب فيه، وتعمل على تمكينـه في النفوس بوسائل علنية واضحة لا تتستر، وهي بالصفة الثانية تعلـم الـدّين والعربيّة لأنّهما شيئان متلازمان، وتدعو إليهما وترغب فيهما، وبالصـفة الثالثة تدعو إلى مكارم الأخلاق التي حض الدّين والعقل عليها من كمالهما، وتحارب الرذائل الاجتماعية التي قبح الدين اقترافها، وذم مقترفيها، وتعمل لترقية فكر المسلم بما استطاعت، وترشده إلى الأخذ بأسباب الحيـاة الزمنيـة والجمعية في ما وراء هذا مرتبطة بالعالم الإسلامي أفرادا وشعوبا، بما يترابط به المسلمون من حقائق دينهم ومظاهره**»[1] تسعى جمعية العلماء المسلمين إلى الارتقاء بالشعب الجزائري في جميع الميادين، ابتداء مـن مجـال الـدّين، مـرورا على اللّغة، وصولا إلى خدمة الوطن ورفع راية العلم المجيد.

وتعتبر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التنظـيم الـوطني الثـاني الّـذي ظهر بعد تأسيس نجم شمال إفريقيا بحـوالي خمـس سـنوات؛ ولهـذا التنظـيم أهميته في تاريخ النهضـة الجزائريـة الحديثـة وفي تـاريخ الإصـلاح الـدّيني في المغرب العربي[2] يقول الدكتور سعد الله أبو القاسم: «**إنّ تجنيد العلماء كان**

---

[1] البشير الإبراهيمي، الآثار، نقلا عن: عبد الغفـور شـريف، موقـف جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائريين من الثورة التحريرية من خلال جريدة البصائر (1954.- 1956) دراسة وصفية تحليلية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر3: 2011، ص52.

[2] محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية 1830- 1954، ط1، الجزائر، قسـنطينة: 1985، دار البعث ص107.

قد توقف تقريبا في الجزائر كما لاحظ "دي توكفيل" حوالي منتصف القرن الماضي منذ الاحتلال وقد لاحظ أنّ هؤلاء العلماء الذين كانوا مهتمين ومضطهدين قد هاجروا إلى الشرق الأدنى، وإلى الجارتين تونس والمغرب، وبقي آخرون منهم في الجزائر؛ ولكنهم نموا شاكين في الإدارة الفرنسية ومادام بعض هؤلاء العلماء غرباء في وطنهم، وطموحين من أجل المعرفة والزعامة، فإنّهم أصبحوا واعين سياسيا، ومصلحين ليبراليين، وعندما سمعوا بحركة الجامعة الإسلامية في أواخر القرن الماضي انجذب بعضهم إلى المذهب الجديد، وحاول أن يستعمله من أجل أهداف إصلاحية في الجزائر»[1] لقد كانت نشأة الجمعية ضرورة قصوى تقتضيها الظروف والتحديات، ردا على الادعاءات الاستعمارية بأنّ عهد الإسلام قد انتهى، وبأنّ الثقافة العربيّة الإسلامية اندثرت، وأيضا كانت مناسبة لعودة العلماء إلى ميدانهم في القيام بواجبهم النضالي، أسوة بزملائهم في المشرق العربي؛ والتي أتت لكي تقدم الإسلام في مفهومه القوي كقوة معنوية.

2. المبادئ التي ناضلت من أجلها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

يمكن اختصار المبادئ الّتي ناضلت من أجلها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، في الشعار المعروف الذي كانت تكتبها على غلاف البعض من كتبها المدرسية التي يدرس فيها تلامذة مدارسها وهي: الإسلام ديننا العربية لغتنا، الجزائر وطننا. وكانت جريدة البصائر وهي اللّسان المركزي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين تحمل في صدر صفحتها الأولى تحت العنوان مباشرة الشعار التالي: وهو يلي شعار الجريدة العروبة والإسلام، وذلك بتقديم لفظ العروبة على لفظ الإسلام؛ باعتبار اللّغة العربية هي لغة القرآن

---

[1] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900- 1930 ج2، ط3، الجزائر: 1983، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص، 428.

الكريم، وبالتّالي هي لغة الإسلام. وطبقا لشعارها الإسلام ديننا، والعربيّة لغتنا، والجزائر وطننا، وهي المقوّمات الأسّاسية للشخصيّة الجزائرية ماضيا وحاضرا ومستقبلا، فقد ناضلت جمعية العلماء نضالا صامدا لا هوادة فيه، ضد كلّ ما يمس أحد مقوّمات الشخصية الجزائريّة من قريب أو بعيد، ولذلك حاربت حربا شعواء الأمور التّالية: التنصير، الفرنسية، التجنيس، الاندماج في فرنسا.

3. سياسة فرنسا في القضاء على الدّين الإسلامي:

بما أنّ الدّين الإسلامي يعتبر في الجزائر مقوما رئيسيا من مقوّمات الشّخصية القومية فقد حاولت فرنسا القضاء عليه تمهيدا للقضاء على الشخصية الجزائرية وذلك عن طريق الإجراءات التالية:[1]

- أعلنت في بداية الاحتلال أنّ من أهم أهدافها من وراء احتلال الجزائر هو القضاء على الإسلام ونشر المسيحية فيها.

- استولت على الأوقاف الإسلامية بعد أشهر قليلة فقط من الاحتلال، وقد كانت الأوقاف هي التي تقوم بشؤون المساجد، والجوامع، والتّعليم الدّيني. وبذلك حرمت هذه المؤسسات من المورد الذي تعتمد عليه في أداء رسالتها الإسلامية على الوجه المطلوب.

- فتحت أبواب الجزائر على مصراعيها في وجه الهيئات التبشيرية من مختلف دول العالم بقصد تنصير الجزائريين والقضاء على الإسلام، وباركت نشاطهم وأيدتهم ماديا وإداريا.

---

[1] تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ط2، الجزائر: 1981، ص314، 315.

- حوّلت عددا كبيرا من المساجد الإسلامية الهامة في مختلف المدن الجزائرية إلى كنائس للمسيحيين، أو بيع لليهود. وذلك نكاية في الدين الإسلامي ومحاولة للقضاء عليه بالقضاء على مقدساته.

- أخضعت المؤسسات الإسلامية (مساجد- وقضاء شرعي- ومواسم إسلامية - ورجال الدين) وتسخير رجال الدين للعمل كجواسيس للإدارة على مواطنيهم مما يتنافى مع مكانتهم الدّينية المبجلة.

- طبقت قانون فصل الدّين عن الدولة الذي صدر في فرنسا سنة 1905 والمطبق في الجزائر بمقتضى مرسوم سنة 1907 على الدّين اليهودي، والدّين المسيحي فقط، ورفضت تطبيقه على الدّين الإسلامي ومعابده كي يبقى تحت سيطرتها المباشرة. حتى تحول بين الجزائريين وبين النهوض بالمؤسسات الإسلامية على الوجه المطلوب.

- عملت على فصل المناطق التي يسكنها الأمازيغ، وحاولت تنصيرهم عن طريق منع التّعليم العربي عنهم، ومنع العلماء الوطنيين من رجال جمعية العلماء، من التّدريس لهم وكذلك عن طريق منع التّعليم العربي عنهم، ومنع العلماء الوطنيين من رجال جمعية العلماء، ومن التدريس لهم، وكذلك عن طريق إلغاء المحاكم الإسلامية في الأحوال الشخصية، واستبدالها بمحاكم فرنسية مدنية، وتعرف هذه السياسة في المحافل الدولية بالسياسة البربرية.

4. جهود جمعية العلماء في المحافظة على مقومات الشّخصية الجزائريّة:

1.4. الإسلام ديننا: لا يتصوّر الشيخ عبد الحميد بن باديس مستقبلا آخر للجزائر خارج عن دائرة الإسلام؛ فالإسلام وحده هو الّذي تبنى عليه الشخصية العربيّة الإسلامية للشعب الجزائري. وفي رأيه أنّه مادام الإسلام قائما فلا خطر عليها من الذوبان في غيرها أو إدماجها أو فرنستها كما يحلم المستعمرون، والإسلام يشكل مانعا حصينا لشخصيّة الشّعب الجزائري ضدّ

كل تهديد داخلي أو خارجي؛ وهذا ما يفسر لنا اندفاع الشيخ عبد الحميد بن باديس الكبير في العمل بكل ما أوتي من إمكانات وقوة؛ لإحياء جذوة الإسلام في قلوب الجزائريين، والعمل على تطهيره من البدع والخرافات والضلال التي نشرها رجال الطرق الصوفية المنحرفون في صفوف الشعب باسم الإسلام، والإسلام منها بريء؛ لذلك قاد حركة إصلاح سلفي شاملة للإسلام في الجزائر، كانت من أقوى الحركات الإصلاحية السّلفية التي قامت في العالم الإسلامي في النّصف الأول من القرن العشرين ؛ حيث كان الإسلام الّذي يدعو إليه هو الإسلام الذاتي المبني على التّفكير والبحث، والتأمل فهذا هو الإسلام الّذي ينهض بالأمم، والشعوب وليس الإسلام الوراثي المبني على التّقليد والجمود وقاعدة سلم تسلم «**أما الإسلام الذاتي فهو إسلام من يفهم قواعد الإسلام ويدرك محاسن الإسلام في عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله ويتفقه حسب طاقته في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ويبني ذلك كله على الفكر والنظر فيفرق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبرهانه وما ليس منه بقبحه وبطلانه فحياته حياة فكر وإيمان وعمل ومحبته للإسلام محبة عقلية قلبية عقلية بحكم العقل والبرهان كما هي بمقتضى الشعور**»[1] إذن فنحن المسلمين مطالبون دينيا بأن نكون مسلمين إسلاما ذاتيا، ولا يمكن الوصول إلى هذا الإسلام إلاّ عن طريق واحد فقط هو التّعليم فلا يكون المسلم مسلما حتى يتعلّم الإسلام فالمسلمون أفرادا وجماعات مجبرون على تعلم الإسلام.

كانت مقاومة جمعية العلماء لأهداف الاحتلال الفرنسي ضد الإسلام تتمثل في ما أنشأته من مدارس ومساجد، ونواد لنشر التّعليم العربي الدّيني، وبعث الثّقافة العربية الإسلامية، ومقاومة جهود المنظمات التبشيرية الرّامية

---

[1] ابن باديس، مجلة الشهاب، ج3، م14، 1958، ص105.

إلى القضاء على الإسلام، ونشر المسيحية بين الجزائريين «**لأنّ الفرنسيين كانوا يعتقدون أنّ القرآن هو الذي يحرض وهو سبب السخط الشعبي عليهم في الجزائر، وقد أكد ذلك أحد النواب في البرلمان الفرنسيين ومن هنا قرروا القضاء على القرآن والدين الذي جاء به**»[1] وقد كانت الأمة بقيادة جمعية العلماء المسلمين تقدم تضحياتها لبناء المدارس والمساجد، من أجل البعث الفكري والبعث الروحي، اللذين هما عماد كل حضارة في سيرها الحثيث «**جاء الاستعمار الدنس إلى الجزائر يحمل السيف والصليب، ذلك للتمكن، وهذا للتمكين، فملك الأرض واستعبد الرقاب وفرض الجزي عاريا، ووقف للإسلام بالمرصاد من أوّل يوم، وانتهك حرماته من أوّل يوم، فابتز أمواله الموقوفة بالقهر وسخر العقول والأبدان. ولكنه لم يكتف بذلك، بل كان استعمارا دينيا مسيحيا، وتصرف في معابده بالتحويل والهدم، وتحكم في الباقي منها بالاحتكار والاستبداد، وتدخل في شعائره بالتضييق والتشريد كل ذلك بروح مسيحية تشع بالحقد، وتفور بالانتقام**»[2] وهذا ما جعل معاهد التّعليم تركز في مناهجها على تعليم اللّغة العربية والقرآن، وما يتصل به من علوم في التشريع، والأخلاق، والعقائد والتفسير والحديث إلى غيرها من علوم اللّغة والدّين؛ حيث كان منهج الدراسة يشتمل على المواد التالية:

- تفسير القرآن وتجويده.
- الحديث النبوي.
- الفقه على المذهب الملكي.
- العقائد الدينية.

---

[1] تركي رابح التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص330.

[2] تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص331.

- الآداب والأخلاق الإسلامية.
- اللّغة العربيّة بفنونها، من نحو وصرف، وبلاغة.
- الفنون العقلية كالمنطق والحساب، وغيرها.

5. إستراتيجية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على الدين الإسلامي:

1.5 **تغيير المفهوم الديني الذي كان سائدا في المجتمع الجزائري**: تم ذلك من خلال تبسيط الأحكام الفقهية وتسهيلها، وتخليص الدّين من الأوهام والخرافات والمعتقدات الفاسدة، وإظهاره بسهولته ويسره، فقد كان بن باديس يرى بأنّ التعقيد الذي أصاب المذاهب الفقهية هو أحد الأسباب التي دفعت الناس إلى التحلل منها والانخراط في الطرق الصوفية التي أباحت لهم التحلل من التكاليف، وإنّ السبيل لتغيير المفهوم الدّيني هو العودة بالإسلام إلى منابعه السلفية الصّافية، واعتماد العقل، وتبيان الأسباب والمسببات في التفسير.

وأوضحت جمعية العلماء أصول دعوتها الدّينية؛ فبينت بأن الإسلام هو دين الله الّذي يدعو إلى الأخوة الإسلامية، والأخوة الإنسانية، ويسوي في الكرامة البشرية، والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان؛ فهو يفرض العدل بين الناس، ويدعو إلى الإحسان، ويحرم الظلم ويدعو إلى بناء الحياة كلّها على التّفكير، وينشر دعوته بالحجة والإقناع، ويترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاءون، والإسلام يشرك الفقراء مع الأغنياء، ويدعو إلى إكرام الضيف وينكر البدع، وينبذ الشرك، انطلاقا من هذا المفهوم للدّين كان علماء الجمعية يفسرون القرآن، ويقيمون حلقات الوعظ والإرشاد ويدعون النّاس إلى التمسك بأهداف الدّين القويم، ولم يكن نشاط المصلحين في هذا المجال بالمهمّة السهلة، فقد تصدى لهم الطرقيون وأتباع المرابطين بشراسة المدافع عن حياته، وكان صراعا لابد من ذكره وتتبع مراحله.

2.5. **فصل الدّين عن الدولة**: طالبت جمعية العلماء المسلمين بفصل الدّين عن الدولة، وركزت على مجموعة من المطالب لكونها تعتبر من المكوّنات الأساسية للدّين الإسلامي، ومن هذه المطالب ما يليّ:

- تحرير المساجد برفع يد الحكومة عنها؛
- تحرير الأوقاف الإسلامية بإرجاعها إلى المسلمين؛
- تحرير رجال الدّين الإسلامي من الحكومة المسيحية؛
- تحرير القضاء الإسلامي برفع جميع القيود عنه؛
- تحرير الحج بعدم تدخل الحكومة في أي شأن من شؤونه؛
- تحرير الصوم بإبعاد الحكومة عن شؤونه.

3.5.**الفتوى**: وكانت من أنجع الوسائل فتكا ودكا لمخططات الاستعمار وخزعبلات الطرقيين؛ حيث تبوأت الفتوى مكانة عظمى في عمل الجمعية بدليل تأسيس الجمعية للجنة الفتوى تتولى إصدار الفتوى في المسّائل، والقضايا الّتي تهمّ الرأي ولها صدى كبير وفعّال في المجتمع.

4.5. **الخطاب الإصلاحي**: إدراكا من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للأهمّية القصوى الّتي تمثلها العقيدة في حياة الأفراد جعلها تتخذها كانطلاقة لمشروعها التّغيري، والإصلاحي وتركز معظم أعمالها عليها؛ لتحقق بها الإصلاح الفعّال وعليه اعتمدت على الخطاب الإصلاحي الّذي كشف كثيرا من الآفات الاجتماعية الّتي كانت مصدر معيشة أصحاب الطرق الصّوفية، ووقف موقفا حازما صارما تجاه انحرافاتهم، معتبرا تلك البدع والضلالات الّتي أتى بها الطرقيون، منشأ الأمراض الاجتماعية في جسد الجزائر، وأنّ بها يتفرق المسلمون الجزائريين ويناصبون العداء لبعضهم البعض وبقي الخطاب الإصلاحي في الجزائريين مرهونا بعاملين في تحقيق نجاحاته على الميدان، ولم

يكن دائما سجين الفكرة دون العمل، بل كان يمارس الدعوة الإصلاحية في وعي ورشاد، يسير إلى القرى النائية والأرياف والمدن، ويستأنس بأهلها وأناسها، وينير دروب النّاس بالسلوك الحضاري الّذي يتميّز به الطريق والنوادي والمدارس.

5.5. **التعليم المسجدي:** تمثل المساجد مركز الثقافة الدّينية لدى المسلمين ولأهمّية هذه الوظيفة، وارتباطها مع أهداف الجمعية الّتي تطمح إلى الإصلاح في مختلف مجالات الحياة رأت أنّ المسجد هو أول مؤسسة يجب أن تبدأ منها دعوتها فحولت المساجد إلى مدارس، ومعاهد تعقد فيها حلقات الدروس العلمّية من تفسير وحديث، وفقه وأصول وأخلاق، وغيرها من العلوم محسنون لتعليمها ونسميه مسجديا؛ لأنّه كان منفجر الإسلام إلى الآن ما زال يلقى في المساجد[1] ونظرا لأهمّية التعليم المسجدي، والأثر البالغ الذي يحدثه فقد قرنه الإمام ابن باديس بالإسلام جعله من أهمّ الضرورات الّتي يحتاجها الجزائريون؛ فارتباط المسجد بالتّعليم كارتباطه بالصلاة فكما لا مسجد بدون صلاة كذلك لا مسجد بدون تعليم فيقول: الإسلام دين الله الّذي يجمع بين السعادتين وإنّما يسعد بهما من اعتقد عقائده وتأدب بآدابه ولابد لهذا كلّه من التّعليم.

6.5. **الدعوة إلى التّعليم**: أدرك الخطاب الإصلاحي دور التربية، والتّعليم في دعوته الإصلاحية، وفي تحقيق أهدافه المتعلقة أساسا بالعقيدة والفكر، فركز على العقيدة والفكر «**كان الخطاب الإصلاحي ينهض بالتربية والتعليم؛ تثبيتا للعقيدة الإسلامية الصحيحة، وتمكينا للّغة العربية، وتشبثا بالتراث الذي خلفه السلف الصالح في أمور الدين، وبالتراث الفكري**

[1] ينظر: تركي رابح، التّعليم القومي والشخصية الجزائرية.

الجزائري في الثقافة الوطنية[1] يحتل التعليم مكانة مهمة في حياة الإنسان والنهوض به في مستويات الحياة المختلفة.

7.5. **محاربة البدع والخرفات**: إنّ الإصلاح ينبغي أن يبدأ من الدّين بتنقيته من الخرفات والبدع التي طمست على عقول المسلمين، وكانت سببا في تأخرهم حتّى أصبحوا سخرية الأمم الأجنبية، على هذا الأساس قامت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في محاربتها للخرافات، والأباطيل الّتي كانت تعج بها العقيدة الإسلامية، والرجوع بهم إلى الأصول للّدين الإسلامي: الكتاب والسنة، وتعيد ربط الجزائريين بدينهم، ورسم نهضتهم الّتي لا يمكن أن تؤسس على أية إيديولوجية غريبة عن العقل الجزائري، بل ينبغي أن تؤسس على التّصور الإسلامي الصحيح وهذا يقتضي أن يستوعب الجزائريون عقيدة الإسلام، وأن يفهموها فهما صحيحا نقيا خاليا من شوائب الشرك والأباطيل.

8.5. **محاربة الزوايا والطرقية المنحرفة**: لقد كان من النّتائج الّتي توصل إليها علماء الجمعية سنة 1913 من خلال تشخيصهم لحالة الجزائر الاجتماعية، أنّ البلاء المنصب عليها إنّما هو آت من جهتين متعاونتين عليه، أو بعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويفسدان عليه دينه ودنياه: استعمار مادي هو الاستعمار الفرنسي واستعمار روحاني يمثله الطرقيون، والمتاجرون باسم الدين والمساعدين للاستعمار، وبناء على هذا التحليل، والتشخيص فقد انطلقت الجمعية في أعمالها الإصلاحية، بداية بمحاربة الاستعمار الثاني كان أهون من الاستعمار الفرنسي؛ وذلك لأنّه يمس كيان الأمّة الجزائرية بصفة مباشرة؛ إذ تنص الجمعية في الأصل الرابع

---

[1] سليم مزهود، مفهوم الخطاب الإصلاحي عند الشيخ مبارك الميلي، قسنطينة: 2006، ص134.

عشر من أصول دعوتها على أنّ كل ممارسات الطرقية المحدثة باسم الدين الإسلامي تنكرها الجمعية وتعمل على محاربتها.

9.5. دور الصحافة في الحفاظ على الدّين: لم يقتصر نشاط جمعية العلماء المسلمين على ميدان التّعليم الإسلامي في المدارس والمساجد فحسب، بل تعداه إلى ميدان آخر لا يقل أهمّية وهو الصحافة الّتي تتطلب مجهودات، وخصالاً حميدة من أصحابها الإصلاحيين، حتى تؤدي رسالتها في المجتمع، ولما كان هدف العلماء المصلحين في الجزائر هو إصلاح المجتمع من كلّ جوانبه؛ فقد اتخذوا الصحافة وسيلة أساسية منذ 1925؛ لنشر أفكارهم. وعندما تأسست جمعية العلماء المسلمين سنة 1931م جعلت الصحافة وسيلة لنشر أفكارها ومبادئها ودعواتها وأهدافها بين الجزائريين، وسلاحا تستخدمه ضد خصومها من الإدارة الفرنسية.

ولما جاء القانون في حق إصدار الصحف، سارعت نخبة من العلماء بتأثير من الشيخ ابن باديس إلى إنشاء جريدة "المنتقد" سنة 1925، وفي السنة نفسها أسس ابن باديس جريدة "الشهاب" وفيها تطرح حلول لمشاكل كثيرة من مشاكل العصر الّذي عاش فيه ابن باديس حتى المسائل الإنسانية[1] وكتب فيها كثير من الرجال المصلحين، وبعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين أصدرت قرارا لها سنة 1933م بتخصيص جزء من الشهاب تنشر فيها خطبها وفتاويها ومحاضراتها، أما منشوراتها الإدارية فتعطى لجميع الصحف الدورية (كالشريعة المحمدية) و(السّنة النبوية) (الصراط الّسري) لكن السلطات الفرنسية سارعت إلى منع هذه الصحف فأوقفت الشريعة المحمدية، ثم السّنة النبويّة، وفي الأخير الصراط السري.

---

[1] أنظر: زنودة فريدة، النص المسرحي والإصلاح الاجتماعي في الجزائر حت سنة 1954، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، باتنة: 2008.

وفي سنة 1935 أسست الجمعية جريدة "البصائر" والتي كانت تحمل راية البيان بشمال إفريقيا، وتحارب الطرق الصوفية، والسلطات الفرنسية، إلاّ أنّ الإدارة الفرنسية كانت توقف كل صحيفة تشك في لهجتها واتجاهها العام.

جهود جمعية العلماء المسلمين في الحفاظ على اللّغة العربيّة:

اللّغة العربيّة هي الرّكن الثّاني من أركان الشخصية الجزائرية التي تكفلّت جمعية العلماء المسلمين بإحيائها وحمايتها؛ لكونها الرباط الوثيق الّذي يربط الشّعب الجزائري بدينه، وتاريخه وثقافته، ويربطه بأجزاء الوطن العربي المختلفة فهي «**لغة الدّين، لغة الجنس، لغة القوميّة، ولغة الوطنيّة المغروسة، إنّها وحدها الرابطة بيننا وبين ماضينا، وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين أرواحهم بأرواحنا**»[1] وإدراكا من الجمعية لمكانة اللّغة العربية في حفظ كيان الشعب الجزائري، فقد أولتها اهتماما كبيرا ورأت أنّه من الضرورة الإلزامية أن تكون اللّغة العربية من إحدى المبادئ المهمّة التي تحارب عنها من خلال مشروعها الإصلاحي والتّغييري وهذا؛ لكون العربيّة بكل ما تحويه من حضارة وثقافة، ولغة وقرآن كريم تمثل سدا حائلا بين فرنسا، وبين تحقيق سياستها في فرض الفرنسة، والتغريب على الشعب الجزائري[2] فسعت من خلالها إلى إفشال مشاريع الاستعمار الفرنسي الّتي يهدف بها إلى إشاعة ثقافة العرقية ليمزق بها وحدتهم، وكذا الطائفية التي يسعى إلى نشرها بين أفراد الأمة الواحدة ليعزز بها وجوده وتسلطه.

---

[1] نفسه، ص130.

[2] نفسه ص131

6. سياسة فرنسا في القضاء على اللّغة العربيّة:

أقامت إدارة جديدة على أنقاض الإدارة الجزائرية التي كانت جميع شؤونها تتم باللّغة العربية قبل الاحتلال، والّتي قضت عليها بعد الاحتلال بقليل ثم فرنست المحيط الاجتماعي؛ بحيث تحولت أسماء الشوارع، والساحات العامة، والمعالم الأثرية، وأسماء المدن، وأسماء القرى من أسمائها العربيّة الجزائريّة إلى أسماء فرنسية؛ فمدينة الجزائر أصبحت ألجي ومدينة وهران أصبحت أوران...الخ؛

- استولت على أهم المدارس، والمعاهد العلمية، والزوايا والمساجد الكبرى الّتي كانت مخصَّصة للعلم والتّعليم، وحولت لغة التّعليم من العربيّة إلى الفرنسية وطبقت النّظام التّعليمي الموجود في فرنسا على النظام التّعليمي الموجود في الجزائر؛

- تقسيم اللّغة العربيّة على ثلاث لغات: عربية عامية، وعربية فصحى، وعربية حديثة، واعتبارها جميعا غير صالحة للتعليم؛

- اضطهاد المعلمين الأحرار في سلك التعليم الحر وسجنهم وتغريمهم بقصد صرفهم عن العمل في نشر التعليم العربي بين الجزائريين؛

- فرنسة الإدارة ووسائل الإعلام والثقافة بغرض صبغ البلاد بصبغة فرنسية خالصة في كل صغيرة وكبيرة.

والجمعية حينما تربط الجزائر باللّغة العربية إنّما تسعى إلى ربطها بأصول حضارية عريقة، وإيصالها إلى مستقبل أفضل« **إنّ عروبة الجزائر عروبة تاريخ وحضارة، لها أيامها المجيدة ودولها العريقة ولن يقوم أمر الوطن الجزائري إلاّ بها**»[1] ومن أجل أن تحقق الجمعيّة أهدافها؛ فقد استعملت جميع الوسائل

---

[1] زنودة فريدة، النص المسرحي والإصلاح الاجتماعي في الجزائر، ص139.

لتقاوم أعمال الاستعمار، وتخيب آماله، وتعمل على إعادة الفعاليّة الحضارية للّغة العربيّة حتّى تصبح الأداة الأساسية للتّفكير، والكتابة، والخطابة، والتّواصل بين الأجيال، ولقد بدت هذه الغاية واضحة في حركة التّربية والتّعليم الواسعة الّتي عمت بها جميع أنحاء الجزائر، ومست جميع فئات المجتمع من غير تمييز بين كبيرها، وصغيرها رجالها ونسائها، ولقد كان لهذه الحركة أثرها الفعال في إعادة مجد اللّغة العربيّة في الجزائر، وكذا التخفيف من حدة الهجمة الفكرية الغربيّة على الشخصية الجزائرية؛ فاللّغة العربيّة التي كانت تدرس في الجزائر في معاهد العلم، والثقافة الإسلامية التي قضى عليها الاحتلال منذ البداية، ثم حرم تعليمها في المدارس الحكومية إلاّ على اعتبار كونها لغة أجنبية. ثم طردها من سائر الإدارات الحكومية.

7. **جهود الشيخ عبد الحميد بن باديس:**

يعود الفضل الأكبر إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس في إحيائها من جديد في الجزائر، ونشرها على نطاق واسع في مختلف جهات الوطن بواسطة حركة التّعليم والتربية النشيطة التي بدأها في مدينة قسنطينة قبل الحرب العالمية الأولى.

1.7. **دور التّعليم في المحافظة على اللّغة العربية**: ساهم التّعليم مساهمة فعّالة في الإبقاء على اللّغة العربية، والشخصية الجزائرية قائمة الذّات رغم الحرب التي تعرضت لها؛ حيث لم تجد اللّغة العربية مكانا تتنفس فيه نسيم الهواء، وتستنشق فيه هواء الحريّة إلاّ في معاهد التّعليم العربي الحرّ الّتي قامت بدور رائع في المحافظة على بقائها وازدهارها، ومنعها من موت أكيد، فقد نهض هذا التّعليم بمهمّة لم تنهض بها إلاّ الحكومات ذات الإمكانيات الكبيرة، وهي مهمّة بعث، تعليم اللّغة العربية لأبناء الجزائر، متحديا بذلك سياسة الفرنسة الّتي سار عليها الاحتلال منذ بداية وجوده في الجزائر «**إنّ هذه الأمّة تعتقد وتموت على اعتقادها أنّ لغتها جزء من كيانها السياسي،**

والديني، وشرط في بقائها. وقد التقى على الكفاح في سبيلها الدّيني والسياسي، فلم يختلف لهما فيه رأي، ولم يفترق لهما قصد لقد أدرك قادة الاحتلال أنّ الأمة التي تفقد لغتها، تفقد معها ثقافتها، وشخصيتها، بل وجودها»[1] ولذلك كانت محاربتهم للّغة العربيّة في غاية العنف. ولكن الجهود الجزائرية تكاتفت وراء المنظمات القائمة بنشر التّعليم باعتباره السبيل الأجدى في تحطيم مخططات الاحتلال ضد اللّغة العربية.

لقد قيض الله تعالى للشعب الجزائري ثلّة من العلماء الّذين اضطلعوا بمهمة نشر العلم بين صفوفه، والتّصدي للحرب الشعواء التي شنت على اللّغة العربية في الجزائر، وذلك بإحيائها وإحياء علومها، وتكوين جيل يخلفهم في هذه المهام الجليلة، ونظرا للإمكانيات الضعيفة من جهة، ومحاصرة الاستعمار لهم من جهة أخرى؛ فقد اتخذوا من المساجد الصغيرة، والزوايا المتواضعة منطلقا لمهمتهم ومنارات يؤمها محبو اللّغة العربية والقرآن الّذي نزل بها. لقد ظل التّعليم إلى غاية نشوب الحرب العالميّة الثانيّة صنيع جمعيات ثقافية مكوّنة من أشخاص أمنوا بمبادئ الجمعية؛ حيث تتولى كل منها مهمة فتح مدرسة حرة، وتتكفل بكل اللّوازم الماديّة الّتي تخص المدرسة وتتولى أيضا دفع رواتب المعلمين، وتأمين المسكن لهم، أما عن دور الجمعية في هذا النشاط فقد كان يتمثل في اختيار المعلمين، والإشراف على سلوكهم، ونشاطهم كما يتمثل في الإشراف الفني على المدارس كاختيار البرامج التعليمية، وتأمين الكتب اللازمة للتلاميذ، وغيرها من الأعمال الإدارية الّتي كانت هي المسير الرئيسي لها، وبهذه الطريقة استطاعت الجمعية أن تشيد أكثر

---

[1] – تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص327.

من 70 مدرسة عام 1935م ضمت حوالي ألف تلميذ وتلميذة[1] ونظرا للانتشار الواسع لنشاط الجمعية التعليمي؛ فقد جعل السلطات الاستعمارية تبذل ما بوسعها لإيقافه وعرقلة سير العملية التعليمية، وقررت فرض مراقبة مشددة على نشاطات رجال الإصلاح المختلفة وأهمّها النشاط التعلّيمي، لقد كان تطبيق هذا القرار بمثابة ضربة قاسية لعمل الإصلاحيين المدرسي، وتجلت هذه الضربة خاصة في توقيف الانتشار الثقافي للحركة الإصلاحية، وانحسار التّعليم العربي الحر في الجزائر، وبقي الأمر على هذه الحالة إلى غاية نشوب الحرب العالميّة الثانية، لم تستسلم الجمعية أمام هذا القرار بل كان ردها عليه شديدا وصريحا «**فهمت الأمّة كل هذا وفهمت أنّ هذا القانون سلاح جديد أشهر لمحاربتها في أعز عزيز عليها وأقدس مقدس لديها وهو قرآنها ودينها ولغة قرآنها ودينها... وفهمته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الممثلة للأمة في دينها وقرانها والناطقة في الدفاع عنها في هذه الناحية بلسانها، والمعاهدة لله والأمة على ذلك الدفاع إلى آخر رمق من حياتها**»[2] بذلت جمعية العلماء النفيس من أجل رسالة نبيلة هي التّعليم بهدف الحفاظ على مقومات الأمة؛ بناء على اعتقادهم أنّ التعليم العربي الحر هو الأداة التي تضمن المحافظة على الروح الجزائرية يقول ابن باديس «**ولا أدل على وجود روح الحياة في الأمة وشعورها بنفسها ورغبتها في التقدم من أخذها بأسباب التعليم الذي ينشر فيها الحياة ويبعثها على العمل ويسمو بشخصيتها في سلم الرقي الإنساني ويظهر كيانها بين الأمم**»[3] وهكذا كانت مطالبتهم

---

[1] زيلوخة بوقرة، سيسيولوجيا الاصلاح الدين في الجزائر، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، باتنة:2009، ص149.

[2] زيلوخة بوقرة، سيسيولوجيا الاصلاح الدين في الجزائر، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، باتنة:2009، ص151.

[3] ابن باديس، فاتحة العام الثاني من العقد الثاني، الشهاب، ج1، مج 12، 1936، ص6.

بتكوين مدارس إسلامية خاصة باللّغة العربيّة على وعي منهم بأنّهم يعكسون طموحات جماعتهم، وحرصا منهم على أن يكون التّعليم العربي ذا مردودية وضعت الجمعية منهجية خاصة قائمة في أساسها على إصلاح العقائد، وتقويم الأخلاق عن طريق نشر التّعليم ومن أجل تحقيق الجمعية أهدافها انتقت من الكتب العلمية ما هو أقرب إلى الإفادة، وأعون على تحصيل الملكة العلمية متجنبة الكتب الجامدة والمعقدة.

انصب اهتمام الجمعية أولا على إصلاح أساليب التّعليم بقضائها على تلك الأساليب العتيقة، والبالية (التقليدية) الّتي كان يباشر بها التّعليم واستبدلتها بأساليب حديثة؛ فكان منهجهم في التّعليم المدرسي يعتمد على تلقين التلاميذ أبسط القواعد، وأسهل التراكيب اللّغوية ثمّ تمكينها من نفوس التلاميذ عن طريق التمرينات التطبيقية.

وقد اعتمد برنامجهم في إحياء علوم اللغة العربية على تدريس جملة من المتون نذكرها في ما يلي:[1]

- **النحو**: ويعتمد في تدريسه على متن الأجرومية بشرح الكفراوي، والشيخ خالد الأزهري، ثم متن قطر الندى بشرح ابن هشام وحاشية السجاعي، ثم ألفية ابن مالك بشرح المكودي وشرح ابن عقيل والمكودي؛ ويعتمد فيه على متن الزنجاني بشرح سعد التفتزاني، وحاشية ابن حمدون؛
- **اللغة**: ويقرأ فيها مقامات الحريري وقطع مختارة من النثر والشعر؛
- **البيان**: ويقرأ فيه الجوهر المكنون بشرح الدمنهوري، السمرقندية بشرح العطار؛

---

[1] خيرة غانم، تجربة بعض الهيئات والمؤسسات في النهوض باللّغة العربية أثناء مرحلة الاستعمار وبعدها، عن الموقع الإلكتروني: www.google.com

- **العروض**: ويدرس فيه متن الكافي بشرح الدمنهوري، والخزرجية بشرح الأخضري.

هذا بالإضافة إلى علوم القرآن والحديث التّي تخدم اللّغة العربية كالتفسير والقراءات ومصطلح الحديث وغيره.

تمكنت الجمعية من توفير درجة تعليمية معينة عن طريق إنشائها لمدارس التّعليم العربي الحر، والّتي تميزت في أساسها بكونها مدارس ابتدائية صغيرة لا تتعدى قسمًا واحدًا أو قسمين، لكن بالرغم من هذه البساطة التّي تميزت بها هذه المدارس، إلاّ أنّها تمكنت من تحقيق نتائج إيجابية بارتفاع الطلبة الحائزين فيها على الشهادات باللّغة العربية مستوى ابتدائي؛ لذلك فقد اضطرت الجمعية إلى إنشاء المعهد الإسلامي الّذي كان يحتضن المتخرجين من السّنة الخامسة الابتدائية، ومن ماثلهم من ذوي الجهود الخاصة؛ أما عن وظيفة هذا المعهد فتتمثل في تقوية الطلّبة الجزائريين علما وعملا، وفي القرآن حفظا وفهما، وترويض ألسنتهم على القراءة والخطابة وأقلامهم عن الإنشاء والكتابة.

2.7. **الزوايا**: تشمل خطة الدراسة زيادة على الاهتمام بحفظ القرآن كله حفظا جيدا على العلوم اللغوية، والشرعية وبعض العلوم المتصلة بهما فالعلوم اللّغوية هي: النحو، الصرف، والبلاغة والأدب نصوصا وتاريخا وتذوقا، وكان التّعليم فيها يشمل على وجه التقريب المراحل التعليمية الثلاث الابتدائية والثانوية، والعالية، ففي المراحل الابتدائية كان الطلبة يدرسون القواعد النحوية في كتب الأجرومية وملحة الإعراب، الأزهرية، ومن هذه المساجد، والزوايا البسيطة التي سعت إلى الحفاظ على الهوية العربيّة الإسلامية للجزائريين، تخرجت النخبة الأولى من العلماء الّتي قادت النّهضة العربيّة في الجزائر في مطلع القرن العشرين.

3.7. إسهامات الشيخ البشير الإبراهيمي في خدمة العربيّة: إنّ من يعرف رجال الجزائر العظام لن يغفل حتما عن معرفة إمام اللّغة العربية، وفارس البيان الشيخ البشير الإبراهيمي، الّذي كافح الاحتلال بسلاح اللّغة والفكر الإصلاحي، فتمكنّ أيّما تمكن من لغة الضاد، فبث فيها الرّوح في ربوع الوطن الأسير، بعد قرن من الطمس، والإذلال، وغاص في أسرارها، وأبحر في لجة آدابها، ونهل من آثار عربها وأعرابها، فحفظ المتون والأشعار ودرس كتب الفقه والآثار، ولقد تربع على عرش الإصلاح فسعى لرأب الصدع الّذي ألّم بالهوية الجزائرية العربية الإسلامية، ودعا أبناء الأمة إلى نبذ الفرقة والتّحلي بالرّوح الوطنية.

دافع الإبراهيمي عن اللّغة كما دافع عن الإسلام والعروبة، وحارب مظاهر التخلف ودعا للقضاء عليها؛ لأنّ في ذلك خطوة نحو الانعتاق من ربق الاستعمار، كلّ ذلك في قالب أدبي راقي ينم عن ملكة لغوية كبيرة، ورصيد أدبي ضخم أهّلاه أن يكون أمير البيّان، ورئيس مدرسة لغويّة وأدبيّة عظيمة تلكم هي البصائر الّتي تناولت قضايا الأمّة المختلفة بأسلوب فني، اجتمعت فيه كلّ الأشكال الأدبية، النثرية منها، والشعرية ولا أدلّ على ذلك مما جاء في طياتها من أشعار الشاعر المصلح محمد العيد آل خليفة.

اجتمع الشيخ البشير الإبراهيمي مع ثلة من رفقاء درب الإصلاح؛ من أجل رسالة نبيلة ثلاثية الأهداف جسدها شعار (الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا). فاستغل كل الفرص السائحة داخل الوطن وخارجه، وتصدر كل المنابر سواء في المساجد، أو النوادي بغية إعادة الحرف العربي بعدما أوشك على الاندثار، بسبب سياسة تشجيع اللّهجات المحلية على حساب لغة الضاد، حيث قال: «**كنت أقوم للجمعية بكل واجباتها، وأقوم للجريدة بكلّ شيء حتى تصحيح النماذج، وأكتب الافتتاحيات بقلمي، وما من مدرسة**

تفتح إلاّ وأحضر افتتاحها وأخطب فيه»[1] وتمتاز اللّغة العربيّة عن غيرها بأنّها لغة الدّين، لغة القرآن والسنة، لغة العلوم؛ لذلك فإنّ إحيائها واجب على كل غيور حريص على الوقوف في وجه العدو، حريص على نشر اللّغة العربية والدفاع عنها، وقد دافع البشير الإبراهيمي بكل ما أوتي من قوة فسيّل قلمه وأطلق لسانه ونادى وأقام التجمعات من أجل هدف نبيل ورسالة سامية وقال: مبينا فضل العربية لغة الأمة هي ترجمان أفكارها، وخزانة أسرارها، والأمة الجزائرية ترى في اللّغة العربيّة زيادة على ذلك القدر المشترك أنّها حافظة دينها، ومصححة عقائدها ومدونة أحكامها، وأنّها صلة بينها وبين ربّها تدعو بها، وتعترف وتبوء بها إليه فيما تقترف، وتؤدي بها حقوقه فهي؛ لذلك تشدد عليها يد الضنانة، وما ترى أنّ بها لغات الدّنيا وإن زخرت بالآداب وفاضت بالمعارف فإن أخذت بشيء من تلك اللّغات، فذلك وسيلة على الكمال في أسباب الحياة الدنيا أمّا الكمال الروحاني والتّمام الإنساني فإنّها لا تنشده ولا تجده إلاّ في لغتها التي تكون منها تسلسلها الفكري والعقلي وهي لغة العرب ذلك لأنّ لغة العرب قطعة من وجود العرب، ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد، والعلم، والبطولة والسيادة؛ فإذا حافظ الزنجي على لغته؛ والصيني على لغته فالعربي أولى بالحفاظ على لغته؛ لأنّ لغته تجمع من خصائص البيّان ما لا يوجد جزء في لغة الزنج أو لغة الصين تبرز شخصية البشير الإبراهيمي المدافع المحب لوطنه الغيور على بلاده الداعي إلى الحفاظ على لغته الباذل النفس والنفيس؛ لأجل هدفه العالي.

4.7. **القراءة والمطالعة:** اهتمت الجمعية بالقراءة، والمطالعة فراح بعض أعضائها يجوب الأقطار العربيّة، ويجمع ما أمكنه من الكتب القيّمة، والمجلات

---

[1] ينظر محمد البشير الإبراهيمي، أنا نقلا عن المذكرة زيلوخة بوقرة، سوسيولوجيا الاصلاح الدّيني في الجزائر، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نموذجا، ص100

ذات النوعية الثقافية الجيّدة الّتي كان يتبرع بها أنصار اللّغة العربيّة، والغيورون عليها الأمر الّذي مكن الجمعية من إنشاء مكتبات ثرية يرجع إليها طلبة العلم ويستعينون بها في توسيع مداركهم، وتطوير ملكاتهم اللّغوية، وهكذا ظلت الجمعية بفروعها المختلفة تقاوم الغزو الثقافي في الجزائر، وتتصدى للحرب الشعواء الّتي شنت على اللّغة العربيّة حتى أشرقت شمس الاستقلال، فكان عليها حينذاك أن تغير خطتها، وتنادي بالتّعريب في جميع مجالات الحياة؛ لأنّها كانت على يقين بأنّ الاستعمار، وإن كان قد خرج من الجزائر، فإنه قد ترك بقية غير صالحة من أبناء هذا الوطن تتحدث بلغة المستعمر، وتفكر بطريقته وتحن على فنونه وآدابه. أمّا مشروع التّعريب الذي نادت به الجمعية على لسان البشير الإبراهيمي فنلخصه في ما يلي:

1. تقسم التعريب إلى قسمين: تعريب جزئي وتعريب كلّي، فأما الجزئي فهو تعريب الألسنة والأقلام ويدخل في ذلك تعريب التّعليم، وأما الثاني فيشمل الأوّل معه التّخلق بأخلاق العرب، والتحلّي بكل ما اشتهر عنهم من محامد وفضائل.

2. إن تعريب التعليم يجب أن يكون طبقا للروح العربية، وإن المرحلة الابتدائية هي مرحلة التكوين اللّغوي لذلك وجب أن يلتزم فيها بالأمور الآتية:

– أن يحفظ فيها التلميذ جزءا كبيرا من اللغة ويحسن التصرف فيه، وذلك بالاعتماد على كتب لغوية صغيرة تؤلف على غرار كتاب: كفاية المتحفظ" للأبجدي، وكتاب: الألفاظ الكتابية لهمذاني؛

– تدريج التلاميذ على الكلمات السهلة، ثمّ الجمل الفصيحة، ثم التّراكيب الجارية على القوانين العربية؛

– حث التلاميذ على التكلم بالعربية الفصحى ما داموا في المدرسة؛

– حرص المعلمين على أن لا ينطق أحدهم أمام تلاميذه بكلمة أعجمية حتّى لا تخدش ملكاتهم؛ لأنّ كلمة واحدة قد تفسد كل العمل؛

– تخصيص المرحلة الثانوية للتوسع في قواعد اللّغة، وتراكيبها بهدف تقوية ملكات التّلاميذ وتنميتها ويجب أن يمرنوا في هذه المرحلة على الخطابة، ويكلفوا بإلقاء محاضرات قصيرة تنتقي لها الألفاظ والتراكيب، وأن تفرض عليهم مطالعة كتب مختارة سهلة فصيحة لترسيخ فيهم الملكة العربيّة؛

– عدم إكثار حصص اللّغات الأجنبية في هذه المرحلة حتى لا تزاحم اللّغة العربية؛ ويجب أن يحرص على إفهام الطلبة بأنّ اللّغة العربيّة هي رأس المال الذي ينبغي الحفاظ عليه، وأنّ اللّغات الأجنبية هي الربح؛

– إذا انتقل الطالب إلى مرحلة التّعليم العالي، وقد أصبح لسانه عربيا وعقله عربيا فلا بأس إذا توسع في اللغات الأجنبية؛ لأن أفكاره وتصوراته الذهنية أصبحت كلها عربية؛

إن التّعريب الكلّي هو الغايات وعلى الحكومات أن تبني هذا المشروع بحزم وعلى الوزارات المختصة أن تنفذه بإتقان وأن تبذل له الأموال، وتعدّ له الرجال حتى يؤتي ثماره. وقد سعت الحكومة الجزائرية بعد الاستقلال إلى تنفيذ جانب من هذا المشروع، وهو تعريب التعليم والإدارة والإعلام.

5.7. دور الصحافة في إحياء اللّغة العربية: لم تغفل جمعيّة العلماء الجزائريين في جهادها الثقافي عن دور الصحافة في الإسهام في نشر الوعي وإحياء اللّغة العربيّة؛ لذلك شرعت في تأسيس الجرائد الأسبوعية والمجلات الشهرية، وكانت كلّما أوقف الاستعمار واحدة منها أسست أخرى، وقد كان المشاركون في إصدار هذه الصحف يحرصون على الارتقاء بالذوق اللّغوي للقراء، فلا تخرج المقالات، والموضوعات إلاّ في أجمل الحلّل الأدبيّة. وبعد سنوات قليلة ظهرت الصحف التي تكتب باللّغة العربية، وظهر

الإعلامي على شاشة التلفزة وهو يقدم برنامجه باللّغة العربية الفصيحة، وظهر السياسي وهو يخاطب جمهوره بالعربية الفصحى، بل حتى المعلق الرياضي صار لا يحسن التّعليق إلا بالعربيّة الفصحى.

6.7.**المقال الأدبي**: كان المقال الأدبي وسيلة لجأ إليها الرعيل الأول من الإصلاحيين من أجل تربية النشء، وتوعيته بخطورة ما آل إليه الجزائري من ذل، وهوان، وتبعية وعبودية للمحتل، لذا مثلت جريدة البصائر مع شقيقاتها السنة، والشريعة، والصراط الألسنة الأربعة التي اتخذتها جمعية العلماء المسلمين نوافذ إعلامية، وروافد فكرية للتّعبير عن هذه الرّسالة بالرغم من تعرضها إلى التوقيف، وإغلاق مقراتها وإن لم يكتب لشقيقاتها الاستمرار، فإنّ لجريدة البصائر مسيرة حافلة امتدت على مرّ سنين طوال مثلت نقطة التقاء نخبة من العلماء الأجلاء، إنّ القارئ لكتاب عيون البصائر سيفهم أنّ لهذا المفكر هدفا ورسالة يريد تبليغها بدقة في معالجة المستجدات، بعرض منطقي في مضمونها، وحجة قويّة في نقدها وفي الوقت نفسه سيتذوق بلاغة اللّغة في سحر بيانها، فصاحة اللّسان في أسلوبها، وجزالة الألفاظ في معانيها؛ فاللّغة هي الحصن المنيع الذي يقي الأمة من الضياع، والتشرذم وما يدل على ذلك قول البشير الإبراهيمي «...**ويأبى لكم الله والإسلام أن تضيّعوا لغة كتاب الله ولغة الإسلام. يأبى لكم الله إلاّ أن ترجعوا إليها لا لتحيوها، بل لتحيوا بها الفضيلة الإسلامية في نفوسكم ولتحيوا بها الحياة التي يريدها الله إلاّ أن ترجعوا إليها لا لتحيوها، بل لتحيوا بها الفضيلة الإسلامية في نفوسكم ولتحيوا بها الحياة الّتي يريدها الله منكم**»[1] لا غرابة أن تحصر أهداف الجمعية في هاتين الغايتين؛ لأنّ بهما تصبو الأمّة إلى كلّ الغايات، فالأولى هي الإسلام بمعناها الشامل عقيدة ومنهج حياة يبنى به الفرد

[1] محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي(1929ـ 1940)، ص133.

والمجتمع وفق ما أراده عزّة وجلّ، والثانية هي أداة فهمه. من أجل هاتين الغايتين سعت الجمعية إلى تعليم الكبار الدّين الصحيح، واللّغة العربية في المساجد، والصغار ذكورا، وإناثا في المدارس، والشباب في النوادي.

7.7. **النوادي**: بحلول القرن العشرين أصبح الشعور قويا بضرورة تأسيس أندية عربية في البلاد، هذه النوادي تساعد الشباب على تكوين علاقات جديدة على نشر الوعي والثّقافة، ومن أهم هذه النوادي نادي الترقي بالعاصمة[1] وأصبح النادي مكانا للالتقاء بين المثقفين وبه تشربت نفوسهم دعوة القومية الإسلامية؛ حيث يجد الشباب في تلك النّوادي مختلف أشكال الثّقافة الدينيّة. كما يعتبر مكانا لتدريس الشباب اللّغة العربية، وغرسها في نفوسهم توعيتهم بأنّها الوسيلة؛ لشد أواصر الأخوة، وأنّ التفريط في اللّغة هو تفريط في أهم مقوّمات الشخصية الوطنية، فلا يمكن فهم الدين دون فهم لغته، ولا يمكن الدّفاع عن الوطن دون حب لغته، وتشربها، إنّ اللّغة وعاء الفكر وسلاح يمكن من هزم العدّو لذلك سعت فرنسا بكل ما بوسعها لجعل الشعب الجزائري والشباب منهم خاصة باعتبارهم الشريحة المهمة في الوطن فهم أجيال المستقبل سعت لفرنستهم، وتفقيرهم من اللّغة الأم لكنّها وجدتهم لها بالمرصاد كيف لا وجمعية العلماء المسلمين يشرف عليها أمثال البشير الإبراهيمي زعيم الجزائر في بيانها.

8.7. **المسرح**: ساهمت المسرحيات التي كانت تشجعها الجمعية في الارتقاء باللّغة العربية والحفاظ عليها، وتعتبر مسرحية بلال للشاعر محمد العيد آل خليفة من أبرز المسرحيات؛ كونها أول عمل الشعري متكامل، ونعرف مكانة الشعر وبلاغته، ودوره في خدمة اللّغة العربية، وقد مثلت هذه المسرحية في مدارس الجمعية على جانب مسرحيات أخرى على نمطها تتناول شخصيات

---

[1] زنودة فريدة، النّص المسرحي والإصلاح الاجتماعي في الجزائر حتى سنة 1954م، ص48.

تاريخية وعربية اسلامية رائدة، تؤدي بمناسبة الأعياد، ونهاية موسم الدّراسة، فقد كانت الجمعية تستعين بالمسرح مثلما تستعين بوسائل أخرى لنشر أفكارها، وبث مبادئها بين الجماهير الجزائرية، وتوعيتهم بواقعهم، ودعوتهم إلى الحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية منها الحفاظ على اللّغة العربيّة.

8.**جهود الجمعية في الحفاظ على الوطن الجزائر:**

كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مؤمنة ايمانا شديدا بفكرة الوطنية، لذلك فقد جاءت أغلب أعمالها الإصلاحية مرتبطة بهذه الفكرة قاصدة إثبات الكيان الشخصي للأمة الجزائرية في أنّها أمة لها أصول تاريخية، وقومية عريقة، ردا فيها عن الاستعمار، وأعوانه الّذين يسعون إلى إنكار وجود الجزائر من دون فرنسا تشجيعا لمشروع الاندماج، الّذي رد عليه ابن باديس في قوله: «**الأمة الجزائرية أمّة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كلّ أمم الدّنيا ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال ولها وحدتها الدينية واللّغوية ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح شأن كل أمم الدنيا، ثم إنّ هذه الأمّة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي بعيدة عن فرنسا كلّ البعد في لغته، أوفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها ولا تريد أن تندمج ولها وطن محدود ومعيّن هو الوطن الجزائري بحدوده المعروفة**»[1] ويوسع ابن باديس مفهوم الوطنية في جعله خدمة الوطن الخاص خدمة للوطن العام، وللإنسانية جمعاء في قوله نعم إنّ وراء هذا الوطن الخاص أوطان أخرى عزيزة علينا هي دائما منّا على البال، ونحن في ما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لا بّد أن نكون قد خدمناها، وأوصلنا إليه

[1] عبد الحميد ابن باديس، كلمة صريحة "، مجلة الشهاب نقلا عن الخطاب السياسية، ص133

النفع والخير من طريق خدمتنا لوطننا الخاص، وأقرب هذه الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى[1].

قام الشعب الجزائري بكل منظماته الوطنية الصميمة وخاصة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس بشن حرب لا هوادة فيها عن طريق الصحافة، والدروس في المساجد، والمدارس والنوادي والمظاهرات في الشوارع، وإصدار الفتاوى الدينية بقصد محاربة سياسة التجنيس والاندماج، وقد اعتبر الأشخاص المتجنسين بالجنسية الفرنسية كفارا لا يجوز الزواج منهم أو تزويجهم من النساء الجزائريات غير المتجنسات ولا الصلاة عليهم، ولا دفنهم في مقابر المسلمين، وقد أصدرت الجمعية عدة فتاوى في الموضوع نشر بعضها في جريدة البصائر العدد رقم 95 السنة الثالثة الصادر في 14 أكتوبر 1938، وكانت كل تلك الفتاوى بمثابة الضربة القاسية لسياسة التجنيس والاندماج لم تقم لهما بعدها قائمة في الجزائر، وكل ذلك من أجل المحافظة على عروبة الجزائر، وإسلامها التي حددها الشيخ عبد الحميد بن باديس في نشيده الرائع:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

إلى آخر هذا النشيد الذي يقع في 48 بيتا.

1.8. أهمية الصحافة في الدفاع عن الوطن: كما تجلى دفاع ابن باديس عن الوطن الجزائر في مجال الصحافة، فقد جعل ابن باديس شعار جريدة المنتقد "**الوطن قبل كل شيء**" وكذلك في جريدة الشهاب الّتي وردت فيها مقالات كثيرة تحث على التمسك بهذا المبدأ الذي سعت الجمعيّة من خلاله

[1] ينظر: المرجع نفسه

إلى غرس الروح الوطنية، وإحيائها في الشعب الجزائري، وحمايتها عن طريق جعلها إحدى المبادئ الأساسية التي تقوم عليها النهضة الإصلاحية.

سعت الجمعية من خلال وضعها لهذا المبدأ، إلى وضع الحدود الفاصلة بين الجزائر وبين فرنسا، وإلى تحقيق الانفصال التّام للجزائر عن فرنسا والتأكيد بأنّ للجزائر حدودا خاصة، ومعروفة وبأنّها جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الذي كان يتمتع بكامل حريته، وسيادته الوطنية قبل الاستعمار ومن هنا فهو وطن لا يمت بأية صلّة إلى الوطن الفرنسي إن موقف بن باديس واضح كلّ الوضوح فهو ضد الاندماج الذي يؤدي إلى التخلي على مقومات الشخصية القومية للجزائر.

2.8. **النوادي**: تعتبر النّوادي مكانا يجتمع فيه الشباب الجزائري بقادة الجمعية، يتناقشون فيه حول أمور الوطن فيركز فيه القادة على التذكير بمكانة الوطن وأنه من مقومات الأمة، كانت الكلمات والخطب التي تلقى فيه تؤثر تأثيرا إيجابا وتحمل الشباب على العزم للتصدي لعدوهم، فتجدهم يتنافسون في الدفاع عن وطنهم .

3.8. **الزوايا**: بالإضافة إلى الدور الدّيني الذي كانت تلعبه الزّوايا في حياة الشّعب الجزائريّ من محاربة البدع والخرافات، إلاّ أنها لم تكتف بهذا بل أصبحت مكانا يفتى فيه فتاوى حول التجنيس، وترسيخ القيّم العاليّة والتأكيد على أنّ حب الوطن من الإيمان، وأنّ المجاهد في سبيل الوطن له أجر غير ممنون.

الخاتمة:

تتمثل أهّم النتائج الّتي توصلّت إليها في ما يلي:

- اتسام عمل الجمعية بالواقعية المطلقة لارتباطها بالواقع الجزائري وتواصلها مع أفراده بشكل مباشر؛ فتمكنت بذلك من تشخيص أمراضه بكلّ جدية وإعطاء الحلول المناسبة له؛

- تعد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الممثل الرسمي لحركة الإصلاح الديني في الجزائر، وهي الأساس الوحيد الّذي أعطى للنهضة الجزائرية طاقة الاندفاع نحو الأهداف، هي الّتي تصدت بكلّ وسائلها لمشروعات التدمير الطرقية والاستعمارية؛

- بروز أهمية التعليم في القضاء على الخرافات والبدع ؛

- أهمّية التعليم في الحفاظ على اللغة العربية؛

- اللّغة وسيلة لفهم الدينّ والدفاع عن الوطن؛

- أهميّة وسائل الإعلام المتنوعة في رفع راية الجزائر وترقية اللغة العربية؛

- أهمّية التخطيط في مواصلة مسيرة الكفاح والجهاد ضد المستعمر الفرنسي؛

- الإيمان بالنجاح سبيل على تحقيق المستحيل؛

- أعلام الجمعية قدوة لمن يأتي بعدها؛

- اللّغة العربيّة مكوّن هام من مكوّنات الشخصية الوطنيّة؛

- وعي فرنسا بمكانة اللّغة وسعيهم المستمر للقضاء عليها؛

- الحفاظ على اللّغة العربية خطوة للحفاظ على المقومات الأخرى للشخصية الوطنية؛

- تعدد وسائل الحفاظ على اللّغة العربيّة؛
- تحريم الزواج بالأجنبيات مخافة الاندماج الذي تسعى إليه فرنسا؛
- الحفاظ على الوطن قبل كل شيء.

نماذج من استعمال العربيّة

عند أعضاء الجمعية "البشير الإبراهيميّ نموذجاً".

أ. فاتح مرزوق
جامعة مولود معمريّ تيزي- وزّو

مقدّمة:

لقد زخرت جمعية العلماء المسلمين بنحارير حملوا همّ الجزائر، وذلك في زمن تكالبت فيه طحون المستعمر، وقد كان كلّ واحد منهم يدافع عن وطنه بكلّ ما أوتي من قوّة، هذا بلسانه وقوّة بيانه، وذاك بزفرته وحنكته؛ فراحوا يعدّون العدّة، ويجعلون من ضعفهم قوة؛ فاتّخذوا شعارا لهم: "الإسلام ديننا والعربيّة لغتنا والجزائر وطننا".

ولعلّ أهمّ الّذين برزوا في فصاحة اللّسان، وقوّة البيان؛ أمير البلاغة العلاّمة البشير الإبراهيميّ هذا العالم اللّوذعيّ، والفصيح الألمعيّ، الّذي خرّت له نواصي العرب؛ فدوّخ العقول قبل القلوب، وخدّر النّفوس قبل تحريك الرّؤوس، في زمن قلّما من يتقن اللّغة ويحوزها. وفي وقت بلغ التّضييق عليها من لدن المستعمر حدّا لا يطاق؛ فجعل منها مطلبا يجسد من خلالها المواطنة اللّغويّة، وفي الآن نفسه تعدّ سلاحا للحفاظ على تلكم الهويّة؛ فالمجتمع إنّما ينهض بلغته الّتي تمثّل دينه ومواطنته.

والحقيق بالذّكر أنّ الإبراهيميّ قد آمن إيمانا قويّا بأنّ الحفاظ على اللّغة إنّما هو محافظة على المواطنة الجزائريّة وتشبّث بالإسلام؛ لذا فإنّ الّذي يدافع

على لغته فهذا مشحون بحب وطنه، وحبّ الوطن من الإيمان؛ فمن هذا المبدأ الرّئيس جعل الشّيخ الإبراهيميّ من اللّغة قبسا من قبس التّحرّر من قيود الاستدمار.

من هذا المنطلق نطرح التّساؤل: كيف استطاع العلامة البشير الإبراهيميّ الدّفاع عن مبادئ الجمعية من خلال بيانه؟ إلى أيّ مدى أثّرت النّبرة الخطابيّة في نفوس العامّة؟

1-ترجمة لحياة العلاّمة الشّيخ البشير الإبراهيميّ

1-1: مولده ونشأته: ولد محمد البشير بن محمد السّعديّ طالب الإبراهيميّ في أولاد أبراهم برأس الوادي نواحي "سطيف"، يوم 14 جوان 1889، ونشأ في بيت كريم من أعرق البيوت الجزائريّة؛ حيث يعود بأصوله إلى الأدارسة العلويين من أمراء المغرب في أزهى عصوره.

حفظ البشير الإبراهيميّ القرآن الكريم وهو ابن تسع سنوات، درس علوم العربيّة على يد عمّه الشّيخ محمد المكيّ الإبراهيميّ، وكان عالم الجزائر آنذاك؛ فحفظ قدرا كبيرا من متون اللّغة، وعددا من دواوين فحول الشّعراء، ووقف على علوم اللّغة والفقه والأصول، ولّما مات عمّه تصدّر البشير الإبراهيميّ لتدريس ما تلقّاه لزملائه في الدّراسة، وكان عمره آنذاك أربع عشرة سنة.

ولّما بلغ الثّانية والعشرين من عمره هاجر إلى المدينة المنوّرة سنة 1911، ليلتحق بأبيه الّذي سبقه بالهجرة إليها منذ أربع سنوات؛ فرارا من الاحتلال الفرنسيّ، ونزل في طريقه بالقاهرة، ومكث بها ثلاثة أشهر، حضر فيها دروس بعض علماء الأزهر الكبار، من أمثال "سليم البشرى" و"محمد نجيب المطيعي"، كما التقى بالشّاعرين الكبيرين "أحمد شوقي" و"حافظ إبراهيم".

وفي حين إقامته بالمدينة المنـوّرة التقـى بالشّـيخ عبـد بـن بـاديس، وأخـذا يتطلّعان، لوضع خطّة تبعث الحياة في الأمّة الإسلاميّة بالجزائر، وانضمّ إليهما الشّيخ "الطّيب العقبي" وهو عالم جزائريّ سبقهما في الهجرة إلى المدينة.

وفي سنة 1916 غادر البشير الإبراهيميّ المدينة المنـوّرة إلى دمشـق بعـد أن أمرت الدّولة العثمانيّة بترحيل سكّان المدينة كلّهـم إليهـا، وفي دمشـق تـولّى التّدريس بالمدارس الأهليّة، وألقى دروسا في الجامع[1]. وسأحاول أن ألخّص هذا القول في هذه التّرسيمة الآتية:

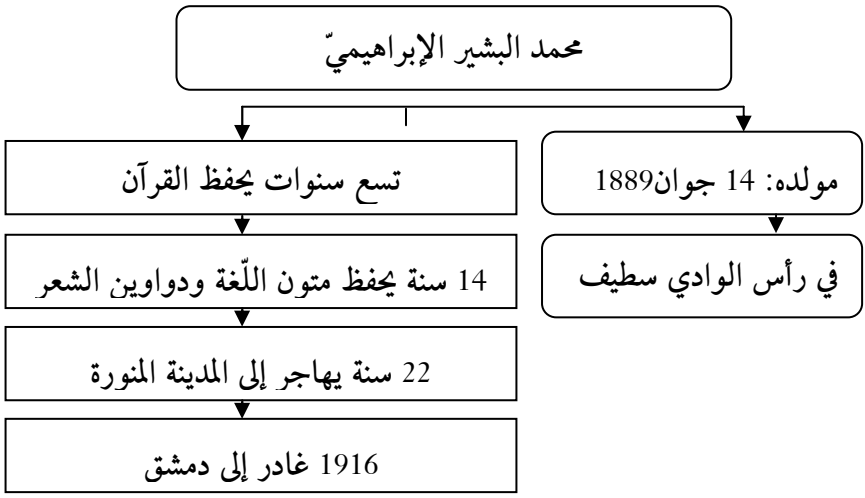

1-2: حياته العمليّة والفكريّة: عاد الشّيخ البشير الإبراهيميّ إلى الجزائـر 1920 والتقى بصديقه الشيخ عبد الحميد بن باديس؛ فرأى جهوده العلميّة قد أثمرت شبابا ناهضا، وأدرك ما قام به زميله هـو حجـر الأسـاس في إرسـاء نهضة الجزائر.

---

[1] حمد البشير الإبراهيمـي، آثـار الإمـام البشـير الإبراهيمـي، ط1. 1997: بـيروت، لبنـان، دار الغرب الإسلامي، مقدّمة ج1.

وقد كان الشّيخان "ابن باديس" و"الإبراهيميّ" يتبادلان الزّيارات؛ سواء في مدينة "قسنطينة" أم مدينة "سطيف" ويتناقشان أمر الدّعوة وخطط المستقبل، وتكوين جيل يُؤْمن بالعروبة والإسلام ويناهض الاستعمار من خلال تربية إسلامية صحيحة.

1-3: أعماله ومؤلّفاته: وهب الشّيخ البشير الإبراهيميّ حياته للتّربيّة والتّدريس والوعظ والإرشاد واستنهاض الهمم وشحذ العزائم؛ تاركا إرثا أدبيّا وإنسانيّا عظيما، في اللّغة والأدب والأخلاق والفضائل الإسلاميّة وأصول التّشريع.

والمعروف بدرجة كبيرة من كتابات البشير الإبراهيميّ مقالاته الّتي كانت تتصدّر الجرائد الجزائريّة مثل: "البصائر"، أو العربيّة مثل "الأهرام" و"المنهل" و"الإرشاد" و"منبر الشّرق"، هذه المقالات جُمعت وطُبعت في حياة الشّيخ البشير الإبراهيمي، وتحت إشرافه في كتابه عنوانه: "عيون البصائر" وصدر لأوّل مرّة سنة"1963م بدار المعارف بالقاهرة.

كما سعى ابنه "أحمد طالب الإبراهيمي" بعد وفاة والده الشّيخ البشير الإبراهيميّ إلى جمع آثاره رفقة تلامذة والده، وطبعها في أجزاء تحت عنوان: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي"؛ فصدر الجزء الأوّل عام 1978، ثّم صدر الجزء الثّالث عام 1981، ثمّ صدر الجزء الرّابع عام 1985م، أمّا الجزء الخامس؛ فقد صدر عام 1994م، في حين مثّل الجزء الثّاني كتاب "عيون البصائر".

1-4: نشاطه: ظلّ الإبراهيميّ يواصل نشاطه الإصلاحي في التّعليم كشخصية بارزة مؤثّرة ضمن الجمعية إلى أن نشبت الحرب العالمية الثّانية التي كانت سببا في نفيه إلى آفلو بالغرب الجزائريّ وبعد وفاة ابن باديس أفرج عن البشير الإبراهيميّ.

2- **الإبراهيميّ في لبان العربيّة:**

لعلّ العربيّة الّتي تفتّقت عند البشير الإبراهيميّ ما كانت عبثا أو قدرة وجدت من فراغ؛ بل مبدؤها الأساس والرّئيس حبّ هذه اللّغة والغيرة عليها، وهذا الّذي تمثّل في شخصيته الرّزينة وفصاحة لسانه وقوّة بيانه، وجزالة ألفاظه، ودقّة معانيه، وبراعة أسلوبه الّذي نبعه من "حفظ القرآن الكريم في آخر الثّامنة من عمره، وحفظ معه في تلك السّنّ المبكرة عدّة متون علميّة مطوّلة، منها ألفية بن مالك وتلخيص المفتاح، ولم يبلغ الرّابعة عشر من عمره؛ حتّى كان يحفظ ألفيتي العراقيّ في الأثر والسّير ونظم الدّول لابن الخطيب، ومعظم رسائله المجموعة في كتابه (ريحانة الكتاب). ومعظم رسائل فحول كتّاب الأندلس، ومعظم رسائل فحول كتّاب المشرق، مع حفظ المعلّقات والمفضّليّات وشعر المتنبيّ كلّه وكثير من أشعار الآخرين مثل ابن الرّومي وأبي تمّام والبحتريّ وأبي نواس وحفظ كثيرا من كتب اللّغة والأدب كاملة كالإصلاح والفصيح والكامل والبيان وأدب الكاتب... وكان يحفظ عشرات الأبيات من سماع واحد؛ حتّى كان عمّه لا يتركه ينام؛ حتّى يحفظ على يديه كلّ ليلة مائة بيت من الأبيات المفردة أو من المقاطيع فإذا طلب المزيد انتهره وقال: "إنّ ذهنك يتعب من كثرة المحفوظ كما يتعب بدنك من حمل الأثقال"[1] كما حفظ المصنّفات الكبيرة مثل كتب الجاحظ كلها، والأغاني للأصفهاني والكامل للمبرّد ومقدّمة ابن خلدون والعقد الفريد لابن عبد ربه وبهجة المجالس لابن عبد البر، والعمدة لابن رشيق المسيليّ وكتب العسكريّ، والجرجانيّ والآمديّ وقدامة بن جعفر، كلّ هذا وهو لم

---

[1] عبد العزيز دخان، الإمام محمد البشير الإبراهيمي واللّغة العربيّة نظرات وعبرات، ط1. 2015، المجلس الدولي للّغة العربيّة، دبي الإمارات، ص344.

يبلغ العشرين من عمره[1]. ومن خلال هذا كلّه سألخّص القول في هذه التّرسيمة الآتية بيانُها:

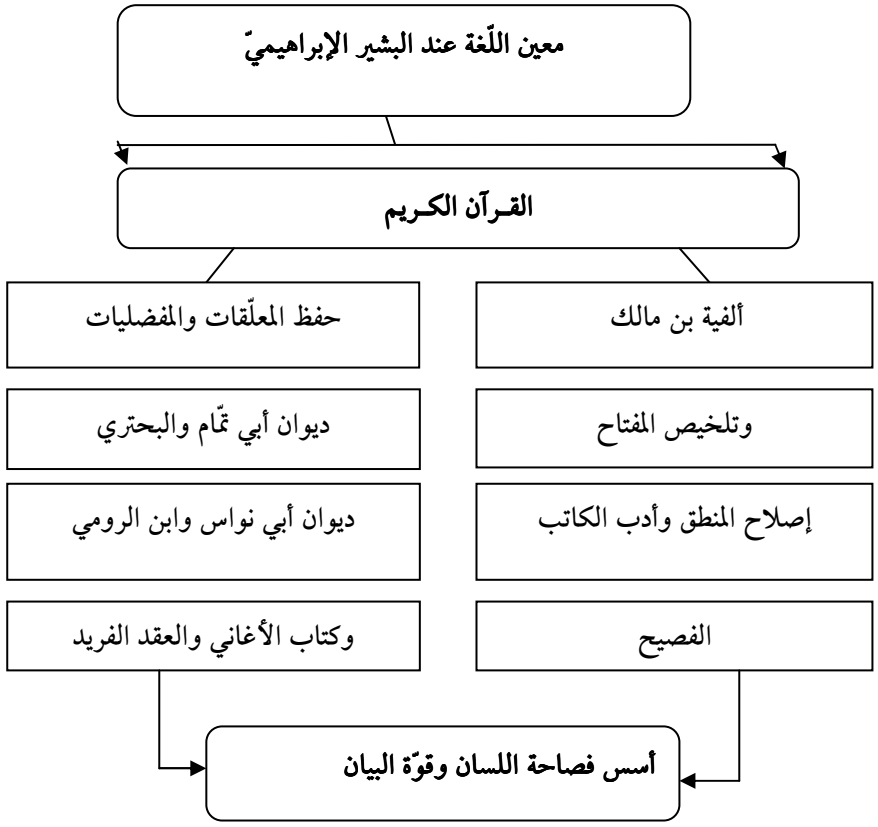

3- **نظرة البشير الإبراهيميّ للّغة العربيّة:**

البشير الإبراهيميّ رائد من روّاد النّهضة العربيّة اللّغويّة، ومن الّذين دعوا إلى تعلّم وتعليم اللّغة العربيّة؛ كونها لغة القرآن الكريم؛ فقد كان كلامه يتلألأ بالدّرر الكامنة، والعبارت الراقية، أوتي ملكة لغويّة رهيبة، ولا غرو في ذلك؛ فالشّيخ حفظ دواوين الشّعراء ومتون اللغة؛ فتفتّقت فيه هذه

[1] المرجع نفسه، ص344

البلاغة والفصاحة؛ فدوّخ بها نحار ير البيان وألي الفصاحة واللّسـان، وهـذا ما وصفه به شاعر الثورة محمد العيد آل خليفة إذ يقول:

لقـد كـان للفصـحى أباهـا ومرجعها إن ند أو شد مغـرد
وإن رام إرهاق الشّعور بفنّـه فعود به يشـدى ولحـن يـردّد
يشـدّ علـى الفصـحى يـدا يدا باللّغات النّافعات وسـيند
نصوص معانيها ينابيع فجّرت لكم ومبانيها كؤوس تنضّد[1]

من خلال هذه المقطوعة المسبوكة يتبيّن أنّ البشير بلـغ مـن البلاغـة أيّمـا مبلغ، فلا عجب أن يحمى ويحتمي هذا الرّجـل باللّغـة القرآنيّـة لغـةِ القـرآن الكريم؛ فكانـت شـعارًا قدسـيًّا في شـعار جمعيـة العلمـاء المسـلمين بقـولهم: "والعربيّة لغتنا"؛ لذا يقول:" الاسـتعمار الفرنسـيّ صـليبيّ النزعـة؛ فهـو احتـلّ الجزائر عاملا على مَحْوِ الإسلام؛ لأنّه الدّينُ السّماويّ الّذي فيه من القوّة ما يستطيع به أن يسود العالم وعلى مَحْو اللّغة العربيّـة؛ لأنّهـا لسـان الإسـلام، وعلى مَحْو العروبة؛ لأنّها دِعامة الإسلام وقد استعمل جميع الوسائل المؤدّية إلى ذلك ظاهرة وخفيّة سريعة ومتأنّية".

لقد آمن الشّيخ البشير الإبراهيميّ بالمواطنة اللّغويّة؛ كونهـا هُويـة المجتمـع وركيزته، ولولا اللّغةُ لما أقيم بنيان المجتمعات، فلا وجود لمجتمع دون مواطنـة ولا مواطنة دون لغة، وهذا ما صرّح به الشّيخ البشير الإبراهيميّ حين قـال: "اللّغة العربيّة هي لغة الإسلام الرّسميّة، ومن ثَمّ فهي لغـة المسـلمين الدّينيّـة

---

[1] الشّركة الوطنيّة للطّباعة، من آثار البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، الشّـركة الوطنيّـة للنّشـر والتّوزيع- الجزائر- ص13- 14

الرّسميّة، ولهذه اللّغة على الأمّة الجزائريّة حَقّان أكيدان: حقٌّ من حيثُ إنّها لغةُ دين الأمّة وحقٌّ أنّها لغة جنسها"[1].

يظهر من هذا القول: إنّ اللّغة هي شعار الأمم ومشعلها. فكيف يعيش مجتمع بلا لغة، إنْ أنت طمست هويته اللّغويّة، وبلبلته مواطنته، وهذا هو الأمر العظيم الّذي آمن به هؤلاء العمالقة عمالقةُ علماء جمعية العلماء المسلمين، هؤلاء الأفذاذ الّذين فدوا شقاشق حناجرهم من أجل أن يتعلّم الشعب الجزائريّ لغته، وأثاروا صيحات عظيمة من أجل أن تعيش الجزائر حرّة أبيّة.

فمن الأعمال الشّريفة الّتي سعت جمعيةُ العلماء المسلمين النّهوض باللّغة العربيّة وتعلميها، وأيّ شرف كهذا الشّرف في زمن تكالبت فيه نوائب المستدمر من كلّ الجهات؛" لذا تعدّ أشرف أعمالها تعليم العربيّة، وقد أقامت خمسة عشر عاما تطالب في غير ملل بحريّة التّعليم العربيّ"[2] مدة ليست بقصيرة لإثبات المواطنة اللّغويّة خمسة عشر عامّا ليست بالأمر الهيّن أعوام لا يحملها إلاّ الرّجال الّذين أحسّوا وحسّسوا بخطورة المستدمر لطمس هويّة الشّعب الجزائريّ؛ لأنّ أداة الفكر البشري لغته ومن يريد أن يعرف تاريخه علّمه لغته؛ فهي النّاطق باسم المفاخر والمآثر وهذا ما آمنت به جمعية العلماء المسلمين؛ "لذا فإنّ العربيّة لسان العروبة، النّاطق بأمجادها، والنّاثر لمفاخرها وحكمها، فكلّ مدّع للعروبة فشاهده لسانه، وكلّ معتزّ بالعروبة فهو دليل"[3].

ولم تتوقّف خطورة العربيّة عند البشير الإبراهيميّ في الأوساط الجزائريّة فقط؛ بل راح يزرع مكنوناتها في الشّمال الإفريقي حيث قال: "العربيّة في الضروريّات المقوّمة للدّولة، كوظائف القلم من إداريّة ومالية، ووظائف

---

[1] المرجع السّابق، من آثار البشير الإبراهيميّ، ص24

[2] نفسه، ص34.

[3] نفسه، ص35.

القضاء من عقود وتسجيلات، وعربيّة في الكماليّات تقتضيها الحضارة والتّرف؛ كالغناء والموسيقى والشّعر"[1]. يتّضح من خلال قول الإمام أنّ العربيّة وتعلّمها أساس قويم يجب على المرء أن يملك ناصيتها؛ "فالعربيّة تستحقّ كل العناية في رأيه؛ لأنّها لغة القرآن من ناحية ولغة وطن من ناحية أخرى" ولعلّ السّبب الّذي جعل البشير يهتمّ، ويغتمّ باللّغة العربيّة كونها:

- أعرق من الأمم في التّاريخ؛
- أنّهم من أكثرها محافظة على الفطرة الإنسانية؛
- يشيع ذلك في أمثالهم وأخلاقهم وآدابهم؛
- لأنّ اللّه أكرمهم باختيار آخر أنبيائه، وخاتم رسله منهم؛
- لأنّ فرنسا عملت طيلة وجودها بالجزائر على تحقير العروبة، وتقليل شأنها[2].

إنّ هذا الرّجل الفحل آمن بما تحويه العربيّة من أسرار وإعجاز، وإيجاز؛ فاللّغة تصلح الأمّة وأنّ الأمّة بلا لغة ما صنعت يوما أدبا؛ فالأدب يحمل أخلاقها ويشهر مآثرها، ويرفع من شأنها، ويصوّر حالها، وهذا جليّ بائن في المحاضرة الّتي ألقاها في المؤتمر الّذي عقد في القاهرة عام 1958 حيث راح يحفظ قواعد اللّغة، بسبك محكم، وحبك ملجم، فقال:

"أيّها السّادة، يا أدباء العربيّة، يا أبناء العروبة.

أحييكم تحيّة العروبة المجاهدة، فسلام الله عليكم، ورحمته وبركاته في بلدكم وبلدنا وبلد كلّ عربيّ وكلّ مسلم: سلام عليكم في مصر حصن

---

(1) نفسه، ص478.

(2) جمال مرزاقة، (جهود علماء الجزائر في الدّفاع عن اللّغة العربيّة ونشرها وتطويرها)، كتاب المؤتمر الدّوليّ الرّابع، ط1. المجلس الدّوليّ للّغة العربيّة.2015، ج5، ص202.

العربيّة، ومعقل الأدب، ومنتجع الأدباء والشّعراء منذ أجيال وأجيال"[1] إنّ الكلم عند البشير الإبراهيميّ يجري على اللّسان رطبا، ويلوكه لوكا، فيأتيك سبكا وحبكا. نداء تعتريه نبرة الشّهامة العربيّة الأبيّة، والفصاحة الخالية من الرّكاكة والخبل؛ لأنّه وببساطة رضع من لبان العربيّة الصّافية؛ حتّى إنّ الذي يسمع قوله، ويدقّق في لفظه، وزينة عبارته ليتلذّذ لما يسمع، لعلّ هذه البلاغة الراقية، والفصاحة العالية هي الّتي جعلت جحافل اللّغة يبهرون به.

فالأدب الّذي هو بلغة العرب يعدّ منبرا من منابر ثقافة الشّعوب، وحصنا من حصونها:

لغتي الجمال وأنت صرح باذخ بك يعرف الإنسان والأوطان
أهواك في نطق الحروف نبراتها في مسمعي ألحان

ومن حبّ الإمام البشير للعربيّة، وخدمةً لها راح يسبك تلك الدّيباجة العظيمة بلفظ رصين وجميل ويكشف قناع المعنى بلفظ جليل، فهبّ ينادي فرسان البيان، وأمراء اللّسان بحفظ اللّغة وبقائها، وجمع شتاتها، فقال:" حيّاكم الله وبيّاكم، وأدامكم وأحياكم، وأبقاكم للعروبة تصونون عرضها، وتستردّون قرضها، وللغة العرب تجمعون شتاتها، وتحيون مواتها، وترعون على تجهّم الأحداث وسفّه الوارث متاتها، ولهذا المجمع تُعلون بنيانه، وترفعون على العمل الصّالح أركانه".

ثم راح يصف حال العربيّة قبل ذلك اليوم: "وإنّ رباعها لمجفوّة، وإنّ قصاعها لمكفوّة، وإنّ رقاعها لغير ملتامّة ولا مرفوّة، فلقد كانت تلقى الأذى من الغريب المتنمّر ومن القريب المتنكّر؛ حتّى ظهر مجمع اللّغة العربيّة الّذي

---

[1] نفسه، ص349

سعى إلى إعادة شبابها، وتجديد معالمها وجمع أنصارها[1]. يتّضح من خلال المقولة الّتي أدلى بها الإمام الألمعيّ أنّ العربيّة كانت تقهر، ومن أصحابها تزدجر، وحان الوقت لكي يُرفع شانها، ويعلى قدرها، وذلك من خلال إعادة تكوين شبابها، وتعليمهم أصول هذه اللّغة؛ لذا فإنّ الأمر الّذي نادى به الإمام الإبراهيميّ بالتّعريب: تعريب جزئيّ وتعريب كليّ.

تعريب جزئيّ هو تعريب الألسنة والأقلام وآثارهما من خطابة وكتابة، ويدخل في تعريب الدّروس التّعليميّة.

وفي الأخير سأحاول أن أجمل القول في هذه التّرسيمة الّتي تبيّن نظرة البشير الإبراهيميّ للّغة ومن أين اقتبسها:

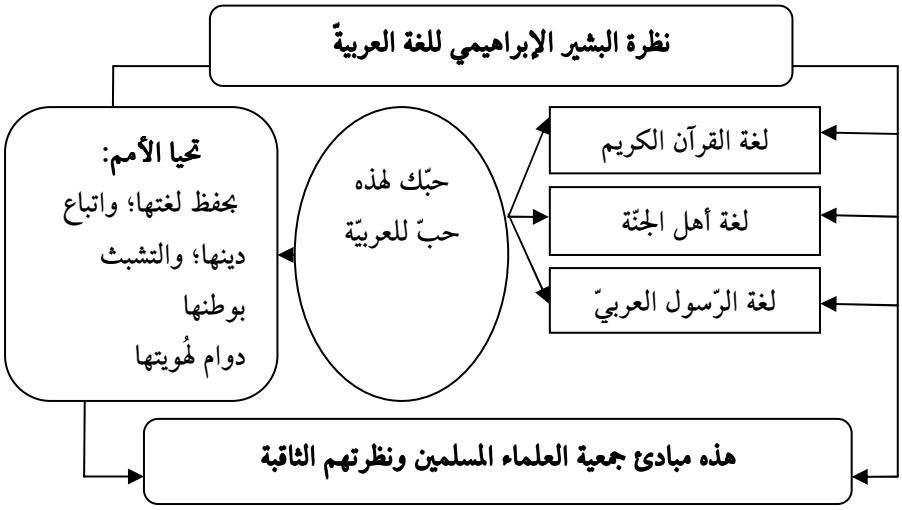

4- **البشير الإبراهيميّ رائد مدرسة الصّنعة اللّفظيّة:**

يعدّ العلاّمة البشير الإبراهيميّ من أفذاذ الفصاحة وألي البراعة واليراعة؛ فأنت إذا ما قرأت مقالاته تجدها تنماز بالأخيلة الجليلة والمعاني الدّقيقة،

---

[1] نفسه، ص349

والمحسّنات البديعة؛ فيحدث فيك الأثر، فتمعن حينئذ التّدبّر والنّظر، لقوّة الإيجاز وحسن الصّدر والإعجاز، فتحتار منها الأذهان، وترتعش لبيانه الأبدان، من كلّ الأقطار العربيّة والشّرقيّة؛ حتّى وإن أرسل برقيّة.

ولعّلي أقصد بمدرسة الصّنعة اللّفظيّة هي تلك المدرسة الّتي تهتمّ بالزّخرف اللّفظيّ والتّنميق في الأسلوب؛ والتّأنّق والتّألق فيه، وهو لا يرد هكذا عفويّا؛ بل إنّما ينتج من ملكة الكاتب أو الشّاعر اللّغويّة الّتي نبعها من معين لغة القرآن الكريم، وشعر العرب وأمثالهم وحكمهم، والبشير الإبراهيميّ من هؤلاء العباقرة والنّحارير والفحول في مجال الخطابة؛ إذ إنّه تأثّر بالمتنبيّ والبحتريّ من خلال شعره وتأثّره بأسلوب القدماء كالجاحظ وعبد الحميد الكاتب وابن العميد وغيرهم كثير، وهؤلاء الفطاحلة إنّما اعتنوا عناية فائقة بجمالية الأسلوب ورونقه والتّفنن فيه.

وإنّ المتمعّن في أسلوب البشير الإبراهيميّ ليلحظ أنّ آيات مدرسة الصّنعة اللّفظيّة بارزة وواضحة نذكر منها:

- انتقاء الألفاظ من القاموس القديم؛ أي: من الشّعر الجاهليّ وما أوتي من بعده؛

- الاقتباس من القرآن الكريم؛ وهذا دليل على أنّ البشير متأثّر بالثّقافة الإسلاميّة التي نبغ ورضع من معينها؛

- استعمال المحسّنات البديعيّة بكثرة كالجناس والاقتباس والطّباق وغيره كثير؛ وهذه الخاصيّة كذلك إنّما أورثها من لدن الّذين قرأ كتبهم وأمعن في تركيبهم، فأضحى الإمام يحذو حذوهم ويقتفي أثر أسلوبهم؛

- استعمال الصّور البيانيّة والتّشكيلات البلاغيّة الرّاقية الدّقيقة ذات المعاني الجليلة، والّتي تدلّ على سعة خيال الإمام البشير الإبراهيميّ.

وسألخّص هذا القول في التّرسيمة الآتية:

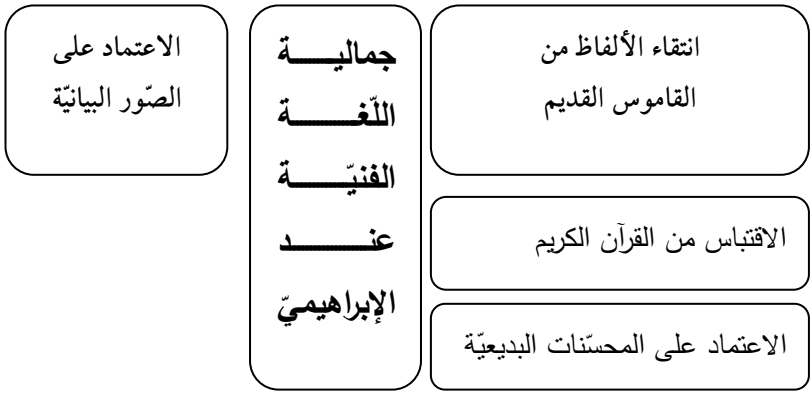

والآن سآخذ بعض النّماذج اللّغويّة كي أوضّح فيها هذه الجمالية اللّغويّة الرّباعيّة الّتي قلّما نلمسها في عصر الإبراهيميّ:

نموذج أوّل: هذا نموذج لغويّ يتحدّث فيه عن جرائم المستعمر الفرنسيّ وسيطرته وخطورته على الشّعب الجزائريّ حيث يقول:

ابدأ بما شئت، واختم بما شئت من النّظم والقوانين الّتي تسوس بها فرنسا الجزائر تجدها كلها دائرة من مبادئها وغاياتها على محور واحد، وهو احتقار المسلم الجزائريّ وبغضه وانظر ما شئت في أعمال الحاكمين كبارا وصغارا، وفي ملابساتهم للنّاس وفي شمائلهم تجد الأعمال المفسّرة لذلك والملابسات حتّى في الحديث جارية على ذلك.

"هلمّ إلى الدّين تجد الاستعمار الّذي كفر بالأديان يقول لك بصريح القول والعمل: أنا أحقّ منك بالتّصرّف في دينك؛ فلا تدخل المسجد إلاّ بإذني، ولا تصلّ إلاّ من وراء إمامي، ولا تضع زكاتك إلا برخصتي، ولا تصم إلاّ على

رؤيتي، ولا تزكّ إلاّ بعد استشارتي، ولا تضع زكاتك إلاّ حيث أريد، لا حيث تريد ومعنى هذا كلّه نسخ آية من القرآن بآية من وحي الشيطان، ولم يبقَ إلاّ أن تتلوها كما يريد قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي للاستعمار، وكذب الشّيطان الرّجيم، وأفك الاستعمار الدّميم.

وتعالَ إلى القوانين الجنائيّة -وهو مظهر المساواة فيما يزعم الاستعمار- تجد الألفاظ واحدة والتّطبيقات مختلفة، يجني الجانيان منّا ومنهم جناية متماثلة الكمّ والكيف والظّروف والشّهادات والقرائن؛ فيصطرع القانون المكتوب في الطّروس، والقانون المكتوب في النّفوس، يتضاءل الأوّل أمام جانيهم؛ حتّى ليكاد يعتذر إليه، فتصبح جنايته بالتّأويل ليست جناية فلا جزاء عليها وتسمّى جنايتنا بالتّهويل جنايتين ونصف؛ فالجزاء عليها ضعفا وضعفاً.

يتّضح من خلال هذا النّموذج اللّغويّ الّذي يبيّن فيه الإبراهيميّ براعة الكتابة الفنيّة الرّاقية، وهو أسلوب يحاكي أسلوب ابن المقفّع وعبد الحميد الكاتب والجاحظ، أسلوب اعتمد فيه الكاتب ما يلي:

- **الاقتباس من القرآن الكريم** في قوله: "قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي" وهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾الأنعام: 162 وقد عبر عنه الإبراهيميّ بدلالة أخرى حتّى يبيّن لنا شناعة الاستعمار وطرق سيطرته على هذا الشّعب الأبيّ والمتعلّق لوطنه؛ فالاستعمار يريد من هذا الشّعبِ أن يتذكّر الاستعمار، ولا يتذكّر ربّ العزّة من خلق النّاس أجمعين، فعبّر عنه بقوله: قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي للاستعمار. كما نجد اقتباسا آخر في قوله: "وكذب الشّيطان الرّجيم، وأفك الاستعمار الدّميم" فقد أخذه من قوله تعالى: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ عمران: 36 ومن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ النحل: 98 وهذا يدلّ على ثقافة الإبراهيميّ

الإسلاميّة، ولا ضير في ذلك؛ فالرّجل ترعرع في عائلة قرآنيّة متشبّعة برحاب القرآن، فالّذي لا يحفظ آية أنّى له من أن يستعمل آية في موضع كهذا.

كما نجد الإبراهيميّ يستعمل بعض المفردات القرآنيّة مثل: الدّين، المسجد، لا تصم إلا على رؤيتي فقد اقتبسها من قول النبيّ ﷺ: "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته" وهنا تكمن براعة هذا الفحل الجهبيذ، كيف استطاع هذا الرجل أن يسبك هذه المقولة ها هنا لولا أنه حُبِيَ قدرة ربانيّة على تبليغ الرّسالة؛ فهناك أناسٌ يجتبيهم المولى عزّ وجلّ لتبليغ ما يجب تبليغه ولو بشيء يسير فقد عبّر على قول الاستعمار بأنّه متجبّر في قوانينه وأحكامه الجائرة، وأنّه يحسب نفسه الرّب الأعلى هو النّاهي وهو الآمر.

– **استعمال المحسّنات البديعيّة**: تعدّ المحسّنات البديعيّة من الأساليب التي يعمد إليها الكاتب وبخاصّة الضليع في اللّغة؛ لأنّها تضيف لمسة جمالية بديعة في الكلام؛ لذا صنّفت ضمن علم البديع عند علماء البلاغة. ومن بين هؤلاء أذكر: الجناس بنوعيه: التّام والناقص، الطباق بنوعيه: الإيجاب والسّلب، والمقابلة والسّجع.

ومادام أن الشيخ البشير من علماء روّاد الصّنعة اللّفظية الّتي تولي اهتماما بهذا الجانب بالكاد لا نجد نصّا إلاّ وقد أحبكه بهذه الجمالية الفنيّة البديعة، والنموذج الذي أشرنا إليه هو أحد مئات النماذج التي أغدقت بهذه التأنقات والتألقات الزخرفية اللفظية؛ حيث نجد:

أ: **الطباق السلب**: في قوله: (محياي، مماتي) وهذا الضرب من الكلام من بديع ضروب البديع لما يحويه من تضاد وما يبرزه من معنى جلي، والذي يدل على أن المستعمر يلعب دور الإله حين يحي وحين يميت، وهذه الصفة نجدها عند الذين عثوا في الأرض فسادا، و عَتَوْا عتوا كبيرا، فالأمر شبيه للذي حاج سيدنا إبراهيم فقال المولى عز وجل على لسانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى

حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **البقرة**: 258 **والأمر نفسه نجده في قول الإمام البشير الإبراهيمي**: (ابدأ، واختم)، **وفي قوله**:(كبارا، صغارا).

ب: **السجع**: من المحسنات البديعية اللفظية التي تعمل على تحسين اللفظ وجماليته؛ فاللفظ الجميل يحسن ويظهر لك المعنى الجليل، وهو القبس الذي ينير لك أسلوب الكاتب؛ فالأسلوب هو الرجل والرجل العلامة الإبراهيمي اتّخذ من التنميق في الأسلوب أسلوبه.

نموذج ثان: وهو نموذج تحدث فيه الشيخ البشير الإبراهيمي عن تقسيم فلسطين وكيف كان رد فعل العرب تجاه ذلك، حيث بين السبب الذي جعل فلسطين تضيع من أيدي العرب وتحتضن بين ذراعي اليهود فقال:

" أيّها العربُ، قُسّمت فلسطين فقامت قيامتكم، هدرت شقاشق الخطباء وسالت أقلام الكتاب وأرسلها الشّعراء صيحاتٍ مثيرةً تحرك رواكد النّفوس وانعقدت المؤتمرات وأقيمت المظاهرات؛ فهل كنتم ترجون من الدّول المتّحدة على الباطل غير ذلك؟ وهل كنتم تعتقدون أنّه مجلس الأمم كما يزعم؟ وكأنّكم ما علمتم أنّ ذلك المجتمع يمشي على أربع: ثلاث موبوءة، والرّابعة موثوءة.

كان الواجب أن نعمل من يوم الوعد لما ينقض الوعد فنجمع الشّمل المشتّت والهوى المتفرّق ونقضي على الصّنائع الّتي اصطنعوها منّا ونحارب الواعد والموعود بالسّلام الّذي يحاربوننا به، ونعلم أنّ اليهود لا يكاثروننا بالرّجال؛ فرجالنا أكثر ولا يكاثروننا بالشّجاعة؛ فشجاعتنا أوفر إنّما يكاثروننا بالمال والعلم والصّناعة؛ فلو كنّا ممّن يفكّر ويقدّر ويأخذ بالأحْوَط الأحزم؛ لبدأنا من أوّل يوم بالإعداد والاستعداد؛ فأعددنا المال والعلم واستعددنا بالصّناعة.

أمّا وأنّنا لم نفعل؛ فلنعتبر أنّ صدمة التّقسيم القاسية العنيفة هي تأديب إلهيّ ينقي من هممنا الوهن والزّغل، وينفي من صفوفنا الكَلَّ والوَكَل، وإنّ الأمم الّتي تصاب بمثل تأخّرنا وتخاذلنا وغفلتنا لمحتاجة إلى أحداث ترجّها رجّا وتزجّها زجّا، لتنفض عنها أطمار الخمول والضّعة وتطهّرها من أدران الخَوَر والفُسُولَة".

هذا نموذج ثانٍ يبيّن الجانب اللّغويّ الرّفيع الّذي ينطق به هذا الرّجل العظيم؛ بغيةَ نشر رسالة هي من تفكير هيئة لها أسسها وقواعدها ومبادئها إنّها جمعية العلماء المسلمين، وقد استطاع العلاّمة في النّص البليغ، الذي تظهر فيه تشكيلات بلاغية فنيّة دقيقة، نحصرها في الآتي:

– **انتقاء الألفاظ من القاموس القديم**: سبق وأشرت إلى أنّ الرّجل يملك ملكة لغويّة ثرّة لا يضاهيها مثيل في عصر البشير؛ كونه نبع ونبغ من معين القرآن الكريم وأعالي طبقات الشّعر الفصيح؛ فراح العلاّمة البشير يحاكي أسلوب القدامى من حيث الأسلوب وطريقة الكتابة والنّظم ونلحظ ذلك في قوله:(هدرت شقاشق الخطباء)؛ أي حناجر الخطباء؛ فالبشير أراد أن يبيّن للعرب وهو يخاطبهم على أنّ فلسطين انقسمت فما جدوى من الخطب وانعقاد المؤتمرات فأتى بلفظة فيها حروف غريبة؛ حتّى تتناسب مع الموقف الّذي بصدده.

كما شبّه مجلس الأمم بتشبيه لاذع وكأنه حيوان يمشي على أربع ثلاثة مقطوعة والرابعة جثيا؛ فعبر ذلك بقوله: " ثلاث موبوءة، والرّابعة موثوءة".تعبير في قمة البلاغة؛ وهذا من أسلوب فطاحلة القول عند المواجهة؛ وهو شبيه بقول أحدهم عندما أراد أن يهجوه فقال له:

يا ابن هاتي كوتيك تيكا أشبهتك فيها شبها يخزيكا

ومن جميل التعبير السلس ما قد بدأ به الشيخ البشير هو الذي ختم به وهو أن القضية الفلسطينية قدر رباني إلهي؛ كما أنها تربي فينا وما يجب ألا يكون، وكأن هذه القضية إنما هي قضية تعلمنا ما سيكون حتى لا يقع، والبشير يعرف بأن الأمم تعيش في بوار عظيم وويلات وآهات فراح يعبر بلفظ دقيق من لفظ عربي أصيل فقال لهم:" وينفي من صفوفنا الكَلَّ والوَكَل" و" تطهّرها من أدران الخَوَر والفُسُولَة".

– **استعمال المحسّنات البديعيّة**: وهي من الأساليب الجماليّة البديعة الّتي تضفي على النّصوص رونقا وجمالا؛ ناهيك أنّها تثبت براعة الكاتب القويّة وتحكّمه في اللّغة ؛ ومن المحسّنات الّتي توافرت في هذا النّموذج الرفيع أذكر:

أ- الجناس النّاقص: في قول:(الكلّ والوكل) فقد أضفت جرسا موسيقيّاً ورنّة تجعل من السّامع يخشع لما يقوله الشّيخ. وفي قوله: (الواعد، الموعود)، وفي قوله:(موبوءة، موثوءة) و(رجّا، زجّا).

ب- التّجنيس: وهو نوع يشتق من الاسم ذاته، وقد ورد ذلك في وقوله:(قامت قيامتكم) وهذا النوع من المحسّنات مشهور في نظم ونثر الأوّلين الّذي برعوا في أساليبهم الكتابيّة.

ت- الطّباق/ التّضاد: وهما كلمتان متضادّتان في اللّفظ والمعنى؛ وهذا من النّوع الذي يُسْهم في بيان التّضاد القائم بين المعنيين وهو عبارة عن نفي لشيء كائن في الآخر، وقد عبّر عنه الإمام نُقاط التّعارض بين اليهود وبين العرب، وما السّبب الّذي جعل فلسطين تضيع من بين العرب للغرب فقال: (فاكتسبوا من ضعفنا قوّة)؛ وفي هذه العبارة دقّة في التّعبير؛ حيث رسم لنا الإمام صورة بيّن فيها ضعف العرب أضحى قوّة لليهود؛ لأنّا لم نستغل من الوقت سلاحا، ولم نعدّ العدّة وهكّذا. وفي قوله: (الجمع، المتفرّق)، وهما كلمتان متضادّتان وقد استعملهما الإمام لكي يبيّن وبال أمر العرب؛ وأنّهم

لا يزالون يصطلون في غياهب الشّتات؛ أمّا اليهود تأنّقوا في نور الجمع والاتحاد والقوّة، وإن كانت قوّتهم هي قوّتنا، وجمعهم هو جمعنا؛ فلما ضغف أمرنا وتشتّتت كلمتنا؛ انتكص وانتكس اللّفظ على عقبيه ومثله كذلك في قوله: (يكاثروننا، لا يكاثروننا).

ث- ردّ العجز على الصّدر: وهو تكرار كلمتين؛ بحيث تكون الأولى خلاف الثّانية من حيث المعنى، وقد ورد هذا الأسلوب في قوله: (ما ظلمت فلسطين يوم قسّمت، ولكنّها ظُلمت يوم بذل بلفور) ففي كلمة (ظلمت، ولكنّها ظلمت)؛ فالظّلم الأوّل فيه النّفي عن التّقسيم، أمّا الظّلم الثّاني فهو ظلم الجور والتّعنّت من لدن الوعد الّذي رسمه هذا النّص الطّريّ.

ج- السّجع: ونلمس في النّص نوعين من أنواع السّجع: المتوازي والمرصّع

- **المتوازي:** وهذا النّوع من السّجع يكثر بكثرة في نصوص ومقامات الإمام البشيرِ الإبراهيميِّ، وفيه تتساوى الألفاظ في الجملتين حرفاً وصوتاً وهذا في قوله:(تزجّها زجّا، ترجّها رجّا) ففي هذه العبارة تناغم موسيقي من حيث اللّفظُ والصّوتُ، ومن بديع هذا السّجع المرّصع أنّه رُصّع بطريقة بديعة من حيث تركيب حروفه وقوته، وكأنّ هذه الأحداث عبارة عن زلزلة ومن خلال حرف "الجيم والتاء".

- **المطرّف:** وهذا النّوع من السّجع يختلف فيه الوزن وتتّفق فيه التّقفية وقد ورد هذا في قوله: (ينقي من هممنا الوهن والزّغل، وينفي من صفوفنا الكَلَّ والوَكَل) فالعبارة غير متّزنة في الوزن لكنّها تتّفق في التّقفية (الزّغل، والوكل).

الخاتمة:

وممّا نخلص إليه من خلال هذا المقال الموسوم بـ: استعمال اللّغة العربيّة عند البشير الإبراهيمي، هذا العلاّمة البليغ المفوّه باللّفظ الجميل والمعنى الجليل؛ هذا

الرّجل اللّسن الّذي دوّخ الّرجالات العظام في محافل شتّى بالكلمة الرّاقيـة ذات الأخيلة البديعة، والأساليب الرّفيعة، والألفـاظ المتناسـقة الدّقيقـة، مـن سمعهـا ارتاح قلبه، ومن أمعن فيها أدرك قيمة الرّجل اللذوعي؛ فقـد اتّخـذ مـن اللّغـة سلاحا ليدافع عن الوطن والإسلام، نصر اللّغة فنصـره اللّـه، بحفظهـا والإلمـام بمعانيها؛ كونها لغة الدّين نصروها فنصرهم الله فكانـت عونـا لهـم؛ فاللّغـة هـي هُوية المجتمـع وهـي المواطنـة الكـبرى لحفـظ المجتمـع مـن التّلاشـي والانحـلال والانفلاق. ومن خلال هذا كلّه توصّلت إلى النّتائج الآتية:

- البشير الإبراهيميّ علم من أعلام الجزائر في عصر النّهضة؛

- حبّ اللّغة عند الشّيخ البشير الإبراهيميّ مـن حـبّ الـوطن، فاللّغـة إثبات للمواطنة؛

- الشّيخ الإبراهيميّ مصلح الجزائر بالكلمة الرّفيعة الموحية؛

- الدّفاع عن اللّغة دفاع عن الإسلام وإثبات للهوية والمواطنة؛

- اللّغة عند البشير رمز من رموز التّحرر من قيود الاستدمار؛

- اللّغة عند الإبراهيميّ تشبّث بالإسلام استمرار لحبّ الوطن من خلال المقولة القدسيّة:" الإسلام ديننا العربيّة لغتنـا الجزائـر وطننـا؛ وكأنـه يتحـدّث يقول النّبيّ ﷺ: أحبّا العربيّة لثلاث: "لأنّ القرآن عربيّ ولأنّني عربيّ ولأنّ لغة أهل الجنّة العربيّة"؛

- معين اللّغويّ للنّحرير الإبراهيميّ القرآن الكريم والشّعر العربيّ؛

- الإبراهيميّ هيئة مصلحة اجتماعيّة وسياسيّة بلغة عربيّة.

نماذج من استخدام اللّغة العربيّة
عند أعضاء جمعية العلماء المسلمين
الطّيب العقبي ومحمّد العيد آل خليفة أنموذجين.

سامية محيوت
مولود معمري تيزي- وزو.

مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ **[يوسف02]**
أقول إنّه قد أخطأ من قال إنّ اللّغة العربية لغة فقيرة بل هي لغة حيّة مثلها مثل اللّغات الأخرى، وتسعى هذه الدّراسة إلى إبراز بعض النّماذج التي استُخدمت فيها اللّغة العربية وبيان أثرها عند كلّ من الطّيب العقبي ومحمد العيد آل خليفة، وأهميتها في شحذ الهمم ومدّ العزائم في نفوس الجزائريين، هذان النموذجان اللذيْن يعتبران من الأعضاء البارزين لجمعية العلماء المسلمين، فهذا الخطيب المفوّه الطّيب الذي سعى جاهدا بخطبه وحتّى بشعره وحركته الإصلاحية إلى توحيد صفوف الشّعب الجزائري، يقول في أحد أشعاره:

أبا غالب لازلت في النّاس غالبا ونجم العدى للشؤم والنّحس
ولا زلت ترتقي في المعاني بهمة بها تمتطي من صهوة المجد غاربا

وأمير شعراء الجزائر محمّد العيد آل خليفة، هذا الشّاعر الذي رافق النّهضة الجزائرية في جميع مراحلها وعلى اختلاف أطوارها، وتنوع نواحيها من خلال الأثر الكبير الذي شكّلته المقاطع الشّعرية التي كتبها في حقّ الأمّة

الجزائرية إبان الثّورة. يقول في إحدى مقتطفات شعره من قصيدة "يا ليل" التي نشرت في مجلة البصائر عام 1951:

يـــا ليـــل طلـــت جناحـــا	متـــى تـــريني الصّـــباحا
أرى الكـــرى صـــد عـــني	بـــــوجهه وأشـــــاحا
أمســـى علـــي حرامـــا	مـــا كـــان منـــه مباحـــا
قـــد ضـــقت بـــالهم ذرعـــا	ومـــا وجـــدت انشراحـــا
ملـــت فراشـــي نفســـي	واستوحشـــت منـــه باحـــا
كـــأنّني رهـــن ســـجن	لم أرج منـــــه ســـــراحا

ويقول في موضع آخر:

فقم يا ابن البلاد اليوم وانهض	بـلا مهـل فقـد طـال القعـود
وقل يا ابن الـبلاد لكـل لـص	تجلـى الصـبح وانتبـه الرقـود

فلطالما كان الشّعر ولازال الـدّيوان الأول للعـرب، بـل يعتـبر السّـجل الـذي يدّونون من خلاله بطولاتهم وأمجـادهم وأحـداثهم المختلفـة. وإنّ الحـديث عـن اللّغة وبالتّحديد العربية بقلم هاذين العملاقين، لأمـر ممتـع فحبهمـا للغـة العربيّـة جعلـهما يبـذلان الـنّفس والنّفـيس مـن أجلـها، بحيـث خـدماها وحمـلا همّهـا. وبالحديث عن الطّيب العقبي ومحمّد العيد آل خليفة يجدر بي التّعريف بهما:

هذه التّرجمة كان قد كتبها بنفسه ونشرت في الجزء الأول من كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" لمؤلفه الأديب الجزائري الكبير الأستاذ محمد الهادي السنوسي الزاهري. يقول الطيب العقبي:[1]

ولـــدت ببلـــدة ســـيدي عقبـــة الجزائـــر ليلـــة النصـــف مـــن شهر شوال سنة 1307هـ، حسب ما استفدته من مجموع القرائن الدالـة علـى تعيين هذا العام، ويحتمل أن تكون ولادتي بعد ذلك التاريخ بنحو العام لأني لم أجد قيدا صحيحا لسنة ولادتي. والدي هو "محمد بـن إبـراهيم بـن الحـاج صالح" وإلى هذا ينسب اليوم كل فرد منا وبه تعرف عائلتنا، فيقـال لكـل منـا "ابن الحاج صالح" وعائلتنا من أوسط سكان البلدة، فلا هي أعلاهـا ولا هـي أدناها. أصل أول من سكن بلدة سيدي عقبـة مـن جـدودنا مـن أولاد عبـد الرحمن بجبل "أحمر خدو" بالجهة التي تسمى منه باسم "كباش". يعـدّ إذن الطيـب العقبي أحد رواد اللّغـة العربيـة ومـن الأعضـاء المؤسسـين لجمعيـة العلمـاء المسلمين، وكان له دور ونشاط كبير في الدعوة إلى الله حيـث كـان يـتردد إلى الأماكن العامة كالمقاهي والنوادي الليلية للدعوة إلى الله فبالإضافة إلى نشاطه في مجال الصحافة كان قلمه سيالا بكثرة مقالاته في جريدة الشّهاب والبصائر التّابعتين لجمعية العلماء المسلمين.

مكانة الطّيب العقبي عند جمعية العلماء المسلمين:

بدأ الطّيب العقبي حركتـه الإصـلاحية بنّـادي التّرقـي، أيـن عمّـر بعلمـه وخطبه التي عالجت المشاكل الدّينية والاجتماعية والثّقافية حيث قدّرت بأكثر من خمسين (50) محاضرة إضافة إلى مجمـوع الـدّروس والخطـب بعـد صـلاة الجمعة والعصر، ونتيجة لعمله الإصلاحي الذي كلّل بالنّجاح والـذي كـان سببه تأسيس جمعية العلماء المسلمين عـام 1931 م مـن طـرف كـلّ مـن ابـن

(1) Ar.wikipedia.org عن موقع الإنترنت، في 12 أوت 2015، الساعة: 13:00.

باديس والبشير الإبراهيمي والطّيب العقبي، والذي كان كلّ منهم يؤدي دوره وعلى اتّجاه واحد "فابن باديس اهتم بحركة التّربية والتّعليم في قسنطينة ومبارك الميلي أسهم في نشر التّعليم في مدينة الأغواط والعقبي وخير الدّين ساهما بالوعظ والإرشاد..."[1] وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على أنّ الطّيب العقبي كان من بين الأوائل الذين آمنوا بالعمل الجماعي الذي يخدم الحركة الإصلاحية، ولذلك فلا عجب إن قلت إنّه كان من التّابعين لتحركات ابن باديس ويظهر جليا في خطبه التي تدعو الأمّة إلى الوحدة والتّضامن والتي تدعو إلى تأسيس حزب ديني قائم على العربيّة والإسلام، حيث يقول في إحدى خطبه: "أيها السّادة العلماء المصلحون المنتشرون بالقطر الجزائري إنّ التعاون أساليب التآلف والاتحاد شرط النّجاح، فهلموا إلى تحقيق هذا الهدف لتأسيس حزب ديني محض غايته تطهير الدّين مما ألصقه به الجاهلون من الخرافات والأوهام والرّجوع إلى أصل الكتاب والسّنة."[2] ولعلّ العلاقات المكثفة من قبل الطّيب العقبي مع ابن باديس هي السّبب وراء النّجاحات التي حققتها حركته الإصلاحية ونشوده لنشر العربيّة والدّين الإسلامي وكذا تعزيز وتقوية مساره الإصلاحي.

وعلى هذا الأساس كان الطّيب اللّسان الأول لجمعية العلماء المسلمين، لنشر دعوتها والذي "كان يتميّز بأسلوب مختلف تمامًا عن أترابه المصلحين في لكنته الصّريحة والحادة في مهاجمة كلّ ما هو مفسد للدّين من رجال الطّرقية والقوّات الاستعمارية والبدع والخرافات، المستشرية في المجتمع الجزائري من خلال دروسه الدّينية والحلقات العلميّة التي كان يلقيها بنّادي التّرقي

---

[1] حنان عدوان: الشيخ الطيب العقبي ودوره الإصلاحي (1960-1980)، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر، 2013، جامعة محمد خيضر بسكرة، ص 31.

[2] المرجع نفسه، ص 32.

والمساجد بالإضافة إلى نشاطه الإصلاحي الدّعوي، كما برز العقبي صحفيا ناصع الحجّة جريئًا في طرحه لمواضيعه وأظهر براعة في النّثر والشّعر، وقد ظهر ذلك جليا في كتاباته في جرائد الجمعية، البصائر، الشهاب، والمنتقد وغيرهما...[1] وهذا إن دلّ على شيء يدل على أنّه كان ببراعته وحذاقته ولسانه العذب كان المسؤول والمؤسس الأول للجمعية والقلب النّابض لها وهذا بفعل حركته الإصلاحية.

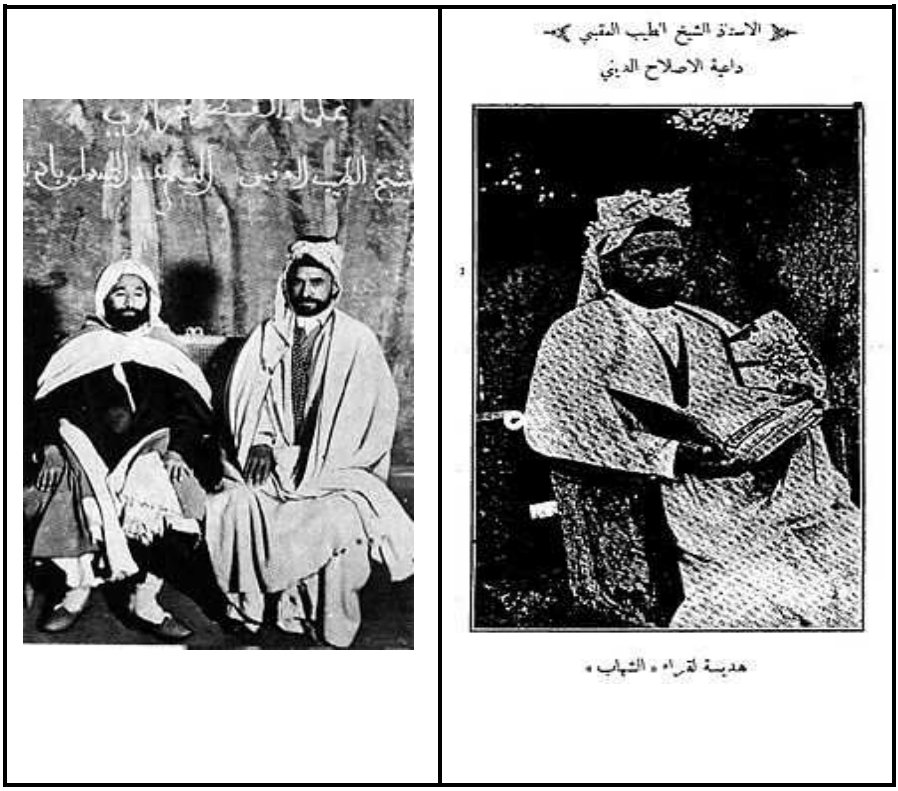

مباهلته للطرقيين:

حيث سخّر العقبي شعره ونثره في هجاء كلّ طرقي مبتدع، وبخاصّة بعد ظهور القاضي التّيجاني من المغرب الأقصى (أحمد سُكيرج) الذي كان يدّعي

[1] المرجع نفسه، ص 34.

رفض المصلحين للمباهلة بل كان يدّعي أنّهم لا يجيبون إذا دُعُوا إليها فتصدى لهم وكتب في حقّهم "بل نجيب.... ولعنة الله على الكاذبين." حيث قال في مباهلته: "اللّهم إن كنت تعلم أنّ سكيرج وجماعة الطّرقيين فيما هم عليه اليوم وما يدعون النّاس إليه ويقرونهم على فعله في طرقهم محقون وأنّ ذلك هو دينك الذي ارتضيته وشرعته لعبادك بواسطة محمّد فالعني ومن معي لعنا كثيرا، وإن كنت (يا الله يا ربّنا وربّ كلّ شيء...) تعلم أنّ ما عليه الطّرقيون اليوم فيما هم فيه من أمرهم ودعايتهم النّاس إلى طرقهم، هو من الحدث في دينك والباطل الذي لا يرضيك ولا يرضي نبيّك فالعن (سكيرج) قاضي الجديدة ومن معه لعنا كثيرا، واجعل مقتك الأبدي وخزيك ولعنتك الدّائمة على الكاذبين (آمين، آمين، آمين) هكذا أباهلك وألاعنك يا سكيرج، فلاعني بمثلها وإياك أن تتأخر أو تنهزم يوم اللقاء."[1] وما ألحظه في هذا الخطاب أنّ الطّيب العقبي ليس من أولئك الذين يسكتون عن الحق "فالسّاكت عن الحقّ شيطان أخرس" وهذا ما جعل كلّ من ابن باديس والزّواوي يؤيدونه ما دفع ابن باديس يكتب مقالا عنوانه (سيهزم الجمع ويولُّون الدّبر) تأييدا للعقبي حيث يقول فيه: "حياك الله وأيدك يا سيف السّنة وعلم الموحدين وجزاك الله أحسن الجزاء عن نفسك وعن دينك وعن إخوانك السّلفيين المصلحين، ها نحن كلنا معك في موقفك صفا واحدا ندعو دعوتك ونباهل مباهلتك ونؤازرك لله وبالله، فليتقدم إلينا الحلوليون وشيخهم ومن لفّ لفّهم وكثر سوادهم في اليوم الموعود والمكان المعين لهم وليبادروا بإعلان ذلك في جريدتهم إن كانوا صادقين، فإن لم يفعلوا ... وأحسب أن لن يفعلوا فقد حقت عليهم كلمة العذاب وكانوا من الظّالمين والحمد لله ربّ العالمين."[2] هذا إذن هو الطّيب العقبي خطيب السّلفيين وكاتبهم وشاعرهم،

---

[1] Ar.wikipedia.org عن موقع الإنترنت، في 12 أوت 2015، الساعة: 13:00.

[2] المرجع نفسه.

هذا الوصف الذي أعطاه المشايخ الثلاثة (ابن باديس، البشير الإبراهيمي ومبارك الميلي.) وما في هذه الخطابات والأشعار أنّ الطّيب قد استعمل اللّغة العربيّة استعمالا جيدا باستعماله لآيات البيان، وأساليب البلاغة وبديعها، وفنون الكلام التي تخدم اللّغة العربية وكذا دعوته الإصلاحية حيث يقول فيه الشّيخ ابن باديس: "يحيبني في ذلك أن أقول إنّها: للأستاذ العقبي فقد عرفه النّاس في مجالسه وما نشرته الصّحف من كلامه، الخطيب المفوّه والكاتب الضّليع."[1] إلا أنّ الكثيرين من النّاس لا يحبّون سماع اسمه ولا حتّى مركبات حروفه لأنّ بعضهم وشوا به إلى إدارات وصوروه في أبشع صوره ما جعلهم بذلك يوقفون سير العملية الإصلاحية التي بدأها.

إنّ اللّغة العربية ليست دخيلة على أيّة لغة أخرى كما يدعيها كثيرون، بل هي معززة مكرمة في دارها وعند أهلها وأنصارها، ممتدة الجذور والعروق والأصل لأنّها لغة القرآن والإسلام، واللّغة العربية في القطر الجزائري وبين أهلها وشعبها ليست بدخيلة كما قلت سالفا ولا بضرة أيضا كما قال البشير الإبراهيمي.

ولجمعية العلماء المسلمين دور في النّهوض باللّغة العربية والعمل على إحيائها والحفاظ على عروبتها بفضل أعمالها ومشايخها، حيث يقول الإبراهيمي في هذا المقام: "إنّ العربية هي لسان العروبة، النّاطق بأمجادها، النّاشر لمفاخرها وحكمها، فكلّ مدّع للعروبة فشاهده لسانه، وكلّ مغتر بالعربية فهو ذليل."[2] ومشايخ الجمعية هم أيضا النّاطق الرّسمي للغة العربية، واللّسان الأول لها وبهم تحيا العربية وبهم تموت، وهذا ما أضافه البشير الإبراهيمي قائلا: "وجاءت جمعية العلماء على عيوبي من الدّهر وتنكر من

---

[1] أحمد طالب الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، الجزائر: 1997، ج 3، ص57.

[2] www.oulama.dz عن موقع الإنترنت، في 12 أوت 2015، الساعة: 11:30

الأقوياء، فتوخت من روح العروبة في ذلك الإنسان، فإذا هي صريحة وسكيت من سر البيان العربي في تلك الألسنة، فإذا هي فصيحة، وأجالت الأقلام في نشق تلك الكنوز فإذا هي ناصعة بيضاء لم نرد تقادم الزّمان إلاّ جدّة." وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على أنّ الجمعية ومن فيها من خادمين حافظين للغة العربية ومحبّين لها بها جالت أقلامهم وتفننوا في كتاباتهم من شعر ونثر وتنوّعت وعبرت عن آرائهم.

حققت هذه الجمعية للجزائري بصّفة خاصّة، وللعربيّ بصّفة عامّة نسبته الصّريحة للعربية والعروبة وكما حققت غايات وأهدافا كثيرة منها:[1]

- نشر اللّغة العربية بين أبناء وبنات الجزائر على نطاق واسع؛
- إحياء الثّقافة العربية الإسلامية في الجزائر، بعد أن كادت أن تندثر؛
- بعث التّاريخ العربي الإسلامي؛
- توجيه الجزائريين إلى وجهة وطنية تتعارض تعارضا كاملا مع سياسة الاحتلال؛
- إعداد صفوة من الرّجال والنّساء كانوا عمدة لنهضة الجزائر قبل الاستقلال؛
- تنظيم بعثات تعليمية لخرجي مدارس الجمعية ومعاهدها إلى المشرق العربي.

إلى جانب (الطّيب العقبي) نجد كذلك (محمّد العيد آل خليفة)، هذا الشّاعر الشّاب الذي قال فيه (سعد الله) في كتابه (محمد العيد آل خليفة: رائد الشّعر الجزائري في العصر الحديث): "محمّد العيد آل خليفة أول شاعر نشطت عنه صَدَفَةُ النّهضة في الجزائر، وشعره أول شعر حي رافق النّهضة العامّة وحدا قوافلها المقدة فأطرب."[2] فمعروف عن محمّد العيد أنّه أول من رافق النّهضة

---

[1] أحمد طالب الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 5، ص257.

[2] Ar.wikipedia.org عن موقع الإنترنت، في 12 أوت 2015، الساعة: 12:00.

والثّورة الجزائرية آنذاك. وديوانه الشّعري المعروف، وبعد التحاقه بجمعية العلماء المسلمين كان شعره أداة ووسيلة استخدمتها للتّعبير عن مواقفها وسجلا وكتابا لتاريخها المجيد، ما أدى بابن باديس بإطلاق لقب "أمير شعراء الجزائر" عليه، وكما قال عنه البشير الإبراهيمي "الأستاذ محمّد العيد شاعر الشّباب وشاعر الجزائر الفتاة، بل شاعر الشّمال الإفريقي بلا منازع، شاعر مستكمل الأدوات، خصيب الذّهن، رحب الخيال، متعدد جوانب الفكر، طائر اللّمحة، مشرق الدّيباجة، متين التّركيب، فحل الأسلوب، فحم الألفاظ، محكم النّسيج ملتحمة مترقرق القوافي، لبق في تصريف الألفاظ وتنزيلها في مواضعها، بصير بدقائق استعمالات البلغاء، فقيه محقق في مفردات اللّغة علما وعملا، وقاف عند حدود القواعد العلمية، محترم للأوضاع الصّحيحة في علوم اللّغة كلّها، لا تقف في شعره على كثرته على شذوذ أو رخصة أو تسمح في قياس أو تعقيد في تركيب أو مغالطة في أسلوب، بارع الصّنعة في الجناس والطّباق وإرسال المثل والتّرصيع بالنّكت الأدبية والقصص التّاريخية."[1] ومن هذا الإطراء أرى أنّ محمّد العيد يعتبر أحد أبرز الشّعراء الذين كافحوا الاحتلال وخدموا الدّين والوطن واللّغة العربية، وكما قال عنه الأمير شكيب أرسلان: "كلما قرأت شعرا لمحمد العيد الجزائري تأخذني هزّة طرب تملك على جميع مشاعري."[2] وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على أنّ محمد العيد شاعر النّضال العلمي والإصلاحي من الدّعاة إلى الحرية

[1] المرجع نفسه.

[2] أحمد طالب الإبراهيمي، آثار البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 228.

والتّبشير بالنّصر والاستقلال بشعره الذي يأخذك للدّفاع عن الحرية والكفاح المسلح.

وتتطرق هذه الدّراسة إلى الحديث عن أثر استعمال اللّغة العربية عند هذا الشّاعر، والنّموذج المستخدم في هذا النّوع من الدّراسات هي القصيدة التي ألقاها في الاحتفال الذي أقيم لمدينة (باتنة) على شرف البعثة الأزهرية يقول فيها:

يا سادة سادوا الزّمان وأهله ... علما ومن هو دون علم سيد؟
غذوا المدارك بالمعارف إنها ... ضمأى وبعثة مصر نعم المورد
وتعهدونا بالنّصائح إننا ... لنجل كل أخ بها تعهد
فاجعلوا بإثمدها بصائر شعبنا ... إنّ النّصيحة للبصيرة مرود
مرت بنا محن لنا في طيها ... منح يفوز بكسبها من يصمد
لم يرض فيها أن يطأطئ رأسه ... شعب لغير إلاهه لا يسجد
مهما اصطلى للوى بدا ياقوته ... فهو المبيد لنارها والمخمد
حتى جنى استقلالها متكاملا ... نضجا كما يهوى النّضال
ونجا بقوة صبره مستنجدا ... والصبر في البأساء منح منجد
إذا نما الإيمان ذل لبأسه ... بأس الحديد وذاب منه الجلمد
لستم هنا غرباء بل في أرضكم ... وديياركم إن الغريب المبعد
ما نحن إلا إخوة من أسرة ... كرمت أرومتها وطاب المحتد
الملة السمحاء آصرة لنا ... فوق الأواصر والعروبة مولد
هيهات تقدر أن تفرقنا يد ... والله يجمع شملنا ومحمد
إن العروبة أمنا الكبرى التي ... في الأمهات نظيرها لا يوجد
قد أنجبتنا كالسيوف نصلي ... من يستبد من العدى أو يفسد
مهما جبهناهم بها ذاقوا ... وأصابهم منا المقيم المقعد

نبني العروبة من حديد قلعة من حولها قصف المدافع يد
فلتحيا وحدتنا بها في منعة ومن المحيط إلى الخليج تمدد
ولتحيا مصر مع الجزائر في ومحبة وصداقة تتأكد
وليحيا شعبنا كشعب واحد وكلاهما متقرب متودد
وليحيا في ظل العروبة ودنا ملء القلوب وعهدنا المتأبد

ومن خلال هذه الأبيات التي ألمس فيها حبّ هذا الشّاعر الكبير للغة العربية، ولانتسابه للعربية حيث مثلها أحسن تمثيل وتعقبها وتفحصها ودقق في اختياره للكلمات التي من شأنها أن تعبر عن محن وأزمات هذا الشّعب، وآزر الشّعوب الأخرى معه، كما تفوق في استخدام الصّور البيانية وتمكّن في التّوسع في إيراد المعاني، وإنّ التّركيز على اللّغة التي استعملها محمد العيد في شعره يتمثّل في المقدار الكبير من العلم والأدب الذي يتّسم به إذ لم يكن له نظير في زمانه في امتلاكه صفات ينماز بها عن غيره جعلته ممن يستحق أن يحمل منارة اللّغة العربية ليتخذ منها أسلوبا وأداة للتّعبير عن خالج ومآسي شعب أرهقته ثورة دامت المائة والثلاثين (130) سنة.

محمد العيد صان اللّغة العربية فأصبح شعره معهدا تتلقى فيه دروس اللّغة العربية من بيان وبديع، ما يجعل منه أن يكون فارسا للغة العربية يحمل عنوانها ويمثّل مختلف تلك الوقائع والأزمات التي مسّت الشّعب الجزائري آنذاك هذا ما جعله متميزا بين أقرانه في ذلك العهد.

هذه بعض الكلمات ضمن مجموعة كبيرة لا تحصى من الجمل التي استطعت أن أعبر فيها عن هذا الرّجل الذي اتّخذ قلمه وسيلة للتّعبير عن هذه اللّغة وخدمها لتحرير الوطن حتى قال عنه البشير الإبراهيمي:

ولولا رجاء الذي إليه أنا زالف

إنهـا وأبيـك، لنـزوة الشـعر تغتلج في الفؤاد بنزعـة التقـى

وكما كتب رسائل له عبّر فيها عن حبه له، واعتباره الولد الرّوحي له هذه بعض المقتطفات من هذه الرّسالة: "قرأت زفراتك هذه السّاعة في الشّهاب، وأنا طريح الفراش، أعالج زكاما مستعصيا ونزلة شعبية وسعالا مزمنا وأولادا يطلبون القوت أربع مرات في اليوم، وتلاميذ يطلبون الدّرس سبع مرات في اليوم واللّيلة، فقلت: وهذه أخرى: إنّ ولدنا هذا لذو حق، وكتبت لك هذه الكلمات كما يكتب الأب الشّفيق إلى ولده الرّفيق، وعسى أن يكون فيها ترويح لخاطرك."[1]

وردّ عليه محمّد العيد في أبيات شعرية قائلا فيها:[2]

أبـــي "البشـــير" ســـلام زاكٍ وشـــوق كـــبير
لازلـــت فينـــا منـــارا بضـــوئه تســـتنير
وافـــى كتابـــك يهـــدي إلـــيَّ المنـــى يشـــير
تـــذكو العبـــارة فيـــه مـــا لـــيس يـــذكو العـــبير
إذا فـــؤادي ســـال بـــه طَـــرْفي قريـــر
قـــد ارتـــددت بصـــيرا فكيـــف يغـــوى البصـــير؟

هذه إذن بعض الأسطر التي سال القلم فيها عن هذا الشّاعر محمد العيد، إذ اعتبر شعره الدّواء الذي يلجأ إليه المريض ليداوي أقراحه وأحزانه.

رحـــم الله معشـــر الشـــهداء وجـــزاهم عنـــا كـــريم الجـــزاء
وســـقى بـــالنعيم مـــنهم ترابـــا مســـتطابا معطـــر الأرجـــاء

---

[1] – المرجع نفسه، ص 229.

[2] – المرجع نفسه.

هــذه في الثــرى قبــور حــوتهم ... أم قصــور تســمو علــى الجــوزاء؟
أيهــا الزائــرون ســاحة طهــر ... قدســـــي وعـــــزة قعســـــاء
شــهداء التمــدين في كــل عصــر ... ســرج الأرض بــل نجــوم الســماء
لم أجـد في الرجـال أعلـى وسـاما ... مــن شــهيد مخضــب بالــدماء
إن ذكــرى الشــهيد أرفــع مــن أن ... ترفعوهـــا بالصـــخرة الصـــماء
فــأقيموا لهــم تماثيــل عــز ... في قلــوب ثوريــة الأهــواء
واقتــدوا وائتســوا بهــم في المزايــا ... إنهــم أهــل قــدوة وائتســاء
واخلفوهم بالصدق في خدمة الشعب ... وفي أهلـــــهم وفي الأبنـــــاء
إنهــم قــادة الفيــالق في الزحــف ... لخــوض المعــارك الحمــراء
إنهــم رادة البطولــة في النصــر ... وعــز الحمــى ورفــع اللــواء
إنهــم أوفــوا العهــود فهــل أنــتم ... لميثـــاقهم مـــن الأوفيـــاء؟
إنمــا تربــة الجزائــر مهــد ... عبقــري لثــورة العظمــاء
وهي أرض الإسلام ذي المبدأ السمح ... وأرض العروبـــة العربـــاء
هكــذا كانــت الجزائــر ميعــادا ... كريمـــا لأقـــدس الإيحـــاء
تتعــالى منــائر الحــق فيهــا ... مــن بعيــد لخائضــي الظلمــاء
ثورة الشعر أنتجت ثـورة الشـعب ... وعـــادت عليـــه بـــالآلاء
كل من لم يثـر علـى الهـوان والذلـة ... داســـته أرجـــل الأقويـــاء
أيهـا الشـعب أنـت ملـهم شـعري ... في كفــاحي وملــهب الأحشــاء
أيــن منــا مــا ســامنا مــن عــذاب ... أيــن منــا مــا ســاءنا مــن شــقاء
جـل مـن أخضـع الطغـاة فـذلوا ... وعلــيهم قضــى بحكــم الجــلاء
أصـبحت أرضـنا مثـالا مـن الفـر ... دوس في أمـــن شـــعبها والهنـــاء

شرح وإيضاح:

بدأ الشاعر قصيدته بالترحم على الشهداء والدعاء لهم بأن يطيب الله ثراهم، ويجزيهم عن تضحيتهم بأرواحهم أطيب الجزاء.

وفي الفكرة الثانية يسمو الشاعر بمكانة الشهداء، فيرى في قبورهم قصورا تطاول النجوم علوا في قيمتها ومكانتها، وفي الساحة التي تجمع قبورهم أرضا مقدسة خالدا مجدها خلود الدهر، فشهداؤها مصابيح تضيئ في الأرض، ونجوم تشرق في السماء، وهم أعلى أمثلة الرجولة والفداء.

ثم يخاطب الشاعر شعبه موضحا له الطريقة المثلى لتكريم الشهداء فيقول: ليست قيمة الشهداء ماثلة في هذه النصب التذكارية، أو تلك التماثيل الحجرية التي نرفعها شامخة في الميادين والمساحات، وإنما يجدر بكم أن تتمثلوا بطولاتهم في نفوسهم، وأن ترسموا صورهم في قلب كل حر وثائر، وأن تكونوا أوفياء لعهودهم، بررة لهم في أهلهم وأبنائهم وشعبهم، فتؤدوا نحوهم الواجب وترعوهم بأمانة، وتخدموهم بصدق وإخلاص.

ثم يبين الشاعر فضل الشهداء ودورهم النضالي، فقد ذادوا عن الحمى ودافعوا عن راية العزة، وقادوا الجيوش في المعارك الشديدة من نصر إلى نصر، وكانوا بعملهم هذا أوفياء لعهدهم في التضحية من أجل بلادهم وشعبهم، فيجب أن يكون كل جزائري وفيا لعهده، في أداء الأمانة التي تحمل أعباءها.

دراسة الأسلوب:

يتميز أسلوب النص بوضوح العبارة وسلامة التعبير اللغوي، وتبدو آثار الثقافة الإسلامية واضحة فيه.

كما ترى في استخدام كلمات: عزة قعساء فيالق، وغيرها من الكلمات الجزلة القوية، وكما ترى في كلمات: الإسلام والطهر- رحم الله- أوفوا

العهود، وغيرها من الأساليب والألفاظ التي تـوحي بـأثر الثقافـة الإسـلامية عند الشاعر في هذا النص.

وقد وضح الشاعر أفكاره في أساليب بلاغية مختلفة منها قوله في البيت 5:

شهداء التمدين في كـل عصـر سرج الأرض بل نجوم السماء

فهو تشبيه بليغ، يوحي بأثر الاستشهاد في تحرير الإنسانية والخروج بها من ظلمات العبودية إلى نور الاستقلال والحريـة، وبهـذا بيـذل الإنسـان الـنفس والنفيس في سبيل نيلها.

وقوله في البيت 6:

لم أجد في الرجال أعلى وساما مـن شـهيد مخصـب بالـدماء

فيه استعارة توحي بجمال منظر الدماء مع أنهـا في الحقيقـة مـثيرة للـنفس معذبة للمشاعر الرقيقة، ولكنها من أجل الحرية محبوبة وجميلة.

وكذلك قوله في البيت 17:

تتعـالى منـائر الحـق فيهـا مـن بعيـد لخائضـي الظلمـاء

استعارة تدل على مدى التخبط الذي تعيش فيه الشعوب المغلوبة، يوحي بالإشمئزاز من حياتهم، وهذا يدفعهم إلى التخلص من واقعهم بالثورة على المستعمرين.

وقد تنوع أسلوب الشاعر بين الخبر والإنشاء، ففي البيت الأول "رحم الله"، وفي البيت الثاني "سقى النعيم" أسلوب خبري، المقصود منه الدعاء.

وفي البيت الثالث "أم قصور تسمو على الجوزاء؟" استفهام المقصود منه التعظيم.

وفي الأبيات _8، 9، 10:

فـأقيموا لهـم تماثيـل عـز في قلـوب ثوريـة الأهـواء

واقتدوا وأتسوا بهم في المزايـا انهـم أهـل قـدوة وأتسـاء

واخلفوهم بالصدق في خدمة الشعب وفي أهلهم وفي الأبناء أمر، المقصود منه النصح والإرشاد.

خاتمة:

إنّ (الطّيب العقبي) و(محمّد العيد) من الرّجالات التي دافعت عـن اللغّـة العربية، والعروبة والإسلام في الجزائر، بحبّهما للغة العربية، فكتبا بها وعـبرا بها أحسن تعبير وهذا ما أكدّته مختلف مجلات الجمعية ومـن مجلـة (البصـائر والشّهاب والمنتقد) وغيرها والـتي أستشـف مـن خـلال أعـدادها إحـاطتهم الواسعة لهذه اللّغة وجمالها البلاغي والبياني.

وبهذا فقد حاولت أن يكون هذا العمل ملما بكل الجوانب التي مـن شـأنها أن تخدم اللّغة العربية، من أسلوب (العقبي) الذي يتّسـم بالسّـجع والبـديع، و(محمـد العيد) الشّاعر الشّاب الذي بذل النّفس والنّفيس في الدّفاع عن اللّغة العربية

فَدُوموا على العهْـدِ حتَّى الْفنَـا وحتَّى تَنالوا الحقـوقَ السَّنِيَّـةْ

فضَحّـوا، فهـا أنـا ذا بيـنـكُـمْ بِذاتي وروحـي عليكـمْ ضحِيَّةْ

أرجو أن يكون هذا العمل قد لقي حبّ نفوسكم، وأن تكون محاولتي قـد نالت إعجابكم، فإن أخطأت فلي أجر واحد وإن أصبت فلـي أجـران، ومـا توفيقي إلاّ من عند الله عزّ وجلّ. والشّكر لكم جميعا.

دور جمعية العلماء المسلمين في ترقية العربيّة الفصيحة إبّان فترة الاستعمار

أ.حدّة روباش
مولود معمري، تيزي-وزّو

مقدّمة:

عانت الجزائر معاناة لا مثيل لها بين الشّعوب منذ أن وطئ المستعمر أرضها فانقلب نهارها ليلا، واشتدّ ليلها سوادا؛ بسبب تلك الأساليب الشّنيعة الّتي اتّبعتها فرنسا لطمس معالم الهُويّة الوطنيّة، والقضاء على كلّ ما له صلة بالشّخصية الإسلامية العربيّة، سعيا منها إلى فرض سيطرتها على الشّعب الجزائريّ، وسلخه عن هُويته، والتّفريق بين أفراده؛ بغية استعباده مستغلّة في ذلك قلب الحقائق، والتّنوّع الثّقافي والاجتماعي، ومتّبعة سياسة فرّق تسد، لكن هيهات أن تنجح، فقد وجدت أمامها بنيانا مرصوصا، لا يمكن اختراقه بسهولة، رغم وجود بعض الثّغرات والخيانات؛ لأنّ شخصية الفرد الجزائري لا يمكن هزّها بسهولة، فقد صقلتها التّجارب وهذّبها الدّين الإسلامي؛ لذلك لم يهنأ بال المستعمر طيلة وجوده، ولاقى مقاومة مستميتة، من الثّورات الشّعبيّة، إلى الانتفاضات الفكريّة والسياسيّة، ولعلّ أهمّ دور في تاريخ الجزائر الثقافي آنذاك لعبته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الّتي كان لها صدى واسع في جميع أقطار التّراب الجزائريّ، ولاقت إقبالا منقطع النظير من أبنائه المتعطّشين للعلم والمعرفة، وفي هذا البحث سأحاول إعطاء لمحة عن دور جِدّ بارز لها في المحافظة

على أحد أبعاد الهويّة الجزائرية، ألا وهو اللّغة العربية؛ لكن قبل ذلك سأعطي لمحة موجزة عن الجمعية، نشأتها مبادئها وأهدافها...

أوّلا- التعريف بالجمعية:

1. تأسيسها:

تأسّست جمعية العلماء المسلمين يوم 05 ماي 1931م، على يد جماعة من الجهابذة الّذين أنجبتهم الجزائر العريقة، تولّى رئاستها الإمام عبد الحميد بن باديس، وخلفه بعد وفاته الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي.

وإذا أردنا أن نعرّف بالجمعية، فلا غنى عن تعريف أصحابها لها، فهو تعريف شاف كاف، ورد ذكره في جريدة البصائر، فهي "جمعية إسلامية في سيرها وأعمالها، جزائرية في مدارها وأوضاعها علمية في مبدئها وغايتها، أُسّست لغرض شريف، تستدعيه ضرورة هذا الوطن، وطبيعة أهله ويستلزمه تاريخهم الممتدّ في القدم إلى قرون وأجيال، وهذا الغرض هو تعليم الدّين ولغة العرب الّتي هي لسانه المعبّر عن حقائقه، للكبار في المساجد، الّتي هي بيوت الله، وللصّغار في المدارس على وفق أنظمة لا تصادم قانونا جاريا، ولا تزاحم نظاما رسميا، ولا تضرب مصلحة أحد، ولا تسيء إلى سمعته، فجميع أعمالها دائرة على الدّين، والدّين عقيدة، اتّفقت جميع أمم الحضارة على حمايتها، وعلى التّعليم، والتّعليم مهنة اتّفقت جميع قوانين الحضارة على احترامها وإكبار أهلها"[1] وهذا التّعريف مانع، فرغم إيجازه نستطيع أن نستشفّ الكثير منه، من مبادئ وأهداف، لو قرأنا ما بين سطوره، وقد كانت منذ تأسيسها حيادية، تعمل لأجل مصلحة الجزائريين دون أي تدخّل في الشؤون السّياسية، وهذا ما عبّر عنه مبارك الميلي: "جمعية العلماء المسلمين

---

[1] جريدة البصائر، ع 160، الجزائر: 7 أفريل 1939.

الجزائريين تعمل للمحافظة على الإسلام النّقي من الخرافات، والبريء من كلّ البدع، وعلى العروبة الخالدة العزيزة على كلّ عربي، وكلّ مسلم، وإن لم يكن عربي الجنس، فليست هي حزبا خاصّا، ولا هي ضدّ حزب خاص، وإنّما هي جمعية الأمّة المسلمة الجزائرية[1] وهذا عمل ينمّ عن ذكاء، فهو يجنّبها الصّدام مع المحتلّ، والعمل بتدرّج وهدوء لتحقيق الهدف الأسمى وهو استقلال الجزائر.

تأسسّت جمعية العلماء المسلمين في فترة حسّاسة من تاريخ الجزائر، فقد مرّ قرن على احتلال الجزائر، وكانت فرنسا حينها تنظّم احتفالات ضخمة بالمناسبة، ضمّت كلّ أنواع الموبقات، والاحتقار للمقدّسات الإسلامية، وهذا الأمر كان القطرة الّتي أفاضت الكأس؛ إذ أنّ هناك عوامل أخرى أسهمت في تشكّلها، وهذه العوامل هي[2]:

1-آثار دعوة الإمام محمد عبده الّتي تأثّر بها المصلحون الجزائريون، وكذا مؤلّفات تلميذه الشّيخ رشيد رضا، الّتي كان لها الأثر القويّ في إذكاء الحركة الإصلاحية في الجزائر، ومن ثمّ توحيد جهودهم تحت جمعية واحدة.

2-الثّورة التّعلميّة الّتي أحدثها الشّيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه الحيّة، والتّربية لصّحيحة لطلّابه؛ حيث كوّن عقولهم، وشحذ عزائمهم، وربّى نفوسهم...

3-التّطوّر الفكري الّذي طرأ على عقول النّاس من مخلّفات وآثر الحرب العلمية الأولى.

---

[1] المرجع نفسه، ع 92، الجزائر: 22 ديسمبر 1937

[2] ينظر: بوبكر صديقي، البعد المقاصدي في فتاوى أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دراسة من خلال جريدة البصائر (1935-1956) مذكّرة ماجستير، الجزائر: جامعة الحاج لخضر باتنة.

4-رجوع طائفة من المثقّفين الجزائريين الّـذين كـانوا يعيشـون في المشـرق العربي، ولاسيما في الحجاز والشّام، والّذين من أبرزهم الإبراهيمي والعقبي.

5-الحالة المزرية الّتي أضـحى المجتمـع الجزائـري يعيشـها في كـلّ مجـالات الحياة، ومن أشدّها فتكا وأخطرها الجهل بين عامّة الجزائريين.

6-اشتداد لهيب قوانين الاستعمار الجائرة على الأهالي الجزائريين...جعل العلماء والحكماء من الوطنيين يفكّرون كـثيرا وبصـدق في كيفيـة المواجهـة، وتخليص الشّعب على اختلاف طبقاته منه؛

7-الحملات التّبشيرية الواسعة؛

8-تسلّط الطرق الصّوفية على السّاحة الجزائرية، ونمو نشـاطها التّخـريبي للعقول والعزائم؛

9-النّزعة القياديّة والرّياديّة الّتي كان يتمتّع بها الإمام ابن باديس، ما جعله محلّ ثقة واحترام بين العلماء، وعجّلت في بزوغ شمس الجمعية؛

10-الأثر الإيجابي للمؤتمر الإسـلامي الّـذي انعقـد بالقـدس سـنة 1931 والّذي عالج مشاكل الأمّة الإسلامية بعد تعطيل الخلافة العثمانية؛

11-الواجب الشّرعي الّذي كان يعتقده أعلام الجمعية في ظـرف عصـيب يمرّ بالأمة؛

12-التّوافق البديع في الفكر والمبادئ والأهداف بين أعلام الجمعية؛

13-احتفال فرنسا بالذّكرى المائوية للاحتلال سـنة 1930 بكيفيـة صـاخبة موجعة للنّفـوس جارحـة لمشـاعر الجزائـريين، ظنّـا منهـا أنّهـا قضـت علـى الشّخصية الجزائرية... فقد جمع الاحتفال في مظهره وباطنه كلّ ما فيه امتهان واحتقار للشّعب في دينه ولغته وقوميته وشخصيته.

2. مبادئها وأهدافها:

لو ألقينا نظرة متفحّصة على التّعريف السّابق، لوجدناه ترجمة للشّعار الّذي اتّخذته الجمعية شعارا رسميا لها: **الإسلام ديننا- العربية لغتنا- الجزائر وطننا.** وهذه الأركان الثّلاثة تمثل المقوّمات الرّئيسة للشّخصية الجزائرية، والّتي كانت الجمعية تنشد الحفاظ عليها، من خلال محاربة سياسة التّنصير والفرنسة والتّجنيس والاندماج التي اتّبعتها فرنسا منذ الوهلة الأولى لدخولها الجزائر.

وإذا أردنا نستطيع أن نلخّص مبادئها في ما يأتي:

- **إصلاح عقائد الإسلام:** الّتي شابها كثير من الدّجل والتّحريف، بسبب سياسة التّجهيل الّتي فرضها الاستعمار، كما ساعده في ذلك بعض الطّرق الصّوفية المنحرفة، والّتي لا يهمّها شيء سوى مصالحها، حيث عمدت إلى نشر الخرافات والبدع والشّعوذات، والسّيطرة على العقل الجزائري ومنعه من التّفكير بعقلانية؛ لأنّ فرنسا كانت تحمل حقدا دفينا للإسلام قبل دخولها الجزائر.

- **توحيد كلمة المسلمين:** وبخاصّة بعد سياسة فرّق تسد الّتي كان الاستعمار يتّبعها، إذ خلق مسألة العرب والبربر، وحاول عزل منطقة القبائل عن باقي المناطق، مستغلا في ذلك تاريخ الجزائر، والتّنوع الجغرافي والتّاريخي الذّي تزخر به، محوّلا إياه من ميزة إلى عيب، وقد بذل في سبيل ذلك جهودا كبيرة، وصلت إلى حدّ تزوير حقائق تاريخية، فبعد أن محا الإسلام كلّ الفروق وامتزجت الحضارات، جاء هو بحقائق جديدة، لكنّها مزيّفة، وحاول إقناع سكّان منطقة القبائل أنّ أصلهم أوروبي، كما حاول تنصيرهم، مستغلا الظروف الاجتماعية المتدهورة.

- **تكوين أجيال قائدة:** لقد أدرك أعضاء الجمعية أنّه لتحرير الجزائر لا بدّ من تنوير وتحرير عقول أبنائها من الخرافات الّتي نشرها المستعمر، والقضاء على الجهل المستشري في أوساطهم وهذا لبناء جيل مشبّع بالمبادئ والقيم

الإسلامية والعربية، قادرا على مواجهة التّحدّيات، وفرض نفسه، وقيادة أمّته، وفي هذا يقول محمد البشير الإبراهيمي: "يا أبناءنا إنّ الحياة قسمان: حياة علميّة وحياة عمليّة، وإنّ الثّانية منهما تُبنى على الأولى قوّة وضعفا وإنتاجا وعقما، وإنّكم لا تكونون أقوياء في العمل إلاّ إذا كنتم أقوياء في العلم، ولا تكونون أقوياء في العلم إلاّ إذا انقطعتم له، ووقفتم عليه الوقت كلّه"[1] ولأجل هذا انصبّ الاهتمام على مجال التّعليم كما إنّ هذا المجال يسهم بدرجة كبيرة في محاربة التّجنيس والإدماج.

نشر التّعليم العربي الحرّ: لقد كانت اللّغة العربيّة اللّغة الرّسمية للجزائريين، وإحدى دعائم الوحدة بين شعبه، فرغم كثرة وتنوّع اللّهجات لم يؤثّر ذلك على مكانتها، فقد كانت قدسيتها من قدسية القرآن الكريم، لم يغب هذا عن المستعمر، الّذي أدرك "خطورة اللّغة القوميّة في بناء الشّخصية الوطنية باعتبارها روح الأمّة، وعرقها النّابض، بحيث يكون القضاء عليها بمثابة القضاء على ذاتية الأمّة لأنّ الشّخصية هي في مجموعها نتاج ثقافي"[2] لذلك فلإحكام السّيطرة على كامل القطر لا بدّ من تفتيت وحدته، وأهم خطوة يجب اتّباعها تتمثّل في القضاء على اللّغة العربية، وتهميش دورها وإفقادها قدسيتها.

من هنا كان على جمعية العلماء أن تقوم بردّ فعل، من أجل إفشال خطّة المستعمر، فقامت بإنشاء المساجد، وتأسيس المدارس والمعاهد، ونشر التّعليم العربي، وسأفصّل في هذه الجهود بعد أن نلقي نظرة مفصّلة عن وضع التّعليم إبّان الاستعمار.

---

[1] جريدة البصائر، ع 09، الجزائر 3 أكتوبر 1947.

[2] تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ط2. الجزائر: 1981، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ص126.

ثانيًا- وضع التعليم في الجزائر إبان الاستعمار:

عاش قطاع التّعليم ظروفا صعبة ومزرية بسبب سياسة التّجهيل الّتي اتّبعها المستعمر، والّتي تتمثّل في:

- **القضاء على مراكز التّعليم**: بكلّ أنواعها من مساجد ومدارس ومكتبات، فما إن فرض سيطرته على ممتلكات الجزائريين، حتّى تمّ تحويل تلك المراكز إلى مراكز للجنود، ومخازن للسّلاح، وكنائس؛

- **القضاء على رجال العلم:** سواء بقتل أولئك الّذين شاركوا في الثّورات أم الانتفاضات الشّعبية، أم بسجن من يعارضون المستعمر وتعذيبهم والتّنكيل بهم، وهناك من تمّ نفيهم، وتضييق الخناق عليهم؛

-**فرض نظام تربوي مسيحي:** وذلك بإنشاء مدارس فرنسية على غرار تلك الموجودة في الجزائر العاصمة وعنابة ووهران، ويتمّ التّدريس فيها وفق النّظام الفرنسي؛ لكنّها لم تنجح في استقطاب الجزائريين؛ حيث "يقرّ بذلك ج. دوبوسكي حين كتب قائلا:"...إنّه رغم محاولات الإغراء والصّلوات الّتي صلّيتها جميعا، وملحوظاتي الّتي أبديتها، وما قلته لهم عن النّية الحسنة للحكومة اتّجاه أمّتهم ذهبت أدراج الرّياح"[1]؛ لأنّ الشّعب الجزائريّ كان يعلم نوايا المستعمر، وحقده الدّفين على الإسلام والعروبة؛

ولقد حاول المستعمر بعد ذلك تجاوز الأمر، بإنشاء مدارس للتّعليم المزدوج، للذّكور والبنات، يتم التّدريس فيها باللّغة العربية والفرنسية؛ لكن تمّ إغلاقها في ما بعد، لأنّ هذه الشّكليات لم تقنع الأهالي.

---

[1] فريد حاجي، السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر 1837-1937، دط. الجزائر: 2013، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، ص243.

-**التّفريق في التّعليم:** حيث سُمح لأبناء الأعيان بدخول المدارس والإعداديات، وامتهان وظائف إدارية، أمّا الطبقات الأخرى فقد وُجِّهت حسب نمط الإنتاج المميز لمنطقتها، "ففي المدن وُجّه التّعليم نحو المهن اليدوية خاصة مهن البناء... أمّا في الأرياف فوجه التّعليم نحو الفلاحة وفي المدن الساحلية وجه نحو الصيد البحري والفلاحة"[1] وكان تدريس هذه المواد يتمّ باللّغة الفرنسية.

-**فرض اللّغة الفرنسية:** لقد كان المستعمر الفرنسي ينظر إلى الجزائريين نظرة احتقار وتعالٍ على تراثهم وثقافتهم، ورأى أنّ تعليمهم اللّغة الفرنسية كفيل بنقلهم من التّخلّف إلى البداوة؛ لكّن الحقيقة أنّ هناك أغراضا خفيّة، ومنها أنّه كان يرى أنّ:" إيالة الجزائر لن تصبح ملكية فرنسية حقّا إلّا حينما تنتشر في ربوعها لغتنا –أي الفرنسية-...إنّ المعجزة الحقيقية الّتي ينبغي أن تحدث إنّما تكمن في إحلال الفرنسية محل اللغة العربية تدريجيا"[2] ولقد بذل المستعمر في سبيل ذلك الكثير من الجهد والوقت، ولم يكن قصده من ذلك تنوير أناس ينظر إليهم نظرة احتقار، وإنّما محو أيّ صلة للشّعب بهُويته وعقيدته؛ لأنّه يدرك أنّ "اللّغة تجعل من الأمّة النّاطقة بها كلّا متراصّا خاضعا لقوانين، إنّها الرّابطة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان"[3] واللغة العربية مقدّسة؛ لأنها لغة القرآن، ومحوها سيسهم في عدم فهم القرآن، وبالتّالي القضاء على قدسيته.

---

[1] محمد عابد الجابري، التعليم بالمغرب العربي، الرباط: 1989، المركز الثّقافي العربي، ص 18.

[2] فريد حاجي، السياسة الثّقافية الفرنسية في الجزائر، 298 نقلا عن A . COUR: op . cit.p.37.

[3] أحمد زايد، سيكولوجية العلاقات بين الجماعات، د/ ط. الكويت: 2006، سلسلة عالم المعرفة، ص41.

-محاربة التّعليم العربي الحرّ: وفرض نظام فرنسي قلبا وقالبا، كما شنّت حربا على المعلّمين وفرضت عليهم شروطا مجحفة إن أرادوا القيام بعملهم، "وقد بلغت محاربة فرنسا لحركة التّعليم العربي الحرّ ذروتها بصدور قانون 08 مارس 1938، هذا القانون الذّي أصبح بمثابة سيف مسلّط على رقاب التّعليم العربي الحرّ، وعلى رجاله ومؤسّساته"[1] وهذا القانون وغيره كان بعد أن أبى أفراد الشّعب إرسال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية، وأرسلوهم إلى مدارس الجمعية، وقبل ذلك كانوا يكتفون بالكتاتيب، ونشير هنا إلى أنّ المستعمر رغم إيجاده لبعض المدارس إلاّ أنّها كانت محدودة، ومقصورة على بعض المدن والأفراد، إذ "لم يكن ميسورا على الاستعمار أن يعلم الجزائريين جميعا لبعض هذه الأسباب:

-أنّ الاستعمار كان يحتقر الجزائريين ويراهم في ما يبدو ليسوا أهلا للتعليم.

1-أنّ تعميم التّعليم في جميع ربوع الجزائر بما فيها القرى النائية يسبقه تعبيد الطرقات وتهيئة جيش من المعلمين الأكفاء أو غير الأكفاء، وهذا ما لم يكن الاستعمار متأهّبا ليحتمل تبعته الثقيلة.

إنّ إجبار الجزائريين على التّعلم من جانب آخر كان يتطلب تخصيص ميزانية ضخمة لهذه الغاية. ولم يكن مثل هذا ميسورا للاستعمار الجشع، لأن معظم خيرات البلاد من مزارع ومعامل ومتاجر ضخمة، وشركات عامّة كانت تحت قبضة كمشة من المعمّرين بحكم النّظام الرّأسمالي تتقاسمها السّلطة الاستعمارية والمعمِّرون، والشّركات الاحتكارية بدون مراعاة لحقوق

---

[1] تركي رابح عمامرة، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية ورؤساؤها الثلاثة، ط1. الجزائر: 2004، موفم للنشر والتوزيع، ص 84.

الشعب الذي جوع وجهل[1] والدّليل على ذلك تلك النّفقات الّتي كانت تفرضها على الطّلبة، كما كانت تقوم بتصعيب الامتحانات عليهم.

-**إخراج الكتب المدرسية بالعربية العامّية**: الممزوجة بحكايات فلكلورية، وهذا لإضعاف العقائد الإسلامية في نفوس المتعلّمين، ومحو الفصيحة من أذهانهم، وكمثال على ذلك نأخذ النّصوص الآتية[2]:

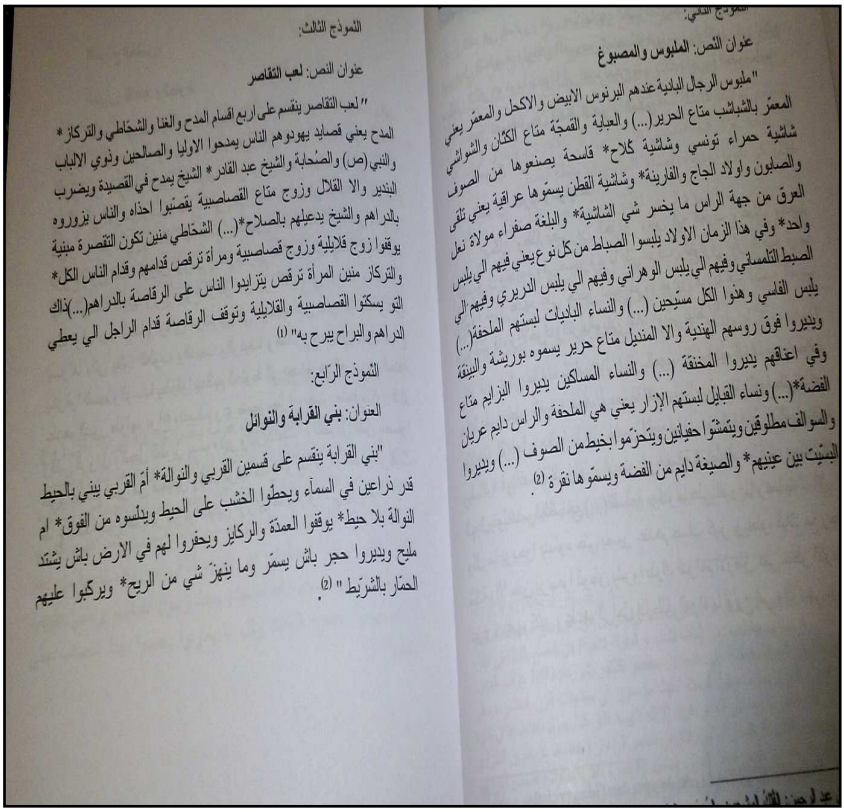

النموذج الثالث:

عنوان النص: **لعب التقاصر**

"لعب التقاصر ينقسم على اربع اقسام المدح والغنا والشخاطي والتركاز* المدح يعني قصايد يهودوهم الناس بمدحوا الاوليا والصالحين وذوي الالباب والنبي(ص) والصحابة والشيخ عبد القادر* الشيخ يمدح في القصيدة ويضرب البندير والا القلال وزوج متاع القصاصيبة يقصّبوا احذاه والناس يزوروه بالدراهم والشيخ يدعيلهم بالصلاح*(...) الشخاطي منين تكون التقصرة مبنية يوقفوا زوج قلالية وزوج قصاصيبة ومرأة ترقص قدامهم وقدام الناس الكل* والتركاز منين المرأة ترقص يتزايدوا الناس على الرقاصة بالدراهم(...)ذاك اللي يسكتوا القصاصيبة والقلالية وتوقف الرقاصة قدام الراجل الي يعطي الدراهم والبراح يبرح به" [1]

النموذج الرابع:

العنوان: **بني القرابة والنوائل**

"بني القرابة ينقسم على قسمين القربي والنوالة* أمّ القربي يبني بالحيط قدر ذراعين في السمآء ويحطوا الخشب على الحيط ويلبسوه من الفوق* ام النوالة بلا حيط* يوقفوا العمدة والركايز ويحفروا لهم في الارض باش يشتد مليح ويديروا حجر باش يسمّر وما ينهزّ شي من الريح* ويركبوا عليهم الحمّار بالشريط" [2]

عنوان النص: **الملبوس والمصبوغ**

"ملبوس الرجال البادية عندهم البرنوس الابيض والاكحل والمعمّر يعني المعمّر بالشباشب متاع الحرير(...) والعباية والقمجة متاع الكتان والشواشي شاشية حمراء تونسي وشاشية كلاح* قاسحة يصنعوها من الصوف والصابون واولاد الحاج والقارينة* وشاشية القطن يسمّوها عراقية يعني تلقى العرق من جهة الراس ما يخسر شي الشاشية* والبلغة صفراء مولاة نعل واحد* وفي هذا الزمان الاولاد يلبسوا الصباط من كل نوع يعني فيهم الي يلبس الضبط التلمساني وفيهم الي يلبس الوهراني وفيهم الي يلبس الدريري وفيهم الي يلبس القاسي وهنوا الكل مسيّحين (...) والنساء البادية يلبسّهم الملحفة(...) ويديروا فوق روسهم الهنية والا المنديل متاع حرير يسموه بوريشة والنيفة وفي اعناقهم يديروا المخنقة (...) والنساء المساكين يديروا الزرايم متاع الفضة*(...) ونساء القبايل لبستهم الإزار يعني هي الملحفة والراس دايم عريان والسوالف مطوقين ويتمشّوا حفيانين ويتحزّموا بخيط من الصوف (...) ويديروا البنيّت بين عينيهم* والصيغة دايم من الفضة ويسمّوها نقرة" [2]

---

[1] عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب المعاصر في الجزائر 1925-1954، ط2. الجزائر: 1983، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص24.

[2] ينظر: فريد حاجي، السياسة الثّقافية الفرنسية في الجزائر، 1837-1937.

النموذج السادس:

العنوان: **البحّار والبحيرة**

" بحيرةجاري مدوّرة بالصور* والباب عليها لوحة مكتوبة الدخول ممنوع* باش ما يدّخلوا شي الصيّاطين والرعيان الي يسّرحوا(...) والبحّار يقسّم البحيرة الكليّة مطيرات مطيرات يحوّضها حواض وكل مطيرة خضرتها وحّدها* ويسقي الميطرات واحدة بعد واحدة* والخدمة متاع البحّار اذا تمشي تطلّ عليه تشوفه دايم يضل يخدم يعني يقلب الارض بالفاس* والا ينقش* والا ينقي لحشيش من الخضرة* والا يسقم السواقي* والا يغبر الزبّل على الارض* وشي مرّات يجمع الهيشر باخبّاشة ويحرقه* وبعد الظهر لا بد يوجد الخضرة للبيع...الخ"[1]

النّموذج السابع:

العنوان: **كيل الفلاّحة**

" منين يصقي الحبّ ويديروه عُرمة يتقدّم رجل فيه البراكة يكيّل زوج متاع الناس يشدّوا حذاه شكارة والا غرارة والا تليس ويبدا هو يكيّل ويحسب. منين يبدا يعمّر في الخرّوبة يقول بسم اله. ومنين يعمّرها ويقيسها في الشكارة ما يحسب شي كيفنا. في الي يقول واحد -زوج-ثلاثة-يقول: واحد الله- بركتين- ضيف النبي-نربحوا-خمسة في عين بليس-ستّة في عين ولده-الشبعة من عند الله-اوثنوا بالشبعة-نسعدوا بالله-اصحاب سيدنا رسول الله-اللهم يرضي عليهم- (...) ويزيدوا يحسبوا كالعادة وكل ما يعاودوا يحسبوا بهذا الحساب حتّى يكمّلوا"[2].

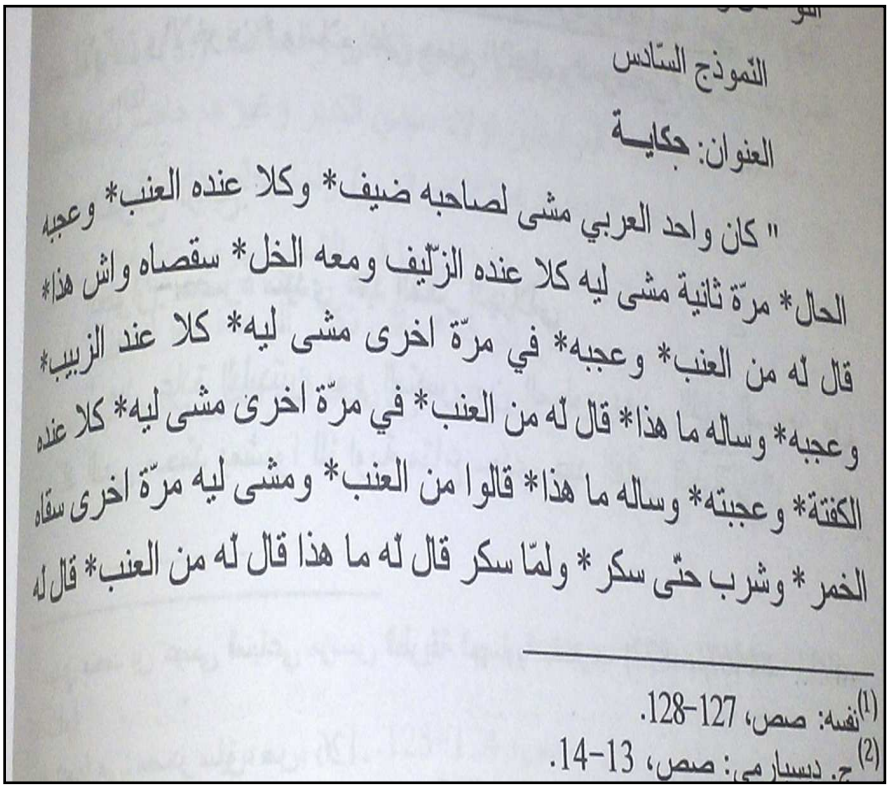

النّموذج السّادس

العنوان: **حكايــة**

" كان واحد العربي مشى لصاحبه ضيف* وكلا عنده العنب* وعجبه الحال* مرّة ثانية مشى ليه كلا عنده الزّليف ومعه الخل* سقصاه واش هذا* قال له من العنب* وعجبه* في مرّة اخرى مشى ليه* كلا عند الزبيب* وعجبه* وساله ما هذا* قال له من العنب* في مرّة اخرى مشى ليه* كلا عنده الكفتة* وعجبته* وساله ما هذا* قالوا من العنب* ومشى ليه مرّة اخرى سقاه الخمر* وشرب حتّى سكر* ولمّا سكر قال له ما هذا قال له من العنب* قال له

---

(1) نفسه: صص، 127-128.

(2) ج. دسيارمي: صص، 13-14.

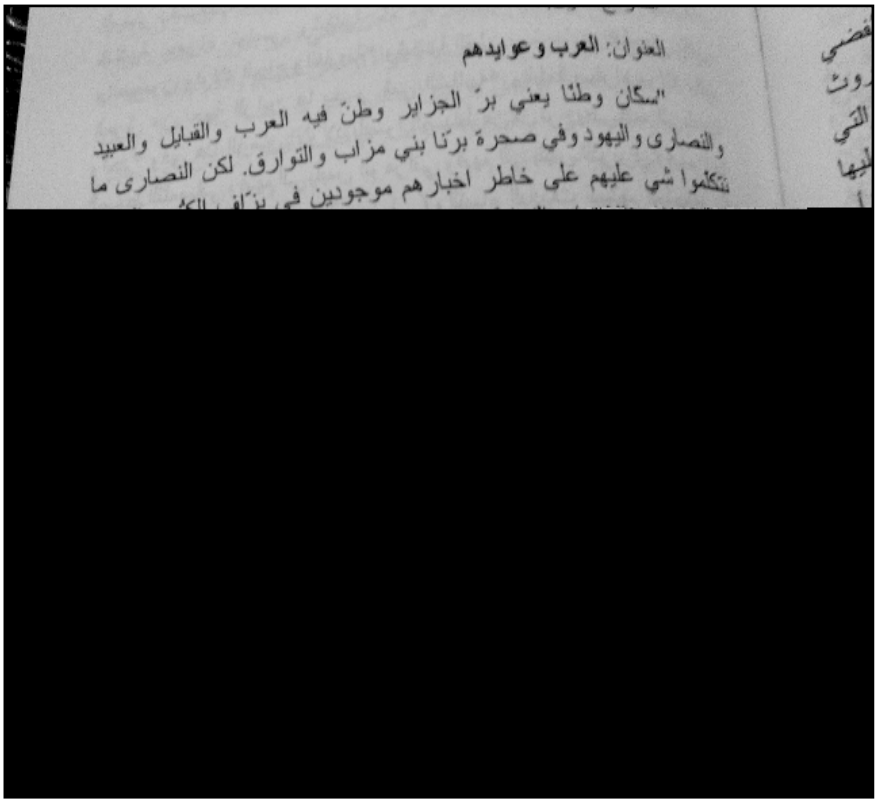

العنوان: **العرب وعوايدهم**

"سكان وطنا يعني برّ الجزاير وطنّ فيه العرب والقبايل والعبيد والنصارى واليهود وفي صحرة برّنا بني مزاب والتوارق. لكن النصارى ما تتكلموا شي عليهم على خاطر اخبارهم موجودين في

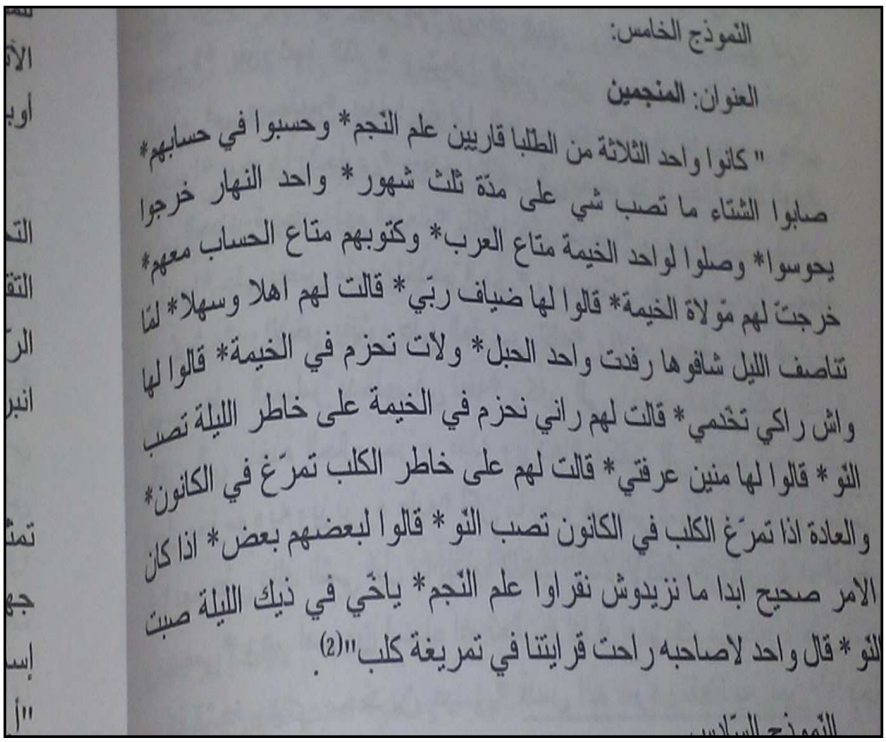

النموذج الخامس:

العنوان: **المنجمين**

" كانوا واحد الثلاثة من الطلبا قاريين علم النّجم* وحسبوا في حسابهم* صابوا الشتاء ما تصب شي على مدّة ثلث شهور* واحد النهار خرجوا يحوسوا* وصلوا لواحد الخيمة متاع العرب* وكتوبهم متاع الحساب معهم* خرجتّ لهم مّولاة الخيمة* قالوا لها ضياف ربّي* قالت لهم اهلا وسهلا* لمّا تناصف الليل شافوها رفدت واحد الحبل* ولاّت تحزم في الخيمة* قالوا لها واش راكي تخّدمي* قالت لهم راني نحزم في الخيمة على خاطر الليلة تصب النّو* قالوا لها منين عرفتي* قالت لهم على خاطر الكلب تمرّغ في الكانون* والعادة اذا تمرّغ الكلب في الكانون تصب النّو* قالوا لبعضهم بعض* اذا كان الامر صحيح ابدا ما نزيدوش نقراوا علم النّجم* ياخّي في ذيك الليلة صبت النّو* قال واحد لاصاحبه راحت قرايتنا في تمريغة كلب"(2).

النموذج السّادس

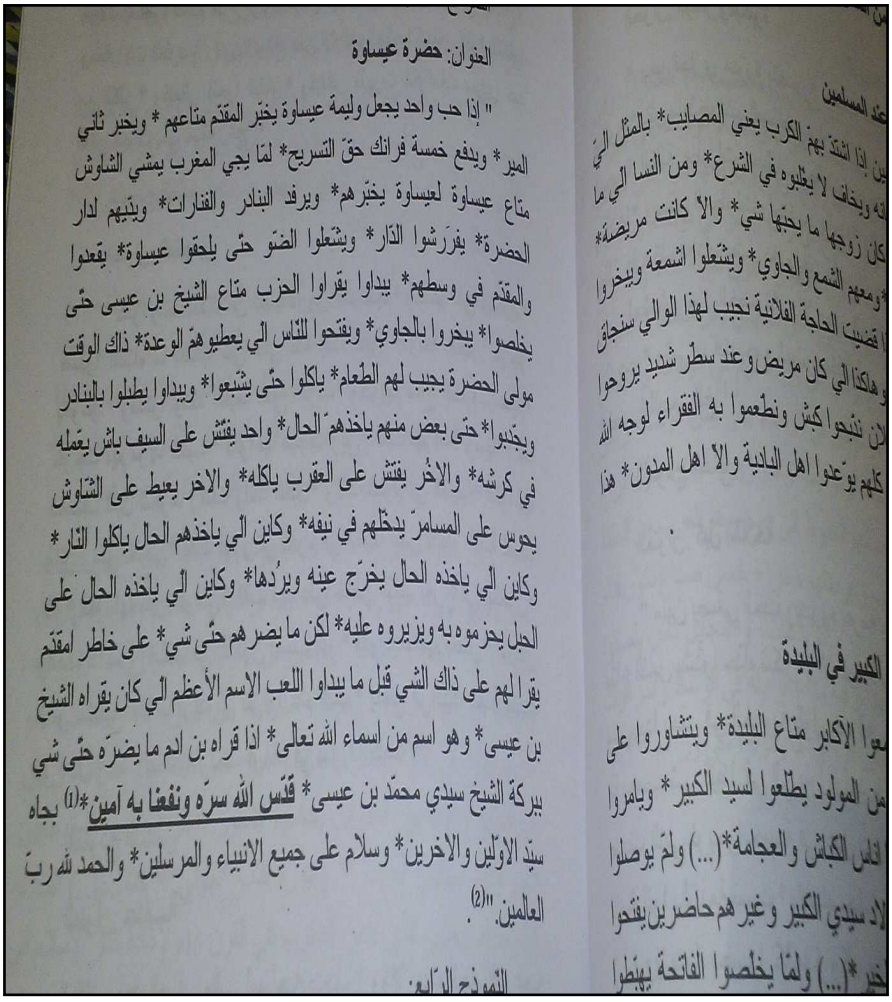

العنوان: **حضرة عيساوة**

" إذا حب واحد يجعل وليمة عيساوة يخبّر المقدّم متاعهم * ويخبر ثاني المير * ويدفع خمسة فرانك حقّ التسريح * لمّا يجي المغرب يمشي الشاوش متاع عيساوة لعيساوة يخبّرهم * ويرفد البنادر والفنارات * ويّيهم لدار الحضرة * يفرّشوا الدّار * ويشّعلوا الضّو حتّى يلحقوا عيساوة * يقعدوا والمقدّم في وسطهم * يبداوا يقراوا الحزب متاع الشيخ بن عيسى حتّى يخلصوا * يخروا بالجاوي * ويفتحوا للنّاس الي يعطيوهمّ الوعدة * ذاك الوقت مولى الحضرة يجيب لهم الطّعام * ياكلوا حتّى يشّبعوا * ويبداوا يطبلوا بالبنادر ويجّذبوا * حتّى بعض منهم ياخذهمّ الحال * واحد يفتش على السيف باش يعّمله في كرشه * والاخر يفتش على العقرب ياكله * والاخر يعيط على الشّاوش يحوس على المسامرّ يدخّلهم في نيفه * وكاين الّي ياخذهم الحال ياكلوا النّار * وكاين الّي ياخذه الحال يخرّج عينه ويرُدها * وكاين الّي ياخذه الحال على الحبل يحزموه به ويزيروه عليه * لكن ما يضرهم حتّى شي * على خاطر امقدّم يقرا لهم على ذاك الشي قبل ما يبداوا اللعب الاسم الأعظم الّي كان يقراه الشيخ بن عيسى * وهو اسم من اسماء الله تعالى * اذا قراه بن ادم ما يضرّه حتّى شي ببركة الشيخ سيدي محمّد بن عيسى * **قدّس الله سرّه ونفعنا به آمين** *[1] بجاه سيّد الاوّلين والاخرين * وسلام على جميع الانبياء والمرسلين * والحمد لله ربّ العالمين. "[2].

النموذج الرّابع.

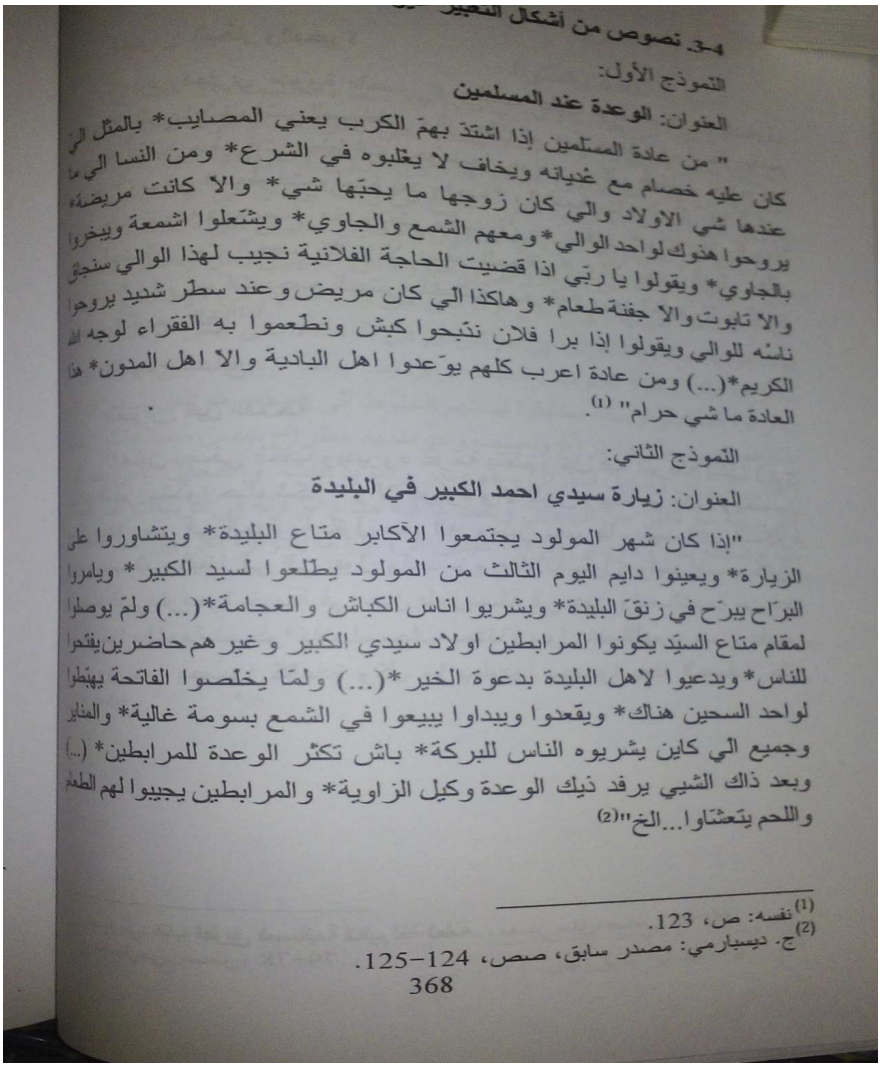

3-4. نصوص من أشكال التعبير

النموذج الأول:

العنوان: **الوعدة عند المسلمين**

" من عادة المسلمين إذا اشتدّ بهمّ الكرب يعني المصايب* بالمثل الي كان عليه خصام مع غدياته ويخاف لا يغلبوه في الشرع* ومن النسا الي ما عندها شي الاولاد والي كان زوجها ما يحبّها شي* والا كانت مريضة يروحوا هنوك لواحد الوالي* ومعهم الشمع والجاوي* ويشعّلوا اشمعة ويبخروا بالجاوي* ويقولوا يا ربّي اذا قضيت الحاجة الفلانية نجيب لهذا الوالي سنجق والا تابوت والا جفنة طعام* وهاكذا الي كان مريض وعند سطر شديد يروحوا ناسه للوالي ويقولوا إذا برا فلان نتبحوا كبش ونطعموا به الفقراء لوجه الله الكريم*(...) ومن عادة اعرب كلهم يوعدوا اهل البادية والا اهل المدون* هذا العادة ما شي حرام" [1].

النموذج الثاني:

العنوان: **زيارة سيدي احمد الكبير في البليدة**

"إذا كان شهر المولود يجتمعوا الأكابر متاع البليدة* ويتشاوروا على الزيارة* ويعينوا دايم اليوم الثالث من المولود يطلعوا لسيد الكبير* ويامروا البرّاح يبرّح في زنقة البليدة* ويشريوا اناس الكباش والعجامة*(...) ولمّ يوصلوا لمقام متاع السيّد يكونوا المرابطين اولاد سيدي الكبير وغيرهم حاضرين يفتحوا للناس* ويدعيوا لاهل البليدة بدعوة الخير*(...) ولمّا يخلصوا الفاتحة يهبطوا لواحد السحين هناك* ويقعدوا ويبداوا يبيعوا في الشمع بسومة غالية* والمناير وجميع الي كاين يشريوه الناس للبركة* باش تكثر الوعدة للمرابطين* (...) وبعد ذاك الشيي يرفد ذيك الوعدة وكيل الزاوية* والمرابطين يجيبوا لهم الطعام واللحم يتعشّاوا...الخ"[2]

---

(1) نفسه: ص، 123.

(2) ج. ديسبارمي: مصدر سابق، صص، 124-125.

368

إنّ النّصوص السّابقة دليل على احتقار المستعمر للشّعب الجزائـري بكـلّ طبقاته، ويظهر ذلك من خلال السّمّ المبثوث فيها، ففيها زرع للفتن، وإذكـاء لنار الطّبقية والفرقة، ونشر للبدع على حساب العقائد السليمة.

ثالثا: جهود الجمعية في بعث العربية الفصيحة:

كما قلنا سابقا، استغلّ المستعمر ذلك التّنوع اللّهجي الموجـود في الجزائـر لصالحه، واتّخذه أداة للقضاء على العربية، وبخاصّة مسألة العربية والبربريـة، سعيا منه إلى القضاء على الإسلام؛ لأنّ القضاء على العربية يعني أنّ الشعب لن يفهم القرآن إلاّ عن طريق نخبة معيّنة، أو بالرّجوع إلى المعاجم الّتي تشرح الكلمات المستعصية، وهكذا يموت دوره كدستور حياة للجزائريين.

ولخدمة غايته الدنيئة عمل على استغلال اللّهجات لمحو العربية الفصيحة، وبخاصة عبر استغلال اللّسان البربري، حتّى أنّ هناك جهودا بذلت في العـام 1944 لإنشاء معجم فرنسي-بربري

كما قام بتثمين العامّية واتّخاذها لغة تدريس، وربطها بنصوص فلكلورية؛ لأنـه لّما لم يـتمكن "مـن اسـتدراج مختلـف الشّـرائح الاجتماعيـة إلى فضـائه المدرسي، لجأ إلى اعتماد تعلـيم انتقـائي طبقـي، منـذ تسـعينات القـرن 19م؛ حيــث أنشــأ مــدارس ابتدائيــة، تمحــورت مقرّراتهــا حــول الثقافــة الشعبية/ الفلكلورية، واعتُمدت فيها اللّهجة العامّية العربيـة كلغـة تـدريس، وذلك سعيا منه إلى الحط من صورة الإسلام ولغته"[1] كما قام بتقسـيم اللغـة العربية إلى "ثلاث لغات يمكن إهمالها جميعا في التّعليم:

1-عربية عامية يستعملها الشّعب وهذه لا قيمة لها، وبالتّالي ليست مـادة صالحة للتعليم في المدارس.

2-عربية فصحى (لغة القرآن) وهذه مثلها مثل اللغتين اليونانية واللاتينية تعتبر لغة ميتة.

---

[1] المرجع نفسه، ص10

3-عربية حديثة وهي معروفة بصورة باهتة في الجزائر؛ لأنها نتاج بعض المتعلّمين، وهي في الحقيقة لغة أجنبية وأداة للقومية العربية، ولذلك يجب إبعادها من برامج التعليم[1] وبالتّالي إحلال القومية الفرنسية مكانها، وبخاصة في المرحلة الابتدائية؛ لأنّ الطّفل هنا في مرحلة تكوين الشّخصية

من هنا كان على أعضاء الجمعية استغلال كلّ فرصة لبعث اللّغة العربية، ومحاربة جهود المستعمر في تفتيت الوحدة الجزائرية، وتظهر هذه الجهود من خلال:

- **المدارس**: أيقن أعضاء الجمعية أنّ المستعمر لا يريد من وراء إنشاء مدارس تابعة له سوى تذويب الشّخصية الجزائرية، والقضاء على مقوّمات هُويتها، ورأى أنّ الكتاتيب لم تعد كافية لتكوين جيل مثقّف وواعي، لذلك قامت بإنشاء مدارس تُلقى فيها الدّروس باللّغة العربية، وقد "بلغت جملة مدارسها حتّى عام 1954 أكثر من 150 مدرسة، يتردّد عليها أكثر من خمسين ألف طفل وبنت يدرسون فيها مبادئ اللّغة العربيّة وآدابها، وأصول الدّين الإسلامي، والتّاريخ الجزائري والإسلامي طبق برنامج يجمع بين ضرورات العلم وبين إيجابيات التّربية الإسلامية، والقومية والوطنية الصحيحة"[2] ولاقت إقبالا منقطع النّظير، ووجدت أرواحا متعطّشة للعلم والمعرفة، والعودة إلى أصالتها، فالجزائر لا تفرق عن بلاد المشرق، فقد أنجبت علماء وقادة وحكماء، إذا نستطيع أن نقول إنّ هذه المدارس لم تكن إلّا "ثورة ثقافية في الجزائر، ولم تكن إلا نذيرا أو بشيرا بقرب نهاية وجود الاستعمار ونظامه القذر، فكان الطّفل الجزائري الذي يختلف إلى هذه المدارس العربية كأنما يدرس في دمشق أو القاهرة أو بغداد، كلّ شيء عربي وكل مادّة تعليمية

---

[1] تركي رابح، التعليم القومي والشّخصية الجزائرية، ط2. الجزائر: 1981، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص131.

[2] تركي رابح عمامرة، جمعية العلماء المسلمين الجزائرية التاريخية ورؤساؤها الثلاثة، ص99-100.

تقدّم إليه بالعربية في لهجة فصيحة سليمة تحث على الخير، وتهدي إلى الفضيلة" وقد راعى معلّموها تقديم الدّروس بطريقة سهلة بسيطة، بعيدة عن التّعقيد، وفي متناول الجميع، وبأسلوب شيّق وممتع.

وأروع ما قامت به الجمعية نقل نشاطها التّعليمي إلى الأراضي الفرنسية، من أجل تعليم أبناء المهاجرين الجزائريين مبادئ دينهم ولغتهم، والحفاظ عليهم من الانسلاخ والذّوبان في الثّقافة الفرنسية.

- **المساجد:** أين كانت تُلقى دروس التّفسير والفقه والعقيدة للكبار والصّغار، ليلا نهارا.

- **النّوادي:** احتلّت النّوادي مكانة هامّة عند الجمعية؛ فهي "وسط بين المدرسة وبين الجامع؛ لأنّ هناك طائفة عظيمة من شباب الأمة لا تجد الجمعية وسيلة لتبليغهم دعوة الدّين والعلم إلا في تلك النّوادي"[1] حيث يلتقي الشّباب المثقّف لتدارس أوضاع أمّته، ومناقشة كثير من القضايا، وعرض ما في جعبتهم من شعر ونثر، فهي ملتقى النّخبة، ولا ننسى أنّ جمعية العلماء تأسسّت في نادي الترقي.

- **الجرائد:** أدرك أعضاء الجمعية فائدة الإعلام، ودوره في اختصار الجهد والوقت لنقل الآراء للشّعب، وتعريفه بالحقيقة، فأصدرت الجرائد والمجلّات، مثل السّنة والشّريعة والصراط والبصائر وكانت كلّها بالعربية، والشّاب المسلم بالفرنسية، وهذا ليل آخر على يقظة أعضائها، وعدم تغييب الآخر، فهم يعلمون أنّ هناك فئة لا تفهم العربية.

وقد كانت الدّروس التّعليمية الّتي تُلقى في المدارس والمساجد، والمناقشات الّتي تتمّ في النّوادي والآراء الّتي تنقلها الجرائد تصدر كلّها بلغة عربية

---

[1] محمد البشير الابراهيمي، البصائر، ع10، 25يوليو1947.

فصيحة، لغة بسيطة لكنّها راقية، يفهمها جلّ أبناء الشّعب، ونحن نعلم أن أفذاذا مثل الإمام ابن باديس والإبراهيمي يعدّون مالكي ناصية اللّغة والبيان، ونتيجة احتكاكهم بجميع طبقات الشّعب عرفوا كيف يخاطبون كلّ طبقة بما يناسبها.

الخاتمة:

من خلال ما سبق نستخلص أنّ جمعية العلماء المسلمين كانت أفضل من حافظ على اللّغة العربية حيّة بين أبنائها، إضافة إلى الجهود العلمية والثّقافية؛ فقد وعى أعضاؤها أنّ اللّغة صورة وجود الأمّة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها، وجودا متميّزا قائما بخصائصه، فهي قوميّة الفكر...كيفما قلّبت أمر اللّغة من حيث اتّصالها بتاريخ الأمّة واتّصال الأمّة بها، وجدتها الصّفة الثّابتة الّتي لا تزول إلّا بزوال الجنسية، وانسلاخ الأمّة من تاريخها؛ فكرسوا كل طاقاتهم لحمايتها من دسائس المستعمر، وإعادة إحيائها؛ فاستطاعوا تكوين جيل معتزّ بدينه وعروبته، واعٍ بقضايا أمّته، وأخفقت أمته بذلك جهود المستعمر لتفتيت وحدة الجزائريّين، وهدم مقوّمات الشّخصية الوطنيّة.

مقام اللّغة العربيّة عند جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين من خلال جريدة "المُنتقِد"

أ. حسيبة لعربي
مولود معمري، تيزي- وزو

مقدّمة:

أنجبت الجزائر أبطالاً خدموها بكلّ صدق وتفانٍ، وبذل كلّ واحد منهم ما يستطيعه فالبطولة لا تعني أن تمتلك قوى خارقة للطّبيعة تعينك على أداء الواجب؛ ولكن البطولة أن تساعد بما تمتلكه في شخصيّتك العاديّة، سواء كان ذلك ماديّا كالمال والجُهد كما فعل الشّهداء، أم معنويّا كالتّمسّك بالشّخصيّة الوطنيّة ومقوّماتها رغم الصّعوبات، والدّفاع عنها، والعمل على تطويرها وتحسينها بالإنتاج الفكري، ومن هؤلاء الّذين سخّروا الإيمان والعلم والقلم سلاحاً لردع الظّلم والظّلام العلّامة البشير الإبراهيمي؛ الّذي ألقى كلمة بمناسبة تأسيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين سنة 1931م، والّتي تزامنت مع احتفال فرنسا بمئويّة احتلالها للجزائر، وقد عاهد من خلال كلمته على استقلال الجزائر قبل مئويّة أخرى، فكان لكلمته الوزن الثّقيل والمفعول السّحري على تاريخ الجزائر، وكانت كلمة رجل شريف لا يحيد عن أصله، متمسّك بقناعاته وأفكاره، صاحب قضيّة آمن بها وعمل على تحقيقها؛ لتكون كلمته رصاصة، ووعده حقّاً.

والجدير بالذّكر ها هنا أنّ الجمعيّة قد حقّقت إنجازات عديدة قبل الثّورة التّحريريّة وأثناءها وبعد الاستقلال؛ لتشكّل كلّ مرحلة من هذه المراحل

الثلاث منعرجاً هاماً في تاريخ الجزائر، ومسار نضالها الطّويل ضدّ المستعمر الفرنسي حيث عملت على محاربة الأميّة والجهل وسط أبنائها، وقامت ببناء المدارس وتوعية الشّعب بقضيّته، وبخاصّة من استسلم لسياسة الفرنسة بحجّة الحضارة، فرفعت صوتها منددّة بالمستعمر الّذي حاول بشتّى الطّرق إيقاف نشاطها وشلّ حركتها، إلّا أنّ الجمعيّة أصرّت على هدفها؛ فاستمرّ نشاطها سرّا وعلانيّة داخل الوطن وخارجه، وبذلك خلقت التّواصل ورفعت الحصار، وأسمعت العالم صوتها فوحّدت الجهود؛ حتّى تحقّق الاستقلال.

اتّخذت الجمعيّة ثلاثة أبعاد لهُويّتها متمثّلة في (الدّين، اللّغة والوطن) فكان شعارها: "الإسلام ديننا والعربيّة لغتنا، والجزائر وطننا"؛ لأنّ اللّغة مقوّم أساس يحدّد الانتماء ويعزّز شخصيّة الإنسان، فإنّ الجمعيّة منحته أهمّيّة لا تقلّ عن المقوّمين الآخرين، فقد جعلت من اللّغة العربيّة اللّسان النّاطق بكلّ أعمالها وإنجازاتها، وحتّى نتبيّن موقع هذه اللّغة ودورها عند الجمعيّة، سنتناول في هذا البحث جوانب من إنجازاتها اللّغويّة، وسنمثّل لرئيسها الشّيخ عبد الحميد بن باديس من خلال جريدة "المنتقد" الّتي أسّسها.

وعليه فحقيق بنا أن نطرح السؤال الآتي: كيف رسّخت هذه الجريدة للّغة العربيّة؟ وماذا قدّمت لشعبها؟ ثمّ لماذا توقّف إصدارها بعد ثمانية عشر عددا، وتعويضها بجريدة "الشّهاب" الّتي تحولّت في ما بعد إلى مجلّة؟

أوّلا: تقديم جريدة المنتقد:

1. نبذة عن صاحب الجريدة:

هو العلّامة عبد الحميد بن باديس، ولد سنة 1889م في أحضان أسرة عريقة، ومعروفة بإنجازاتها وبطولاتها، ومحترفة للسّياسة والقضاء؛ ممّا أثّر إيجابا على تربيته وتنشئته وشخصيّته، تلقّى أوّل تعليمه على يد والده، وقد كان تلميذا مجتهدا ومثابرا؛ حيث ختم تفسير القرآن الكريم وهو في الثّالثة

عشرة من عمره، واصل تعليمه بجامع الزيتونة أين التقى بعلماء وأدباء أجلّاء وكذلك زعماء النّهضة الفكريّة الإصلاحيّة بتونس، فتكوّنت لديه أفكار نضاليّة وكوّن علاقات وصداقات ساعدته لاحقا في نضاله ضد المستعمر الفرنسي، ثمّ التقى لاحقا برفيق دربه الشّيخ البشير الإبراهيمي في المدينة المنوّرة، كما قام بزيارة العديد من بلدان الوطن العربي وأقام علاقات تواصل مع أدبائها وعلمائها ليوسّع أفقه في النّضال والسّياسة، كما أنّه كان مربيّا ومصلحا فقد أسّس المدارس لتعليم أبناء وطنه وتوعيتهم بقضيّتهم وتحفيزهم على النّضال الّذي كان جليّا من خلال جريدة المنتقد الّتي أسّسها، وقد منحت شخصيّته القويّة ثقة كبيرة للشّعب بدليل انتخابه غيابيا لرئاسة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، ومن أجمل ما قاله في شعره:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا له رام المحال من الطّلب
يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصّباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها وخض الخطوب ولا تهب

2. **تعريف الجريدة:**

تأسّست جريدة **المنتقد** سنة (1925م) برئاسة عبد الحميد بن باديس، وإدارة نخبة من شباب الجزائر النّاهض، وأصدرت أوّل عدد بتاريخ 2 جويلية 1925م بمدينة قسنطينة، وهي جريدة أسبوعيّة تصدر يوم الخميس، شعارها "**الحقّ فوق كلّ أحد والوطن قبل كلّ شيء**" وهي جريدة وطنيّة وحرّة تصدر بمساعدة فرنسا الّتي فرضت نفسها في تلك الفترة وأخضعت الجرائد والمجلّات للرّقابة لكن الجريدة كانت ذكيّة في تعاملها معها؛ حيث تعلن في أعدادها أنّها تابعة لها "المنتقد جريدة حرّة وطنيّة تعمل لسعادة الأمّة الجزائريّة بمساعدة

فرنسا الدّيمقراطيّة" لكنّها في نفس الوقت تقوم بنشر آرائها وأفكارها بكلّ جرأة، وبذلك جعلت من انتمائها لهذه الحكومة مجرّد شكليّات؛ حتّى لا تعيق نشاطها، إلّا أنّ فرنسا نجحت في إيقافها بعد أن خرجت الجريدة عن سيطرتها لتشكّل الخطر عليها، لأنّها أسمعت العالم رفضها للمستعمر، بآراء جريئة وحماسة وحّدت الشعب، وأيقظت فيه روح النّضال وهكذا توقّف إصدارها بعد ثمانية عشرة عددًا.

2-1: **الدّلالة اللّغويّة للمنتقد:** تحمل تسمية (المنتقد) عدّة معاني تختلف باختلاف السّياق، إلّا أنّها تتشابه جميعها في المعنى العام لها، ومن بين هذه المعاني ما يلي:

- جاء في معجم المعاني الجامع: "انتقد: ينتقد، انتقادا، فهو منتقِد، والمفعول منتقَد، وانتقد قصائده الشّعريّة: أظهر مزاياها وعيوبها"[1].

- ويقول الفيروز أبادي في القاموس المحيط، مادة نقد: "نقدت الدراهم أي ميّزت الجيّد منها من الزّائف، والنّقد هو المناقشة، نقول: ناقده في المسألة أي ناقشه"[2].

- وذهب ابن منظور في لسان العرب إلى القول: "ونقد الرّجل الشّيء بنظره ينقده نقدا، ونقد إليه: اختلس النّظر نحوه، ومازال فلان ينقد بصره إلى الشّيء إذا لم يزل ينظر إليه"[3].

- وفي حديث أبي الدّرداء أنّه قال: "إذا نقدت النّاس نقدوك، وإذا تركتهم تركوك، ومعنى نقدتهم أي عِبتهم واغتبتهم قابلوك بمثله"[4].

---

(1) معنى كلمة المنتقد في معجم المعاني: www.almaany.com
(2) نفسه
(3) نفسه
(4) نفسه

وعليه فإنّ تسمية المنتقد تجمع كلّ هذه المعاني على النّحو التّالي:

• **تظهر المزايا والعيوب:** تعمل جريدة المنتقد على انتقاد كلّ ما يمسّ الشّعب الجزائري بأذى فتكشف عن مزايا وعيوب الجرائد والمجلّات، الملتقيات والمجالس العلميّة، الاجتماعات والانتخابات وقرارات مجالس البلديّات والمرشّحين، القضاء والقوانين والمواد الّتي تصدرها الحكومة الفرنسيّة في حقّ الجزائريّين العمّال منهم، والجنود والفلّاحين وغير ذلك.

• **تميّز الجيّد من الزّائف والمناقشة:** تعلن الجريدة في أعدادها عن حقائق وملاحظات تكشف الزّيف في الجرائد والمجلّات الفرنسيّة والجزائريّة المتجنّسة بالجنسيّة الفرنسيّة، وفي كلّ ما يطال الجزائر بالأكاذيب وتناقشها بإظهار الحقيقة، وإن رُوّج لسوء فهم عن الجريدة؛ فإنّها تقدّم اعتذارا وتفسيرا.

• **تعيب كلّ فاسق ومنافق للجريدة والوطن:** لا تتسامح الجريدة مع هؤلاء الخائنين تحت أيّة صفة، فتعلن عن آرائهم الفاسدة ومواقفهم المخزية تجاه وطنهم، كالّذين يعرفون الحق، ولكنّهم يتغاضون عنه، أو يقفون على الحياد، أو أنّهم يستطيعون المساعدة ولا يفعلون ويستسلمون لكذبة أنّ المحتلّ جاء لنشر الحضارة، أو هو ابتلاء من اللّه ويجب تقبّله؛ وذلك خوفا من المستعمر.

2-2: **مذهب الجريدة في انتقادها:** جعلت المنتقد من نفسها سلاحا للحق على ثلاث جبهات تتمثّل في ما يلي:

-**الجبهة الأولى(الحكومة الفرنسيّة):** تنتقد الجريدة كلّ ما تقرّره ضدّ مصلحة الشّعب الجزائريّ وتندّد بمعاملتها السّيئة وتمييزها بين المواطنين الفرنسيّين والجزائريّين مادامت جاءت لنشر الحضارة ولتمدين الشّعب الجزائريّ؛ فتكشف الجريدة عن أوضاع الشّعب المزريّة لتثبت حقيقة الحكومة الفرنسيّة وهي استعباد الأهالي واستعمارهم.

-**الجبهة الثّانية (الشّعب الجزائري):** تنتقد كلّ منافق وخائن للوطن، وتنتقد الضّعف والخوف فيه من المستعمر، وتذكّره بعاقبته وتستنكر تخاذله

تجاه الوطن والمواطنين، وتحثّه على النّضال والمقاومة وتقوم بشحذ الهمم ورفع الحماسة لتوحيد الجهود وطرد المستعمر.

-**الجبهة الثّالثة (الطّرقيّة)**: تنتقد تلك الطّرق المستفحلة في تلك الفترة، والّتي تفكّر وتنشر فكرة أنّ المستعمر عقوبة للشعب الجزائري، ويجب أن يتقبّلها ويتعايش معها، فترفض الجريدة هذه الأفكار وتحاربها وتتنكّر لصحّتها، وتعمل على إصلاحها بتقديم الحجج والأدلّة من الدّين الصحيح والسّنّة الشّريفة اللّذان يرفضان الظّلم والعدوان والسّكوت عن الحقّ.

ثانيا: أوضاع الصّحافة الجزائريّة في تلك الفترة (1925م)

مثّلت الصّحافة المكتوبة سلاحاً قويّا للبلدان المحتلّة عبر العالم، وبفضلها تمكّنت هذه البلدان من إيصال صوتها للعالم، ونقل قضيّتها إلى الرّأي العام وفضح جرائم المستعمر، وهو ما شجّع الحركات التّحرّريّة والعمل النّضاليّ؛ لذلك عمل الاستعمار على إخضاعها للرّقابة حتّى تقمع هذه الحركات وتمنع التّواصل بين هذه البلدان.

وقد عرفت الصّحافة بعد الحرب العالميّة الأولى نشاطاً كبيراً وصل إلى الوطن العربيّ كالشّام ومصر وتونس والجزائر؛ إذ كانت هذه البلدان تعاني من الاحتلال لتكون قضيّةَ الحرّيّة أكبر اهتماماتها، والدّليل على ذلك كثرة الصّحف والمجلّات الّتي كانت تصدر في الجزائر بعد الحرب العالميّة الأولى، ونذكر منها ما يلي[1]:

- أصدر سنة 1919م الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر جريدة **الأقدام** لتتوقّف بعد نفيه من الجزائر، وكذلك صدرت في نفس السّنة جريدة **النّجاح** بتأسيس من عبد الحفيظ بن الهاشمي.

---

[1] تركي رابح، الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلاميّ والتّربية في الجزائر. ط5. الجزائر: 2001م المؤسّسة الوطنيّة للاتّصال والنشر والإشهار، ص40-41.

• وصدرت في سنة 1923م جريدة **لسان الدّين** بمشاركة مصطفى بن حافظ وابن عبد العزيز حسن.

• وفي سنة 1924م صدرت جريدة **الفاروق** لصاحبها عمر بن قدّور، ثمّ توقّفت فاشترك مع محمّد بن بكير في إصدار جريدة **الصديق** والّتي توقّفت هي الأخرى بعد فترة قصيرة.

• صدرت جريدة **المنتقد** سنة 1925م برئاسة عبد الحميد بن باديس، وتوقّفت بعد ثمانية عشر عددا، وبعدها أصدر في نفس السّنة جريدة **الشّهاب** الّتي تحوّلت لاحقا إلى مجلّة شهريّة، وكذلك أصدر الشّاعر محمّد سعيد الزّاهري جريدة **الجزائر**، لكنّها لم تدم طويلا، إضافة إلى جريدة **البرق**.

نلحظ أنّ جميع هذه الصّحف والجرائد قد أوقفتها الحكومة الفرنسيّة بعد فترة وجيزة من نشاطها وذلك دليل على الخطر الكبير الّذي كانت تمثّله على مصالحها الاستعماريّة، ودليل آخر على انتشار الوعي وسط الشّعب الجزائري، واستيقاظ الضّمير الوطنيّ، ونضوج الفكر السّياسي التّحرّريّ.

وبالرّغم من الرّقابة الشّديدة الّتي فرضتها فرنسا على الصّحافة المكتوبة، إلّا أنّ الجرائد تمتّعت بنسبة كبيرة من الحرّيّة والجرأة في آرائها غير مهتمّة بالعواقب. وحسب ما أورده المعهد الدّولي للصّحافة "بزيوريخ" وفقا لتعريفه لحرّيّة الصّحافة فإنّ الصحافة الجزائريّة تحقّقت فيها شروط حريّة الصّحافة بدرجة مقبولة والمتمثّلة في[1]: (حرّية استقاء الأخبار، حرّيّة نقل الأخبار، حرّيّة إصدار الصّحف، وحرّية التّعبير عن وجهات النّظر)، ولهذا السّبب سعت فرنسا إلى قمعها، وقد قال في هذا الشّأن (آثر سالز بورجر): "إنّ رأي

---

[1] ينظر: أحلام باي، معوّقات حرّيّة الصّحافة في الجزائر (دراسة ميدانيّة بمؤسّسات صحفيّة بمدينة قسنطينة)، مذكرة ماجستير، الجزائر:2006م-2007، ص27.

أيّ إنسان في أيّ قضيّة لا يمكن أن يكون أفضل من نوع المعلومات الّتي تقدّم إليه في شأنها، أعط أيّ إنسان معلومات صحيحة ثمّ اتركه وشأنه سيظلّ معرّضا للخطأ في رأيه ربّما لبعض الوقت، ولكن فرصة الصّواب ستظلّ في يده إلى الأبد"[1] وبهذا يكون عنصر الصّدق في المعلومة أهمّ عامل لتحقيق حرّيّة الصّحافة، والحقيقة ستضرّ بمصالح المستعمر الفرنسي.

ثالثا: تحليل جريدة المنتقد:

1. **تحليل مبادئ الجريدة:** تقوم جريدة المنتقد على ثلاثة مبادئ أعلنت عنها في عددها الأوّل وتناولتها بالشّرح والتّفسير وهي كالتّالي:

-**المبدأ الأوّل (المنتقد جريدة سياسيّة):** صرّحت بهذا المبدأ الّذي ربطته بالدّين من جهة، ونفت من جهة أخرى خلطها بين الدّين والسّياسة؛ فتقول: "لا نعني بهذا أنّنا نخلط بين الدّين والسّياسة في جميع شؤوننا، ولا أن يتداخّل رجال الدّين في سياستنا، وإنّما نعني اعتبار الدّين قواما لنا ومهيمناً شريفاً لسلوكنا، ونظاما محكما نعمل عليه في حياتنا، وقوّة معنويّة نلتجئ إليها في تهذيب أخلاقنا، وقتل روح الدّعارة والفساد منّا وإماتة الجرائم بيننا"[2]

-**المبدأ الثّاني (المنتقد جريدة تهذيبيّة):** تسعى المنتقد إلى إصلاح المجتمع، وتهذيبه بعد ما انتشر فيها من رذيلة وفساد بحجّة التّمدّن والحضارة، وكذلك الخيانة للوطن والاندماج مع سياسة التّجنيس الفرنسي، وعبّرت عن ذلك بقولها:"...فنحن ننشر المقالات العلميّة والأدبيّة وكلّ ما يغذّي العقول من منظوم ومنثور، من صحف الشّرق والغرب وأقلام كتّاب الوطن، ونقاوم كلّ

---

[1] نفسه، ص28.

[2] المنتقد جريدة سياسية تهذيبية انتقادية، الأعداد 1-18. ط1. الجزائر: 2008م، دار الغرب الإسلامي، ص5.

معوجّ من الأخلاق وفاسد من العادات، ونحارب على الخصوص البدع الّتي أدخلت على الدّين الّـذي هـو قـوام الأخـلاق ... فلسـنا مـع الجامـدين في جمودهم ولا مع المتفـرنجين في طفـرتهم، والوسـط العـدل هـو الّـذي نؤيّـده وندعو إليه"[1] وبهذه الطّريقة تحافظ الجريدة على المقوّمات الوطنيّة والعادات والتّقاليد، وتهذّب النّفوس والأخلاق كما تغذّي العقول وتحـرّر الفكـر مـن مغالطات الحكومة الفرنسيّة وادّعاءاتها، ممّا ساعد على نشر الوعي والثّقافـة، وتحضير الشّعب فكريا ونفسيّا للنّضال والكفاح.

-المبدأ الثّالث (المنتقد جريدة انتقادية): تعمل الجريدة على انتقاد مختلـف الشّخصيّات وأعمالها باختلاف مراتبهم ومراكزهم، وكلّ من يتولّى شأنا من شؤون الجزائر الاجتماعيّة، السّياسيّة والاقتصادية وكذلك العلميّة والدّينيّـة؛ فتقول: "فأمّا صفاتهم الشّخصيّة وأعمالهم الخاصّة فلا يجوز لنا أن نعرض لهـا بشيء، وأمّا صفاتهم وأعمالهم العموميّـة، فهـي الّـتي نعـرض لهـا وننقـدها، فننتقد الحكّام والمديرين والنّواب والقضـاة، والعلمـاء والمقـاديم، وكـلّ مـن يتولّى شأنا عامّا من أكبر كبير إلى أصغر صغير من الفرنسـيّين والـوطنيّين... وسنسلك في انتقادنا طريق الحقيقة المجـرّدة والصّـدق والإخـلاص والنّزاهـة والنّظافة في الكلام وهكذا لم يسلم أحد من المنتقد حتّـى الحكومـة الفرنسـيّة الّتي تساعد في إصدارها، فكانت اسما على مسمّى

-وسيفا مسلّطا على الظّلم والظّالمين.

2. تحليل مواضيع الجريدة:

تميّزت جريـدة المنتقـد بتنـوّع مواضـيعها، فتناولـت السّياسـة والاقتصـاد والدّين والتّربية، المواضيع الاجتماعيّة والثّقافيّـة، العلميّـة والأدبيّـة، فكانـت

---

[1] نفسه، ص5.

موسوعة إخباريّة تعمل على تنمية وتذكية الفكر الجزائريّ، كما أنّها تناولت قضايا مختلفة من العالم.

تحديد أعمدة الجريدة: تناولت الجريدة المواضيع بصفات مختلفة، عبر أعمدة بعضها دائمة أو ثابتة في جميع أعدادها، وأعمدة أخرى غير دائمة لكنّها ترد من فترة لأخرى في أعداد معيّنة، وأمّا بقيّة الأعمدة؛ فكانت تتجدّد في كلّ عدد، وهي كما توضّحها الجداول التّالية:

الجدول1

الأعمدة الدّائمة	محتواها	أمثلة
حديقة الأدب	تتناول مقتطفات ومقاطع من قصائد شعريّة لأدباء وشعراء جزائريّين وعرب، تعالج القضايا الاجتماعيّة والثّقافيّة.	- خواطر مريض - ذكرى زهرة الأيّام - الشّاعر يتألّم
عند من..؟	أغلبها تعود للشّيخ عبد الحميد بن باديس، وتتناول أحداثا مختلفة عن الشّعب الجزائري والمستعمر الفرنسي.	- عند العدالة الاستعماريّة - عند المكتوفين بحبال احتيالهم - عند بلديّة الخروب وأمثالها

مـــن النّـــاس قوم...	يتحـدّث عـن بعـض الشّخصـــيّات غـــير السـويّة والمريضـة في المجتمع الجزائـري وفي الحكومة الفرنسيّة.	- خفافيش البشر - قوم يكرهون السلام - يعرفون الحقّ ولا يكونون معه
ملخّص الأخبار	يـورد أخبـارا مختلفـة عـن الـوطن العربـي والعالم.	- أخبار عن الرّيف - أخبار عن الشّرق العربي - عن ألمانيا وروسيا
ملاحظاتي	تتنـــاول مجموعـــة ملاحظـــات يكتبهـــا عبد الحميد بن باديس في عدّة مواضيع.	- ملاحظة على نشر قصيدة معيّة - على نشر مقال معيّن - شـكر علـى اعـتراف، أو جواب على رد
نقدات	تمثّل آراء عبد الحميـد بـن بـاديس وهـي في قمّـــة الصّـــراحة والجرأة.	- النّيابة عن المير - أليس فيكم رجل واحد؟

تأتي هذه الأعمدة بصورة دائمة في الجريدة، ولكن قد تغيـب في عـدد أو عددين لأسباب مختلفة إمّا لكونها أوردت مقـالا بمسـاحة كـبيرة فلـم تتّسـع الجريدة للعمود، أو لظروف أخرى لكنّها تعتذر عن ذلك.

الجدول 2

الأعمـــدة غـــير الدّائمة	محتواها	أمثلة
الحرب الرّيفيّة	يختلـــف كاتبهـــا وتتنـاول تفاصـيل هـذه الحـرب بـين فرنســا والمغــرب على حدود فاس.	تتحـدّث عـن أحـداث هـذه الحرب.
روايـــة الشّـــبح الأسود	روايــة تكتــب في كل عدد جزءا من فصـــلها حتـــى ختمتها.	- الفصل الأوّل: الطّريد 2 - الفصل الأوّل: الطّريد 3
الأسبوعيّات	يكتبهـــا نفـــس الكاتـب بمواضـيع مختلفة.	- الأحلام الطّائشة - على الطّائر الميمون
الدّستور الأدبي	مجموعـــة مـــن الوصايا.	1. كن قويّا، كن شجاعا، كن وديعا 2. كن لطيفا
همس الحكمة	تتناول مجموعة من الحكـــم والعـــبر	- كما أنّ قـوّة الفكـر تفـوق قوّة الجسم هكذا آلام الفكـر

	الإنسانية.	أشدّ من وطأة من آلام الجسم. - لو تجسّمت الفضيلة فرئيت لكثر عشّاقها والمولعون بها.
خواطر	تتناول مجموعة من الآراء والأفكار حول مواضيع مختلفة.	- فرق بين العامل للنّفع العام والعامل للنّفع الخاصّ. - فوائد قوم عند قوم مصائب
الكرامة	تبحث في مواضيع علم النّفس	مسألة الكرامة البشريّة، ومفهومها وتاريخها

وأمّا بقيّة الأعمدة فتتناول مواضيع متجدّدة من عدد لآخر ومختلفة المواضيع، وذلك مثل:

- عظماء الرّجال وشغف النّاس بهم ⟵ العدد 01، العمود 01.
- الملوكيّة ضمن الجمهوريّة ⟵ العدد 02، العمود 01.
- في عالم الصّحافة ⟵ العدد 03، العمود 01.
- الدّين والاجتماع ⟵ العدد 06، العمود 01.

تصنيف مواضيع الجريدة

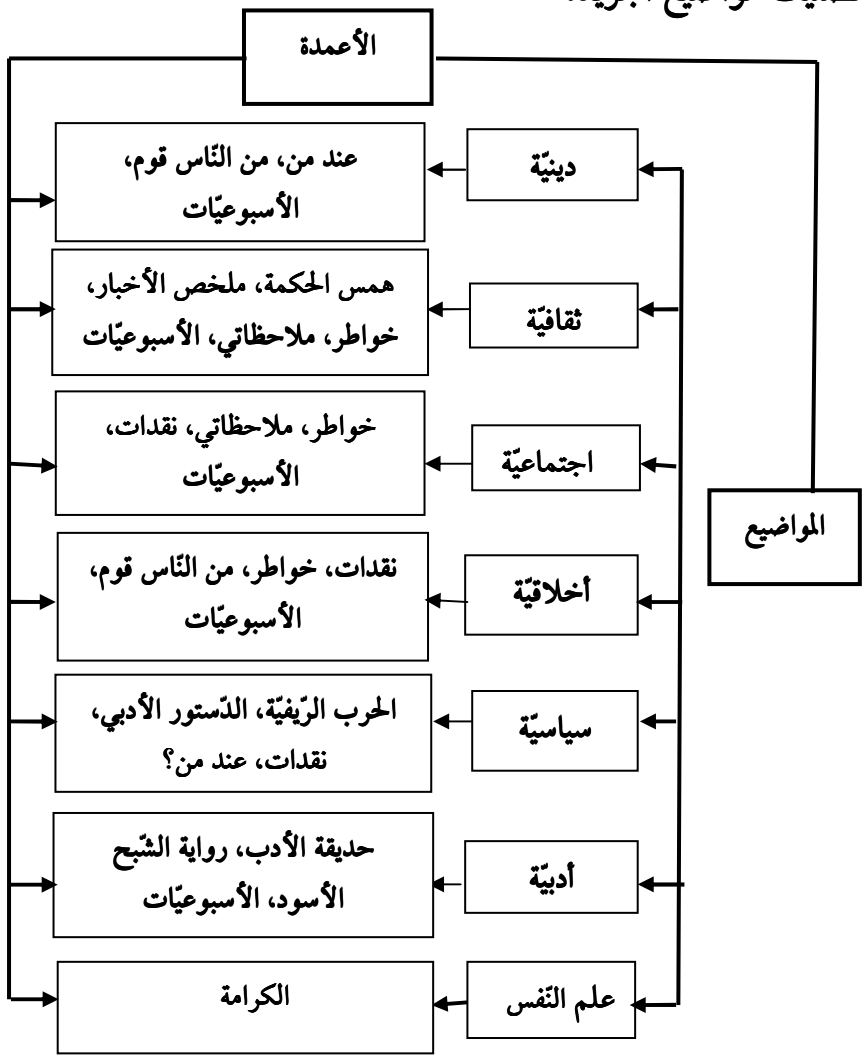

الشّكل1: ترسيمة تمثّل تصنيف المواضيع الّتي تعالجها الأعمدة الدّائمة وغير الدّائمة.

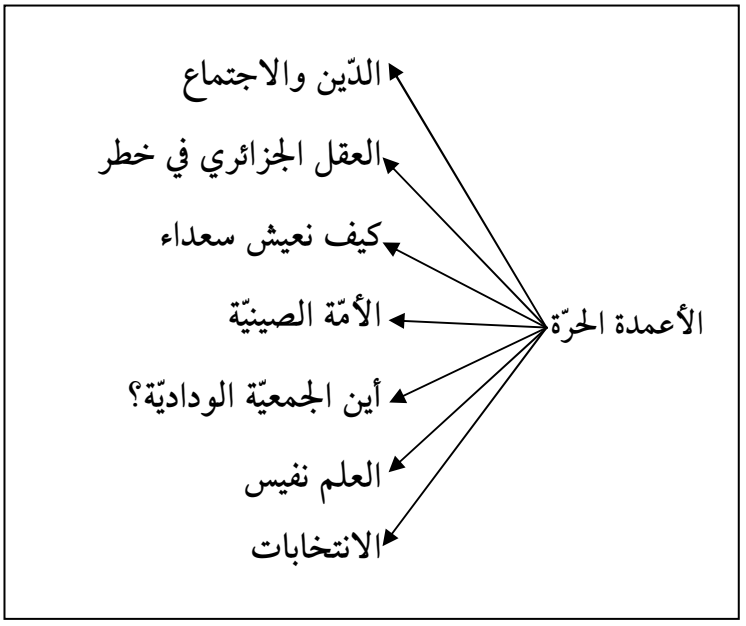

الشّكل2: يمثّل أمثلة عن المواضيع الّتي تعالجها الأعمدة الحرّة.

نتبيّن من خلال الجداول والتّرسيمات السّابقة أنّ جريدة المنتقد أحاطت بكلّ مجالات الحياة وعالجت مختلف المواضيع الّتي تمسّ حياة الجزائريّين بصفة خاصّة؛ وذلك بإظهار ظروف معيشتهم ومعاناتهم تحت وطأة الاستعمار الفرنسيّ، ولإظهار جرائم هذا الأخير للرّأي العام، وكذلك عالجت أخبار العرب بصفة عامّة، وذلك لخلق التّواصل معهم وفتح التّحالفات معهم، إضافة إلى أخبار شعوب العالم بصفة أعمّ، لمعرفة الأحداث والاستفادة من تجاربهم.

ولكنّ الموضوع الوحيد الّذي لم تتطرّق له الجريدة هو موضوع اللّغة العربيّة، فما من مقالات تمسّ اللّغة العربيّة، كالنّحو والصّرف، وفقه اللّغة، إضافة إلى

الأخطاء النّحويّة والإملائيّة المنتشرة بها مثل (نضيف، لا يقرؤون، الظروف، والمتنوّرين يراعون، النظافة) كما أنّها تتعامل في كثير من الأحيان بالدّارجة العربيّة والفرنسيّة مثل (هاته، العقائد، الخدام الجزائري، المير، لا ديبيش).

خاتمة:

أحدثت جريدة المنتقد ضجّة كبيرة بسبب آرائها الجريئة، وانتقاداتها اللّاذعة، فلم تترك أحدا من الشّعب الجزائريّ، مواطنا كان أو متجنّسا بالجنسيّة الفرنسيّة، وحتّى المستوطنين الفرنسيّين كما أنّها لم توفّر أحدا من أصحاب المراكز والمقامات، كالرّؤساء ومجالس البلديّة، القضاة والعمّال الأدباء ورجال الدّين، وغيرهم ممّن يسعى لأذيّة الجزائر ومقوّماتها، ولقد كانت ذكيّة في تعاملها مع الحكومة الفرنسيّة الّتي فرضت الرّقابة عليها، فكانت الجريدة تعلن شكليّا أنّها تصدر بمساعدة الحكومة الفرنسيّة، لكنّها في نفس الوقت كانت تنتقدها وتتنكّر لقراراتها المجحفة في حقّ الشّعب الجزائريّ وتندّد بسياستها العدوانيّة الّتي تدّعي تمدين الجزائر وخدمتها، ولّما شكّلت الخطر عليها قامت بإيقاف إصدارها.

صحيح أنّ جريدة المنتقد أصدرت قبل تأسيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، ولكنّها من تأسيس رئيس الجمعيّة عبد الحميد بن باديس، وبالرّغم من كونها مبتدئة وصغير الحجم، إلّا أنّها كانت موسوعة من الأخبار في مختلف مجالات الحياة، وما يؤخذ عليها أنّها لم تهتمّ باللّغة العربيّة كمجال علميّ، وكمقوّم من مقوّمات الجزائر، فكانت تكتب بالعربيّة ولكن لم تكتب عنها.

مقام اللّغة العربيّة عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين من خلال جريدة البصائر الجديدة (سلسلة عام 2014م أنموذجا).

أ. وردية قلاز
جامعة تيزي- وزو

مقدمة:

تُعرف جمعية العلماء المسلمين بأنّها جمعية دينيّة ذات طابع ثقافيّ، فكريّ وسياسيّ أدّت دورا بارزا في الحفاظ على عروبة الجزائر ولغتها، وقامت على إعادة فعاليّة الحضارة للّغة العربيّة؛ لتصبح هذه الأخيرة الأداة الأساسيّة في التّفكير، والكتابة، والخطابة، والتّواصل بين الأجيال والتّي بدت واضحة في حركة التّربيّة والتّعليم؛ مما كان لهذه الحركة أثر فعّال في إعادة مجد اللّغة العربيّة كونها الرّكن الثّاني من أركان الشّخصية الجزائرية التّي تكفّلت الجمعية بإحيائها وحمايتها ولكونها الرّباط الوثيق الذّي يربط الشّعب الجزائري بدينه، وتاريخه، وثقافته، كما يربطه بأجزاء الوطن العربي المختلفة، وتعدّ الجمعيّة من الّذين ربطت الجزائر باللّغة العربيّة؛ سعياً لربطها بأصول حضارية عريقة، وإيصالها لمستقبل أفضل، ولقد استبشر البشير الإبراهيمي بما ستحقّقه هذه الجمعية مستقبلا بقوله: "إنّ جمعية العلماء هي تباشير الصّبح وسترونها تتصدّع عن فجر صادق ثمّ عن شمس مشرقة" فالعالم اليوم يتسيّد العلم، والثّقافة في إطار ما تحمله العولمة، ويتميز بسيادة نزعة التّجديد المستمر في جميع مظاهر الحياة؛ لتبقى علاقة المسلمين بالعولمة راجعة لصراع واحتكاك

وتفاعل مستمر أيضا؛ لأن العولمة وأدواتها المتعدّدة لها تأثير بالغ على اللّغة كونها المستهدفة وأتباعها مستهدفون. علما أنّ أمل الجمعية لم يُفقد بعد، فقد جاء نور وصدق رجالها النّابع من علمائها؛ لتبقى **جريدة البصائر الجديدة** بأرقامها المتطوّرة في الصّدور، بروح عصريّة في مرحلة ما بعد الاستقلال؛ لتداوم بها في نشر اللّغة العربيّة والدّفاع عنها بين أبناء وبنات الجزائر على نطاق واسع، ولتقول بأن نجم اللّغة العربيّة لم يأفل بعد، فالعنوان كما نلاحظ بحدّ ذاته يحمل دلالة عميقة ويحيل للاستمرارية كما يحمل طموح وأفكار عصريّة عالجتها خدمةً للّغة العربيّة؛ لذلك سنحاول تحليل أعداد عام 2014م للكشف عن مكانة اللّغة العربيّة فيها، ومجموع اهتماماتها المنصبّة حول القضايا اللّغويّة.

تظهر أهميّة كتابة اللّغة وكل ما يعنيها السّبيل الوحيد للحفاظ على الميراث اللّغوي لأي شعب من الشّعوب، وكذا الثّقافي والفكري منه الّذي يعتبر إرثا معنويا أكثر منه ماديا غاية الوقوف في وجه تحدّيات العولمة الّتي تهدف لطمس وإلغاء الشّخصيّة والهويّة الوطنيّة للدّول المتخلّفة، وهي كوجه جديد عصري للاستعمار الغربي الّذي يستهدف الهيمنة على الثّقافة، واللّغة ومختلف الإنجازات الحضاريّة للشّعوب، فإن كانت هذه الهيمنة لا تتّخذ شكل المواجهة المباشرة فإنّها ستمثّل بالضّرورة نوعًا من الزّحف الحضاري والسّلمي الغير مباشر؛ ليبقى التّمسك بمثل هذه الإنجازات كخطوة جادة في الوقوف والتّصدي للتّحدي للعولمة، ففي الجزائر وبالرّغم من مرور مدّة طويلة على إنشاء **جريدة البصائر**، إلا أنّها لازالت حتى اليوم لسان حال جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، ومفخرة من مفاخر إصدارات الجمعيّة؛ وهذا ما يدل على أهمية صدور هذه الجريدة في عصرنا الحالي؛ حيث أضحت أكثر ضرورة من أجل إطلاع الشّباب وحثّه على حقائق وأحداث بكل صدق وموضوعيّة، وجعله يواجه ما حوله من تطور مذهل الّذي قد

يتسبب في خدش لغته، ولربما يجعله في مأزق التّصدي والمواجهة بالضّرورة الملحّة؛ لتبقى الغاية من دراسة الجريدة في عمرها الحالي هو الكشف عن الموقف الحقيقي لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين تجاه اللّغة العربيّة، والنّظرة العصريّة لها؛ من خلال تحليل محتواها الإعلامي.

من هذا المنطلق نروم الإجابة عن الإشكال التّالي: إن كانت **جريدة البصائر القديمة** تحمل في صدر صفحتها الأولى العروبة والإسلام وذلك بتقديم لفظ العروبة على لفظ الإسلام باعتبار اللّغة العربيّة هي لغة القرآن الكريم، ومن ثم فهي لغة الإسلام **فما الذّي تحمله هذه الجريدة في سلسلتها الجديدة بخصوص مقام اللّغة العربيّة؟ أو كيف هو محتوى مضامين جريدة البصائر الجديدة تجاه اللّغة العربيّة؟**

1- جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين واللّغة العربيّة:

كانت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين من أهم المؤسّسات الوطنيّة في مرحلة المقاومة والثّورة ضد المستعمر نظرا لما قامت به من مشاريع في ميادين كثيرة منها الثّقافيّة، والدّينيّة والاجتماعية، والسّياسيّة، ولاسيما ما ناضلت من أجله في الدّفاع عن الوطنيّة للشّعب الجزائري، فكانت ولازالت تعيش بمددها الفكري والأخلاقي والتّربوي في أذهان الجزائريين منذ أن تأسّست عام 1931م، فحسب ما جاء في منشور جريدة البصائر القديمة العدد 160 الصادرة في 07 أفريل 1939م في تعريف لها ما يلي: "إنّ جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين جمعيّة إسلاميّة في سيرها وأعمالها، جزائريّة في مدارهاوأوضاعها علميّة في مبدئها وغايتها. أسّست لغرض شريف تستدعيه ضرورة هذا الوطن وطبيعة أهله ويستلزمه تاريخهم الممتد في القدم إلى قرون وأجيال، وهذا الغرض هو تعليم الدّين ولغة العرب الّتي هي لسانه المعبّر عن

حقائقه[1]، فهذا دليل على أنّ الجمعيّة كانت تطالب بحريّة تعليم اللّغة العربيّة. كما طالبت بحق الجزائريين في إنشاء صحافة عربيّة محضة، ومن أعلامها عبد الحميد ابن باديس؛ ذلك الرّجل الفذ والمردّد باستمرار في لسانه عبارة **الإسلام ديني والعروبة لغتي، والجزائر وطني؛** مما يظهر أنّ أوّل ما قامت به جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين التّاريخيّة ما بين 1931م و1956م؛ هو نشر اللّغة العربيّة بين أبناء وبنات الجزائر على نطاق واسع.

إنّ اللّغة العربيّة هي الرّكن الثّاني من أركان الشّخصيّة الجزائريّة الّتي تكفّلت جمعيّة العلماء المسلمين بإحيائها وحمايتها؛ كونها رباط وثيق يربط الشعب الجزائري بدينه وتاريخه، وثقافته ويربطه بكل أجزاء الوطن العربي كلّها فهي إذاً: "لغة الدّين، لغة الجنس، لغة القوميّة، ولغة الوطنيّة المغروسة؛ إنّها وحدها الرّابطة بيننا وبين ماضينا، وهي وحدها المقياس الّذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين أرواحهم بأرواحنا"[2]. لقد عرف علماء الجمعيّة الأهميّة الّتي تبرزها اللّغة العربيّة في حفظ كيان الشّعب الجزائري فرأت أنّه من الضّرورة الملحّة أن تكون اللّغة العربيّة احدى المبادئ الهامة الّتي ستحارب عنها من خلال مشروعها الإصلاحي والتّغييري؛ على أساس أنّ لغة أية أمّة هي ترجمة لأفكارها وخزانة لأسرارها والأمة الجزائريّة بدورها تؤمن بأنّ لغتها العربيّة حافظة لدينها، ومصحّحة لعقائدها، ومدوّنة لأحكامها؛ لتبقى كصلة بينها

---

[1] تركي رابح عمامره، دراسات في تاريخ الحركة الوطنيّة الجزائريّة التّربوي والثّقافي 1931م – 1962م، ط1، الجزائر: 2004م، المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، ص33.

[2] ع/ تركي رابح عمامره، الشيخ عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتّربيّة في الجزائر، ط5، الجزائر: 2001م، المؤسّسة الوطنيّة للاتصال، ص331.

وبين ربّها سبحانه وتعالى.[1] علما أنّ تطوير نفوذ أية لغة ما وزيادة أهميّتها يقتضي تكامل عوامل جغرافيّة، واقتصادية، وتجاريّة، ودينيّة، واجتماعيّة يتخطى استخدامها حدود مجتمعها الأصلي، فكذلك هو الشّأن بالنّسبة للعربيّة حيث لم تشد عن هذه السيرورة وحسب الدّارسين، وإنّما يعود ذلك لتلك الحمولة الدّينيّة القويّة؛ لتكون لها السّيادة بعد ذلك على غرار اللّهجات الأخرى. لقد كانت في وقت مضى: لغة الكتابة، والخطاب الرّسمي، والأدبيّة، والدّينيّة بها كان العرب يتعلّمون، ويحرّرون السّجلات القضائيّة، وكذا المداولات العرفيّة، بها تعقد الاتفاقيات الدّولية والصّفقات التّجاريّة، بالإضافة إلى الكتب الكثيرة والشّعر الوفير، [2] وذلك في العهد العثماني آنذاك؛ أين عرفت العربيّة الحضارة، والتّطور الّذي أصبح من الصّعب تحقيقه حاليا.

قضى أعلام جمعيّة العلماء شطرا كبيرا من حياتهم، وركزوا على جزء عظيم من نشاطهم في عمل جاء هادفًا لإحياء اللّغة في الجزائر ونشرها، وعلى رأس أولئكم الأعلام رأسهم العَلَمان (عبد الحميد ابن باديس) و(الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي)، فمن المواد الدّراسيّة الّتي ركزا عليها في التّدريس نجد اللّغة العربيّة بفنونها من نحو، وصرف، وبيان، وبلاغة، وعروض، والأدب العربي في جميع عصوره فقام العالمان بتمجيد هذه اللّغة، وعروبة الجزائر؛ ليقول عبد الحميد ابن باديس في ذلك: "إنّ عروبة الجزائر عروبة تاريخ وحضارة لها أيامها المجيدة، ودولها العريقة، ولن يقوم أمر الوطن

---

[1] ينظر: البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، دط، القاهرة: 1963م، دار المعرفة، ص310.

[2] ينظر: فريج حاجي، السّياسة الثّقافيّة الفرنسيّة في الجزائر المنطق، السيرورة، المآل (1837م-1937م)، ط1، الجزائر: 2013م، دار الخلدونيّة، ص288، 279.

الجزائري إلا بها".[1] أما عن العلامة البشير الإبراهيمي فخُطبه حافلة بالإنشاد باللّغة العربيّة ليقول: "أمامكم اللّغة وعلومها وآدابها فابحثوا ونقبوا واحدوا ركابها واطربوا واسعوا، لبيان فضلها سعيكم لتعليمها، واشربوا قلوب أولاد هذه الأمة: إنّه ما غرّد بلبل بغير حنجرته"[2]؛ يعني هذا أنّ اللّغة تتطّور بناطقيها لا بغيرها، وذلك بالبحث والتّنقيب فيها، وفي خطاب آخر ألقاه باجتماع مع أعضاء الجمعيّة يقول فيه: "قامت اللّغة العربيّة في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه اللّغة، ونظمها الاجتماعية، وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرّياضيات بجميع أصنافها، والطّب، والهندسة، والآداب، والاجتماع وهذه هي العلوم الّتي تقوم عليها الحضارة العقليّة في الأمم الغابرة والحاضرة"[3]. هكذا إذن يجيد الإبراهيمي في خطاباته المختلفة بكنوز هذه اللّغة الّتي تعجز أيّة لغة من لغات العالم عن إحضار ثروة مصطلحاتها الفنيّة علما أنّ أيّة نهضة ثقافيّة لابد وأن تركّز على أوّل عنصر هو اللّغة والعربيّة في طليعة القيم الّتي تواجه اليوم هجمات شرسة متعدّدة المصادر، مختلفة الوسائل، وموحّدة الغايات، وهي تلك الّتي تشنّها عدّة صحف اجنبيّة اللّسان ضد أمة كالجزائر بعد أن سلمت ولم يقو على ابتلاعها الوحش الاستعماري طوال قرن وربع قرن من الاستبداد. سلمت من أحلك عهود الاحتلال والتّنصير والتّجنيس في الماضي البعيد. هذا من جهة، ولكن من جهة أخرى للجزائر فضل يذكر ويشكر على حد قول أحد أعضاء الجمعيّة الّذي يعد من الكتاب الدّائمين في جريدة البصائر والمساهم بفاعليّة في تجديد

---

[1] بسام العسلي، عبد الحميد ابن باديس وبناء قاعدة الثّورة الجزائريّة، ط2، دب: 1983م، دار النّفائس ص131.

[2] محمد البشير الإبراهيمي، "إلى كُتاب البصائر" ضمن كتاب (آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي)، ط1 الجزائر: 1987م، ج1، الشركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، ص150.

[3] نفسه، ص261.

نشاطها عام 1991م، هو **الشيخ عبد الرّحمن شيبان،** وذلك في جعل اللّغة العربيّة لغة رسميّة تحتل المرتبة الخامسة في اليونسكو في دورتها العشرين بباريس سنة 1966م بتعاون فعال مع الدّول الشقيقة والصديقة.[1] تبقى العربيّة لغة القرآن، لغة خاتم الأنبياء، لغة العلم والحضارة. يقول الرّسول ﷺ في العربيّة "ليست العربيّة بأحدكم من أب ولا أم، وإنّما هي اللّسان فمن تكلّم العربيّة فهو عربيّ" (أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق، ج24 ص225). تمثّل الفكر الثّقافي، والدّيني الّذي حملته الجمعيّة في ثلاث: **الجزائر عربيّة الهويّة عربيّة اللّسان، اسلاميّة العقيدة.**

2-مكانة العمل الصّحافي عند جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين:

ارتبطت الصّحافة بالدّرجة الأولى بأشكالها المختلفة بحياة المجتمع، وذلك عن طريق تسجيل نشاطاته المختلفة أمر يجعلها كذاكرة الأيام في تقييد الأحداث وتحفّظها، وهذا ما يظهر على صفحات الجرائد في العصر الحديث. كما ارتبطت بالتّعبير عن الآراء في نشرها للتّعليقات والبيانات، ولتكون كلسان حال تعبّر عن الأفكار الإيديولوجيّة، ومنبرا لعرض الأفكار، والتّصريح بالمواقف تجاه قضايا الأمم والشّعوب لذا لم تجد جمعيّة العلماء المسلمين سوى الإبقاء على جريدة البصائر الأسبوعيّة الجديدة؛ لتظهر بأعداد متتاليّة على لسانها كمنبر تعبّر به عن آرائها، وأفكارها، وتصوّراتها بالإضافة إلى متابعة، وتغطيّة الأخبار وشؤون البلاد، والمقومات الأساسيّة في الحفاظ على الهويّة، وبالخصوص ما يتعلّق بلغتنا العربيّة؛ لذا عند دراسة **جريدة البصائر** نجد أنفسنا أمام بعدين أساسيين هامين جدا في العصر الحالي وهما: **الإعلام واللّغة،** وكلاهما وسيلتان اتصاليتان حيث تعتبر الجريدة وسيلة

---

[1] ينظر: الشيخ عبد الرحمن شيبان، حقائق وأباطيل، ط2، الجزائر: 2009م، منشورات ثالة الأبيار، ص135.

اتصاليّة إعلاميّة جماهيريّة، واللّغة كأداة التّواصل بين الأجيال، وتشكل الجرائد المصدر الرّئيسي، والمخزّن الّذي لا ينضب أبدا للمعلومات في الدّراسات بما فيها الدّراسات اللّغويّة. أدركت الجمعيّة دور الصّحافة المتميّز في نشر مبادئها وأفكارها والدّفاع عنها ليشير عبد الحميد ابن باديس لذلك بقوله "إنّ عالم الصّحافة عالم عظيم"[1]. في موضع آخر قال بأنّ دخول الجمعيّة لعالم الصِّحافة كان شعورا بالمسؤوليّة الملقاة على العلماء لأجل ذلك سعت لأن تكون لها دائما صحيفة ناطقة باسمها واستعملت الصّحافة لتكون همزة وصل بين قادة الأمة وجماهير الشّعب، وأرادتها أن تكون كوسيلة أساسيّة في نشر قوانينها، ولوائحها الخاصة بشعبها ومعاهدها، ووجهة نظرها لتصبح الصّحائف والجرائد سجلا حافلا بأعمالها، وكذا مختلف التّشكلات السّياسيّة والمنظّمات الوطنيّة، [2] ومع الموضوعات العصريّة الّتي تحملها السّلسلة الجديدة من البصائر سنرى ما تحمله كموضوعات لغويّة علّها تخدم العربيّة بالدّرجة الأولى.

3-جريدة البصائر في سلسلتها الجديدة (من العدد 687 إلى 735):

إنّ جريدة البصائر هي لسان حال جمعيّة العلماء المسلمين، ومعنى هذا أنّ مبدأ الجريدة هو مبدأ الجمعيّة، ومبدأ الجمعيّة وإن تعدّدت مناحيه يرجع إلى كلمتين ذاتيْ مدلول واسع وهما: **العلم والدّين**، ولهذه الجمعيّة وجرائدها حكمة هو مجليها لوقتها، فقد كانت أسماء جرائدها رموزا لأطوارها يقول الشيخ محمد الإبراهيمي: "ونحمد اللّه الّذي ألهمنا تسمية هذه الجريدة بالبصائر فقد تجلّت على النّاس في وقت انقشعت فيه سحب الرّين والشّكوك عن

---

[1] ع/ عبد الكريم بو الصفصاف، جمعيّة العلماء المسلمين وعلاقاتها بالحركات الجزائريّة الأخرى، بحث ماجستير، جامعة قسنطينة: 1983م، ص185.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص185.

البصائر، وأيقن الناس إلا قليلا منهم إنّ ما تدعو إليه الجمعيّة من علم ودين حق لاريب فيه، وستكون **البصائر** البرهان القائم على استبصار الجمعيّة فيما تدعو إليه من الإصلاح الدّيني والعلمي، وعلى استبصار الأمة فيما تدعي إليه منهما."[1] هي إذن احدى الألسنة الأربعة للجمعيّة الّتي كانت تفيض بالحكمة الإلهيّة المستمدة من كلام اللّه والرّسول وهي: السّنة الشريعة، والصّراط، والبصائر.

أ- مفهوم الجريدة:

هي نشرة مطبوعة تُصدر يوميا تشمل موضوعات متنوّعة أهمها الأخبار وفي مقدّمتها الأخبار الّتي يراعى فيها السّبق الصّحفي، والوقوف على آخر الأنباء إلى جانب الموضوعات المتغيّرة والأبواب الثّابتة، ولكن قد تتوسّع في المعنى؛ ليقصد بها المجلة الأسبوعيّة أو أيّة دوريّة تقدّم تقريرا عن الأحداث.[2] كما تعرف بأنّها "أحسن تعبير لظاهرة الثّقافة المعاصرة إذ يمكن تصنيفها في إطار العمليّة الثّقافيّة على أنّها نشاط معرفي قائم بذاته محصّن بشخصيّة إيديولوجيّة تدعّمها مفاهيم قويّة ومعرفة علميّة وخبرة تجريبيّة وفنيّة. إنّها نشاط معرفي خاص بالاتصال الجماهيري الّذي يحدث إلى نوع خاص الرّجة داخل وسائل الإعلام الجماهيريّة والاستمراريّة، على أنّه لا يمكن فهم الصّحافة خارج علاقاتها بالمجتمع المجدّد، وبنيته الاجتماعية في مرحلة معيّنة من تطوّره."[3] تبقى الجريدة أشيع الألفاظ الدالة على الصّحيفة في اللّغة العربيّة وأوّل من أطلق مصطلح الجريدة كونه مصطلحًا أكثر تحديدا

---

[1] الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، "إلى كُتاب البصائر"، ص148.

[2] ينظر: محمد منير حجاب، المعجم الإعلامي، ط1، القاهرة: 2004م، دار الفكر للنّشر والتّوزيع، ص197.

[3] عزّة عجان، منهو الصّحفي؟ دط، الجزائر: 2006م، دن، ص11، 12.

هو (أحمد فارس الشدياق) للدّلالة على النّشرة المعروفة باسم الصّحيفة.[1] بعدما تطرّقنا لمفهوم الجريدة بصفة عامة سننتقل للتّعريف بجريدة البصائر الّتي هي موضوع بحثنا.

ب- مفهوم جريدة البصائر:

▪**لغة:** جمع بصيرة، وهي قوة الإدراك والفطنة، نظرا نافذا إلى خفايا الأمور.[2] تبقى كلمة بصيرة على وزن فعيلة الّتي هي صيغة المبالغة الدّالة على كثرة التّبصر.

▪**اصطلاحا:** جريدة البصائر لسان حال جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين هي الصّحيفة الرّابعة في الظّهور بعد تعطيل كل من: السّنة، الشريعة، الصّراط، ظهر أوّل عدد منها بتاريخ: 27 ديسمبر1935م صاحب تحريرها في ذلك الوقت هو(الشيخ الطيب العقبي) وصاحب امتيازها هو(الشيخ خير الدّين). توقفت في مرحلتها الأولى هذه عن الصّدور في 25 أوت 1939م بأمر من إدارة الجمعيّة بسبب ظروف الحرب العالميّة الثانيّة. تجدّد ظهورها في سلسلة ثانية ما بين (1947م-1956م) بعد خروج الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس الجمعيّة من السّجن وعودته إلى النّشاط؛ ليصدر العدد الأوّل منها في 25 جويلية 1947م، ولتتوقف بعد صدور العدد 361 بتاريخ 6 أفريل عام 1956م.[3] هكذا تعود البصائر من جديد في مرحلة ما بعد الاستقلال، ولتصمد بعدما عرفت تذبذبا في مرحلة الاستعمار، ومن خلال معاينتنا للسّلسلة الجديدة وجدنا بأن صفحاتها مليئة بتلك المواضيع المتعلقة

---

[1] ينظر: عبد الرّحيم غالب، مئة عام من تاريخ الصّحافة لسان الحال، ط1، بيروت: 1988م، جروب برس ص12.

[2] أنطوان نعمة وآخرون، المنجد في اللّغة العربيّة المعاصرة، ط2، بيروت: 2002م، دار المشرق، ص96.

[3] محمد خير الدّين، مذكّرات، دط، الجزائر: 1985م، ج1، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، ص297.

بما يخدم العربيّة والحياة المعاصرة، ولازالت هذه الأخيرة ترفع لواء الدّفاع عن اللّغة العربيّة، والمشاكل العالقة بها بالدّعوة إلى العناية بها نطقا، وكتابة وحمايتها من الاندثار الّذي تستهدفه العولمة، ثمّ السّعي بوجوب استعمالها في شتى مناحي الحياة.

ج- التّعريف بسلسلة البصائر الجديدة: تبلغ سلسلة البصائر لعام 2014م 49 عددًا، والممتدة من العدد 687 إلى العدد 735، فهي جريدة أسبوعيّة؛ لكن ما نلاحظه في هذه السّلسلة أنّ هناك تذبذبًا بسيطًا في عدد الجرائد الصّادرة كل شهر بحيث صدرت في شهر جانفي ثلاثة أعداد بدلا من أربعة أعداد، وفي شهري ماي ونوفمبر صدرت فيهما خمسة أعداد، أما باقي شهور السّنة فصدرت فيها أربعة أعداد في كل شهر. عدد صفحات كل جريدة 24 صفحة، صدرت الجريدة الأولى في 19جانفي 2014م، وكانت الجريدة الأخيرة في 28 ديسمبر 2014م.

تُفتتح الجريدة في صفحتها الأولى بقلم الرّئيس الحالي لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين الأستاذ الدّكتور (عبد الرّزاق قسوم) المتأثّر كثيرا بلغة العلامة الإبراهيمي، تحوي الافتتاحية على عناوين رئيسيّة مكتوبة بخط بارز ومختصرات لما هو مفصّل فيه داخل صفحات الجريدة. كما تحوي على تّسمية الجريدة **البصائر لسان حال جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين** مرفوقة بالآية الكريمة بعد بسم اللّه الرّحمن الرّحيم ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾الجاثية: 20. إنّ هذه الآية القرآنيّة تحمل معنى بوزن ثقيل، فجمع بصيرة أي ما نبصر به، والعين الّتي هي وسيلة الإبصار نستطيع بها إدراك أعلى المستويات، وأدق الحالات، فالإنسان لا يرى شيئا من دون نور، والعقل كالعين، والعقل الرّاجح والمتفوّق لا يرى الحقيقة إلا إذا كان مهتديا

بنور اللّه سبحانه وتعالى.[1] استنادا للآية الكريمة، هذا ما أرادته الجمعية من تأليفها لجريدة البصائر أن تكون كوسيلة يبصر بها القارئ مختلف مجريات الأحداث، نجد أيضا في الصّفحة الأولى رمز وشعار الجمعية: **الإسلام ديننا، والعربيّة لغتنا، والجزائر وطننا**، ولم تخل الصّفحة من أوّل تاريخ تأسيس الجمعيّة في: 27 ديسمبر 1935 من موضوع في إطار أحمر، بعدها يليه تاريخ صدور الجريدة وعددها والموقع، والبريد الإلكترونيين.

أما الصّفحة الثّانية تقدم للقارئ الهيئة المسؤولة على إصدار الجريدة من المدير المسؤول عن النّشر ونائبه، والسكرتير، والمستشار، والمدير التّقني مع هاتف وفاكس الإدارة، والمسؤولين عن التّوزيع شرق، وسط، غرب الجزائر. تعالج الجريدة في متنها أمورًا عديدة، فالأمور الدّينيّة والفقهيّة بالدّرجة الأولى يليها الحديث عن الأعلام الأجلاء الّذين كرّسوا حياتهم لخدمة الجريدة والمؤسّسين الفعليين للجمعيّة، وما قدّموه لخدمة الوطن وما تركوه من مؤلّفات منهم: عبد الحميد ابن باديس الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، مبارك الميلي، أحمد حماني، الطيّب العقبي عبدالرّحمن شيبان...الخ، وهم كثر، وتعالج أيضا الأمور السّياسيّة العالقة بالبلاد، وقضايا معاصرة؛ لإثراء النقاش، وتبادل الآراء ووجهات النّظر، وكل ما يحدث في البلاد حاليا من شأنها أن تمس بالهوّية الوطنيّة ومقوّماتها، كقضيّة غرداية مثلا كثيرا ما أوردتها في صفحاتها، وما يحدث في البلدان العربيّة المجاورة من صراعات في كل من فلسطين، مصر، سوريا، ليبيا...الخ. عالجت الجريدة إذن قضايا متعدّدة ومستهدفة يظهر لنا ذلك من خلال عناوين الصّفحات المختلفة من صفحة

---

[1] ينظر: محمد راتب النابلسي، التفسير المطول - سورة الجاثية 045 – الدرس (5-8): تفسير الآيات 20، 22 بتاريخ: 30-09-1994، عن الموقع الإلكتروني: http://www.google.dz بيوم: 02-08-2014م، ص1.

لأخرى هي: محطات، وراء الأحداث، مراصد، متابعات، قضايا وآراء، أفكار، اقتصاد وتنميّة، في الصّميم ملف، أعلام، عالم الكتب، عالم الأسرة، رياض القراء، العالم الإسلامي، الحديقة الأدبيّة، في رحاب الشّريعة، محاضرات، من نشاط الشّعب، أما الصّفحتان ما قبل الصّفحة الأخيرة مخصّصة عادة للإعلانات والاشهارات والبيانات الّتي تخص الجمعيّة، والدّورات التّكوينيّة الّتي تقوم بها، ومختلف النّدوات واللّقاءات الّتي تقوم بها. أما الصّفحة الأخيرة للجريدة تختتم بدعاء العدد، فيها تكرار للعنوان والشّعار والموقع، **وكلمة حق** للدّكتور (عمار طالبي)، **وبالمختصر المفيد** بقلم (كمال أبو سنة) هكذا تنهي بنداء للسّادة الكتاب والمفكرين للمشاركة في نشر الملحقات الشّهريّة حول مجموع القضايا المعاصرة العالقة الّتي تنتظر حلولا ومقترحات، ولتبادل الآراء والنّقاش؛ لتقترح في ذلك هيئة التّحرير محاور للدّراسة والتّحليل تخص العولمة بالدّرجة الأولى؛ لتطمح بذلك لتوضيح الرّؤى وتجسيد مشروع النّهضة المنشودة.

د- مقام اللّغة العربيّة في سلسلة البصائر الجديدة: أغلب المواضيع المتعلّقة باللّغة العربيّة وردت في الصّفحة رقم 18 والمعنونة بـ: **الحديقة الأدبيّة** شملت هذه الصّفحة موضوعات متنوّعة ومتعدّدة بعضها أدبيّة، وأخري لغويّة من نحو وصرف، وبلاغة، وشعر وأمثال، وقصص ونصوص أدبيّة، وفوائد لغويّة، وخواطر، ومقامات، فنستطيع تقسيمها لقسمين اثنين منها ما هو رئيسي، ومنها ما هو ثانوي وهذا ما سنبيّنه فيّ التّحليل التّالي:

أوّلا: المواضيع الرّئيسيّة المتعلّقة باللّغة العربيّة في الجريدة:

1- المواضيع النّحويّة: أغلب المواضيع النّحويّة المختارة في جريدة البصائر كانت عبارة عن دروس منتقاة من المنظومة النّحويّة **لمحمد باي بلعالم رحمه اللّه**؛ بشرح من الأستاذ (محمد عبد الرحمن بسكر) وهي مواضيع حساسة

وجد هامة في اللّغة العربيّة، ولو أنها بسيطة، ويبلغ عـددها 16 درسًـا، وهـي على التّرتيب: دخول حروف الخفض، علامـات الفعـل وعلامـات الحـرف، الإعراب ومعرفة علاماته، علامات الرّفـع موضـع الرّفـع بـالواو، علامـات الرّفع موضع الرّفع بالألف، علامات الرّفع رفـع الأفعـال الخمسـة، موضـع الرّفع بالألف، علامات النّصب، نصب الأفعال الخمسة وعلامات الخفـض، علامات الجزم، الممنوع من الصّرف.[1] أما الدّروس الخمسة المتبقيّة فلم تكن ضمن منظومة محمد باي بلعالم، وهي: متى نقول الاثنان والاثنين؟ فهـل لنـا أن نقـول: اليـوم الاثنـان برفـع الاثـنين؟ وكـذا الجـوازم لفعلـين، عـن كـم الاستفهاميّة والخبريّة، الكلام الّذي لم يتضّمن فائدة جديدة هل يعتـبر كلامـا أم لا؟ التّمييز.[2] نلاحظ بأنّ المواضيع المختارة هي تلك المواضيع الّتي كـثيرا ما يخطأ فيها القارئ العربي، وكثيرا ما يسهو عنها مدرّس اللّغة العربيّة.

---

[1] ينظر: محمد عبد الرّحمان بسكر، دروس المنتقى، ضمن جريدة البصـائر الجديـدة الأعـداد مـن 687 إلى 735، الجزائر: 2014م، ص18.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص18.

2- **القصائد:** وردت حوالي 28 قصيدة في سلسلة البصائر لعام 2014م وسنورد البعض منها في الجدول التّالي:[1]

عنوان القصيدة	صاحب القصيدة
- قصيدة همزيّة في مدح خير البريّة	- لأحمد شوقي
- اللّغة الشهيدة أو حين عاد عبد الحميد	- بدر السلام موفق
- أنين غرداية (لغز وحيرة)	- حاج عيسى حاج صالح
- أنت البشير (كُتبت في مدح الإبراهيمي وجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين)	- بدر الزّمان بوضياف - أحمد مطر
- قصيدة الغريب	- لمحمود درويش
- صلاة أخيرة	- عبد الملك بومنجل
- طاب لكم الرّحيل	- محمود درويش
- متى يستيقظ الرّجال	- بقلم محمد جربوعة
- غزّة أم الدّنيا	- محمّد جربوعة
- شذرة من قصيد	- عبد الكريم ابن طاح قدي
- عذرا فلسطين	- نزار قباني
- الحاكم والعصفور	- حافظ إبراهيم
- كم مربّي فيك عيش لست أذكره	- مفدي زكريا
- اقرأ كتابك	- أبو القاسم الشّابي
- في اللّيل ناديت الكواكب ساخطا	- للمتنبي
- أبلغ عزيزا	

[1] ينظر: المرجع نفسه، ص 18.

تنوعت القصائد الواردة في الجريدة، والّتي تنتمي لعصور متنّوعة، والكثير منها عصريّة، منها ما هو في شكل شعر حر مثل: الغريب، صلاة أخيرة، متى يستيقظ الرّجال...الخ، ومنها ما هو عمودي مثل: إلى عقرب، أنين غرداية، طاب لكم الرّحيل...الخ، فهذا دليل على روعة المزج بين ما هو من التّراث باستحضار الجديد وفي نفس الوقت تنوّع بين الفنون الأدبيّة من هجاء، مدح رثاء وصف، فخر...الخ.

3- **المقالات النّقديّة:** حاولت الجريدة أن تنمي الرّوح النّقديّة للقارئ العربي من خلال المقالات النّقديّة الّتي طرحتها، والّتي يبلغ عددها حوالي 23 مقالا وهي:[1]

عنوان المقال	صاحبه	الإشكال النّقدي
- أسطورة الأدب الرّفيع	ياسر حارب	عبارة: (أصغر نقد كافي)، فكلمة كافي يريدها النّحويون أن تكتب كاف بدلا من كافي؛ للحفاظ على جمال اللّغة.
- الخصومة بين الطّائيين ومفهوم التّصوير الشّعري عند العرب.	وحيد الصّبحي كبّابة	في نشوء قضية السّرقات في النّقد الأدبي.
- القصيدة والأداء	فاروق مواسي	الاهتمام بالإلقاء، والأداء الشّعري والابتعاد عن الرّتابة، والصّوت النّاعس والأخطاء.
- الكتابة العربيّة والحروف اللاتينية (في جزأين).	الأمير شكيب أرسلان	أوّل من وضع الكتابة في العالم هم عرب اليمن، والحروف اللاتينيّة لا تصلح للّغة العربيّة.

[1] ينظر: المرجع نفسه، ص 18.

إنّ المقالات كثيرة لا نستطيع التّفصيل فيها كاملة؛ لذا نكتفي بذكرها وهي: صلة الموصول بعد الاسم الموصول فتتم معناه ولا محل لها من الإعراب، ذكرى الإسراء والمعراج في ذاكرة أحمد شوقي، مكانة النّقد وثارات الشّعر في جزأين، محمود سامي البارودي.. شاعر السّيف والقلم. وشاعر العرب الأكبر، شعراء المهجر وتجديد الشعر العربي لجبران خليل جبران في جزأين، حافظ الشيرازي وشعر الحكمة، نشأة النّحو العربي في ضوء كتاب سيبويه في ثلاثة أجزاء، القياس على ما لابد من تأويله بخلاف الظاهر، المباحث البلاغيّة في مفتاح العلوم للسّكاكي تأصيل وتقييم في جزأين، في العلاقة بين السّرقة الشّعريّة والتّناص، بين اللّغة العربيّة ولغة الإغريق، مفهوم الأدب الإسلامي، من أسرار السّياسة واللّغة. تعدّدت مواضيع المقالات النّقديّة المتناولة في الجريدة من نحو وصرف وأدب، وبلاغة؛ هذا دليل على أنّ الجريدة تحاول أن تعالج اللّغة العربيّة في جميع فنونها.

4- **النّصوص الأدبيّة:** حوت السّلسلة على حوالي 29 نصا أدبيا وهي متنوّعة منها: شهادة معلم بسيط في شاعر بحر بل محيط، اللّغات الإنسانية ومسألة التّوقيف، أيّتها اللّغة، الشيخ الإبراهيمي. اللّغة العربيّة والشّعر، الخليل ابن أحمد الفراهيدي من أئمة اللّغة والأدب، وداعا بلقاسم بن عبد اللّه، اكتساب الأدب من أهم فوائد التّعلم على المشايخ...الخ[1] تراوحت النّصوص بين ذكرى وفاة الأعلام والشّخصيات البارزة الّتي كثيرا ما خدمت اللّغة العربيّة، ونصوص أخرى عبارة عن نداءات للغة، وكذا كيفية تعلّمها والاستثمار بها.

5- **فقه العربيّة:** بلغت مجموع المقالات الفقهيّة 28 مقالا، وهي متنوّعة كذلك منها: التّمكين فصل في اللّفظ يطلق والمراد به غير ظاهره (الكناية

[1] ينظر: المرجع نفسه، ص 18.

والمجاز)، النّحو العربي وأبعاده الحضاريّة. الخطاب البلاغي عند حازم القرطاجني وماهية العمل الأدبي، الإعجاز في نغم القرآن، وضع المظهر في موضع المضمر، الجملة القرآنية وصياغتها، فضل القرآن على اللّغة العربيّة، صيغة منتهى الجموع، نصب المضارع بأن المضمرة، المستثنى، المعلّقات السّبع بين الحقيقة والأسطورة الفرق بين الإذلال والإهانة، العدد وقواعد اللّغة العربيّة، المصدر الصّناعي...الخ[1] توسّعت الجريدة كي تعالج الكثير من المواضيع المختلفة من الناحية الفقهيّة لكن أغلبها نحويّة لعل ما يفسر ذلك هو أهميّة مادة النّحو العربي، فمن أحسن مادة النّحو قد سلمت لغته بعدها تليها المواضيع المتعلّقة بالقرآن في مرتبة ثانيّة على أساس أنّ من فقه في الدّين كان فقيها في اللّغة العربيّة.

6- **البلاغة**: إنّ مجموع الدّروس المختصة بمادة البلاغة المعالجة في جريدة البصائر قليلة مقارنة بالمواضيع الأخرى بلغ عددها تسعة دروس؛ لكن تبقى مهمّة ومثيرة للنّقاش بين الكتّاب والمفكرين والمتمثّلة في: (التّفويق) يعني إتيان المتكلم بمجموع المعاني المتعدّدة من مدح، غزل وغير ذلك من الفنون والأغراض كل فن في جملة من الكلام منفصلة عن أختها مع تساوي الجملة في الوزن. وموضوع البلاغة فنون، في عطف الجمل على الجمل، من روائع الكناية في القرآن الكريم، الفرق بين كلام فصيح وكلام بليغ، لطائف بلاغيّة عاليّة في آية الكرسي، التّوريّة، التّشبيه المقلوب، في رحاب البلاغة.[2] تلك إذن هي المواضيع البلاغيّة المطروحة للنّقاش في الجريدة، فمن أحسنها كان فصيح اللّسان.

---

[1] ينظر: المرجع نفسه، ص 18.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 18.

7- **الأمثال**: أطلعتنا جرائد البصائر الجديدة لعام 2014م على مجموعة من الأمثال عددها عشرين مثلا معظمها متداولة في الميدان منها:[1]

المثل	مضربه
-جزاء سنمار؛	يضرب على من يقابل الحسنة بالسّيّئة.
-فيها لمن يبتغي التّبيان تبيان وراء الأكمة ما وراءها؛	يضرب للدّلالة على الأمور المختفيّة.
-جعلت لي الحابل مثل النابل؛	يضرب للمخلط بمثله.
-خالف تذكر أو خالف تعرف؛	يضرب في فعل غرض ما فسيّان لا ذم عليك، ولا حمد.
-الأعمى والجرّة؛	يضرب على من يخدم ليلا ونهارا.
-رجع بخفيْ حُنين؛	يضرب عند اليأس من الحاجة والرّجوع بالخيبة.
-الممنوع مرغوب	يضرب على الشيء الّذي يمنع على الإنسان وهو أشد حرصا عليه ورغبة فيه.
-مواعيد عرقوب.	-يضرب في من يخلف الوعود.

نكتفي بهذه الأمثلة لقد احتلت الأمثال مكانة معتبرة في الجريدة، فكانت مصحوبة بقصصها والمضرب الّذي تقال فيه.

8- **القصص**: لم تخل الجريدة من مجموع القصص الطريفة الّتي تسلي القارئ العربي، وتجعله لا يمل من مطالعة الجريدة؛ ذلك يزيد أيضا في التّشويق في مطالعة الأعداد التّالية، فوردت في صفحة الحديقة الأدبيّة 21

[1] ينظر: المرجع نفسه، ص18.

قصة قصيرة؛ لكل واحدة منها عبرة للقارئ، وتدخل في ميدان العلم ومنها: قصة انشتاين وحيلة السّائق، ميْ وداروين، الفقهاء والصّلح، نوادر البخلاء، كبرياء فنان أعرابي وزوجة الخليفة...الخ، وقصص أخرى من الواقع المر مثل: المفاجأة المفجعة، براءة أرواح الهاتف الملعون...الخ.

ثانيا- المواضيع الثّانويّة:

هناك مجموعة مواضيع أخرى تناولتها الجريدة داخلة في تنميّة اللّغة العربيّة، وهي مختلفة عما سبقها منها ما هو وجهات نظر، أو فوائد لغويّة، أو خواطر، أو شعريات أو مقامات، ويبلغ عددها 26 موضوعًا، وهي قليلة في الجريدة، وسنوردها في الجدول التّالي:

وجهات نظر	خواطر	المقامات	شعريات
- طه حسين شخصيّة أسطوريّة - أشعبيات: الأكول	- في رثاء من لا يموتون - الشّهيدين - النّخوة الأدبيّة - صرخة الأقصى - اللّيل والقمر - الوزن المقترن -نصيحة الآفاق - الدّمعة والبسمة	-المقامة العكاضيّة -المقامة الوفاقيّة -المقامة الحبشيّة	- السّندباد في رحلته الثّامنة - أبيات سارت بها الرّكبان - حب المعنى - بكائيّة طلليّة مدرسيّة - السّلطان الرجيم...!! -ملحمة الوفاق النّفمبريّة

	- ظلمة المعصيّة -أم الأوطـــــان وموطن الغرباء صـــبني في المدينـــة المنوّرة		- لزوم ما لا يلزم

تبقى مجموع **الفوائد اللّغويّة**، وهي الأهم في هذه الصّـفحة؛ لكنهـا قليلـة ولربما هذا ما يسجل كنقص في هذه الجريدة والمتمثّلة في:

الفائدة اللّغويّة	**المعنى أو الصواب**
- معنى القرطبان	ما كان على أوزانه وهي كثيرة: الأبـوان (الأب والأم) القمـــــران (الشّـــــمس والقمر) الأمان (الأم والجدة)...الخ
- الخطـأ الشـائع في عبـارة: عليكم التّواجد الساعة	الصّواب: عليكم أن تكونـوا موجـودين السّاعة.
- معنى الاسم العربي أويس	اسم من أسماء الدّئب في اللّغة مـرادف دؤيب.
- معنى الاسم عثمان	فرخ الحيّة، فرخ الحبارى، وأبـو عثمـان هو الثّعبان.

يبلغ العدد الإجمالي للمواضيع المتعلّقة باللّغة العربيّة في الصّفحات 18 من هذه السّلسلة حوالي 200 موضوع وفي ما يلي تمثيل بالنّسبة المئويّة الّتي يحتلها كل موضوع.

الموضوع	العدد	النسبة المئويّة
النّحو العربي	16 موضوع	٪8
القصائد	28 قصيدة	٪14
مواضيع نقديّة	23 مقال	٪11، 5
نصوص أدبيّة	29 نص	٪14، 5
فقه العربيّة	28 مقال	٪14
البلاغة	9 دروس بلاغيّة	٪4، 5
الأمثال	20 مثل	٪10
القصص	21 قصّة	٪10، 5
المواضيع الأخرى	26 موضوع	٪13
المجموع	200 موضوع	٪100

سنمثّل للنّسب بالشّكل التّالي:

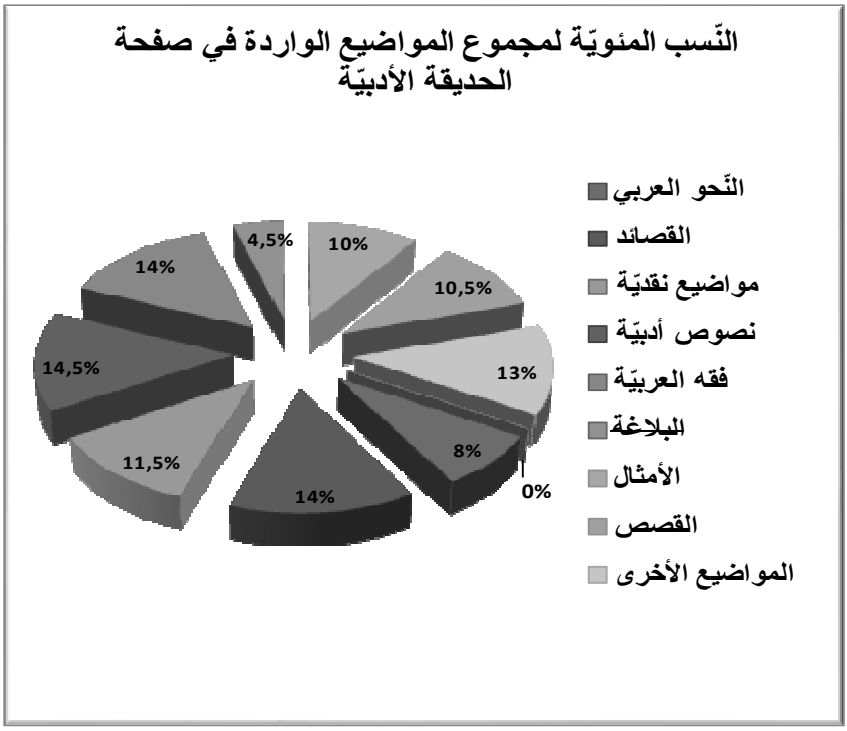

نستنتج من خلال الرّسم البياني بأنّ أكبر نسبة للمواضيع المقدّمة للقارئ في صفحة الحديقة الأدبيّة من الجريدة هي تلك المواضيع المتعلّقة بالفقه العربي، والنّصوص الأدبيّة، والقصائد، والنّقد العربي، وهذا دليل واضح على أنّ الجريدة اهتمت بالفنون الأساسيّة الّتي تنمي ذوق اللّغة العربيّة وفصاحتها، والمشكّلة لها، وفي نفس الوقت أرادت أن تلمّ بجميع هذه الفنون، وأن تعطي لها حقّها كونها مكوّنة لها، وهذا ما يبرز المكانة الّتي احتلتها اللّغة العربيّة في البصائر الجديدة فلم تخل كذلك من النّحو، والبلاغة، والأمثال، والقصص، وغيرها.

4- الرّؤية العصريّة في جريدة البصائر الجديدة اتجاه اللّغة العربيّة:

تظهر هذه الرّؤية من خلال مجموع المواضيع المتعلّقة بالمشاكل العالقة باللّغة العربيّة، والعصر الحديث، والمهددات الّتي تواجهها تجاه العولمة. نجدها في صفحات متنافرة من هذه السّلسلة رغبة منها في التّقليل والحد منها، أو لتطلع القارئ العربي عما يواجه، أو يعاني منه أبرز ركن من أركان شخصيتّه وهويّته الّتي وجب الحفاظ عليها. أو هي كمجهودات يبذلها المفكر العربي اليوم علّه يجد حلا يحد من الاستعمار الغربي الخبيث النّوايا بالقّضاء على اللّغة العربيّة، والّتي سنبرزها في ما يلي:

عنوان المقال	صاحبه والجريدة الّتي ورد فيها	الملخّص
-غربة اللّغة العربيّة في عقر دارها	دورة شعبة عين وسارة (الجريدة رقم 693، ص 20)	فيها عرج على أهم الأسباب الّتي تجعل لغتنا الجميلة في موطن غربة، وهي تعاني من كيد الأجنبي الّذي يسعى جاهدا للقضاء عليها.
-تقويم الصّياغة العربيّة للكتب المدرسيّة في المرحلة الابتدائية -تجربة الجزائر- الحلقة الأولى	عبد الملك مرتاض (ج 696، ص 21)	تحدّث عن تعليم اللّغة العربيّة في الجزائر على عهد الاستعباد الفرنسي وتعليم اللّغة العربيّة على عهد النّهضة الوطنيّة.

-الموضوع السّابق، الحلقة الثّانية	عبد الملك مرتاض(ج697، ص21)	تحدّث المقال عن تعليم اللّغة العربيّة في عهد الاستقلال.
-الموضوع السّابق، الحلقة الثّالثة	عبد الملك مرتاض(ج 698، ص21)	تحدّث فيه عن الهنات اللّغوية، والمعرفيّة في الكتاب المدرسي للمرحلة الابتدائية.
-الموضوع السّابق، الحلقة الرّابعة	عبد الملك مرتاض(ج 699، ص21)	فيه وقوف على نماذج من الهنات النّحويّة في هذا الكتاب.
-اللّغة العربيّة تواصل زحفها نحو القارة الإفريقيّة	جديد بريس(ج 698، ص5)	تحدّث المقال عن الدّول الإفريقيّة الّتي اختارت اللّغة العربيّة كلغة رسميّة إلى جانب الفرنسيّة كتشاد، جزر القمر جيبوتي.
-اللّغة والشّعر العربي في عصر العولمة	عمار طالبي (ج699، ص24)	تحدّث في هذا المقال عن اللّغة والشّعر في عصر العولمة.
-خلفيات الصّراع اللّغوي في الجزائر	رابح تركي عمامره (ج700، ص16)	تحدّث فيه عن النّخبة المفرنسة في الجزائر، وعرقلة التّعريب، وكيف هو مستقبل الجزائر في ظل هذا الصّراع؟

-اللّغة العربيّة وتحدّيات العولمة	أحمد مطلوب (ج 701، ص21)	تحدث فيه عمّا وراء العولمة من أهداف، وما خطّطت لها الرّأسماليّة العالميّة والصّهيونيّة.
-لماذا يرفضون التّعريب؟	أحمد بن محمد الضيب (ج 702، ص21)	تحدّث عن موقف التّعريب الّذي يرونه بأنّه ليس علميا.
-إضافة تقويميّة إلى مقال: "تقويم الصّياغة العربيّة للكتب المدرسيّة في المرحلة الابتدائية -تجربة الجزائر- الحلقة الأولى"الجزء الأوّل	خير الدّين هني(ج705، ص22)	تحدّث عن عوامل شيوع الأخطاء، والكيفيّة الّتي تكون بها الإصلاحات ناجعة.
-إضافة تقويميّة للمقال السّابق -الجزء الثّاني-	خير الدّين هني(ج706، ص22)	تحدّث فيه عن الجزائر الّتي تسير بالعقليّة النّرجسيّة للمسؤولين، وعن التّجديد اللّغوي، وكذا الأخطاء المصطلحيّة، والتّقنيّة، والدّيداكتيكيّة.
-إضافة تقويميّة للمقال السّابق-	خير الّدين هني(ج707، ص22)	تحدّث فيه عن الصّعوبات الّتي تواجه اللّغة العربيّة، وذلك لعدم تطوير طرائق التّدريس

الجزء الثّالث-		للمـــادة النّحويّـــة، والمنـــاداة باستعمال العاميّة.
-وضـــع اللّغـــة العربيّة في الجزائر	عبـد القـادر قيلاتـي (ج735، ص3)	تحدّث عن وضع اللّغة في الجزائر مقارنة بالأقطار العربيّة الأخرى.

إنّ ما يبيّنه الجدول هو الاهتمام الّذي أولته جريدة البصائر الجديدة تجاه اللّغة العربيّة والعصر الحديث، وبخاصة النّقاش الّظاهر بين المفكرين حول الصّياغة العربيّة في الكتب المدرسيّة في المرحلة الابتدائية تجربة الجزائر كنموذج؛ ليبقى كأحسن دليل لمكانة هذه الجريدة، ومدى أهميّتها في خدمة اللّغة العربيّة، والسّعي لحمايتها من الخدش اللّغوي الذّي أحدثه سوء الصّياغة والتّسيير. لم تكتف الجريدة بالمواضيع المطروحة للنّقاش فحسب، وإنّما وضعت في متناول القارئ مجموعة كتب متعلّقة باللّغة العربيّة من تقديم إسلام ساحلي، وأطلعت كل من لا يدري بها للمطالعة.

5-الكتب المتعلّقة باللّغة العربيّة والمقدّمة من طرف جريدة البصائر الجديدة:

قدّمت البصائر الجديدة للقارئ العربي كتبًا ومراجع للقارئ قليلة هي مقارنة بأعداد الجرائد لكنّها جد مهمّة أيضا وهي:[1]

- كتاب فتح الحي القيوم بشرح علامات الإعراب من اللّؤلؤ المنظوم في منشور ابن آجروم: إطلالة نحويّة في زمن الرّطانة اللّغويّة؛ للأستاذ عبد اللّه محمد بن عبد الرّحمن بسكر الجزائري فالكتاب عبارة عن شرح للمنظومة النّحويّة للعلامة محمّد باي بلعالم؛

---

[1] ينظر: إسلام ساحلي، عالم الكتب، ضمن سلسلة البصائر الجديدة من العدد 687 إلى 735، من تأليف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر: 2014م، ص 19.

•كتاب مواقف الإمام الإبراهيمي بعنوان: اللّغة العربيّة في عهد الاستعمار صفحات مشرقّة من الجهاد الثّقافي والعلمي ضد الهيمنة والتّعريب الفرنسي؛

•كتاب كمال اللّغة القرآنيّة بين حقائق الإعجاز وأوهام الخصوم؛ لصاحبه محمّد داود يكشف لنا فيه عمّا أثير حول القرآن الكريم من شبهات لغويّة؛

•كتاب اللّغة ومعركة الهويّة في الجزائر: لعبد القادر فضيل عضو جمعيّة العلماء المسلمين فيه حديث عن مرافعة خبير عن قضيّة التّحرر الفكري واللّغوي؛

•كتاب إلى هؤلاء الّذين أنا روالي عبقريّة لسان العرب، عبارة عن شهادة تقدير للغة الضّاد وأساتذتها المبجلين؛

•كتاب ظاهرة التّكرار في القرآن الكريم أغراض وأسرار لصاحبه مصطفى ابن جيب شريقن؛

•كتاب الهويّة العربيّة والأمن اللّغوي لعبد السلام المسدي، يعالج مسائل اللّغة العربيّة، وأمننا اللّغوي، وهي موضوعات حيويّة وآنيّة ومهمّة للإنسان العربي؛

•كتاب دلائل الإعجاز بين المعياريّة والشّعريّة لسمير بو عبد اللّه، يركز هذا الكتاب على تحليل مصطلحات اللّسانيات الحديثة، وتبيان أهميّة مساهمة العالم المسلم عبد القاهر الجرجاني في ترسيخ الدّراسات اللّسانيّة البنويّة.

تنوّعت الكتب المقدّمة من طرف الجريدة، وهي كتب لغويّة بالدّرجة الأولى مفيدة جدا؛ لذا وضعت بملخّصات علّها تساعد الباحث العربي في أبحاثه ودراساته لمن لا يدري بها، ومعظم هذه المؤلفات حديثة التّأليف، أو أنّها مواضيع تحتاج للدّراسة والتّقييم، وأعطت الجريدة في ذلك فرصة للاطلاع عليها. كما كانت الجمعيّة تفكّر دوما بالارتقاء من خلال مجموع المواضيع الّتي تقترحها في الجريدة حول قضايا متنوّعة لتبادل النّقاش بين السّادة المفكرين في ما يخص الكتابات المعاصرة وهي عبارة عن محاور دائمة

تنادي بالانخراط لإبداء الرّأي فيها: كالهويّة والانتماء في عصر العولمة، والسّيرة النّبويّة في الكتابات المعاصرة، الشّباب بين الطّموح والواقع، التّحوّل الدّيمقراطي في العالم العربي: الفرص والعوائق، هجرة الأدمغة العربيّة: التّشخيص والعلاج، ...إلخ ومواضيع أخرى كإشكاليات علّها تجد جوابا هي: كيف نرتقي بالخطاب الدّيني إلى مستوى التّحدّيات الرّاهنة؟ لماذا نحن في حاجة إلى المواطنة؟ هل تأخّر دور المثقّف في المجتمع؟ يا لها من مواضيع تحتاج لتوضيح الرّؤية، وتجسيد مشروع النّهضة المنشودة.

خاتمة:

تضمن هذا المقال جهود جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في جريدة البصائر الجديدة في الحفاظ على اللّغة العربيّة، والدّفاع عنها، وحمايتها من زحف اللّسان الأجنبي والغربي، والتّصدي في وجه العولمة؛ حيث توصلنا للنتائج التّاليّة:

– كانت فلسفة الدّفاع عن اللّغة العربيّة من طرف جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في غاية الوضوح، والإشراق، والقوة، والاعتدال، والواقعيّة الّتي تجمع بين الأصالة والمعاصرة وذلك من خلال إحياء فنون اللّغة العربيّة، ومتابعتها بالاجتهاد والتّحديث. كما اتّسمت الغاية الإعلاميّة للجريدة بالعمق والشّمول، لأجل ترسيخ اللّغة في أذهان الشّباب؛

– يحمل محتوى البصائر الجديدة صراعًا لغويًا حديثًا سببه العولمة وأثرها، والغاية من ذلك حماية مقوّم أساسي من مقوّمات الشّخصيّة والهويّة الوطنيّة؛

– تسعى الجمعيّة جاهدة بكل ما لها من قوّة في الإبقاء على العربيّة كلغة وطنيّة أولى وجعلها في مسار اللّغات الأخرى، والسّعي لإعادة التّأثيرات الإيجابيّة لها بين أهليها ومجتمعاتها العربيّة؛

– لاتزال جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين المثل الرّسمي لإعادة نهضة اللّغة العربيّة؛ لتبقى كطاقة اندفاع نحو الأهداف الحضاريّة للّغة العربيّة، وهي الّتي تأمل بكل ما في وسعها انقشاع الضّباب الّذي يحيط بلغتنا الجميلة؛

– اتّسم عمل الجريدة بالواقعيّة المطلقة لارتباطها بالواقع المجتمعي الّذي يعيشه الوطن الجزائري، وتواصلها مع أفراد المجتمع بشّكل مباشر، فتحاول بذلك تشخيص أمراضه، وأمراض لغته العربيّة بكل جدّية وإعطاء حلول مناسبة؛

– سعت الجمعيّة من خلال جريدة البصائر الجديدة إلى تغيير حالة تفكير الشّباب المثقّف وتوعيّته بالتّغيير الاجتماعي الّذي سيتحقق بالحفاظ على لغته، وأن تصحّح نظرته الخاطئة اتجاهها؛

– إنّ التّغطيّة الإعلاميّة الّتي خصّصتها من خلال صفحات الجريدة؛ لدليل واضح على اهتمامها الكبير والعميق باللّغة العربيّة؛ إذ خصّصت صفحة مستقلّة للّغة العربيّة، وحاولت فيها الإحاطة بكل فنونها، ونسبة أخرى معتبرة للكتب المتعلّقة باللّغة العربيّة في صفحة مستقلّة سمتها عالم الكتب، ومقالات متناثرة في صفحات أخرى للحديث عن المشاكل العالقة بهذه اللّغة، وكل ما يعتريها من شوائب؛

– اتّبعت الجريدة في طريقة الحديث عن اللّغة العربيّة والدّفاع عنها الاعتماد على طريقة إثارة النّقاش وتبادل الآراء وإعطاء وجهات نظر بمواضيع تخص اللّغة؛

– حاولت الجريدة مسايرة العصر إعلاميا، وذلك بتقديم مقالات عديدة ومختلفة منها مقالات فقهيّة، وأخرى نقديّة، وأخرى في شكل فوائد لغويّة، ونحويّة، وكذا لم تخل من القصائد، ووجهات نظر، وأمثال، وقصص...الخ مستعينة في ذلك بمصادر ومراجع لغويّة، وأعلام، ومفكرين من داخل وخارج الوطن كونهم قدّموا لهذه اللّغة الكثير، وذلك لتغطيّة كل ما يتعلّق بها؛

– تعتبر البصائر الجديدة سجلا حافلا بأحداث العصر، وملتقى يجمع آراء وأفكار العلماء والمفكرين؛ للمشاركة في الحفاظ على الأمن اللّغوي، وذلك بكل موضوعيّة وصدق وأمانة؛

– في الأخير ما عسانا إلاّ أن نقول: يجب أن تولى العربيّة مكانتها الوطنيّة الرّسميّة اللّائقة بها تاريخيا ودستوريا، وبأن يستمر تعليم العلوم بها في جميع المراحل، ويجب أن تتظافر الجهود لجعلها لغة التّعليم جدّيا وتدريجيا، فتعليم العلوم كلّها إن تمّت بالعربيّة تكون قوّة فينا، وعزّة لنا وتوثيقا للوحدة الوطنيّة، ونتمنى أن تكون جريدة البصائر الجديدة نور هذه الأمة الّتي ستضيئ درب اللّغة العربيّة.

الإمام عبد الحميد بن باديس وريادة النهضة العربية

د. علي القاسمي.الرباط

خلاصة:

ترمي هذه الدراسة إلى إثبات أن ما يُعرَف بالنهضة العربية لم يكن مقتصراً على الشام ومصر، كما يروج في كتب التاريخ والكتب المدرسية؛ وإنما شمل جميع البلدان العربية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين، لتشابه ظروفها وأحوالها. فالنهضة حصلت في الجزائر كذلك، وكان من أبرز روادها الإمام عبد الحميد بن باديس، الذي لم يقتصر جهاده على استخدام الصحافة والجمعيات الوطنية وسائلَ لليقظة العربية كما فعل معظم رواد النهضة في الشام ومصر، بل أضاف إلى ذلك الوسيلة الأكثر نجوعاَ والأشد تأثيراً وهي التعليم الذي مارسه بنفسه ومن خلال المدارس التي أنشأتها جمعية علماء المسلمين في جميع أنحاء الجزائر، وبذلك بذر بذور الوطنية العربية الإسلامية التي أثمرت الحرية والاستقلال بالثورة الجزائرية المجيدة.

1 ـ تمهيد: لماذا العودة إلى موضوع النهضة العربية؟

قد يتساءل المرء: لماذا العودة اليوم إلى موضوع النهضة العربية التي وقعت في القرن التاسع عشر الميلادي ونحن اليوم في القرن الحادي والعشرين؟

الجواب ببساطة وصراحة: لأن أوضاع الأمة العربية الإسلامية اليوم أسوأ مما كانت عليه في العصر الذي استوجب يقظة عربية لتغييرها وإصلاحها وتحسينها.

كانت الأمة العربية آنذاك مقسمة إلى بلدان تحت حكم الإمبراطورية العثمانية أو البريطانية أو الفرنسية، ويهيمن الجهل على شعوبها التي ترزح تحت وطأة الفقر والمرض، وانتشرت فيها البدع والخرافات البعيدة عن روح الإسلام. وكانت لغتها العربية مهمشة مهملة.

وإذا نظرنا اليوم إلى تقرير التنمية البشرية الذي يصدره برنامج الأمم المتحدة الإنمائي سنوياً ويرتب فيه الدول الأعضاء حسب تقدمها في مجالات الصحة والتعليم والدخل الفردي، نجد أن الدول العربية تقبع في آخر السلم[1]، في عداد الدول المتخلفة تماماً مثل الدول الأفريقية التي لا تمتلك لغة مشتركة، ومن أسباب تخلف الدول العربية اليوم أنها تستعمل لغة المستعمِر القديم، الإنكليزية أو الفرنسية، في التعليم العالي، والمؤسسات الاقتصادية والمالية، والإعلام، والحياة العامة. إضافة إلى قطاعات كبيرة من شعوبها تفهم الإسلام في ضوء التقاليد الطائفية البالية الموروثة من عصور الانحطاط، فتكثر فيها الحروب الأهلية، وتشن الحرب على بعضها، مما يزيدها فقراً على فقر، وجهلاً على جهل، وتخلفاً على تخلّف.

وفي مثل هذه الأوضاع المزرية، أليس حرياً بنا أن ندعو إلى يقظة عربية جديدة، أو ندرس، على الأقل، النهضة العربية القديمة ونطَّلع على منهجيات روادها، والوسائل التي استخدموها في تحقيق يقظة العرب؟

---

[1] برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية الدولي للعام 2014، المضي في التقدم: بناء المنعة لدرء المخاطر (نيويورك: برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 2014)، يُنظر: سلم التنمية في آخر التقرير.

لا بد لنا من إيجاد وعي تاريخي لدى العرب بطبيعة المرحلة الراهنة ومتطلباتها.

2 ـ النهضة العربية:

1.2. ماهية النهضة العربية:

تخبرنا كتب التاريخ الحديث، بما فيها الكتب المدرسية، أن النهضة العربية (التي تسمى كذلك باليقظة العربية أو اليقظة الفكرية أو حركة التنوير العربية) هي حركة فكرية حصلت في الشام ومصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وقد أسهمت عوامل سياسية واجتماعية وثقافية في انبعاثها.

وفي طليعة هذه العوامل السياسية، الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م، وضعف الدولة العثمانية، وسعي محمد علي باشا الذي تولى حكم مصر سنة 1805م إلى إنشاء دولة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية. وأدت هذه العوامل إلى ظهور شعور وطني عربي.

أما العوامل الاجتماعية فأهمها بروز طبقة متوسطة شجعت الثقافة والتعليم. وتتلخص العوامل الثقافية بإنشاء المدارس، خاصة مدارس الإرساليات التبشيرية، ودخول المطابع، ونشر الصحف، وإرسال البعثات إلى أوربا، وحركة الترجمة من اللغات الأوربية، خاصة الفرنسية والإنكليزية، إلى العربية كما تجلت في ترجمات رفاعة الطهطاوي وسليمان البستاني وغيرهما، وإنشاء المكتبات العامة، وتشييد المسارح، كدار الأوبرا التي شُيدت في القاهرة بمناسبة افتتاح قناة السويس سنة 1869، والمسرح الذي أنشأه أبو خليل القباني (1833 ـ 1903) في دمشق.

وكان من نتائج هذه اليقظة الفكرية الدعوةُ إلى محاربة الجهل والشعوذة في المجتمع، والدعوة إلى تعليم المرأة، وصيانة اللغة العربية، وإحياء الهُوية العربية، ومقاومة الاستبداد في الحكم التي تجلت خاصة في مقالات عبد الرحمن الكواكبي

(1271ــ1320هـ/ 1855ــ1902م) التي أصدرها فيما بعد في كتابه "**طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**" (1320هـ/ 1902م) ودفع حياته ثمناً لذلك.

وتُبرِز الدراسات التاريخية التي تناولت النهضة العربية دورَ المفكرين والأدباء المسيحيين العرب، مثل بطرس البستاني (1819 ـ 1883م)، وإبراهيم اليازجي (1847 ـ 1906م)، وشبلي الشميل (1850 ـ 1917م)، وفرح أنطون (1874 ـ 1922م)، وجورجي زيدان (1861 ـ 1914م)، وغيرهم كثير في الشام. وقد هاجر بعضهم، هرباً من الاضطهاد العثماني إلى مصر التي كانت تتمتع بشيء من الاستقلال عن الحكومة العثمانية[1].

كما تذكر تلك الدراسات بالعرفان دور المفكرين المسلمين في هذه النهضة مثل رفاعة الطهطاوي (1801– 1873م) وجمال الدين الأفغاني (1838– 1897م) ومحمد عبده (1849– 1905) ورشيد رضا (1865–1936م) وقاسم أمين (1863 – 1908م) وغيرهم.

2.2. نقد الدراسات التاريخية حول النهضة العربية:

أثناء دراستنا لعدد كبير من الكتب والمقالات التي تتناول النهضة العربية، عنّت لنا ملاحظاتٌ، نورد أهمَّها فيما يأتي:

2.2.1. الفترة التاريخية للنهضة العربية:

تشير معظم الدراسات التاريخية إلى أن النهضة العربية وقعت في القرنين الثامن عشر الميلادي والتاسع عشر الميلادي. وفي مقدمة المؤرخين الذين

---

(1) من هذه الدراسات: لينا عدرا، "المسيحيون المشرقيون ودورهم في اليقظة العربية" في: ncro.sy/?p=2065 التي تقول فيها: "وإذا ما أردنا أن نتحدث عن دور، في فترة ما بين القرنين الثامن عشر والعشرين، سيتضح لنا الدور الجوهري الذي لعبه أبناء هذا الإقليم عموماً، ومسيحيوه خصوصاً، في النهضة واليقظة الفكرية"

يقولون بالقرن الثامن عشر الميلادي المؤرخ البريطاني من أصل لبناني الدكتور ألبرت حوراني (1915 – 1993م)، وضمّن رأيه في كتابه الشهير "**الفكر العربي في عصر النهضة** 1798–1939"، [1] معتبراً أن الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م هي بداية النهضة العربية، وقد درس الفكر العربي في تلك الفترة من خلال أعمال الطهطاوي، والأفغاني، وشبلي الشميل وفرح أنطون، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وطه حسين (1917–1973م). والذين قالوا بأن النهضة حصلت في بداية القرن التاسع عشر اعتمدوا على تاريخ تولي محمد علي باشا (1769– 1849) حكم مصر سنة 1805م[2].

بيدَ أننا لا نتفق مع الرأي القائل بأن النهضة العربية وقعت في القرن الثامن عشر ولا مع الرأي القائل بأنها وقعت في بداية القرن التاسع عشر، بل نرى أنها وقعت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي والنصف الأول من القرن العشرين (حتى الحرب العالمية الثانية 1939–1945)، وذلك لسببيْن هما:

أ) إن جميع رجالات النهضة الفكرية الذين ذكرتهم تلك الدراسات التاريخية، بمن فيهم أولئك الذين درس أعمالهم ألبرت حوراني، عاشوا أو نشروا أفكارهم خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وليس في القرن الثامن عشر أو النصف الأول من القرن التاسع عشر.

ب) إن واقعة تاريخية مثل الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م أو تنصيب محمد علي باشا والياً على مصر سنة 1805م قد تثير مشاعر كثيرة لدى المصريين

---

[1] Albert Hourani. Arabic Thought in the Liberal Age 1789-1939 (London: Cambridge University Press, 1962) وللكتاب عدة طبعات وأكثر من ترجمة عربية.

[2] محمد بن حسن ال وللكتاب عدة طبعات وأكثر من ترجمة عربية. مبارك. "الحملة الفرنسية على مصر (1789– 1801) لماذا؟" في: www.saaid.net/Doat/almubarak/6htm

والمسلمين، ولكنها لا تشكل بحد ذاتها نهضة عربية. فردود الأفعال للوقائع الاجتماعية والسياسية، تأخذ وقتاً طويلاً قبل أن تتحول إلى حراك فكري.

2.2.2. **الرقعة الجغرافية للنهضة العربية**:

تكاد أغلبية الدراسات التاريخية تجمع على أن النهضة العربية والدعوات الإصلاحية وقعت خلال القرن التاسع عشر في الشام ومصر فقط، ولا تذكر بقية البلدان العربية. غير أننا ندرك أن البلدان العربية كانت في القرن التاسع عشر الميلادي في وضع واحد من التخلف والجهل والتبعية للأجنبي على اختلاف هويته، وأن لغتها العربية كانت مهملة مهمشة، وأن الشعوب العربية خضعت جميعها لظروف ثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية متشابهة أدت إلى دعوات إلى الإصلاح وإحداث نهضة عربية. وأهمل أولئك المؤرخون الدعوات الإصلاحية والحركة الفكرية التي حصلت في بقية البلدان العربية. ولقد تنبه صديقنا الدكتور عمار الطالبي إلى هذه الحقيقة فقال:

"ولم يعالج أحد من المسلمين في النصف الأول من القرن العشرين ـ فيما أعلم ـ مشكلة الفكر الإصلاحي في المغرب الأوسط إلا أستاذنا مالك بن نبي، فإنه تناول هذه النهضة الحديثة وحللها تحليلاً علميا نقدياً..."[1].

وفي دراسة سابقة لنا أثبتنا أن النهضة العربية لم تقتصر على الشام ومصر، بل وقعت كذلك في العراق في النصف الثاني للقرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بفضل دخول الطباعة وظهور الصحافة وبروز طبقة متوسطة شجعت

---

[1] الدكتور عمار طالبي. الإمام عبد الحميد بن باديس، حياته وآثاره (الجزائر/ بيروت: عالم المعرفة ودار ابن حزم، 2014)، المجلد الأول، ص 67.

إنشاء المدارس. وكان من مفكريها محمود شكري الآلوسي (1856–1924م) والأب أنستاس ماري الكرملي (1866–1947م)، وغيرهما[1].

واليوم نبين في هذه الدراسة أن النهضة العربية انبعثت كذلك في الفترة ذاتها في الجزائر، وأن الأمام عبد الحميد بن باديس هو من رواد النهضة العربية الشاملة.

2.2.3. **النطاق الموضوعي للنهضة العربية**:

إن الدراسات التاريخية التي تناولت النهضة العربية في المشرق العربي، عدّتها يقظة فكرية أو حركة تنويرية محضة ليست لها أهداف سياسية، وأغفلت الجانب السياسي لهذه النهضة، أو عالجته بصورة منفصلة عن النهضة العربية.

وفي حقيقة الأمر، اشتملت النهضة العربية على شق سياسي تمثّل في الجمعيات الوطنية، التي هي بمثابة الأحزاب السياسية في أيامنا هذه. وكان معظمها سري أو اتخذ صورة النوادي الأدبية أو الجمعيات العلمية، لتفادي قمع السلطات العثمانية. وكان هدفها المطالبة بالحكم الذاتي للأقاليم العربية واستعمال اللغة العربية لغة رسمية فيها، ثم ما لبثت أن دعت إلى استقلال الولايات العربية عن الإمبراطورية العثمانية. ومن هذه الجمعيات:

أ- **الجمعية السورية (جمعية العلوم والفنون) في بيروت**، 1847، وكان من أعضائها بطرس البستاني وناصيف اليازجي. وكانت تعمل على إحياء التراث العربي للتحسيس بهوية قومية عربية.

---

[1] الدكتور علي القاسمي. العراق في القلب: دراسات في حضارة العراق (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2010) الطبعة الثانية، ص ص 237 ـ 271.

ب- **الجمعية السرية في بيروت**، 1875، وكان من أعضائها فارس النمر وإبراهيم اليازجي، وكانت تحرِّض العرب على المطالبة بحقوقهم.

ج- **جمعية العربية الفتاة في باريس**، 1909، وكانت لها فروع في الشام، وقد انضم إليها بعض أولاد شريف مكة الحسين بن علي المطالب باستقلال الأقاليم العربية عن الإمبراطورية العثمانية.

د-**المنتدى الأدبي العربي في الأستانة**، 1909، الذي صمّم علماً للقومية العربية من أربعة ألوان، استناداً إلى بيت للشاعر صفي الدين الحلي:

بيضٌ صنائعنا، سودٌ وقائعنا خضرٌ مرابعنا، حمرٌ مواضينا

هـ -**حزب اللامركزية العثمانية في القاهرة**، 1912.[1]

وقد شارك جلُّ رواد اليقظة الفكرية، مثل ناصيف اليازجي، وابنه إبراهيم اليازجي، وبطرس البستاني، في تأسيس هذه الجمعيات الوطنية. كما أن هذه الجمعيات اتبعت نفس طرائق رواد النهضة الفكرية في إيقاظ الوعي العربي، مثل إحياء اللغة العربية وآدابها، وإحياء التراث العربي، والتركيز على التاريخ العربي الإسلامي؛ وهي طرائق مشابهة لتلك التي استخدمها المفكرون الألمان خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين لتحقيق وحدة الولايات الألمانية في دولة واحدة. (يُلاحظ أن المفكر النهضوي المسيحي جورجي زيدان لم يؤلِّف ثلاثة كتب عن اللغة العربية هي: **اللغة العربية كائن حي** (بيروت 1898م)، الألفاظ العربية والفلسغة اللغوية (بيروت 1889م)، **تاريخ آداب اللغة العربية** (4 أجزاء، مصر 1911م) فحسب، بل كتب كذلك في التاريخ الإسلامي كتابه الشهير: "**تاريخ التمدن**

---

[1] الدكتور نعمان عاطف عمرو. "مظاهر الوعي بالقومية العربية في فلسطين حتى عام 1920م" في: www.qou.edu/Arabic/research progrm

الإسلامي" (مصر 1902) إضافة إلى 23 رواية تاريخية مستمدة من التاريخ العربي الإسلامي، وذلك لغرض إيقاظ الشعور القومي العربي بهُوية متفردة، بهدف استقلال الأمة العربية.

وعندما انعقد (**المؤتمر العربي الأول**) في باريس، سنة 1913، الذي شارك فيه مفكرون وسياسيون وبعض أعضاء تلك الجمعيات الوطنية، طالب باللغة العربية لغة رسمية بالأقاليم العربية، كما أوضح المؤتمرون إدراكهم أن الإمبريالية الأوربية تشكّل خطراً على الولايات العربية العثمانية، فقد احتلت بعض الدول الأوربية بالفعل عدداً من الأقطار العربية مثل مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب[1].

وخلاصة القول في هذه النقطة، أن النهضة العربية في الشام ومصر لم تكن يقظة فكرية أو حركة تنويرية فحسب، بل حركة سياسية كذلك تسعى إلى استقلال العرب في جميع أقطارهم ووحدتهم.

2.2.4. وحدة المنهجية في النهضة العربية:

تعطي بعض الدراسات التاريخية التي تتناول النهضة العربية الانطباع بأنها ذات منهجية واحدة. وفي حقيقة الأمر، إذا كانت للنهضة العربية غاية واحدة هي تقدُّم العرب واستقلالهم ووحدتهم، فإننا نستطيع أن نفرّق بين تياريْن فكريين في النهضة يختلفان من حيث نظرتهما إلى السبيل والأساليب الواجب اتباعها لبلوغ تلك الغاية النبيلة:

أ -تيار سلفي: يدعو هذا التيار، **دينياً**، إلى العودة إلى ما كان عليه السلف الصالح، ويدعو إلى محاربة البدع والشعوذة والطرقية، وفتح باب الاجتهاد، والتوفيق بين العِلم والدين.

---

[1] www.ar.wikipedia.org/wiki/المؤتمر_العربي_الأول

ويدعو، **سياسياً**، إلى الشورى ونبذ الاستبداد، ووحدة العالم الإسلامي، ومناهضة الاستعمار.

ويدعو، **اجتماعياً**، إلى نشر التعليم، وضرورة تعليم المرأة.

وكان من رواد هذا التيار المفكرون المسلمون مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ورشيد رضا،

ب- تيار علماني: ويدعو هذا التيار إلى فصل الدين عن الدولة، وإلغاء الطائفية في الحكم. ولا يعني بالضرورة أنه ضد الدين.

ويدعو، سياسياً، إلى تبني الديمقراطية، واحترام الحريات العامة، واستقلال البلدان العربية.

ويدعو، اجتماعياً، إلى نشر التعليم وتحرير المرأة وتعليمها.

ومعظم النهضويين المسيحيين كانوا من هذا التيار، مثل شبلي شميل وفرح أنطون وغيرهم، لأنهم كانوا يشعرون بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية في الإمبراطورية العثمانية التي كانت تقوم، من حيث الأساس، على الأتراك المسلمين الأحناف. ولهذا، فإن المسيحيين العرب كانوا يطمحون إلى قيام دولة عربية يتمتع فيها جميع المواطنين بحقوقهم على قدم المساواة بغض النظر عن دينهم أو مذهبهم أو عرقهم. وهذا هو الأساس في تقدُّم الدول؛ فالعدل أساس الملك. وهذا هو جوهر الإسلام.

2.3.4. **نقد الوسائل التي اتبعها رواد النهضة**:

لتحقيق أهداف النهضة العربية، اتبع المفكرون في الشام ومصر الوسائل التالية:

أ-**الصحافة**: فقد أنشأ أولئك المفكرون الدوريات على اختلاف أنواعها. فأصدر جمال الدين الأفغاني وتلميذة محمد عبده "**العروة الوثقى**" في باريس،

وأسس الكواكبي أول صحيفة عربية في حلب "**الشهداء**" باسم صديق له سنة 1877م وعندما أغلقت بعد مدة أصدر جريدة "**الاعتدال**" سنة 1879م باسم صديق آخر. وأصدر الطبيب شبلي شميل مجلة "**الشفاء**" الأسبوعية في بيروت سنة 1886م. وعندما انتقل اللبناني فرح أنطون إلى الإسكندرية في مصر هارباً من الاضطهاد العثماني أصدر مجلة "**الجامعة**" وشارك في تحرير عدة صحف أخرى. وحين انتقل رشيد رضا من طرابلس في لبنان إلى القاهرة، أصدر مجلة "**المنار**" سنة 1315ه/ 1898م قائلاً "**إن الهدف من إنشائه صحيفة هو التربية والتعليم ونقل الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والخرافات والبدع**"[1]، وهكذا.

ب- **ترجمة الكتب العلمية الأوربية**، كما فعل سليمان البستاني في لبنان، ورفاعة الطهطاوي في مصر.

ج -**نشر الكتب العلمية والموسوعات**، كما فعل بطرس البستاني الذي نشر بين عامي 1876 و1883م ستة أجزاء من "**دائرة المعارف: قاموس لكل فن ومطلب**".

د- **إحياء التراث العربي**: وهي حركة ترمي إلى إثبات إسهام العرب في حركة العلم العالمية وتأكيد ماضيهم العلمي المجيد، وركزت على تحقيق المخطوطات التراثية في اللغة العربية والإنسانيات، لتنشيط اللغة العربية ولإيقاظ الشعور بهُوية عربية متميزة.

هـ- **الروايات التاريخية**: ولعل أفضل مثال على ذلك الروايات التاريخية التي كتبها جورجي زيدان والمستمدة من التاريخ العربي الإسلامي، لتوعية القراء بتاريخهم المجيد، وهُويتهم العربية المتفردة.

---

[1] محمد رشيد ـ رضا www.ar.wikipedia.org/wiki/ ويُنظر كذلك: شكيب أرسلان. السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين عاماً (دمشق: مطبعة ابن زيدون، 1937)

و- **المسرحيات التمثيلية**: فقد استخدم رواد النهضة العربية المسرح وسيلة من وسائل التوعية والتثقيف، كتب بعضهم، مثل فرح أنطون، عدة روايات تمثيلية.

وخلاصة القول إن رواد النهضة العربية في الشام ومصر وجّهوا خطابهم إلى الفئة المتعلمة من أبناء الشعب، من خلال الصحافة والمسرح والنوادي الأدبية. ولكنهم -مع الأسف- لم يولوا الاهتمام اللازم لقضية تعليم الجماهير العريضة من الشعب. والتعليم هو الأساس لكل نهضة يُراد لها الديمومة والازدهار.

لم تكن الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، وهي في طور انحطاطها، تعنى بالتعليم، فعندما فرض والي مصر محمد علي باشا (1769- 1849م) ولايته على الشام كذلك عام 1832م، بادر إلى إنشاء المدارس الابتدائية في المناطق والمدارس الثانوية في المدن مثل دمشق وإنطاكية وحلب. ولكن الدول الأوربية الطامعة في استعمار البلاد العربية تألبت عليه وأخرجته من الشام سنة 1840م. وفيما عدا ذلك لم تكن هنالك من مدارس تذكر سوى مدارس الإرساليات الغربية التبشيرية التي تختلف أهدافها عن أهداف النهضة العربية.

إن رواد النهضة العربية ركزوا اهتمامهم على الصحافة لنشر آرائهم التنويرية وأفكارهم الإصلاحية، ولكنهم لم يشتغلوا في التعليم الذي نعدّه ويعدّه البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة أساساً لكل تنمية بشرية. لعل الاستثناء بين رواد النهضة العربية في مصر هو رفاعة الطهطاوي (1801- 1873م) الذي أسس **مدرسة الألسن** سنة 1835م، وفي الشام بطرس البستاني (1819- 1883م) الذي لم يكتفِ بإصدار صحيفة "**تغيير سورية**"، وبتأليف أول دائرة معارف عربية، وبإنشاء الجمعيات الوطنية، وإنما أسس كذلك سنة 1863م "**المدرسة الوطنية**" العالية التي تقبل الطلاب من جميع الطوائف ومن مختلف الأقطار العربية وتعلّم طلابها التعلُّق بالأوطان ومحبَّة الإنسان، وبهذا استحق لقب "**المعلم**"، وهو أشرف

لقب يسعى مصلحٌ إلى الافتخار بحمله. ولكن هاتين المدرستين عاليتان ترميان إلى تعليم اللغات الأجنبية لنقل المعارف إلى اللغة العربية. أما الجماهير الواسعة من الشعب التي كانت ترزح تحت وطأة الجهل فكانت بحاجة إلى تعليم أساسي عام. ولم يتسنَ لرواد النهضة العربية في المشرق الاشتغال عليه.

3. الاستعمار الفرنسي للجزائر:

1.3. طبيعة الاستعمار الفرنسي:

في يوم 14 محرم 1246ه (5/ 7/ 1830م) احتلت فرنسا الجزائر واستعمرتها **استعماراً استيطانياً**. وهذا النوع من الاستعمار هو أبشع أنواع الاستعمار وأخسُّها وأكثرها استهانة بالحياة البشرية والكرامة الإنسانية؛ لأنه يرمي إلى استئصال أهل البلاد الأصليين وتشريدهم وتهجيرهم وتقتيلهم والاستيلاء على أراضيهم ومساكنهم وممتلكاتهم وإحلال أغراب مكانهم، وإدماج الناجين منهم بحيث تصبح البلاد بلاداً أخرى. وهذا ما فعله الاستعمار الأوربي الاستيطاني، خاصة البريطاني، في أمريكا الشمالية وأستراليا، إذ قضى البريطانيون على الملايين من السكان الأصليين وأبادوهم جماعياً بطرائق خبيثة بحيث لم يبق منهم سوى آلاف معدودة.

بيدَ أن فرنسا الاستعمارية لم تستطع أن تحقق ذلك في الجزائر، ليس لأنها أقل همجية وإجراماً من بريطانيا الاستعمارية، فقد استخدمت كذلك أبشع أساليب الإبادة الجماعية واقترفت أخطر الجرائم ضد الإنسانية، بل لأن أهل الجزائر يختلفون عن السكان الأصليين في أمريكا الشمالية وأستراليا في ثلاثة أمور:

أ) **تاريخياً**، إن الشعب الجزائري ذو ثقافة عريقة تجسّدها الحضارة العربية الإسلامية (يُلاحظ أن الهنود الحمر في أمريكا الشمالية والأبورجين في أستراليا، كانوا قبائل متفرقة متنافرة تتحدث لغات متعددة متباينة يصل تعدادها أكثر من ألف لغة، واللغة أساس الثقافة ووحدة الأمة). وكانت الجزائر قبل

الاستعمار الفرنسي دولة لها هيبتها ومؤسّساتها السياسية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية، ولم يكن ارتباطها بالدولة العثمانية إلا ارتباطاً شكلياً.

ب) **جغرافياً**، إن الشعب الجزائري محاطٌ ببلدان تنتمي إلى الثقافة العربية الإسلامية ذاتها، وتربطه وشائج إنسانية بشعوب تلك البلدان. وكانت هذه البلدان العربية وما تزال تشكل العمق الإستراتيجي للجزائر. كما تبدّى ذلك واضحاً خلال الثورة التحريرية الجزائرية، إذ أمدته الأمة العربية الإسلامية خلال الثورة بالرجال والسلاح والكلمة المقاومة[1].

ت) **خُلقياً**، إن الشعب الجزائري شعبٌ مقدام شهم شجاع، قدّم على مذبح الحرية الملايين من أبنائه البررة، ولا يوجد شعب في الدنيا ضحى بمليون ونصف مليون شهيد في ثورة واحدة من أجل الحرية،

ما إن أسقطت قوات المستعمِر الفرنسي العاصمة الجزائرية حتى هبت الثورات في أنحاء الجزائر: ثورة أحمد بن محمد الشريف (1836م) الذي ظل يقاوم في مدينة قسنطينة في الشرق الجزائري حتى سنة 1837م، وعندما سقطت المدينة،

---

[1] عندما اندلعت ثورة التحرير الجزائرية، وقف جميع العرب والمسلمين إلى جانب الجزائر يمدونها بالمال والسلاح والتشجيع، ليس أولئك المجاورين للجزائر فقط كتونس والمغرب، بل البعيدين كذلك.. وقد أتيحت لي الفرصة ذات مرة بلقاء المرحوم عبد الحميد المهري، الذي كان ممثل الثورة الجزائرية في دمشق، فسألته عن صحة إدعاء المرحوم فاضل الجمالي، رئيس وزراء العراق الأسبق من أنه كان يبعث إليه بالأسلحة إلى دمشق لشحنها بحراً إلى الثوار، فأكد المهري ذلك، وأضاف: "إنني قابلت كذلك المرحوم نوري السعيد، فقال لي: يا بني، إن قائمة الأسلحة التي طلبتها تشتمل على قسمين: قسم موجود لدى الجيش العراقي، سنعطيه لكم، وقسم لا يوجد لدينا، فنعطيكم المال لشرائه".

أما من حيث الدعم الأدبي، فيُنظر، مثلاً، كتابا الدكتور عثمان سعدي: "الثورة الجزائرية في الشعر العراقي"، و"الثورة الجزائرية في الشعر السوري". ولهما أكثر من طبعة.

أخذ يتنقل في الصحاري والجبال والوديان، محرضا القبائل على المقاومة[1]؛ وثورة الأمير عبد القادر[2] في الغرب الجزائري الذي استمرت مقاومته المسلحة 15 عاماً (من 1832 إلى 1847م)؛ وبعد ذلك حاولت القوات الفرنسية احتلال بلاد القبائل، فاندلعت ثورة الشريف محمد بن عبد الله (أبي بغلة) سنة 1851م الذي دعمته فاطمة نسومر في القبائل[3]. فقام الجيش الفرنسي بتدمير مناطق القبائل: حرقَ المساكن والأشجار، دمَّرَ القرى والبلدات (أكثر من 300 قرية)، وقتلَ النساء والأطفال، ونهبَ الممتلكات. واستمرت مقاومة الشعب الجزائري الأبي على شكل احتجاجات ومظاهرات وانتفاضات توِّجت بأخطر ثورة في التاريخ، هي ثورة التحرير الجزائرية التي اندلعت في 1 نوفمبر 1954م ودامت مشتعلة بضراوة أكثر من سبع سنوات حتى حقَّقت إعلان الاستقلال في 5 جويليه 1962م.

2.3ـ أساليب الاستعمار الفرنسي لطمس الهُوية الوطنية الجزائرية:

لم تكن ثورة التحرير الجزائرية لتندلع وتحقِّق أهدافها ما لم تسبقها ثورة تحرِّر الإنسان الجزائري من الجهل والخوف والتهميش. فقد اعتمد المستعمر الفرنسي سياسات شريرة لتجهيل الشعب الجزائري وتفقيره وتخويفه والنيل من شهامته وشجاعته وإذلاله. فبُعيد احتلال الجزائر، أغلقت الحكومة الاستعمارية المدارس بحجة نضوب ميزانية التعليم، فأدى ذلك إلى انقطاع التلاميذ عن الدراسة وإلى هجرة الأساتذة. وشجعت السلطات الفرنسية

---

[1] أحمد – باي – محمد – الشريف www.ar.wikipedia.org/wiki/

[2] إسماعيل العربي. **الأمير عبد القادر الجزائري: مؤسس دولة وقائد جيش** (الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة، 1984)

[3] بالمهدي البوعبدلي. ثورة الشريف بوبغلة (الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة، 1983)

البدع والسحر والخرافات لتخدير الشعب الجزائري وتجهيله ليسهل عليها اقتراف جرائمها بحق الإنسانية.

ومن ناحية أخرى، أعلنت الإدارة الاستعمارية "**قانون الأهالي**" الذي يُسقِط عن الجزائريين جميع الضمانات المألوفة لحريات الأفراد، بحيث يستطيع أي موظف فرنسي أن يوقف أو يعتقل أو يسجن المواطن الجزائري دون محاكمة، وأن يصادر أرضه ويستولي على ممتلكاته دون حكم قضائي، بل يستطيع إنزال العقوبات الجماعية بالأهالي دون الرجوع إلى محكمة. ولعل فقرات من عريضة بعث بها العالم المجدد الشيخ حمدان خوجة (1189 ـ1255ه/ 1775 ـ 1844م) إلى رئيس الوزراء الفرنسي وزير الحرب الماريشال سولت الدوق دود الماتي في 3 جوان 1833م تبين الظلم الذي حاق بالجزائريين. يقول حمدان خوجة:

"**يشرفني أن ألفت نظر سعادتكم أن دخول الجيش الفرنسي قد كان متبوعاً بمعاهدة تضمن أمن كل شخص، كما تنص على حرمة المباني والأراضي والأمتعة، وعلى الاحترام الواجب لنسائنا ومساجدنا.**

1- إن أول فعل بادرت بارتكابه السلطة -ظلماً وعدواناً- هو إيقافها القاضي والمفتي ونفيهما، من أجل الاستيلاء على أوقاف مكة والمدينة وعلى المؤسسات الخيرية التي قد سعى في تأسيسها آباؤنا، وجعلوها وقفاً في سبيل الله، ليكون مدخولها خاصاً بالفقراء والمساكين واليتامى والأرامل، حسبما يقتضيه نظام شريعتنا... وقد استولى على جميعها الحاكم الفرنسي بدون أي قانون، كما استولى أيضاً على جميع الدراهم التي كانت بأيدي الوكلاء والقائمين عليها والمكلفين بتسييرها....

2- تهديم بناياتنا الخصوصية والمؤسسات الخيرية والدينية....

3- تهديم أحد المساجد المسمى "جامع السيدة" وقد أخذت السلطة أبوابه الخارجية، وأعمدته المرمرية الجميلة وألواحه الزجاجية الصينية، وأبوابه الداخلية الرقيقة، المصنوعة بخشب الأرز المجلوب من فاس...

4- إن السلطة استولت على مساجدنا ومعابدنا التي لم تنلها أيدي التهديم، ولم يبق للمسلمين من هذه الأماكن المقدسة سوى الربع فقط...

5-إن السلطة قد استولت أيضاً على "جامع كشتاوة" وحولته إلى كنيسة...

6- إن السلطة قد استولت على المؤسسات الخيرية التي تعرف بـ "الزوايا"، وهي أماكن مخصصة لإيواء الفقراء والمعوزين، ...

7- إن المراحيض العمومية وبيوت الخلاء التي بنتها طبقة أهل الخير، من أجل المحافظة على نقاء المدينة ونظافتها، قد استولت عليها السلطة الفرنسية وآجرتها الخاصة من أبناء ملتها، بدل ما كانت وقفاً على جميع الناس...[1]

ومارست تلك السلطات سياسة التمييز العنصري، فمنحت الجنسية الفرنسية لليهود الجزائريين ما يؤهلهم لممارسة الحقوق والحريات التي يتمتع بها الفرنسيون. وأعلنت أن الجزائر أرض فرنسية إلى الأبد.

وصادرت أفضل الأراضي الزراعية الخصبة، واستحوذت على الأوقاف الإسلامية لتمنع الإنفاق على المدارس والمساجد، وأخذت تستقدم آلاف المستوطنين الفرنسيين والأوربيين بصورة متزايدة ومنحتهم أراضي الجزائريين وممتلكاتهم، وأغدقت عليهم الهبات والمساعدات المادية والمعنوية.

وحاربت العقيدة الإسلامية بطرائق خبيثة، وأطلقت عمليات تنصير الشعب الجزائري ودعمتها بجميع الوسائل، وأغرت الجزائريين الذين

---

[1] محمد الطيب عقاب. حمدان خوجة، رائد التجديد الإسلامي (الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة، 1983)، ص ص 49 ـ 55.

يتعلمون الفرنسية بالإدماج الذي يؤهلهم لنيل حقوقهم، وهم في وطنهم. وأغرقت الشباب الجزائريين بالإدمان في المقاهي والحانات.

وسعت إلى التفرقة بين الجزائريين وإثارة النعرات العرقية والطائفية والجهوية والقبلية. وهذه من أهم السياسات الاستعمارية للتحكُّم في الشعوب، ويصطلح عليها باسم "**فرقْ تسُدْ**".

وقد بلغت بها الوقاحة لحد إصدار قانون سنة 1935 م يعدُّ اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، والفرنسية هي اللغة الرسمية الوحيدة في البلاد. وقد صدر هذا القانون بعد قرن من العمل على نشر اللغة الفرنسية وتعميمها، وإضعاف اللغة العربية، واستخدام الدارجة بدلاً من الفصيحة إمعاناً في التجهيل، وفصل العرب عن إخوانهم الأمازيغ.

4. النهضة الجزائرية:

1.4. متطلبات المرحلة:

إن مثل هذه الإجراءات الشريرة المبنية على دراسات علمية استغرقت زمناً طويلا واضطلع بها كبار المؤرخين والمستشرقين وعلماء النفس، وخطط لها عتاة السياسيين والمبشرين، ونفذها قساة القادة العسكريين والمحنكين من الإداريين، لا يمكن مجابهتها وإلغاؤها باستخدام القوة، أو بظهور بطل جرئ مغوار يبهر الأنظار، بل تحتاج إلى حركة فكرية اجتماعية شاملة ذات أسس قويمة، تتغلغل في جميع شرائح المجتمع الجزائري، وتعمل بصبر وأناة على تغيير حياة الشعب الاجتماعية والنفسية والعقلية، وتطوير مسلَّماته، ورسْم أهدافه، بحيث يصبح الشعب يداً واحدة وعلى استعداد تام لتقديم التضحيات من أجل بلوغ الغايات، ويردد كل فرد فيه بحماسة وإخلاص الشعار الذي صاغه ابن باديس بحكمة وبلاغة: "**ديننا الإسلام، ولغتنا العربية، ووطننا الجزائر**"، وكل كلمة فيه ضربة معول قاصمة لأسس السياسة الاستعمارية.

ولكن مثل هذه اليقظة الجبارة والحركة التنويرية بحاجة إلى قيادة مخلصة متفانية، منزهة عن الأطماع، مسلَّحة بالمعرفة، ومدربة على استخدام الوسائل اللازمة. وقد تجسدت هذه القيادة المثالية بالإمام عبد الحميد بن باديس وجمعية علماء المسلمين.

2.4. النهضة في الجزائر قبل الإمام عبد الحميد بن باديس:

عرفت الجزائر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين النهضة العربية كما في المشرق. فقد ظهر فيها من العلماء الأفذاذ مَن حارب الجهل والبدع والخرافات، مثل الشيخ عبد القادر المجاوي (1266–1332ه/ 1848 ـ 1913م) الذي ألف العديد من الكتب المدرسية والتربوية مثل "**إرشاد المتعلمين**"، وطالب بتعليم المرأة، وشرح منظومة في محاربة البدع والفساد الاجتماعي. ويقول عنه الدكتور عمار طالبي:

"**ومن غريب المصادفات أنه في السنة نفسها التي توفي فيها عبد القادر المجاوي [بمدينة قسنطينة]، ابتدأ عبد الحميد بن باديس حركته التعليمية بمدينة قسنطينة، فاتصلت حلقات الإصلاح متطورة إلى مرحلة القوة والنضج**"[1]

وقد أخذ عن الشيخ المجاوي عددٌ من علماء الجزائر المصلحين منهم الشيخ أحمد الحبيباتي، والشيخ حمدان الونيسي أستاذ عبد الحميد بن باديس.

ومن رجال النهضة والإصلاح في الجزائر الشيخ أبو القاسم الحفناوي (1269– 1361هـ / 1852–1942م)، صاحب كتاب "**تعريف الخلف برجال السلف**". ومنهم الشيخ محمد بن مصطفى الخوجة (1282–1334هـ / 1865 – 1915م)، وهو شاعر وعالم دين حقق بعض كتب التراث مثل كتاب "**الجواهر الحسان في تفسير القرآن**" للشيخ عبد الرحمن الثعالبي. ومنهم الشيخ عبد الحليم

---

[1] الدكتور عمار طالبي، الأمام عبد الحميد بن باديس: حياته وآثاره، مرجع سابق، ص 28.

بن سماية (1284–1352هـ / 1866– 1933م). الذي كان شاعراً وأديباً لـه أثـر في النهضة الأدبية في الجزائر. وقد لازم الشيخان الخوجة وسمايـة الإمـام محمـد عبده عندما زار الجزائر العاصمة وقسنطينة سـنة 1903م وعقـد اجتماعـات مـع بعض المثقفين والأدباء الذين أيدوا أفكاره النهضوية الإصلاحية. كمـا صـدرت بعض الصحف الوطنية العربية خلال تلك الفترة.[1]

نستخلص من ذلـك أن الجزائـر هـي الأخـرى عرفـت تباشـير نهضـة عربيـة إصلاحية تستخدم التأليف وتحقيق الـتراث والصـحافة لبـث الفكـر الإصـلاحي والوعي الوطني، ولو على نطاق أضيق مما عرفته الشام ومصر، لاختلاف الظروف.

3.4. الإمام عبد الحميد بن باديس:

ولد الإمام عبد الحميد بن باديس في مدينة قسنطينة في الشـرق الجزائـري سنة 1308ه/ 1889م لأسرة مشهورة بالعلم والقضاء والزعامة، تنتمي لقبائـل صنهاجة الأمازيغية. ولهذا يرد اسم الإمام أحيانـا بصـيغة "عبـد الحميـد بـن باديس الصنهاجي"[2].

---

[1] الدكتور مازن صلاح حامد مطبقاني. جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين ودورهـا في الحركـة الوطنية الجزائرية (الجزائر: عالم الأفكار، 2011) ص 29 ـ 34.

[2] وصنهاجة قبائل عروبية من السوس الذين هاجروا من منطقة حضـرموت الـيمن إلى شمـال إفريقيا مروراً بالعراق والشام ومصر، فتخلفت منهم في العراق أسرة معروفة بالعلم منها المـؤرخ الدكتور أحمد نسيم سوسة، وفي الشام تخلفت جماعة منهم فأسسوا بلدة "كفر سوسـة"، وفي مصـر استقرت جماعة منهم في منطقة سموها "كفر سوسة"، وفي تونس هناك بلدة "سوسـة"، ثـم اسـتقرت الأغلبية الغالبة منهم في جنوبي المغرب الأقصى، وهي التي يسميها العلامة المختار السوسـي بـ "سوس العالمة"، وكذلك في موريتانيا. وبعد ظهور الإسلام، قامت قبائل صنهاجة السوسـية بنشـر الإسلام في إفريقيا، ويقال إن اسم بلاد (السنغال)، محرَّف من اسم قبيلة (صنهاجة) الـتي كانـت تسيطر علـى (نهـر السـنغال). وأنجبـت هـذه القبائـل سـلطان المـرابطين يوسـف بـن تاشـفين=

حفظ ابن باديس القرآن الكريم في سن الثالثة عشرة، فخيره أبوه بين مواصلة التعليم أو التجارة، فاختار طريق العلم، وواصل تعليمه في الجامع الكبير في قسنطينة وكان من شيوخه المصلح حمدان الونيسي (ت 1920م) الذي اضطر إلى الهجرة إلى المدينة المنورة، والذي أوصاه بعدم الاقتراب من الوظيفة. وفي سنة 1908م، سافر إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة، وكان من شيوخه هناك محمد النخلي القيرواني (ت 1924م)، ومحمد الطاهر بن عاشور (ت 1973م) صاحب التفسير المشهور "**التحرير والتنوير**"، وهما من أنصار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وأفكارهما التحريرية والتنويرية.

بعد أربع سنوات نال شهادة العالمية وأمضى سنة في التدريس في الزيتونة. ثم عاد إلى قسنطينة، وشرع في التدريس في الجامع الكبير. ولكن السلطات الاستعمارية أوعزت إلى المتعاونين معها بمنعه من مواصلة التدريس، فقرر سنة 1913 السفر إلى الحجاز للحج إلى بيت الله، وللقاء شيخه الونيسي في المدينة. وأمضى ابن باديس ثلاثة أشهر هناك حيث كان يلتقي بانتظام بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي (1306 ـ 1385ه/ 1889 ـ 1965م) الذي كان يتابع

=(410– 500هـ/ 1061 – 1106م) الذي ينتمي إلى قبيلة لمتونة الصنهاجية. والذي أعز الله به الإسلام والمسلمين في الأندلس. للتفاصيل تُنظر المراجع المتخصصة مثل:

ـ الدكتور عثمان سعدي. البربر الأمازيغ عرب عاربة (الجزائر: دار الملتقى، 1996)، وكذلك كتاباه: "عروبة الجزائر عبر التاريخ" و"معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية."

– سعيد بن عبد الله الدارودي. حول عروبة البربر: مدخل إلى عروبة الأمازيغيين من خلال اللسان (الدار البيضاء: منشورات فكر، 2012).

– الدكتور على فهمي خشيم. سفر العرب الأمازيغ، وملحق به: لسان العرب الأمازيغ (طرابلس: دار نون، 1996)

– محمد حسين الفرح. عروبة البربر: تاريخ ودلائل انتقال البربر من اليمن إلى بلاد المغرب والجذور العربية اليمنية لقبائل البربر (صنعاء: وزارة الثقافة والسياحة، 2004).

دراسته العلمية في المدينة المنورة. وبعد ذلك عاد ابن باديس في نفس السنة 1913م إلى الجزائر ماراً بدمشق وبيروت ومصر والتقى بعلمائها من رجال الإصلاح والحركة التنويرية، مثل الشيخ بخيت (ت 1935م) مفتي الديار المصرية ونصير الشيخ محمد عبده في حركته الإصلاحية.

5. اليقظة الفكرية في الجزائر:

1.5. التخطيط لليقظة الفكرية:

لم تكن النهضة التي قادها عبد الحميد بن باديس عمل عاطفي ناتج عن انفعال شخصي، بل كانت مبنية على أيام وليالٍ طويلة من التأمُّل والتفكير والنظر في الأهداف والتخطيط المحكم للطرائق والوسائل. يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عن لقائه مع الشيخ عبد الحميد بن باديس في المدينة المنورة سنة 1913م:

"كان من تدابير الأقدار الإلهية ومن مخبآت الغيوب أن يرد عليّ بعد استقراري في المدينة المنورة سنة وبضعة أشهر، أخي ورفيقي في الجهاد بعد ذلك، الشيخ عبد الحميد **بن باديس، أعلم علماء الشمال الأفريقي، ولا أغالي، وباني النهضات العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية للجزائر،**

كنا نؤدي فريضة العشاء الأخيرة في كل ليلة في المسجد النبوي ونخرج إلى منزلي، فنسمر مع الشيخ ابن باديس، منفردين إلى آخر الليل، حين يفتح المسجد فندخل مع أول داخل، لصلاة الصبح، ثم نفترق إلى الليلة الثانية، إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها بالمدينة المنورة.

كانت هذه الأسمار المتواصلة **كلها تدابير للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع اللبنات للبرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة،** التي كانت كلها صوراً ذهنية تتراءى في مخيلتنا، وصحبها من حسن النية، وتفيق الله ما

حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة 1913 ميلادية، هي التي وُضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز إلى الوجود إلا في سنة 1931م."[1] (الخطوط تحت السطور من إضافتي).

2.5. شخصية الإمام ابن باديس:

إن هذا النص في غاية الأهمية بالنسبة لي لإثبات ما أذهب إليه بشأن النهضة الجزائرية وريادتها. فهو بالإضافة إلى دلالته على فصاحة الشيخ الإبراهيمي، وبلاغته، وصفاء روحه، وتواضعه، وصدقه، وإشارته إلى ما حصل بين الرجلين الفذين من توافق عقلي وتواؤم روحي، يدل كذلك على ما يلي:

أ) إن ابن باديس عالم جليل لا يُضاهى في علمه ولا يُدانى. فعلى الرغم من أن الشيخين، ابن باديس والإبراهيمي، كانا في سن واحدة، ويتابعان الدراسة الإسلامية ذاتها، وينتميان إلى أسرتين عريقتين في العلم والجاه، فقد كان الشيخ الإبراهيمي يدرس في المدينة المنورة على علماء أجلاء منهم والده الذي غادر الجزائر مضطراً وهاجر إلى المدينة المنورة للتدريس فيها؛ على الرغم من كل ذلك، يقول الإبراهيمي، وهو من هو في علمه وفضله: إن "**ابن باديس أعلم علماء الشمال الأفريقي، ولا أغالي**".

ب) إن نص الشيخ الإبراهيمي ينضح بالمحبة والإخلاص والوفاء للشيخ ابن باديس ما يدل على أن ابن باديس زعيم مطبوع، ذو شخصية قوية جذابة محببة. يؤثر في سامعيه وقارئيه بسهولة وعمق، ويستثير إعجابهم

---

[1] الدكتور محمد دراجي، **الإمام عبد الحميد بن باديس من خلال مقالات الإمام محمد البشير الإبراهيمي** (الجزائر: عالم الأفكار، ب ت) ص 8.

ومحبتهم وإخلاصهم. وفي هذا يقول صديقنا الدكتور عمار الطالبي في كتابه القيم ذي المجلدات الستة الذي خصصه لحياة الإمام ابن باديس وأعماله:

"**إنه شخصية عجيبة، مجدد للنفوس البالية، وباعث للضمائر الخامدة، والقلوب الهامدة، باث للعلم، محرك للعقول، مرجع الثقة للناس، زارع بذور الثورة، مشيع فكرة الحرّية، مبيِّن المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها...**"[1]

ت) إن مقارعة الاستعمار الفرنسي لم تكن ممكنة بهبّة سياسية فقط وإنما تحتاج إلى نهضة على جميع المستويات "**العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية**"، وأساسها جميعاً التعليم، أو كما ورد في عنوان إحدى مقالات الشيخ ابن باديس : "**صلاح التعليم أساس الإصلاح.**"

ث) إن النهضة الجزائرية جاءت بعد تأمل وتفكير وتخطيط من حيث الأهداف والوسائل. وأحسب أن هذا التأمُّل والتفكير والتخطيط للنهضة الجزائرية لم يستغرق الشهور الثلاثة التي أمضاها الشيخان معاً في المدينة المنورة، بل طوال حياتهما، فهي نهضة تقوم على منهج ونظام، وتهدف إلى تحقيق أهداف معلومة وغايات مرسومة.

ج) إن الأهداف السياسية لم تكن غائبة عن فكر ابن باديس وجمعية العلماء المسلمين، كما هو واضح من نص الشيخ الإبراهيمي. ففي مقال للشيخ ابن باديس نشره في جريدته البصائر سنة 1937، يقول: "**لا بد لنا من الجمع بين السياسة والعِلم، ولا ينهض العلم والدين حق النهوض إلا إذا نهضت السياسة بحق.**"[2]

---

[1] عمار طالبي. مرجع سابق، ص 97.

[2] نقلاً عن الدكتور عمار طالبي، مرجع سابق، ص 91.

ولكن الإمام لم يكن يجاهر بأهدافه السياسية مباشرة وبوضوح، تحاشياً للإجراءات الزجرية التي تتخذها السلطات الفرنسية الاستعمارية، فتغلق المدارس العربية والصحف العربية، وتمنع تدريس اللغة العربية، وتلاحق أعضاء الجمعية. ومع كل حذره ورمزيته في التعبير عن أهدافه السياسية، كانت السلطات تمعن وتبالغ في إجراءاتها القمعية وعقوباتها اللاإنسانية.

إذا لم يكن الإمام ابن باديس يمارس السياسية في مستواها المعتاد، فإنه كان يمارسها في مستواها الأسمى والأصعب. فقد كان يمارس سياسة السياسة. يقول الخبير في تاريخ الجزائر، الأستاذ ناصر الدين سعيدوني، في كتابه "**الجزائر**":

"**وإذا كان الجناح الاستقلالي قد رفع راية الاستقلال، فإن جمعية العلماء وضعت الأسس التي يقوم عليها الاستقلال، وهو إحياء الشعب الجزائري في إطاره العربي الإسلامي. إنه من السهل إقامة دول، ولكن من الصعب إحياء أمم، وهذا الصعب هو ما قامت به جمعية العلماء.**"[1]

6. الإمام ابن باديس والعروبة:

1.6. أقواله وأشعاره في العروبة والعربية:

عندما كنتُ أشتغل على تأليف كتابي "**معجم الاستشهادات**" الذي استغرق جمعه سنوات التسعينيات العشر كلها، وهو معجم يشتمل على الأقوال والأمثال والحكم والقواعد القانونية المقتبسة من الشعر والنثر قديماً وحديثاً،

---

[1] ناصر الدين سعيدوني. الجزائر، منطلقات وآفاق. ص 224. نقلاً عن موقع مالك بن نبي www.binnabi.net

والمرتَّبة ترتيباً موضوعياً[1]، لفت نظري تعلّق (عبد الحميد بن باديس الصنهاجي) بالعروبة واللغة العربية، ولم أكن آنذاك قد تشرّفت بدراسة نهضة الإمام ابن باديس وجمعية العلماء المسلمين، بل تعرفت إلى اسمه الكريم من أقواله التي يُستشهَد بها والتي جمعها مساعديّ من الكتب والدوريات العربية. فكنتُ أتساءل في نفسي -بسبب جهلي-: ما لهذا الشيخ الصنهاجي والإصرار على العروبة والعربية؟

ومن أقواله وأشعاره التي يُستشهَد بها:

أ- شعب الجزائر مسلمٌ ... وإلى العروبة ينتَسبْ
مَن قال: "حادَ عن اصلهِ ... أو قال: "ماتَ"، فقد كذبْ
أو رامَ إدماجاً لهُ ... رامَ المُحالَ من الطلبْ

ب -أشعبَ الجزائرِ روحي الفدا ... لما فيك من عزةٍ عربيةً
بنيتَ على الدينِ أركانها ... فكانت سلاماً على البشريهْ

د- الحمدُ للهِ ثمَّ المجدُ للعربِ ... مَن أنجبوا لبني الإنسان خيرَ نبي
ونشروا ملَّةً في الناس عادلةً ... لا ظُلمَ فيها على دينٍ ولا نَسَبِ

هـ- نحنُ الأولى عرفَ الزما ... نُ قديمَنا الجمَّ الحسبْ
ومعينُ ذاكَ المجدِ في ... نسلِ العروبة ما نضَبْ

و- ورجعنا إلى الوطن بقصد خدمته، فنحنُ لا نهاجر، ونحن حرّاس الإسلام والعربية والقومية في هذا الوطن، وإلخ...

---

[1] الدكتور علي القاسمي. معجم الاستشهادات (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2001). ولهذا المعجم إصداران آخران من نفس الناشر هما: معجم الاستشهادات الموسع (2008)، معجم الاستشهادات الوجيز للطلاب (2012).

2.6. أسباب تأكيد الإمام على العروبة والعربية:

عندما وفقني الله لدراسة فكر الإمام ابن باديس، وزادت تجربتي في التعليم والتنمية البشرية، وقفتُ على بعض الأسباب الحقيقية لأقوال الإمام في العروبة والعربية، ومنها:

أ) إن اللغة العربية، كما يفهمها الإمام ابن باديس، وهو مصيب كعادته، ليست لغة جنسٍ بشريٍّ محدَّد، ولا لغة عرقٍ إنسانيٍّ معيَّن، بل هي لغة ثقافة، هي الثقافة الإسلامية. فقبل الإسلام كان للعرب الذين يسكنون في شبه جزيرة العرب أو الذين نزحوا منها إلى الشرق الأوسط وإفريقيا، لغات ولهجات متعددة كالحميرية والنبطية والعربية والأكادية والآرامية والكنعانية والقبطية والأمازيغية وغيرها، ولكن عندما نزل القرآن الكريم باللغة العربية، أصبحت هذه اللغة لغة الثقافة العربية الإسلامية، ولم تعد لغة عرق بشري مخصوص، بل لغة جميع المنتمين إلى الإسلام وثقافته. فهي اليوم لغة مليار ونصف المليار من المسلمين من جميع الأجناس والأعراق، يؤدّون صلاتهم وشعائر دينهم بها، ويفهمون حقائق عقيدتهم من خلالها[1]. ويشرح الإمام ابن باديس ذلك بأسلوب جزل سهل واضح مقنع في خطاب مفتوح وجهه إلى معلمي الفرنسية الأحرار بالعمالات الجزائرية الثلاث، في جريدته "**البصائر**" في عددها 110 سنة 1933 م، يقول فيه:

"وأنتم تعلمون كذلك أن الأمة الجزائرية أمة إسلامية الدين عربية اللسان، يستحيل عليها أن تتخلى عن ذلك الدين ويستحيل أن تفهم حقائق ذلك الدين إلا باللسان العربي، وأن الإسلام والعربية هما أول ما تعهدت فرنسا بحفظه وعدم مساسه من مقومات هذه الأمة ومقدساتها، من أول عهد

---

[1] الدكتور علي القاسمي. **صناعة المعجم التاريخي للغة العربية** (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2012) ص ص 133ـ159.

احتلالها لهذا القطر، فما بالها منذ سنوات بدأت تتنكر للإسلام ولغته، وتضيّق في تعليمهما الخناق؟"[1].

وهكذا يُصبح الإسلام والعربية أساس وحدة الشعب الجزائري، ومن مقومات هُويته الوطنية التي تميّزه عن فرنسا الاستعمارية.

ب) كانت السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر تقوم على ثلاثة أسس: تنصير الجزائريين، وفرض الفرنسية لغة وحيدة في الجزائر، وإدماج الجزائريين باعتبار أن الجزائر أرض فرنسية. فكان ردّ الإمام على قدر التحدي، ردٌّ ينسف الأسس الاستعمارية، وقد صاغه ببلاغة وعمق، كما أسلفنا، في شعار: "**الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا.**"

ت) طبقاً لسياسة "**فرق تسُد**" التي مارسها المستعمرون الفرنسيون، فصلوا العرب عن إخوانهم الأمازيغ، وزعموا أن الأمازيغ من أصول أوربية، في حين أن الحقائق العلمية والتاريخية واللغوية تثبت بجلاء أن الآشوريين والكلدانيين في العراق، والآراميين في الشام، والأمازيغ في شمال إفريقيا، هم في الأصل من الجزيرة العربية، وأن كتابة اللغة الأمازيغية المعروفة باسم "تفيناغ" ما هي إلا "تفينيق" فهي مشتقة من الكتابة الفينيقية الكنعانية العروبية، أسوة بجميع كتابات لغات العالم، كالعربية والإغريقية. فما أسماء حروف الألفباء الإغريقية: (ألفا، بيتا، جاما، دلتا، إلخ.) إلا أسماء حروف الأبجدية الفينيقية: (الأليف، والباء، والجيم، والدال، إلخ.) التي كانت تدل على (الأليف، والبيت، والجمل، والدلو، إلخ.). ولهذا كان رد الإمام مصيباً علمياً وسياسياً:

شعب الجزائر مسلمٌ وإلى العروبة ينتَسبْ

---

[1] جريدة "البصائر" في عددها سنة 1938م ص 4، نقلاً عن الدكتور عمار طالبي، مرجع سابق، المجلد 6، ص 104.

ث) عندما كلفني (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي) بمراجعة الترجمة العربية لـ (تقارير التنمية البشرية) التي يصدرها سنويا، وهي تقارير تُكتب بالإنكليزية بمقره في نيويورك وتُترجم إلى اللغات الرسمية الأخرى في الأمم المتحدة: الإسبانية، والروسية، والصينية، والعربية، والفرنسية، تعلّمتُ منها أن التنمية البشرية تعني اضطلاع الدولة، من حيث الأساس بثلاثة مجالات، وتحقيق تقدم فيها، وهي:

-**الصحة**، وتقاس بمعدّل متوسط العمر للمواطنين عند الولادة،

- **التعليم**، ويقاس بمعدل التمدرس، ونسبة الأمية،

-**الدخل الفردي**، ويقاس بكفايته الفعلية ليعيش المواطن بصورة تليق بالكرامة الإنسانية.

ولكي تحقق الدولةُ التنميةَ البشرية في البلاد، ينبغي أن تعمل على احترام حقوق المواطنين، وتطوير البنيات التحية، وتوفير الخدمات الصحية الجيدة، وتعمل على إيجاد مجتمع المعرفة القادر على الوصول إلى المعلومات بسهولة ويسر، واستيعابها، وتمثلها، والإبداع فيها، وتبادلها. وهذا يتطلب من الدولة توفير التعليم الجيد بلغة وطنية مشتركة في جميع أنحاء البلاد، وعلى نفقتها. وقد اتبعت هذه الوصفة دول كانت في الستينيات أفقر من البلاد العربية، مثل كوريا وفنلندة وماليزيا، فأصبحت اليوم من الدول المتقدمة. واللغة الوطنية المشتركة هي عماد عملية التنمية البشرية. وكان الإمام زعيماً بعيد النظر لم يكن يعمل للفترة الراهنة بل كذلك لجزائر المستقبل المستقلة، التي ينبغي أن تكون لها لغة مشتركة موحِّدة واحدة، مثل فرنسا.

أ) ليس التأكيد على اللغة العربية وقفاً على النهضة الجزائرية، بل كانت أساساً من أسس النهضة العربية الشاملة في جميع الأقطار العربية. ولم تكن النهضة الجزائرية في معزل عن النهضة العربية الشاملة، وقد مر بنا كيف تأثر الإمام ابن باديس بالإصلاحيين الإسلاميين مثل جمال الدين الأفغاني، ومحمد

عبده، ورشيد رضا من خلال شيوخه ومجلة المنار. ولا يغيب عن بالنا أن الشيخ الإبراهيمي أمضى ست سنوات في الحجاز (من 1911 ــ 1917م) عندما كان شريف مكة الحسين بن علي يدعو إلى استقلال الدول العربية ووحدتها[1]، وأن الشيخ الطيب العقبي (1889 ـ 1965م) وهو من مؤسسي جمعية العلماء المسلمين، والذي كان قد نشأ في الحجاز لأن عائلته هاجرت إليها، كان يكتب في الصحف المشرقية بوصفه من رواد النهضة العربية في الحجاز، ما جعل العثمانيين ينفونه إلى (الروم ايلي) و(الأناضول) في تركيا، ولم يعد إلى الحجاز إلا بعد الحرب العالمية الأولى بعد أن أمضى سنتين في المنفى، فاستقبله الحسين بن علي الذي أصبح ملكاً على الحجاز وعيّنه محرراً لجريدة (القبلة). ولم يعد العقبي إلى الجزائر إلا في سنة 1920[2].

وقد أمضى البشير الإبراهيمي أربع سنوات في سوريا (1917 ـ 1921)، عندما كان فيصل بن الحسين بن علي ملكاً على سوريا، وعمل الإبراهيمي في دمشق أستاذاً في المدرسة السلطانية، وهي مدرسة عليا، وشارك في تأسيس المجمع العلمي العربي الذي تولى تعريب الإدارة السورية. وكان على صلة برواد النهضة العربية في الشام الذين كانوا يدعون إلى استقلال البلدان العربية ووحدتها، ولا شك أنه تأثر بهم. بيد أن الناقد الجزائري الدكتور عبد الملك مرتاض يقول:

"ونحن وإن كنا نقر بهذا التأثر إقراراً، إلا أننا نميل إلى أن الإبراهيمي قد يكون تأثيره هناك أكثر من تأثره. والآية على ذلك أنه انتصب للتدريس بالمدينة [دمشق] وسنه يومئذ لا تجاوز الخامسة والعشرين."[3]

---

[1] محمد – البشير –الإبراهيمي www.ikhwanwiki.com/index.php?title

[2] محمد الطاهر فضلاء. الطيب العقبي، رائد حركة الإصلاح الديني في الجزائر(الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة، 1985) ص 20 –21.

[3] الدكتور عبد الملك مرتاض. **محمد البشير الإبراهيمي** (الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة، 1984) ص 16.

ورأي الدكتور مرتاض هذا يدعم رأينا في أن النهضة العربية وروادها لم تكن مقتصرة على الشام ومصر. فحتى في الحجاز والشام نجد مساهمة جزائرية في النهضة العربية من لدن علماء جزائريين كالعقبي والإبراهيمي، وقبلهما الأمير عبد القادر الجزائري (1808 ـ 1883) الذي مارس التدريس في عدة مدارس بدمشق منها الجامع الأموي نفسه منذ استقراره بدمشق سنة 1856 حتى وفاته؛ وكان إصلاحياً يدعو إلى الإسلام الحق ليس بأقواله فحسب بل كذلك بأفعاله، كقيامه بحماية المسيحيين وإيوائهم في منزله أثناء الفتنة بين الدروز والمسيحيين سنة 1860، ثم الإصلاح فيما بينهما.[1].

هذا التفاعل الجزائري مع الحركة العربية في المشرق، وهذه المشاعر العروبية لدى الجزائريين يتجليان في برقية الإمام ابن باديس إلى علوبة باشا رئيس المؤتمر البرلماني العربي لدراسة وضع فلسطين عام 1938، إذ تقول البرقية: "**نحن معكم. جمعية العلماء. ابن باديس.**"، وتتجلى لدى الشيخين الإبراهيمي والعقبي عند نكبة فلسطين سنة 1948م إذ أسسا باسم جمعية العلماء (لجنة إغاثة فلسطين) فأسرعت جميع الهيئات والأحزاب الجزائرية إلى المشاركة فيها.

ولهذا كله، كان الإمام ابن باديس يشدد على أهمية االعربية بوصفها لغة الأمة العربية الإسلامية التي كان جميع رواد اليقظة الفكرية يأمل في نهضتها ووحدتها.

أ) إضافة إلى جميع تلك الأسباب التي ذكرناها، فثمة سبب ذاتي يفسِّر لنا تعلُّق الإمام ابن باديس باللغة العربية. ويكمن هذا السبب في كون الإمام شاعراً مُجيداً وكاتباً فذاً وخطيباً مفوهاً لا يتردد ولا يتلعثم. وعلاقة الشاعر والكاتب والخطيب باللغة ليست كعلاقة الأمّي بها. وكلما ارتفعت منزلة

---

[1] القادر ـ الجزائري /www.ar.wikipedia.org/wiki وكذلك: ـ إسماعيل العربي. **الأمير عبد القادر الجزائري** (الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة، 1984)

الكاتب في الإبداع، ازدادت علاقته باللغة حميميةً، واشتد تعلُّقه بها حتى يصبح نوعاً من العشق والهيام. فهذه العلاقة بين المبدع واللغة أشبه ما تكون بعلاقة الموسيقي الفنان بآلته الوترية، التي تزداد وثاقة بمرور الأيام ورقي الإبداع، حتى يحسّ الموسيقي بأن آلته امتدادٌ لأصابعه وذراعيه وجسده كله، وأن نبض أوتارها من نبض قلبه وعروقه.

وكان الإمام ابن باديس يمارس فعل القراءة والكتابة في ليله ونهاره، وقد توثقت علاقته باللغة العربية ومحبته لها منذ أيام دراسته الأدب العربي على الشيخ ابن عاشور في جامع الزيتونة بتونس وهو فتى يافع. يقول الإمام عن تلك الدراسة:

"وإن أنسَ فلا أنسى دروساً قرأتُها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور وكانت أول ما قرأتُ عليه، فقد حببتني في الأدب والتفقُّه في كلام العرب، وبثتْ فيّ روحاً جديداً في فهم المنظوم والمنثور، وأحيتْ مني الشعور بعزِّ العروبة، والاعتزاز بها كما أعتز بالإسلام."[1]

بيدَ أن محبة الإمام ابن باديس للإسلام والعربية تخلو من التعصب أو الاستعلاء العرقي أو اللغوي، فهو يرى في الإنسانية جمعاء أسرة واحدة، أو كما يقول:

قومي همُ، وبنو الإنسان كلّهمُ عشيرتي، وهدى الإسلام مطَّلبي

فاعتزازه باللغة العربية ناتج من كونها لغة الإسلام الذي جاء للبشرية سلماً وعدلاً، أو كما يقول:

أشعبَ الجزائرِ روحي الفدا لما فيكَ من عزة عربية

---

[1] جريدة **البصائر**، العدد 16، 1936م، نقلاً عن عمار طالبي، مجلد 1، ص 82ـ83.

بنيــتَ علــى الــدين أركانهــا فكانــت ســلاماً علــى البشــرية

7. وسائل الإمام ابن باديس في النهضة الجزائرية:

كان الإمام ابن بـاديس يـدرك أن تحريـر الشـعب الجزائـري مـن الاسـتعمار الفرنسي يتطلب أولاً تحرير العقول مـن الجهـل والخرافـات، وتعميرهـا بـالعلم والمعرفة؛ وتخليص النفوس من الضعف والخوف واليأس، وملئها بالإيمان والثقة والأمل، ولهذا أستخدم في جهاده جميع الأسلحة الفكرية التي يمكن تلخيصـها في الوسائل التالية التي اتبعها الإمام وأعضاء جمعية العلماء المسلمين:

أ) إنشاء الكتاتيب والمدارس وملاجئ الأيتام ومعامل الصنائع، والتعليم فيها،

ب) إصدار الدوريات والكتابة فيها،

ت) بناء المساجد والجوامع ومزاولة الوعظ والإرشاد فيها،

ث) تأسـيس النـوادي الثقافيـة والرياضـية وإلقـاء المحاضـرات فيهـا وفي والمحافل المختلفة.

ج) القيام بالرحلات والجولات للتوعية في جميع أنحاء الجزائر.

1.7. **التعليم أساس بناء الإنسان وتشييد الأوطان**:

ولعل التعليم أهم هذه الوسائل فاعلية وأنجعها وأبعدها تأثيراً، وهو الوسـيلة التي أهملتها النهضة العربية في المشرق، ولهذا كان أثرهـا محـدوداً، في رأينـا. أمـا الإمام ابن باديس فيعدّ التعليم أسـاس كـل نهضـة، خاصـة إذا كانـت أغـراض التعليم، كما يراها الإمام متعددة الأبعاد: دينية، واجتماعية، وثقافية، ونفعية.

يقول الدكتور محمد دراجي، مؤلف كتاب "**الإمام عبد الحميد بن باديس من خلال مقالات الإمام محمد البشير الإبراهيمي**":

"**وعاد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي إلى أرض الوطن، عام** 1920م [أي بعد حوالي سبع سنين من عودة ابن باديس] **وحط الرحال أولاً في مدينة قسطينة ليزور صديقه الوفي، عبد الحميد بن باديس حتى قبل أن يزور أهله وأقرباءه ـ في قسنطينة ـ، رأي بأم عينيه ما سرّ قلبه وأثلج صدره، رأى تلك الجحافل من طلاب العلم، رأى الكتائب الأولى، المعدَّة لمعركة الهُوية الثقافية والحضارية والوطنية الصادقة قد استوت على سوقها، تُعجب أهل الإيمان والإصلاح، وتُغيظ الاستعمار وأعوانه وأذنابه.**"[1]

إن تلك الجحافل والكتائب من طلاب العلم، التي أشار إليها الدكتور دراجي لم تكن لو لم يبذل الشيخ ابن باديس غاية الجهد، ويعمل بعزيمة فرقة كاملة من القادة. فقد كان يمارس التعليم في قسنطينة في سبع مؤسسات في وقت واحد هي: المسجد الكبير، وسيدي قموش، وسيدي عبد المؤمن، وسيدي بومعزة، والجامع الأخضر وسيدي فتح الله، ومدرسة جمعية التربية والتعليم الإسلامية التي ورد في قانونها الأساسي الذي صدر سنة 1931م: "**إن مقصود الجمعية نشر الأخلاق الفاضلة، والمعارف الدينية، والعربية، والصنائع اليدوية، بين أبناء وبنات المسلمين، ..**"، ودعا الجزائريين إلى تأسيس أمثال هذه الجمعية أو فروع لها في جميع أنحاء القطر، وعلَّل ذلك بأنه لا بقاء لهم إلا بالإسلام، ولا بقاء للإسلام إلا بالتربية والتعليم.[2]

---

[1] الدكتور محمد دراجي. مرجع سابق، ص 9 ـ 10.

[2] نشرة جمعية التربية والتربية الإسلامية، 1352ه/ 1936م، ص 1 ـ 4، نقلاً عن الدكتور عمار طالبي، مرجع سابق، ج1 ص 118.

لقد ذكرت جريدة "**الشهاب**" أن عدد المدارس التي أُنشئت لغاية سنة 1935م بلغ 70 مدرسة موزّعة على مختلف جهات الجزائر، فيها 3000 تلميذ يتعلَّمون الثقافة العربية الإسلامية. إن هذا النوع من الجهاد الفكري بمثابة إشهار الحرب على الاستعمار الفرنسي. فلا غرابة أن يتعرض الإمام ابن باديس لمحاولة اغتيال كما حصل له في أواخر سنة 1926م إثر خروجه من الجامع الأخضر في قسنطينة بعد درس التفسير عائداً راجلاً إلى منزله، وهي الحادثة التي سجلها شعراً رفيقه في الكفاح الشيخ الطيب العقبي:

عبد الحميد النصرُ قد وافاكا رغم المنافسِ والذي عاداكا
واصلتَ سيركَ مرشداً ومعلماً ولسوف تحمد بعدها مسراكا

وقد واصل الإمام ورفاقه في جمعية العلماء المسلمين مسيرتهم في التعليم والإرشاد، وفي سنة 1950م بلغ عدد المدارس 124 مدرسة تضم 40000 تلميذ بما فيها سلك تربوي يؤمّه 144 معلماً[1]، لأنهم يؤمنون بالمبدأ الذي صاغه الإمام ابن باديس شعراً:

يا نشءُ أنتَ رجاؤنا وبك الصباحُ قد اقتربْ
خذ للحياة سلاحها وخضْ الخطوَبَ ولا تهبْ

وقد خلد شعراء الجزائر ذلك الجهاد التعليمي والكفاح التربوي اللذين قادهما الإمام ابن باديس في أشعارهم. فمن شعر الشيخ محمد العيد آل خليفة (1904 ـ 1979م) أمير شعراء الجزائر ومن أخوال الشيخ الطيب العقبي وكلاهما من مؤسسي جمعية العلماء المسلمين، قوله في الإمام:

بمثلكَ تعتزُ البلادُ وتفخرُ وتزهوَ بالعلمِ المنيرِ وتزخرُ
طبعتَ على العلمِ النفوسَ نواشئاً بمَخبَرِ صدقٍ لا يدانيه مخبرُ

[1] www.el-mouradia.dz/arab/algerie/portrait/Archives /Badis.htm

وقد أحسنت الجزائر المستقلة حينما جعلت من يوم وفاة الإمام في 16 أبريل (يوم العلم) من كل عام.

2.7. الصحافة وسيلة لتشكيل الرأي العام:

الصحافة من أفضل وسائل تشكيل الرأي العام، بشرطين: أن يكون المجتمع متعلِّماً يجيد القراءة، وأن تكون عادة القراءة قد نُميّتْ فيه، وإلا فستكون الصحافة صيحة في واد. وقد انتقدنا النهضة العربية في المشرق لاعتمادها الأساس على الصحافة لتوعية شعوب كان حوالي 80% من أفرادها أُمياً.

بيدَ أن الإمام ابن باديس جعل التعليم وسيلته الأساس لتحقيق النهضة، ودعمَ التعليمَ بالصحافة. فتلامذته يتعلمون القراءة على يديه وفي المدارس التي أنشأتها جمعيته، ويعززون مهارتهم القرائية والفكر الذي اكتسبوه، بمتابعة مقالات الإمام ورفاقه في الصحف.

صدرت عدة صحف عربية في الجزائر قبل أن يبدأ الإمام ابن باديس صحيفته الأولى. ولكن هذه الصحف سرعان ما كانت تُصادَر أو تُغلَق بعد عدد أو بضعة أعداد من طرف السلطات الاستعمارية (كما كان حال الصحف في المشرق). ولعل أشهر الأمثلة على وقاحة المستعمرين، وصلابة الجزائريين الصحف التي أصدرها المجاهد أبو اليقظان. فقد صادر له المستعمر 8 جرائد خلال 13 سنة، هي: - وادي ميزاب (1926)، ميزاب (1930)، المغرب (1930)، النور (1931)، البستان (1933)، النبراس (1933)، الأمة (1938)، الفرقان (1938)، [1].

[1] الدكتور محمد ناصر. أبو اليقظان وجهاد الكلمة (الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة، 1984) ص 28.

وقد صدرت عدة صحف جزائرية بالعربية قبل أن يُصدر الإمام ابن باديس صحيفته الأولى، وهذه الصحف هي:

أ) **الجزائر**، الصحفي عمر راسم، سنة 1908. وهي أولى مجلة عربية يصدرها جزائري[1].

ب) **الحق**، في وهران، سنة 1911.

ت) **الفاروق**، عمر بن قدور، سنة 1913، (كانت تنقل مقالاتها من مجلة "المنار").

ث) **ذو الفقار**، الصحفي عمر راسم، سنة 1914.

ج) **الإقدام**، الأمير خالد الهاشمي، سنة 1919 (باللغتين العربية والفرنسية).

ح) **النجاح**، مؤسساها الشيخ عبد الحفيظ الهاشمي والشيخ ابن باديس، سنة 1919.

خ) **لسان الدين**، أسبوعية سياسية، سنة 1923.

أما الصحيفة الأولى التي أصدرها الإمام بن باديس منفرداً فهي صحيفة "**المنتقد**" سنة 1925م وشعارها "**الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء**". واسمها يدل على النقد، "**فننقد الحكام والمديرين والنواب والقضاة والعلماء والمقاديم، وكل من يتولى شأناً عاماً من أكبر كبير إلى أصغر صغير من الفرنسيين والوطنيين.**"، وطبعاً يشمل النقد بعض الطرقية التي تروج شعار " **اعتقد ولا تنتقد**". وقد حمل العدد الأول منها بشرى للشعب الجزائري بإنشاء المطبعة الجزائرية الإسلامية في قسنطينة ذلك العام، 1925، التي تطبع هي فيها المنتقد. ولا بد أن إنشاءها تمّ بإيعاز من الإمام. وسرعان ما أُنشئت بعدها أربع مطابع عربية.

---

[1] الدكتور محمد ناصر. عمر راسم المصلح الثائر (الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة، 1984) ص 9.

بعد صدور 18 عدداً من المنتقد، صادرت السلطات الفرنسية الجريدة ومنعتها من الصدور، فأصدر الإمام جريدة "**الشهاب**". وفي سنة 1929 حولّها إلى مجلة شهرية علمية وقد كتب على أركانها الأربعة كلمات: **الحرية، العدالة، الأخوة، السلام**. وقد صدر آخر عدد من الشهاب سنة 1939.

أثناء صدور مجلة "**الشهاب**"، كانت جمعية العلماء المسلمين تصدر جرائد أسبوعية هي:

أ) "**السنّة**" صدرت سنة 1933، فسرعان ما منعتها السلطة الاستعمارية، فخلفتها

ب)"**الشريعة**" سنة 1933 ذاتها، ثم صادرتها السلطة الفرنيسية، فخلفتها

ت) "**الصراط**"، 1933 ـ 1934، ثم منعتها الحكومة الفرنسية، وجاء في قرار المنع" ممنوع على جمعية العلماء إصدار أية صحيفة أخرى باسمها إلى حين إشعار آخر.."

ث) "**البصائر**" سنة 1935، ـ توقفت أثناء الحرب العالمية الثانية ـ ثم استأنفت صدورها سنة 1947 حتى الثورة التحررية الجزائرية سنة 1954م.[1]

وهكذا نرى أن جمعية العلماء المسلمين تصرُّ على التعليم والتنوير، وتصر السلطة الفرنسية على التجهيل والتحريم. كما نلاحظ التداخل والتكامل بين أنشطة الإمام وعلماء جمعيته في إنشاء المدارس وتكوين القادة وبين أنشطتهم الصحفية الهادفة إلى بث الوعي العربي الإسلامي والوطنية الجزائرية.

3.7. **مؤسسات الثقافة تشكّل الهوية الوطنية**:

إضافة إلى التعليم والصحافة، أسَّس الإمام ابن باديس أو أوعز بتأسيس الجمعيات والمنظمات والنوادي والفرق الكشفية والرياضية والموسيقية،

---

[1] عمار طالبي، مرجع سابق، ج1، ص .ص 58 – 64.

وغيرها من المؤسسات الثقافية. فكان يضطلع بالوعظ والإرشاد في المساجد، ويلقي المحاضرات في النوادي والمحافل، ويقوم بالرحلات إلى أنحاء البلاد لالتقاء بأهلها وتنظيم أنشطتهم الوطنية.

يروي الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أنه بعد عودته إلى مدينة سطيف، زاره الشيخ ابن باديس حوالي سنة 1924م، وطلب منه أن يعدَّ قانوناً لـ (جمعية الإخاء العلمي) "**تجمع شمل العلماء والطلبة، وتوحِّد جهودهم، وتقارب بين مناهجهم في التعليم والتفكير، وتكون صلة تعارف بينهم ومزيلة لأسباب التناكر والجفاء...**"[1].

وظل التزاور والتشاور بينهما مستمراً حتى تهيأت الظروف وأُعلن عن تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، وانتخب الشيخ ابن باديس رئيساً للجمعية والشيخ الإبراهيمي نائباً له.

ومن الأمثلة على المؤتمرات التي عقدها الإمام ابن باديس أو التي شجع على عقدها (**المؤتمر الإسلامي**) الذي عُقِد في الجزائر العاصمة في جوان 1936م، تلبية لدعوة مشتركة من لدن الإمام ابن باديس والدكتور محمد الصالح بن جلول (1896 ـ 1986م)، وشاركت فيه الطبقة السياسية الجزائرية التي توحدت لأول مرة حيث جلس في المؤتمر العلماء المسلمون، إلى جوار الزعماء الشيوعيين، وزعماء بقية الأحزاب الوطنية الجزائرية، وانتهى المؤتمر إلى صياغة ما يسمى "**بميثاق مطالب الشعب الجزائري المسلم**" الذي حمله الإمام ابن باديس والدكتور جلول إلى رئيس الحكومة الفرنسية "ليون بلوم" في باريس[2].

---

[1] آثار الإمام الإبراهيمي، ج1، ص 184، نقلاً عن الدكتور محمد دراجي، مرجع سابق، ص10.

[2] قيدوم سعيدة ومصمودي نصر الدين. "المؤتمر الإسلامي الجزائري 1963 وأثره في الحركة الوطنية" في: Dspace.univ-biskra.dz.8080/jspui/gabdle/123456789/3316

وقد بهرتني حكمة الإمام ابن باديس ودبلوماسيته في حشد الطاقات والإمكانات المختلفة الأهداف لخدمة قضيته الوطنية وأمته الجزائرية العربية الإسلامية. فمعروف أن الدكتور بن جلول هو من دعاة الإدماج من أجل تحسين وضعية الجزائريين، بيد أن الإمام نسف ذلك الإدماج مرتين: مرة بتسمية المؤتمر، "**المؤتمر الإسلامي**"، ومرة بتسمية مقرراته، "**ميثاق مطالب الشعب الجزائري المسلم**". فمع الإسلام، لم يعُد ثمة مكان للإدماج الذي كان يحلم به عتاة المستعمرين الفرنسيين، فإدماجهم يقوم أساساً على التنصير والفرنسة.

ومن أمثلة النوادي التي أنشأها أو شجع على إنشائها الإمام ابن باديس، (نادي الترقي) في ساحة الحكومة سابقاً (الشهداء حالياً) في الجزائر العاصمة، الذي تبرع بتكاليفه عدد من التجار الجزائريين المحسنين المتأثرين بأفكار الإمام ودعوته الإصلاحية، بغرض تقديم أنشطة ثقافية متنوعة ومحاضرات يومية أو أسبوعية حول الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، من أجل جذب الشباب الجزائري من المقاهي والحانات وإشراكه في هموم أمته؛ ودعوا الإمام ابن باديس لافتتاحه بمحاضرة سنة 1927م. وبعد مدة انتقل رفيق الإمام، الشيخ الطيب العقبي إلى العاصمة ليكون المنشط الرئيس للنادي. وفي هذا النادي تم عقد الجلسة الأولى لجمعية العلماء المسلمين، سنة 1931، التي تم فيها انتخاب ابن باديس رئيساً للجمعية في غيابه[1].

وخلاصة القول إن الإمام ابن باديس ذو شخصية متنوعة الأبعاد متعددة الاهتمامات، وقد استخدم مختلف الوسائل في سبيل تحقيق غاياته السامية. يروي الدكتور مازن صلاح حامد مطبقاني في كتابه "**عبد الحميد بن باديس، العالم الرباني والزعيم السياسي**" أنه قابل أحد تلاميذ الإمام وهو الشيخ عبد الرحمن شيبان حين كان وزيراً للشؤون الدينية، ويقول: "**وكنتُ قد أعددتُ له**

---

[1] عمار مطاطلة. **ذكريات أحداث** (الجزائر: ب ت) ص 53 ـ 57.

سؤالاً عرفتُ فيما بعد أنه كان محرجاً أو غير مناسب، وهو: ثبت عن الشيخ عبد الحميد رحمه الله أنه كان ينوي إعلان الثورة فيما لو أعلنت إيطاليا الحرب على فرنسا، وتوفاه الله تعالى قبل ذلك. فلماذا لم ينفذ العلماء فيما بعد ويتولوا قيادة المعركة بدل تركها في يد من تُركت في أيديهم؟ فأجاب: (ليس كل الناس ابن باديس، فالعلماء لم يقوموا بالثورة لأن ذلك ليس من طبيعة الأشياء، فهم مربّون ومعلّمون لإعداد الناس، أما ابن باديس فهو زعيم وقائد وجندي ومربي)[1].

وإذا كان الإمام ابن باديس قد توفاه الله سنة 1940، فإن علماء الجزائر قد واصلوا السير على خطاه في التعليم والجهاد الفكري على جميع الأصعدة، ما هيأ المجتمع الجزائري للانخراط في ثورة التحرير ودعمها حين اندلاعها حتى تحقيق النصر بالاستقلال.

8. الخاتمة:

سيدي الشيخ الإمام! اسمحو لي بالمثول أمام ضريحكم الطاهر، لأترحم على روحكم الزكية، وألوذ بأذيالكم النقية، لأبثكم لواعج همي الذي يُثقل قلبي ويُحزن نفسي ويُدمع عيني، دون أن أستطيع أن أفعل شيئاً؛ إذ إنني لا أملك بعض حكمتكم الباهرة، ولا جزءاً من شجاعتكم النادرة. فأنا كباقي العرب اليوم: لا وجه لي ولا يد لي ولا لسان.

سيدي الشيخ الإمام!

بعد مرور قرابة قرن على نهضتكم العربية المباركة، وبعد جميع ما عانيتم من جهاد وقاسيتم من كفاح، أنتم وأصحابكم الغر الميامين في المشرق والمغرب، ما تزال أمتنا العربية الإسلامية، تغوص في أوحال الجهل والغباء،

---

[1] الدكتور مازن صلاح حامد مطبقاني. **عبد الحميد بن باديس**. مرجع سابق، ص 74 ـ 75.

وأمست دولها "المستقلة" قبائل جاهلية، يحارب بعضها بعضاً، وطوائف همجية تقطع رؤوس المسلمين وتسبي نساءهم وتقتل أطفالهم، باسم القرآن والإسلام، لا القرآن الذي سهرتهم الليالي في تفسيره، ولا الإسلام الذي أضنيتم جسدكم النحيل في الدعوة إليه، بل قرآن وإسلام مصنوعين في مخابر المستعمرين الذين هزمتموهم بجهادكم المبارك.

سيدي الشيخ الإمام،

اسمحو لي أن أنبيكم، والحزن يدمي أعماق روحي ويقطّع نياط قلبي، أن أقطارنا " العربية" وقد مضى على " استقلالها "أكثر من نصف قرن، ما تزال متمسكة بلغة المستعمِر القديم، الإنكليزية أو الفرنسية، وتفرضها لغةً للتعليم العالي، ولغة للمؤسسات الاقتصادية والمالية، وهي لغة حكوماتنا وإداراتنا المفضلة، ولغة الحياة عامة عندنا، إذ نجدها مخطوطة على البنايات الرسمية في مدننا، ومكتوبة على لافتات المحلات التجارية في شوارعنا" العربية".

سيدي الشيخ الإمام،

بعد أكثر من نصف قرن على استقلالنا، ما يزال خيرة شبابنا يمتطي (قوارب الموت) ويقطع البحر في اتجاه أوربا بحثاً عن لقمة العيش التي لا يجدها في بلاده، بحثاً عن حقوقه الإنسانية المضيّعة في وطنه، بحثاً عن كرامته الإنسانية المهدورة في أرضه. وبعد أكثر من نصف قرن على استقلالنا، ما يزال مرضانا الأغنياء يُعالجون في مستشفيات المستعمِر القديم، أما مرضانا الفقراء فلا يجدون مكاناً لائقاً للموت فيه. وبعد أكثر من نصف قرن على استقلالنا، ما يزال ثلث الشعب العربي أميّاً لا يقرأ ولا يَكتب، ونصفه يعيش تحت خط الفقر.

سيدي الشيخ الإمام،

أتوسل إليكم مقبلاً يديكم راجياً أن تنهضوا من مرقدكم الطاهر، أن تنفضوا تراب القبر عنكم وتهبوا لنجدتنا، نحن أحفادكم، نريد نصحكم ونستجدي إرشادكم وتوجيهكم، امنحونا نظرة من عينكم ولمسة من يدكم. فأمتكم العربية الإسلامية في أمس الحاجة إلى نهضة فكرية جديدة تعيد إليها روح الإسلام الأصيلة، وأخلاقه السامية، ونهجه العادل القويم.

السياسة الاستعمارية الفرنسية
في محاربة اللغة العربية قبل 1931

أ.كمال رمضاني (ج. الشلف)

مقدمة:

كانت الجزائر قبل العهد الاستعماري تتميز كغيرها من بلاد العالم الإسلامي بنوعيّة خاصة في مجال العلم والتعليم، الذي كان يعتمد على **اللغة العربية** في عمليات التلقين والتدوين.. وبعد دخول الاحتلال الفرنسي مباشرة بدأت سلطة الاستعمار بتطبيق إجراءات أو سياسات منتهجة وفقًا لبرامج مُسطَّرة، من أجل تثبيت قدمها في الجزائر..وفي واقع الأمر أن هذه السياسة الشاملة التي انتهجها الاحتلال في مختلف المجالات، قد مُورست على الجزائر شعبا وأرضا وروحا معًا، في إطار ما يُعرف بالهُوِيّة الوطنية. فكانت **اللغة العربية** تلقى الأذى من الغريب (الاستعمار) وتلقى القُعوصَ من القريب الذي تنكّر لنجدتها.. إلا من كان لهم شرف الحفاظ عليها، أمثال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وغيرهم.

ولكنني هنا في هذه المداخلة سأحاول التطرق إلى هاته السياسات من جانب محاربة أحد ركائز هذه الهُوية ألاَ وهي **اللغة العربية**، عبر البحث في مختلف الإجراءات الاستعمارية الرّامية للقضاء عليها.. وهذا قبل ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1830 – 1931).

وللتطرق إلى مختلف جوانب هذه المداخلة، سنحاول الإجابة عن إشكالية أساسية مفادها:

فيم تمثلت السياسة المتَّبَعة من قبل سُلْطة الاحتلال الفرنسي في محاربة اللغة العربية؟ وما هي معالمها؟

فقبل التطرُّق لوضعية اللغة العربية أثناء الاحتلال الفرنسي، ارتأيت أن أذكر أولا رؤيةً عامةً حول اللغة العربية في الجزائر قبل وأثناء الاحتلال، ثم ثانيا تناوُل الاستعمار الفرنسي واللسان العربي في الجزائر (رؤية في المدارس والتعليم). وأختمها في الأخير بالحديث حول الأصول الفكرية للاستعمار الفرنسي في محاربة اللغة العربية.

أولا- رؤية عامة حول اللغة العربية في الجزائر قبل وأثناء الاحتلال:

تَرى التيارات الفلسفية واللغوية أن للغة أهمية قصوى في بناء الحضارة فتعتبرها " الوعاء الذي يُشكَّل فيه الفكر"، وعليه فإنه لا يوجد فكر من دون لغة، وأن للغة دورا في عملية التفكير أو المعرفة، ومنه نجد أن هناك علاقة بين الفكر واللغة.

كما تُعتبر اللغة ظاهرة اجتماعية تنعكس عليها، وكذلك من خلالها الظواهر التي تسُود المجتمع من رِفعة أو انحطاط ومن تقدم أو تأخر، ومن نهوض أو كَبوة، ولذلك اللغة تنهض بنهوض المجتمع وتطوُّره، وتَسقط بسقوط المجتمع وتأخره[1]. قامت اللغة العربية – خلال ازدهار الحضارة

---

[1] تركي رابح عمامرة، اللغة العربية لغة القرآن ولغة التربية الإسلامية، لغة عالمية مرة أخرى في العصر الحديث، "دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله"، جمع وإخراج ناصر الدين سعيدوني، برعاية د طاهر حجار رئيس جامعة الجزائر سابقا، دار الغرب الإسلامي، 2003، ص 71.

الإسلامية- في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم (الشرقية والغربية) ونُظُمها الاجتماعية وآدابها، فَوَعت الفلسفة جميع فروعها..[1]

فكانت الجزائر بمختلف أصول شعبها الواحد، وبغض النظر عن أصول البربر الأمازيغ السكان الأصليين لهذه البلاد، فإن مما لا شك فيه أن العربية انتشرت بالإسلام وازدهرت بازدهاره، واستعملها الجزائريون في حياتهم المادية والروحية، أداةً لفهم الإسلام؛ شريعة وثقافة وحضارة وتاريخا[2]، وكان منهم أئمة في مختلف الفنون والعلوم عبر مختلف العصور، مثل "ابن معطي الزواوي، وأسرة المشدالي، والمغيلي، وأبناء مرزوق، والتلمساني، والأخضري، والونشريسي، ثم بعد ذلك جاء دور علماء جمعية العلماء فكان أغلبهم من الأمازيغ كابن باديس، والإبراهيمي، ومحمد لخضر حسين، وأطفيش وإبراهيم بيوض". فعلماء الجزائر الأمازيغ تعلّموا لغة الإسلام العربية طائعين (محبين غير كارهين ولا مُكرهين) فوجدوا أبواب التقدُّم في الحياة كلها مفتّحة في وجوههم، فامتزجوا بالعَرب بالمصاهرة ولازموهم في مجالس العلم وشاطروهم في سياسة المُلك وقيادة الجيوش، وقاسموهم كل مرافق الحياة، فأقاموا صرح الحضارة الإسلامية.. ونشروا لواءها بلغة واحدة

---

[1] عبد الرحمن شيبان، مقدمة مجلة الشهاب، أنشأها الإمام عبد الحميد بن باديس، دار المعرفة، الجزائر، 2008، ص34.

[2] كانت بلاد المغرب الإسلامي لها ميزة تنفرد بها عن المشرق العربي، لقربها من بلاد الغرب المسيحي، فازدهرت اللغة بازدهار بلادها من الأندلس إلى غرب مصر، فكان حرصهم البالغ باللغة العربية إلى درجة أنهم أصبحوا يحرصون عليها ربما أكثر من المشارقة، فطوَّروا وحافظوا على علم النحو واستخدموا الشعر للحفاظ على اللغة، التدوين التاريخي، ومختلف المعارف والعلوم الأخرى . للمزيد أنظر: بوعلام صالحي، من مظاهر الحضارة الإسلامية بالمغرب، نظرة في علوم اللغة والتدوين التاريخي، من الق7 م إلى ق 12 م، دراسات وشهادات مهداة إلى أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص 417 – 418.

هي اللغة العربية الخالدة[1].. كما اهتم واعتنى بها أسلافهم في القرون الماضية والتي كانت سببا في تنوير أوروبا فيما بعد[2]. عكس ما كان يُروّج إليه الاحتلال في الجزائر بأن مناطق البربر(الأمازيغ) ليس لهم علاقة لا بالإسلام ولا بالعروبة (اللغة العربية)، فقد كانت جل مناطق القبائل لها دورا كبيرا ساهم في الحفاظ على اللغة العربية لغة الثقافة الجزائرية وقاموا بإثرائها داخل وخارج الجزائر قبل وأثناء الاحتلال الفرنسي ومقاومة الغزو الثقافي الغربي الأوروبي المسيحي ومحاربة سياسة الفَرْنَسَة والتنصير[3].

ثانيا: الاستعمار الفرنسي واللسان العربي في الجزائر (رؤية في المدارس والتعليم).

رؤية عامة عن وضعية التعليم من مختلف مظاهره، لِما لها علاقة وطيدة بهوية المستعمِر والمستعمَر. وليس هنا الحديث عن التعليم في حدِّ ذاته، ولكن الغاية من ذلك التنبيه حول وضعية اللغة العربية فيها، فجُلُّ هذه المدارس التعليمية كانت تُمارس سياسة محاربة اللغة العربية في باطنها عكس ما كانت تُلوِّح بها ظاهرها.

---

[1] عبد الرحمن شيبان، مقدمة مجلة الشهاب، أنشأها الإمام عبد الحميد بن باديس، دار المعرفة، الجزائر، 2008، ص 31.

[2] فقد كان لهم الأثر الكبير في إيصال العلوم والمعارف بلغة العرب إلى أوروبا حتى أصبح الأوروبي المسيحي يتحدث اللغة العربية على حساب اللغة اللاتينية لغة الكنيسة آنذاك. ويكفي اللغة العربية فخرا ان اخترعت للعالم الأرقام المعروفة اليوم بعدما كانت أوروبا تستخدم الأرقام الرومانية الطويلة والشاقة في كتابة الأرقام الطويلة من المئات والآلاف والملايين، وهي المعروفة اليوم بـ (0، 1، .....9)، التي وصلت إليها عن طريق الأندلس.

[3] يحي بوعزيز دور المنطقة الزواوية في نشر الثقافة العربية الإسلامية ومقاومة الغزو الثقافي الأجنبي، المرجع السابق، ص ص 174 – 196.

عمل الاستعمار على تأسيس المؤسسات التي تخدم سياسة الفَرْنَسَة[1]؛ ويتمثل ذلك أساسا في المؤسسات التعليمية من مدارس ابتدائية، ثانوية، ومعاهد وكليات.. فقد ذكر "توماس أوربان"[2] (1846)؛ "أن التعليم في الجزائر[3] كان سنة 1830 يساوي مثيله في فرنسا سنة 1845، ففي بايلك الجزائر كان هناك ما بين 2000 و3000 شاب يتلقون تعليما يؤهلهم لمرحلة أعلى، وتتضمن الدراسة علوم القرآن وأصول الدين، والحساب، ومبادئ الهندسة والجغرافية، والتاريخ ومختلف العلوم الأخرى.." بالإضافة إلى مجّانية التعليم التي أشاد بها الجنرال "بودو" عندما حل ببايلك قسنطينة. وانتشار كبير للمدارس والزوايا التعليمية، كما ان التعليم في الجزائر كان يمس كل فئات

---

(1) محمد العربي ولد خليفة، المحنّة الكبرى، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2009، ص 75.

(2) اسماعيل عُربان: أحد أعضاء السانسيمونية الاشراكية كانت له نظرة حول فكرة "الاستعمار الخيري"، كان مقربا من نابليون الثالث، جاء إلى الجزائر بين عامي 1837 – 1838، كانت له عدة كتابات حول النظرية السابقة، لذلك كان من المتحمسين لفكرة "المملكة العربية" التي اقترحها نابليون الثالث حول الجزائر، كان من رجال الاستعمار غير الحاقدين وغير المستبدين على الجزائريين، فكان ينظر لفكرة المشاركة بين الجزائريين المسلمين وفرنسا الأووبية المسيحية، باعتبار أنه قد حول اسمه بعدما دخل إلى الاسلام، من "توماس أوربان Thomas Urain " إلى " إسماعيل عربان " كما قد تزوج جزائرية، وقد غادر الجزائر حوالي 1871، ولم يعد إليها. وربما قد عاد إلى المسيحية قبل وفاته... أنظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1860 – 1900، ج1، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص ص 42 – 50.

(3) كيف يعقل أن الجزائريين متوحشون وبرابرة كما روج لها العديد من منظري المدرسة الاستعمارية من مؤرخين وكُتّاب، بالمقابل أن بعض المفكرين والمؤرخين والكتاب الفرنسيين الآخرين والذين رافقوا حملة الاحتلال وبعدها يعترفون بأن الجزائر كانت تنتشر بها مئات المدارس ومراكز التعليم وهي منتشرة في كامل التراب الوطني من مدن وقرى وأرياف.

المجتمع ذكورا وإناثا[1]. فقامت إدارة الاستعمار خلال 1850 بفتح عشر مدارس ابتدائية أربع منها للبنات، تعتمد برامج في تعليم اللغة الفرنسية، وتدريس دور فرنسا في الجزائر، وتفسير لغوي للقرآن الكريم، مع عدم الإشارة تمامًا إلى الإسلام كدين أو حضارة..[2]. أنشأت المدارس لِقلَّة من الجزائريين لم تكن تهدف إلى منحهم ثقافة حقيقية تُبصِّرهم بأحوال وطنهم ولغتهم وحضارتهم، وتشويه للتاريخ الجزائري[3]، حتى تنشأ أجيال من الجزائريين تَخْدم الاستعمار جسديا وروحيا وعقليا ولسانًا، باستيعابهم في بوتقة المجتمع الأوروبي، ولاستخدامهم في مناصب دنيا[4]. وفي عهد نابليون الثالث[5]، تم إصدار مرسوم 14 مارس 1857 ينص على فتح مدارس مختلطة (فرنسية-عربية) تعمل على دمج الجزائريين المسلمين بالأوروبيين المسيحيين، وتعليمهم باللغتين العربية والفرنسية بالنسبة للراغبين في تعلم هاتين اللغتين[6]. إلا أنه وبسبب عدم ارتياح الأسر الجزائرية لهذه المدارس لم

---

(1) محمد العربي ولد خليفة، المرجع السابق، ص 43.

(2) محمد العربي ولد خليفة، المرجع نفسه، ص ص 47 – 84.

(3) أحمد حداد، الشيخ أحمد حمّاني، ودوره في الحركة الإصلاحية والوطنية (1333-1419هـ/ 1915-1998م)، دار هومة، الجزائر، 2014، ص59.

(4) إبراهيم مياسي، مقاربات في تاريخ الجزائر 1930 – 1962. دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 156.

(5) نابليون الثالث: هو شارل لويس نابليون بونابارت ولد 1808، وهو ابن أخ نابليون بونابرت الأول، أصبح إمبراطور فرنسا بين (1852-1870)، قام بحرب المكسيك، كان له أثر في استيطان الجزائر.. (كان وراء فكرة المملكة العربية في الجزائر..). أنظر: الحركة الوطنية ج1. أيضا في: *Le Robert illustré, France, 2014, p1298.*

(6) عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر منذ البداية ولغاية 1962، البصائر الجديدة للطباعة والنشر، الجزائر، 2013، ص 181.

ينخرط فيها إلا القليل جدا مقارنة بالمدارس التقليدية الجزائرية ذات الارتياح الشديد لها. فكان بعد حوالي خمسة عشر سنة (1865) قد انضم إليها حوالي 700 جزائري أين تم توجيههم بعد تخرُّجهم إلى إدارة الشؤون الأهلية وخدمة جيش الاحتلال.. وبسبب قلة المنخرطين في مدارس الاستعمار، تقرر شن حملة لغلق تلك المدارس التقليدية وتشريد أصحابها من معلمين وشيوخ وإبعادهم عن قراهم ومدنهم بالنفي أو الاعتقال في السجون[1]. كما لم تسْلَم أيضا المدارس والمعاهد والمراكز التابعة لسلطة الاحتلال في كل من قسنطينة وتلمسان والمدية التي كانت تطلق عليها اسم "Medrasa"، لأنها تأكدت من أنها لم تأت أكلها وأهدافها المرجوَّة، بل أصبحت خطرا على سلطة الاحتلال –حسب ما تظنه – ولأن خِرِّيجيها سيُصبحون خطرا عليها[2].

لعل أهم الأسباب التي أدت بحل تلك المعاهد والمدارس التابعة للاحتلال ليس بالضرورةِ كَونَ من كوَّنهم الاستعمار أصبحوا خطرا عليها كما كانت تدَّعي، فالسبب المباشر يكْمن في خوفها الشديد من أنه ليس كل من تعلّم ودرس في تلك المدارس سيكون خاضعا أو خادما لها، فكثيرًا ما كان المتخرجون يحملون راية النخوة والشرف فلم يبيعوا ذممهم وإخوانهم ووطنهم.. كما أن تعليم القرآن ولو بتفاسير جافّة عن حقيقة ولبِّ المعاني الحقيقية لروح القرآن، كان سببا للجزائريين (المنخرطين في المدارس الفرنسية) في معرفة ولو ناقصة بتراتيب الهُوية الوطنية من لغة ودين ووطن، وهذا كاف حسب رأيي، لأنه بمثابة أساس وأرضية يمكن الانطلاق منها إلى ما لا تتوقعه أهداف المدرسة الفرنسية، وهذا ما حصل بالفعل من قيام الثورات من مقاومة مسلحة ثم سياسية ثم ثورة شعبية عارمة كُلِّلت بالنجاح في النهاية.

---

[1] محمد العربي ولد خليفة، المرجع السابق، ص ص 48 – 49.

[2] المرجع نفسه، ص 49.

وواقع التعليم العربي الذي كانت تعتمده فرنسا في الجزائر، لم ينل من اللغة العربية أيَّ نصيب، أي أن حظ اللغة العربية غير وارد، لأن البرنامج العلمي الحكومي لم يعتن أيَّة عناية كبيرة ولا حتى صغيرة باللغة العربية في عمليات التدريس، فكل الجزائريين المسلمين المزاولين بها كان يُفرض عليهم برنامجا فرنسيا بحت[1]. كما أن تعلم العربية كانت مُقتصِرة على حفظ القرآن الكريم، وِفق توقيت تُحَدِده سلطة الاحتلال، حيث تبدأ من طلوع الفجر إلى غاية الساعة الثامنة صباحا، ومن الرابعة مساء إلى صلاة العشاء. وبين هذين الوقتين كان حظ اللغة الفرنسية من الثامنة إلى غاية الرابعة بعدالزوال. ويعتمد هذا التوقيت بصفة غالبة في المدن، أما في القرى والمداشر كان حظ اللغة العربية مفتوحا حتى في أوقات تعلم اللغة الفرنسية خاصة في المناطق الجنوبية في الصحراء الجزائرية[2].

ففتحت بين سنوات (1851–1871) مدارس مزدوجة، وكان عددها لا يتجاوز 40[3] مدرسة تضم حوالي أكثر من 1300 تلميذا[4]، حتى يتم تكوين جيل يجمع بين التراث والمعاصَرَة، كما تم إنشاء المعهد العربي الفرنسي سنة 1857 والهدف منه هو تكوين نخبة جزائرية تجمع بين الثقافتين العربية والفرنسية من أبناء العائلات الموظّفة لتكون جسرا للاندماج الثقافي وتغليب الفرنسية على العربية في النهاية. ولأنه كان يجمع في نظامه التعليمي المستوطنين والجزائريين على حد سواء عكس المدارس والمعاهد الأخرى التي

(1) أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، منشورات ANEP، الجزائر، 2010، ص ص 365 – 366.

(2) محمد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كل أمة روح ثقافتها، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، 1989، ص ص 88 – 89.

(3) أبو القاسم سعد الله، ح، و، طبعة خاصة، ج1، دار الرائد، الجزائر، 2009، ص 391.

(4) يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية 1830– 1954، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص43.

إما بها مستوطنون بنسبة مطلقة على مستوى المدن والقرى أو مدارس بها جزائريون بنسبة مطلقة وأغلبهم في المناطق الريفية. وكان أغلب تلاميذ هذا النوع من أبناء الموظفين الجزائريين، وبالرغم من ذلك فإن العديد من المتعلمين غير مواظبين فيها[1]. وعملت الجمهورية الثالثة في عهد "جول فيري" على تأسيس 15 مدرسة وزاوية تموِّل باريس ثلاثة أرباعها[2].

الهدف من وراء إنشاء مزدوجي اللغة لم يكن يرمي إلى تعليم وتثقيف الجزائريين وتمدينهم بقدر ما هو تهجين الثقافة العربية المعتمدة على اللغة العربية وعدم بقاء لها أثر على الساحة الأدبية والثقافية في أوساط الجزائريين، وإظهارها ضعيفة أمام لغة المحتل حتى يبتعد عنها الجزائري واللحاق بركب اللغة الفرنسية..

وكان من بين المُشرفين على هذه المدارس ثُلّة من المُستشرقين، أما رُوَّادها فهم جزائريون وأوروبيون، وفي سنة 1871 تم إلغاء العديد من المدارس الابتدائية العربية-الفرنسية[3]، كرد فعل على الثورات التي قامت خلال 1871. وفي سنة 1877 أُنشئت كلية الآداب التي كانت مدرسةً عليا في البداية، كانت تعنى بالآداب[4]، وقد تمكنت إدارة الاتصال من تكوين العديد من الجزائريين باللسان الفرنسي، فأصبحوا من كبار الأدباء بعدما تأثروا بمناهج

---

(1) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1860 – 1900، طبعة خاصة، ج1، دار الرائد، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص 391-393.

(2) يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830– 1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص43.

(3) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1860 – 1900، المرجع نفسه، ص 397.

(4) محمد طمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006، ص 519.

المستشرقين في البحث وقد تبنّوا أساليبهم ولغتهم[1]. فكانت مدرسة الآداب خلية نحل للاستشراق الفرنسي حيث اللغة والأدب العربي واللهجات والشريعة الإسلامية[2]. وأَدرَجَت حلقات اللغة العربية من أجل نشر العربية بين الفرنسيين سدًّا للحاجة المُلِحَّة في الإدارة والتسيير من جهة ولعملية الإدماج من جهة أخرى. وأول بداية لهذه الفكرة ظهرت سنة 1836 في الجزائر العاصمة ثم انتشرت إلى قسنطينة ووهران. مع العلم أن أغلب هذه الحلقات كانت لتدريس وتعليم الدارجة لا الفُصحى[3]. فعملت على وضع دراسات وأطروحات حول تطوير اللهجات المحلية الجزائرية خاصة البربرية (الأمازيغية القبائلية) وإكسابها حُلَّة كلغةٍ تنافسُ اللغة العربية.

أما خلال سنة 1881 بدأت سلطة الاحتلال بفتح أبواب المدارس في وجه أبناء الجزائريين، لكن هذا التعليم كان فرنسيا، أي بلغة واحدة وهي اللغة الفرنسية، ولم يكن القصد من تعليم الجزائريين الاستجابة لمطالب الأمة العلمية بل لتقريبهم من فرنسا حتى يسهل ابتلاعهم[4]. طرد اللغة العربية من كل الإدارات الحكومية. فكانت اللغة العربية بالمدارس الثانوية الفرنسية لغة اختيارية[5]. كيف لا وهي حسب قانون الإدارة الاستعمارية لغة أجنبية، تُدَرّس حسب الحاجة لها، كوسيط لفهم الجزائريين ولكنها بأسلوب دارجي وعامِّي.

---

(1) ومن بينهم "محمد بن أبي شنب، إسماعيل بوضربة، سعيد، بوليفة، محمد صوالح، بلقاسم بن سديرة"، عن: محمد طمار، المرجع السابق، ص519.

(2) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1860 – 1900، المرجع السابق، ص 388.

(3) أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه ص 389.

(4) محمد طمار، المرجع السابق، ص ص 370 – 371.

(5) محمد طمار، المرجع نفسه، ص 371.

وفي عام 1883 طُبِّق التشريع المدرسي الفرنسي الجديد في الجزائر، فاستاء المستوطنون، وشيوخ البلديات من ذلك وأعلنوا رفضهم لبناء مدارس لما سَمَّوْهُ "جماهير الصعاليك" من الجزائريين، وتعللوا بباهِظِية التكاليف، وبسعي الجزائريين المتعلمين بعد ذلك لتحقيق الجزائر العربية[1]. ورغم عراقيل المستوطنين أمام تعليم الجزائريين فإن سلطة الاحتلال قامت بإقرار ما يطلق عليه بالتعليم التحضيري الذي باشرته الإدارة الاستعمارية إثر قرار حكومي في 30 جوان 1898 الذي يُعْنَى به فقط على مستوى المساجد حيث عَيَّنت لذلك 33 مدرسا تخرجوا من المدارس الفرنسية موزعين على 33 بلدة تحددها إدارة الاحتلال يقومون بتدريس فقه العبادات والنحو والتوحيد. ولكن الملاحظ هنا أن هؤلاء المدرسين ربما كان أكثرهم غير كفء[2].

وكانت هذه إحدى سياسات فرنسا للتجهيل وتزييف المفاهيم وتحريفها في أذهان الجزائريين خدمة لأهداف فرنسا حتى يبقى السواد الأعظم من الجزائريين تحت الجهل وفاقدي وسائل التعلّم الوطنية ألا وهي اللغة العربية المعتمدة أصلا في عمليات التدريس والتعليم والتثقيف في هذه المؤسسات الدينية.

وبصفة عامة حول وضعية المدارس والتعليم قبل 1931، نذكر بعض الإحصائيات التالية:

-كان عدد التلاميذ المُتمدرسين قبل الاحتلال يقدر بـ 150 ألف عندما كانت وسائل التعليم مكفولة، وبعد الاحتلال أصبح بـ 30 ألف[3] !

---

[1] يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830 – 1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص43.

[2] أحمد توفيق المدني، المصدر السابق، ص ص 366 – 367.

[3] يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا..، المرجع السابق، ، ص 419.

-من بين المدارس الابتدائية العربية – الفرنسية الـ 40[1] الـتي تأسسـت بـين (1851 – 1870)، لم يبق منها سنة 1883 سِوى 24 مدرسة في المناطق العسـكرية، وتحتوي على حوالي 700 تلميذ، ومع ذلك فإن بعض الأطفال في المـدن دخلـوا المدارس الابتدائية الفرنسـية، ووصـل عـددهم إلى حـوالي 3 آلاف تلميـذ سـنة 1887، ومهما كان الأمر فـإن مجمـوع التلاميـذ الجزائـريين في الابتـدائي عندئـذ خـلال نفـس السـنة قـد بلـغ حـوالي 7 آلاف، أمـا المـدارس الابتدائيـة لأبنـاء المستوطنين بلغت حوالي 700 مدرسة يدرس بها حوالي 57 ألف تلميـذ خـلال نفس 1883 ويزعم الغلاة أن للجزائريين مدارسهم القرآنية (الابتدائية) وهـي في نظرهم كثيرة ولا يحتاجون إلى المزيـد مـن فرنسـا، رغـم أن ضـرائبهم يـدفعونها مضاعفة ولا يحصلون منها على طائل، وكذلك أوقافهم المصادرة[2].

-وفي حدود عام 1890 لم يكن يرتاد المدارس الابتدائية مـن أبنـاء الأهـالي سوى 1.9% من مجموع الأطفال الذين هم في سن الدراسـة وهـذه النسـبة لا تمثل سوى 10 آلاف طفل. وحاول مـدير التعلـيم "جـان ميـر Jean Maire" أن يُحسِّن حالة التعليم بالنسبة للجزائريين ولكن المستوطنين عارضوه، وعارضـوا مشاريعه وسياسته في المدارس والتعليم، فاستقال بعد أن فرضـوا عليـه تحويـل المدارس التي أنشأها إلى ملحقات أُطلق عليها اسم "مدارس ملاجئ" وكان عـدد التلاميذ الجزائريين عند استقالته عام 1908 قد وصل إلى 33.397 طفلا وذلـك يمثل نسبة حوالي 4.3 % وفي عام 1914 ارتفعـت هـذه النسـبة إلى 5%، وبلـغ

---

[1] ذكر أبو القاسم سعد الله في أن عدد المدارس خلال (1851-1870) لم يتجـاوز الـ 40، أمـا في نفس المرجع ص 399 يذكر بأنها لم تتجاوز الـ 46، ربما وقع خطأ مطبعي بالنسبة للعـدد، لـذلك حاولنا ذكر العدد الأول (40 مدرسة)، أنظر أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية المرجع السابق (ص 391 وص 399).

[2] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1860 – 1900، المرجع السابق، ص 399.

عدد التلاميذ إلى أكثر من 47 ألف طفلا من بين حوالي 800 ألف طفلا في سنِّ الدراسة، وارتفع هذا العدد إلى أكثر من 60 ألف طفلا عام 1922 من بين حوالي 900 ألف طفلا وكانت النسبة 6% ولم يكن في المرحلة الثانوية سوى 84 تلميذا أهليا قبل عام 1900 و150 قبل 1914 وتخرج من جامعة الجزائر هذا العام 1914 حوالي 34 طالبا يحملون البكالوريا و12 طالبا مُجَازا[1].

وقد استمرت فرنسا في الاستفادة من تعليم أبناء الأعيان طيلة الوجود الفرنسى ببلادنا، أما غالبية الشعب الجزائري ازدادت وضعيته التعليمية سوءًا وانتشر بذلك الجهل وتفاقمت الأمِّيَّة[2]. والمتمعن في حصيلة التمدين أي التعليم الفرنسى للجزائريين في نهاية القرن الماضى (1898) كانت حوالى أكثر من 10 آلاف طفل، ومقارنة بنسبة الأطفال في سنِّ التمدرس في تلك الفترات كانت تزيد عن نصف مليون، وهذا ما يدل على أن النسبة لا تزيد عن 1.9% [3].

ومقارنة بأعداد المتخرِّجين الجزائريين فهى نسبة ضئيلة جدا لا مجال للمقارنة بين قرنائهم المستوطنين. وهذا ما يؤكد ما قلناه سابقا في أن سياسة التعليم هى مُمَنهجة وفق خطة مسبقة من أجل القضاء على التعليم للجزائريين حتى يكونوا تحت سيطرة المستوطنين المتعلمين وثلة من أبناء جلدة الشعب الجزائري كخدام لسلطة الاحتلال.

---

[1] يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830 – 1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 43.

[2] أحمد حداد، الشيخ أحمد حمّاني، ودوره في الحركة الإصلاحية والوطنية (1333-1419هـ/ 1915-1998م)، دار هومة، الجزائر، 2014، ص 59.

[3] ولد خليفة، المرجع السابق، ص 50.

ومما سبق يمكن تلخيصه في الجدول التالي (بصفة عامة) حول وضعية المُتمَدرسين الجزائريين قبل 1931، ثم توضيحه في أشكال بيانية حتى تتضح الرؤية أكثر.

السنوات	1887	1898	1908	1914	1922
المتمدرسون الجزائريون	3.000	10.000	33.397	47.000	60.000
النسبة	%5.26	%1.9	%4.3	%5.8	%6.6
المجموع الكلي للمتمدرسين (مستوطنين وجزائريين)	57.000	526.316	776.675	800.000	900.000

جدول يمثل نسبة المتمدرسين الجزائريين من المجموع الكُلّي للمتمدرسين

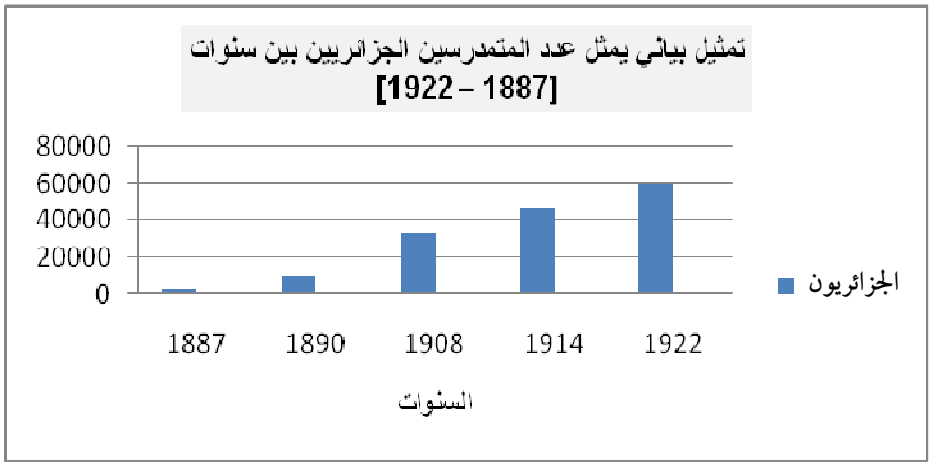

أثناء الاحتلال الفرنسي قبل 1931

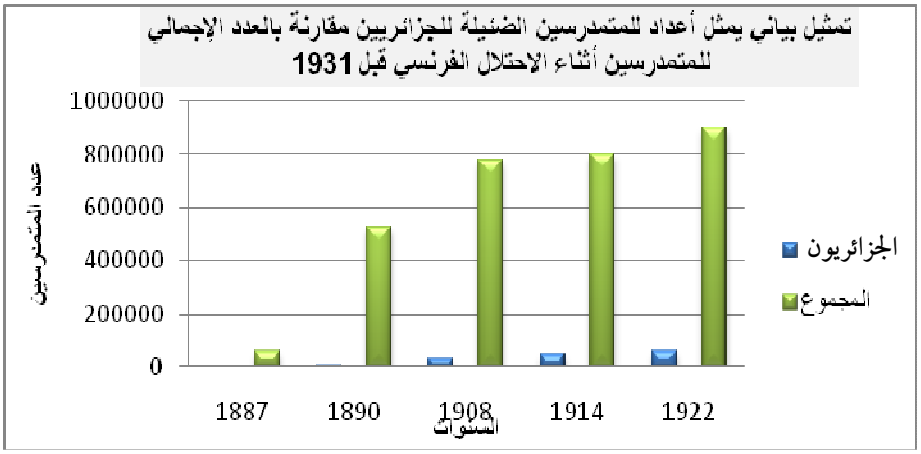

من خلال الجدول والشكلين البيانيين نلاحظ بأنه بين سنوات [1887-1922] تبيَّن أن عدد التلاميذ الجزائريين المزاولين في مدارس الاستعمار كان حوالي 60 ألف متمدرس، وهي نسبة ضئيلة جدا مقارنة بالعدد الإجمالي للمتمدرسين التي كانت تقدر بحوالي 900 ألف تلميذا. وهذا التفاوت يدل على السياسة الاستعمارية تجاه تعليم الجزائريين، للأسباب والأهداف المذكورة سابقا والتي سيتم ذكرها لاحقا.

ثالثا: الأصول الفكرية للاستعمار الفرنسي واللغة العربية:

منذ وطِئت أقدام الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وهي تعمل على تحقيق أهداف كانت قد سطّرتها منذ ظهور الفكر الاستعماري الأوروبي قبيل وبعد الثورة الصناعية، وبعد ظهور التنافس الشديد بين القوى الأوروبية حول التوسع فيما وراء البحار، حيث استخدمت كل القوى الاستعمارية استراتيجيات من أجل الوصول لمطامِحِها، فكانت فرنسا، تستند إلى استراتيجيات متعددة في شتى المجالات لخدمة مصالحها والوصول إلى أهدافها، انطلاقا من أصول استعمارية من نظريات وأفكار، فبعد الاحتلال

الفرنسي للجزائر 1830 إلى غاية الاستقلال طبقت عشرات الأصول والأفكار في إبقاء الجزائر كقطعة وجزء من فرنسا الأم..

ومن بين هذه الأصول الفكرية للاستعمار الفرنسي نجد[1]:

- ✓ **المعركة الاستعمارية المُنطلقَة من اجتثاث مصانع المقاومة الفكرية.**
- ✓ **لا كرامة لغير المستعمِر ورجاله والاستهانة بالكرامة الإنسانية للمُستعمَر (في مقدَّساته).**
- ✓ **التنصُّل من ميراث الحضارة للبلاد المستعمرَة في بعديه الديني واللغوي.**

وانطلاقا من هذه الأصول الفكرية للاستعمار الفرنسي في الجزائر، أردت أن أُدْرج ضمن كلِّ أصل من هذه الأصول الثلاثة ما ينطوي تحته من سياسة فرنسا حول اللغة العربية.

الأصل الأول: المعركة الاستعمارية المنطلقة من اجتثاث مصانع المقاومة الفكرية.

مارست فرنسا الاستعمارية سياستها في الجزائر في ثلاثة خطوط متوازية تهدف إلى تحطيم الكيان الجزائري وإلى تحطيم الشخصية الجزائرية بكل مقوماتها الأساسية وهي الإسلام، اللغة العربية، الوطنية الجزائرية (وحدة الشعب ووحدة التراب الوطني)؛ والفَرْنَسَة (فرنسة الشعب الجزائري ما أمكنها ذلك) والتنصير (إخراج الشعب الجزائري من الإسلام وإدخاله في المسيحية) والاندماج؛ يعني اندماج الشعب الجزائري في كيان وحضارة فرنسا الغربية[2]. جاء في إحدى التعليمات التي صدرت في بدايات الاحتلال كرد فعل تجاه اللغة العربية: "لا ننسى

---

[1] عمار جيدل، أفكار استعمارية وسبل دفعها كما كشفها نزهاء الغربيين، أوجين يونغ أنموذجا، دار جسور، الجزائر، 2013. ص 50– 52.

[2] رابح تركي عمامرة، الشيخ عبدالحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصر، موفم للنشر والتوزيع، ط2، االجزائر، 2003، ص 156.

أن لغتنا – الفرنسية – هي اللغة الحاكمة فإن قضاءنا المدني كذلك يصدر أحكامه على المسلمين العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللغة (أي اللغة الفرنسية)، يجب أن تصدر بأقصى ما يكن من السرعة جميع البلاغات الرسمية وبها يجب أن تكتب العقود وليس لنا أن نتنازل على حقوق لغتنا فإن أهم الأمور التي يجب أن يعتني بها قبل كل شيء هو السعي وراء جعل اللغة الفرنسية سارية وعامة بين الجزائريين الذين عقدنا الحزم على إدماجهم[1]. لذلك نجد أن أول بداية لنشر اللغة الفرنسية بين الجزائريين عندما طلب القائد كلوزيل بجمع حوالي 50 طفلا من أبناء أعيان الجزائر لإرسالهم (كرهائن) ولكي يدرسوا اللغة الفرنسية، وقد شدّد على من لا يأتمر لهذا الأمر من أعيان الجزائر سيعاقب باعتباره رفضا وتمرُّدا على فرنسا[2].

وأهم مصانع الهوية الوطنية تتركز في العقيدة واللغة والوطن (تاريخه وجغرافيته)، ولا يتم اقتلاع كل هذا إلا إذا توفرت أرضية صالحة لذلك، وأساسه التعلم والتعليم، وبما أن أهم وسيلة للتعلم للجزائريين هي اللغة العربية باعتبارها في الجزائر لغة الدين ولغة الأجداد (عربا وبربرا) لأن الأمازيغية بالرغم من أنها لغة ولكنها تفتقر لعملية التدوين والتلقين الكتابي والتعليمي، فكان كل الجزائريين يتعلمون بلغة الإسلام وهي العربية. هذا ما أدى بسلطات الاحتلال أن تعمل أي شيء حتى تقضي عليها..

كانت اللغة العربية هي المهيمنة قبل الاحتلال بالرغم من كون حُكّام الجزائر المتعاقبين عليها، كانوا من الأتراك، حيث قال البشير الإبراهيمي: "كانت اللغة

---

[1] رحيم محياوي، دراسة مستقبلية، الاستيطان والتوطين، الاستعمار الفرنسي في الجزائر والحركة الصهيونية في فلسطين، منشورات جامعة عنابة، الجزائر، 2006، ص ص 39 – 40.

[2] حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق د. محمد العربي الزبيري، تصدير عبد العزيز بوتفليقة، منشورات، ANEP، الجزائر، 2005، ص 222.

العربية عقيلة ليس لها ضَرَّة، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدّة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل[1]. لذلك نجد أن الاستعمار في الجزائر استخدم مفكّري ومُنظِّري الاستعمار على ضرب اللغة العربية بوضع ضَرَّة لها تتمثل في النزعة البربرية (الأمازيغية) للتشكيك في وحدة الجزائر بين شعبها من جهة وبين الجزائر وباقي العرب من جهة ثانية[2].

فأدركت فرنسا بأن الاحتلال لن يُكتب له البقاء في مستقبل الأيّام إلاّ بتحطيم شخصيته القائمة على الإسلام، وأهم ركيزة له في ذلك هي العروبة، والعروبة هي التي تقوم على "اللغة العربية" فلغة الجزائر من لغة الإسلام أي لغة القرآن الكريم. فالعروبة ليست جنسا أو عرقا أو دما أو أرضا، بل العروبة كل من شملها اللغة العربية، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من تحدّث العربية فهو عربي".

لذلك نجد أن سلطة الاحتلال قامت بكل حِرَفيّة خدمة لتحقيق أهدافها في القضاء على الثقافة العربية الإسلامية، ولا يكون ذلك إلا بالقضاء على اللغة العربية باعتبارها وعاء للفكر والثقافة في الجزائر[3].

ومن بين هذه الإجراءات مصادرة الأوقاف التي كان يرتكز عليها التعليم العربي بالإنفاق على التعليم في الجزائر. والتضييق على اللغة العربية بالتضييق على رجال العلم والدين، فطردت الكثير منهم ونفتهم خارج

---

[1] باعزيز بن عمر، من ذكرياتي مع الإمامين عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي، منشورات الحِبر الجزائر، 2006، ص 110.

[2] عثمان سعدي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعروبة الجزائر، أشغال الملتقى الوطني حول الفكر الإصلاحي بتبسة، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص 95.

[3] رابح تركي عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، ط2، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص 133.

البلاد[1] وقتل البعض وسجن آخرين ومراقبتهم ومنع آخرين من الممارسة الثقافية[2]. كما قامت بإلغاء المؤسسات التي ترتكز عليها اللغة العربية وهي بالخصوص المساجد والزوايا والكتاتيب والأوقاف، فهي مراكز الثقافة العربية التي كانت تضم ألاف المخطوطات العربية والكنوز المعرفية والعلمية والمدونة باللغة العربية[3]، لكي لا يجد الجزائر أي سند يعتمد عليه في تطوير لغته والحفاظ عليها. والاستحواذ على كل المخطوطات والكتب العربية التي استطاعت الوصول إليها لدى المساجد والزوايا والعائلات وغيرها، قبل وأثناء وبعد المقاومات المسلحة[4]. فقد كانت الكتاتيب والمساجد والزوايا أهم معاقل الثقافة العربية واللغة العربية فهي أهم أداة في تحصيل وتثبيت ذلك، فعمدت سلطة الاحتلال منذ بداية الاحتلال على طمس هذه الوسيلة عن طريق محاربة الأئمة والشيوخ ووضع حدّ لنشاطهم الديني والثقافي من نفي ومراقبة شديدة ودائمة وحرصت على تدريس اللغة العربية بقضائها على تلك المؤسسات حتى لا تتعارض أو تنافس لغة الاحتلال، وتقاوم سياستها في التنصير والفَرْنَسَة[5]، فقد وصل عدد المساجد بمدينة الجزائر إلى بضعة مساجد ولا تصل حتى إلى عشرة بعدما كان قبل 1830 حوالي 166[6].

---

(1) مثل الكبابطي وهو أحد علماء مدينة الجزائر، الذي نفته إلى كالودونيا الجديدة.

(2) يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص 190.

(3) رابح تركي عمامرة، المرجع نفسه، ص ص 134– 135.

(4) أبو القاسم سعدا لله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003، ص 521.

(5) يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، المرجع السابق، ص 210.

(6) يحي بوعزيز، المرجع نفسه، ص 210.

فهذه السياسة المتبعة ضد المراكز الدينية تدخل ضمن أساليبٍ متدرّجة[1] في طمس اللغة العربية بغلق المعاهد والمراكز والمساجدِ لأنها وسائل لنشاط واستخدام اللغة العربية، ثم تدرج مع نهاية ق19 وبداية ق20، إلى منْعِها من التدريس واعتبارها لغة أجنبية عن الجزائر، وعدم السماح لتدريسها في المدارس إلا بإذن خاص جدًا حسب قانون أكتوبر 1894[2]. وإذا قبلت سلطة الاحتلال فتح مدرسة عربية فإنه يجب الالتزام بشروط تضعها هي منها؛ تحفيظ القرآن الكريم نصوصا فقط دون تفسير[3] وعدم تدريس الأدب العربي وسائر فنونه ولا حتى قواعده..[4] بالإضافة إلى تحديد أوقات فتح وغلق الكُتّاب أو المدرسة ومواد التعليم[5]. وبالمقابل فتحت مدارس فرنسية

---

[1] كان الغزاة الفرنسيون غداة الاحتلال يذكرون بأنهم جاءوا إلى الجزائر ليس لحكم شعبها فقط بل لإدخاله بالتدرج في أفكار وحضارة فرنسا الأوروبية. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، ج4، بيروت، لبنان، 1996، ص25.

[2] ناصر الدين سعيدوني، التوجه المعادي للعروبة والإسلام في السياسة الفرنسية في الجزائر (1830 –1962)، قسم التاريخ، جامعة الكويت، عبر الرابط الإلكتروني: http://www.tarikh-alarabi.ma/html/adad32partie9htm57 22/05/2015 – 20: 57 . بالنسبة لهذا التاريخ (1894) فإن أبو القاسم سعد يذكر أن تاريخ هذا القانون هو أكتوبر 1892. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، 43.

[3] بالإضافة إلى عدم تطرق المدرسة للقرآن في آيات الجهاد والوحدة والحرية، كذلك شروط عدم تدريس التاريخ الجزائري والإسلامي وجغرافيتها . حتى لا يدرك الجزائري امتداده إلى غيره من العرب والمسلمين.

[4] رابح تركي عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، المرجع السابق، ص 136.

[5] محمد بن عبد الكريم الجزائري، المرجع السابق، ص 88.

لتعليم اللغة الفرنسية وما تعلق بها من ثقافة وغيرها من أجل تحقيق سياسة تعليمية استعمارية بالاعتماد على العديد من رجال الدين المسيحيين[1].

ومن هذا المنطلق يكون شبه مستحيل تعلم اللغة العربية الصحيحة والفصيحة، دون تعلم آداب العرب من شعر ونثر وقصص وقواعد ونحو وصَرْف.. فهل يستقيم الحال؟ لا، وكلا، ومنه نقول بأن هذه الشروط شبه تعجيزية حتى لا يتقدم جزائري ويفتح مدرسة عربية، لعدم القدرة على استيفاء جميع هذه الشروط.

كانت فرنسا تعمل في الجزائر أي شيء حتى يصبح المجتمع الجزائري فرنسي اللسان والثقافة، ويذوب في بوتقة الأمة الفرنسية[2]. فلم تدع الشعب يتعلم لغته وثقافته، كما أنها لم تعلّمه لغتها وثقافتها[3].

إضافة إلى التركيز على مناطق دون مناطق في سياستها اللغوية، فكانت منطقة القبائل من أهم المناطق التي تم التركيز عليها بوضع المدارس وتعليم اللغة الفرنسية فيها دون سواها، والتي لم تحظ بتدريس الأمازيغية نفسها. فكانت تتوفر على حوالي مدرسة لكل 2100 طفل على عكس عمالة الجزائر كلها مدرسة لكل27 ألف، أما عنابة مدرسة لكل 40 ألف طفلا، ناهيك عن أن مدارس مدينة بوزرّعية كانت نسبة أطفال القبائل هم نصف عدد الطلبة فيها بين فترات (1883 – 1939)[4]. وبث عقيدة أن البربر ذو أصل غالي

---

[1] عبد القادر خليفي، الدور النضالي للحركة الإصلاحية "جمعية العلماء"، أشغال الملتقى الوطني حول الفكر الإصلاحي بتبسة، دار الهدى، الجزائر، 2003، ص 101.

[2] أحمد توفيق المدني، المصدر السابق، ص 38.

[3] سعيد بورنّان، نشاط جمعية العلماء المسلمين في فرنسا، 1936–1956، دار هومة، الجزائر، 2011، ص 49.

[4] ناصر الدين سعيدوني الجزائر منطلقات وآفاق، مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تارخية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص ص 87 – 88.

ورومانيين[1]، وأنهم أصْلا معادُون للعرب، كما أن إسلامهم سطحي ولهذا عليهم الرجوع إلى لسان ولغة أووربا (الفرنسية) ودينها المسيحي[2]. لذلك نجد رجال الدين من المبشِّرين والمستوطنين على حدّ سواء يتشاركون في محاربة اللغة العربية، وهما وجهان لعملة واحدة وهي الاستعمار، فتجلّت هذه المحاربة في الأمرين التاليين[3]:

أ- الدعوة إلى استعمال اللهجات العامية بدل اللغة الفصحى في الجزائر خاصة والعالم الإسلامي عامة؛ وقد استعانت هذه السياسة بدراسات وأبحاث[4] عديدة (مخادعة) للقضاء على اللغة العربية بالتركيز على اللهجات الأمازيغية وجعلها لغة منافسة، بل معادية للغة العربية، فقامت فرنسا باستخدام الأحرف اللاتينية وزرعها كأحرف أساسية للغلة القبائلية[5]، أي كوسيلة للكتابة، وبالرغم من ذلك فلم يستطيعوا لحد اليوم وضع قواعد لها أو أوصول ثابتة لتعلم هذه اللغة بدقة كبيرة على غرار اللغة العربية التي كانت هي أصلا لغة الحديث والكتابة[6] لسكان الجزائر بربرا وعربا ويهودًا.. على حد سواء.

---

(1) D'ORIGINE DES GAULIIENS - ROMAINS

(2) ناصر الدين سعيدوني الجزائر منطلقات وآفاق، المرجع السابق، ص 78.

(3) تركي رابح عمامرة، المرجع السابق، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، جمع وإخراج ناصر الدين سعيدوني، برعاية د طاهر حجار رئيس جامعة الجزائر سابقا، دار الغرب الإسلامي، 2003، ص ص 83 – 84.

(4) أنظر أهم الكتاب والباحثين الفرنسيين في هذا المجال: ناصر الدين سعيدوني الجزائر منطلقات وآفاق، المرجع السابق، ص ص 85 – 86.

(5) ناصر الدين سعيدوني، المرجع نفسه، ص ص 86 – 87.

(6) مع العلم أنه لحد اليوم لم يتحصل الباحثون الأنثروبولوجيون أو علماء الأثار على أحرف أو أبجدية للغة الأمازيغية، ما عدا بعض اللوحات الحجرية لا تدل على وجود أبجدية كاملة كانت تتحث وتكتب بها دول البربر قبل الإسلام، وما وجد فهي أغلبها حروفا لاتينية قديمة.

مع العلم أنه في حقيقة الأمر أنه كانت اللغة العامية تُدرس باللغة الفرنسية وهى الطريقة التى اتبعتها مدارس قسنطينة الجزائر ووهران، والهدف منها دمج الفرنسيين بالجزائريين (الأهالى) لمعرفة الأفكار وكيفية الاتصال بهم[1]. والغريب في الأمر أن الجزائري الذي يُحسن الدارجة ويتحدث بها أصلا منذ طفولته يأتى إلى المدرسة الفرنسية ليتعلم لهجته الدارجه على يد أوروبي مستشرق[2]!

ب-الدعوة إلى استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية في الكتابة العربية[3]، ويهدفون من وراء ذلك إلى القضاء على الإسلام لأنه أهم مصدر للقوة عند العرب والمسلمين، والقضاء على الثقافة العربية لفصل الأجيال الصاعدة عن تراثها المكتوب بلغة اللسان العربي، وتكوين فئات هجينة (متفرنسة)[4] القصد منها محاربة العربية[5]. والهوية الوطنية.

---

[1] أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، ج4، بيروت، لبنان، 1996، ص 38.

[2] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1860 – 1900، المرجع السابق، ص 398.

[3] ولكنهم لم يستطيعوا فعل ذلك إلا ما تعلق باللغة الأمازيغية فقد كانت لهم منها بعض النصيب في ذلك.

[4] من بين الإجراءات لأجل تكوين فئات من المجتمع تكون خادمة لمصالح الاحتلال، ما قام به الجنرال بيجو والدوق دومال إلى إرسال جاسوسه المشهور ليون روش، من أجل انتقاء مجموعات من أبناء الأعيان وإرسالهم إلى فرنسا ليتعلموا هناك، لكن فكرة المشروع قد رفضت من قبل وزارة التعليم سنة 1844، أما الدوق دومال كانت لديه فكرة أن التعليم يجب أن يلحق بوزارة الحرب، ومنذ ذلك الحين ألحقت شؤون التعليم بوزارة الحرب، فأصبحت تحت تأطير العسكر، من ضباط قد اكتسبوا معرفة ودراية بالطبيعة السوسيولوجية للشعب الجزائري. أنظر: ولد خليفة، المحنة الكبرى، المرجع السابق، ص 47.

[5] الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 208.

ناهيك على الادِّعاء بأن لغة الجزائريين بعيدة كل البعد من لغات العرب المشارقة[1]، وأول من ادعى ذلك هو المستشرق "برينييه" وهو أحد تلاميذ "جوني فرعون" وهو أول من أسّس المجلَّة الأفريقية والجمعية التاريخية الجزائرية سنة 1956، كما ادَّعى أيضا بأن اللغة العربية ليست لغة تقدم[2]، وأن أحرفها الكتابية غنية في تنوع أشكالها فقط، وأن لغة الكتابة لدى الجزائريين ليست كلغة الكتابة لدى المشرق العربي. ورغم ذلك طلب من المستوطنين بداية الاحتلال بتعلم اللغة العربية حتى يتم فهم الشعوب الإسلامية، وهو هنا يساهم في الترويج للعربية، وما هي في الحقيقة إلا أحد الأهداف الاستعمارية في الجزائر خاصة[3].

ربما القليل جدا ممّن يجهل اللغة العربية -كتابة- في الجزائر خاصة المتواجدون في مناطق جبلية بعيدة عن المدن، ولكن هذا لا يعني أنهم لا يعترفون باللغة العربية، لأنهم وببساطة مسلمون، فهم يتكلمون العربية على الأقل في شعائرهم التعبُّدية كالصلاة والعبادات المتعلقة بها..

كان المستوطنون يعملون جاهدين للسيطرة وتولي السطلة في الجزائر وإلغاء النظام العسكري، فكان لهم ذلك بداية 1870 واستبداله بالنظام المدني (شمال الجزائر)، فبدأو بتحقيق أهدافهم المختلفة، فجاء قانون 1894 ليَحُدَّ

---

(1) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، ج4، بيروت، لبنان، 1996، ص29.

(2) لدحْضِ فكرة أن اللغة العربية ليست لغة العلم والمعرفة وأنها إحدى مغالطات الاستعمار، أنظر: أهمية اللغة العربية في التطوير والتنمية في مختلف مجالات العلوم والمعرفة، ودورها في تسارع الحركة العلمية بعد ذلك في أوروبا.. للدكتور لعموري عليش، مدخل إلى تاريخ العلوم عند المسلمين، دار الأمل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

(3) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 31.

من ممارسة اللغة العربية في مختلف المجالات خاصة مجال التعليم، وهذا ما مَهَّد بعد ذلك لظهور الأمِّيَّة والجهل بشكل واسع وخطير بين الجزائريين، وفي المقابل بدأت عمليات نشر الفرنسية عن طريق المدارس والأجهزة الإدارية من معاملات تجارية[1]، ومراسلات[2].

ومن بين العوامل الأخرى والمساعدة على انتشار اللغة الفرنسية (لغة المستعمِر) هي سياسة الاستيطان، فَفُتِح الباب أمام حركة الاستيطان الأجنبي نحو الجزائر، وبقدوم آلاف الأوروبيين، يعني زرع ثقافة أجنبية بالقوة، فهي مفروضة، من خلال ثقافة التأثر والتلْقين والتقليد، وبما أن طريقة هذا الزرع تعتمد بالأساس على اللسان الغازي فهو لسانُ المُسيْطِر، حتى أضحت طريقة الأداء في العمل بلغة المستعمِر في نمط حياة[3]. فكان للمستوطنين دورا هاما في محاربة اللغة العربية بإبعادها من كافة المجالات الحياتية والثقافية والإدارية والتربوية، وحصرها في نطاق الكتاتيب، والزوايا وبعض الجوامع فقط كما ساهم بدرجة كبيرة في محاربة حتى اللغة العامية، ثم بتشجيع اللهجات البربرية عبر مناطق الوطن لكي تحل في الحديث والخطابات العادية مكان الكلام العربي الصحيح والفصيح وحتى العامّية، في إطار ما يطلق عليه

---

(1) ناصر الدين سعيدوني الجزائر منطلقات وآفاق، المرجع السابق، ص ص 72 – 73.

(2) كانت قبل قانون 1894 أغلب المراسلات من رسائل وشكاوى ودعاوى قضائية من طرف الجزائريين باللغة العربية الفحصى، ومع بعض الألفاظ والمفردات العامية والدارجة، حسب درجة تعلم الشخص صاحب المراسلة أو مستوى كاتب هذه الشكاوى والدعاوى ... فأصبح لزاما على كل شخص جزائري إذا أراد إرسال وتقديم شكوى أوبلاغ أو طلب أن يكتبه باللغة الفرنسية قبل تقديمه.

(3) أبو القاسم سعدا لله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003، ص 518.

"بسياسة البربرة وسياسة الفَرْنَسَة"[1]. كما كانت لفرنسا في الجزائر فكرة أنه يمكن فعل ما فعلته اسبانيا في الأندلس بطرد الإسلام والمسلمين والعروبة.

ولجلب الجزائريين أكثر، وبطريقة فنية قيام سلطة الاحتلال بفتح مجال وسائل الإعلام ثانية كالمسارح ودُورِ السينما ووسائل نشر أفكار الاستعمار على نطاق أوسع بين مختلف شرائح المجتمع[2]، حتى أصبحت أغلب المسارح التي يُشارِك فيها الجزائريون، تستعمل اللغة الدارجة، لأن اللغة الفرنسية كانت حسب ذاك الوقت تُبْعد المُمثلين والمتفرجين وحتى فئات كثيرة من الشعب الجزائري ولأن جمهور الفصحى كان قليلا[3].

حارب الاستعمار لغة الجزائريين اللغة العربية بنفس الدرجة التي ينشر بها الفكر واللسان الفرنسي، فهدَّم المدارس العربية ومنع كل محاولة لبناء غيرها أو فتح أخرى جديدة، وفتح مجال وسائل إعلام ثانوية كالمسارح ودُور السينما ووسائل نشر أفكار الاستعمار بين شرائح المجتمع الجزائري. فهذه الفضاءات لها التأثير الكبير، لأنها موجَّهة لكل فئات وشراح المجتمع عكس المدرسة.

مارست فرنسا – كذلك- في الجزائر سياسة التحريف والتزييف على اللغة العربية، حيث اعتمدت على تعليم اللغة العربية للجزائريين والمستوطنين باللغة الفرنسية وباللغة الدارجة، حتى يدرك الجزائريُّ بأنها غير سهلة وأنها صعبة وأنها عاجزة عن أن تَسَعْ الحضارة القائمة[4]. حتى يتسرّب إلى أذهان الأطفال اليأس وعدم القدرة في فَهْمِها، وفي المقابل بث فكرة أن اللغة الفرنسية لغة سامية ولغة سهلة المنال فهي عندهم لغة العلم والمعرفة

---

(1) تركي رابح عمامرة، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص 84–85.

(2) يحي بوعزيز، قضايا ومواضيع من تاريخ الجزائر والعرب، ج 2، المرجع السابق، ص 451.

(3) أبو القاسم سعدا لله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، المرجع السابق، ص 520.

(4) محمد مراح، باعزيز بن عمر، حياته وفكره الإصلاحي، ط1، منشورات الحِبر، الجزائر، 2010، 259.

والتطور والحضارة. ومنه سيصيب الدارس والمتعلم التذبذب في اختيار اللغة الأمثل لديه، ولكنه سرعان ما يدرك حسب الواقع المعاش أن لغة الاستعمار هي المسيطِرَة، فهو مُكره وحَيران في تقبل أي لغة سهلة يراها للتعلم[1].

بالإضافة إلى إجراءات محاربة اللغة العربية في إطار المعركة الاستعمارية المُنطلقة من اجتثاثِ مصانع المقاومة الفكرية؛ العمل على الفصل بين الإسلام والعُروبة[2]، حينما قالوا: "الجزائر مسلمة وليست عربية والجزائريون ناطقون بالعربية وليسوا عربا"[3]. وأن اللغة العربية لغة الدين فقط بالجزائر[4].

---

[1] ولكنه لو أمعن قليلا لوجد أن اللغة العربية لغة سهلة جدا، لماذا، لأنه وببساطة بما أنه جزائري ومسلم، لو عاد قليلا إلى من يُلقِّنه آية من القرآن الكريم لحفظها وتعلمها بسهولة تامة، فهل نسي هنا أن القرآن الكريم لغته هي العربية... كما أن الله تعالى يقول في سورة القمر الآية 17: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ والادِّكار بمعنى أي سهلناه للحفظ، فهل من حافظ له . أنظر: كلمات القرآن الكريم من كلام تاج الدين أبي المحاسن اليماني عبد الرحمن بن ناصر السعدي، جمع وترتيب وتصرف محمود بن الجميل، مكتبة الصفا، مصر، 2003. ويدخل فيه أيضا عمليات القراءة والكتابة والحفظ والفهم والبيان...إلخ.

وعلى العكس فإن اللغة الفرنسية هي اللغة الصعبة دراسة وفهما، فحتى الفرنسيين أنفسهم لا يمكن بأي حال من الأحوال الإحاطة بكامل اللغة الفرنسية، فهي كثيرة التجديد والتحديد إلى يومنا هذا، عكس اللغة العربية الثابتة بثبات القرآن الكريم، وقواعدها راسخة رسوخ آي القرآن الكريم...

[2] فهذه إحدى المغالطات الاستعمارية تجاه الدين واللغة والعرق، فنحن مسلمون نصدّق ونقِرُّ بما أخبر به النبي ﷺ حينما قال: "يا أيها الإنسان إن الرب واحد، والأب واحد، وأن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي" رواه ابن عساكر عن مالك عن الزهري رضي الله عنهما. كما نصدّق كلام الله تعالى في قوله الكريم: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ سورة يوسف الآية:2، وفي سورة الشعراء قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ الشعراء195. فالعربية في حقيقتها هي لغة العقل لو أدرك الناس حقيقتها، فالعربية يمكن لكل الناس تعلمها وبسهولة كما أخبرنا الله تعالى.

[3] عثمان سعدي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعروبة الجزائر، أشغال الملتقى الوطني حول الفكر الإصلاحي بتبسة، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص 91.

[4] عثمان سعدي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعروبة الجزائرالمرجع السابق، ص 95.

وفي إطار إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في الجزائر بِصِبْغَةٍ قانونيةٍ، نجد قانون 24 ديسمبر 1904 كغيره من القوانين الجائرة السابقة واللاحقة، حيث نصَّ على عدم السماح لأي جزائري إدارة مدرسة لتعليم اللغة العربية والدين الإسلامي، إلا إذا وافقت سلطة الاحتلال بترخيص خاص من الحاكم العام أو الحاكم العسكري في المناطق الجنوبية[1] كما أن هذا القانون قد حذّر كل جزائري يقوم بعكس ما نصَّ عليه، بإلحاق عقوبات شديدة بين الحبس والتغريم أو بهما معا[2]. وفي 21 مارس 1908 أصدر مؤتمر المزارعين الفرنسيين المستوطنين ما يلي: "من حيث أن تعليم السكان (الجزائريين) يعتبره أعضاء المؤتمر خطرا حقيقيا يتعرضون له من الناحية الاقتصادية ومن ناحية توطين الفرنسيين بالجزائر، وعليه فإنهم يطالبون السلطات المسؤولة بإلغاء التعليم العربي الابتدائي للمسلمين الجزائريين". وفي 08 مارس 1938 صدر قرار يقضي بجعل اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر ومن تعلمها فهو بمثابة أحدِ المظاهرِ العدائيَّة في حقِّ فرنسا وسلطتها في الجزائر، وسيُعاقب وفق القانون[3]. فاللغة العربية عند سلطة الاحتلال لغة أجنبية (فهي ليست حتى ثانوية)، فلا يجوز تعلمها ولا تعليمها، إلا بإذن خاص[4] (يخدم مصلحتها). وأصبحت مهملة تمام الإهمال، لا يُقام لها وزن، وهي آيلة بصفة رسمية إلى الاضمحلال، فكانت تنتظرُ من ينتشلها من سياسة الإقصاء[5]. أما قانون 08 مارس 1944 يحدد من

---

[1] باعتبار منطقة الجنوب (الصحراء) لا زالت تخضع للنظام العسكري عكس المناطق الشمالية التي أصبحت تخضع للنظام المدني بعد 1870.

[2] رابح تركي عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، المرجع السابق، ص 136.

[3] يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا.. المرجع السابق، ص 420.

[4] محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، المصدر السابق، ص ص207 – 208.

[5] أحمد توفيق المدني، المصدر السابق، ص 92.

بين شروط نيل الجنسية الفرنسية استعمال لهجة عامية بدل اللغة العربية في كل من المناطق التلّية والداخلية والصحراوية[1].

فكان هذا الإجراء يدخل ضمن سياسة فرّق تَسُد بإحياء نعرات اللغة بين الأمازيغ والعرب[2]. يهدف أساسا إلى ضرب الجزائريين بعضهم ببعض، وزرع الحقد والحسد والاختلافات، كما توجهت هذه السياسة إلى سياسة بث الفرقة والتحريض والتناحر بين الجزائريين وبث فكرة التمييز بين العرب والقبائل[3]، وقامت بدعم هذه السياسة حتى تصبح كمبدأ أساسي في أذهان الجزائريين، إلى ما كانوا ينظرون إليه بأن البربر كان يمكن أن يكون لهم مصير أوروبي لولم يصطدموا بالقرطاجيين في القديم ثم بالإسلام، وأن العربية سبب تدهور البربر بسبب هجرات القبائل العربية كالهلاليين، وبسبب الإسلام، وهذا ما غرس بعض الشكوك في عديد من المتأثرين بالثقافة الفرنسية حتى أصبحوا يعملون على الترويج للفكر الفرنسي الأوروبي

---

(1) ناصر الدين سعيدوني الجزائر منطلقات وآفاق، المرجع السابق، ص 74.

(2) رابح تركي عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس .. المرجع السابق، ص ص 134 – 135.

(3) الاحتلال الفرنسي للجزائر، استند لعدة نظريات وأفكار استعمارية كثيرة، مثل ما ذهب إليه أحد المنظرين للاستعمار الأروربي لغير البلاد الأوروبية، وهو ألكسي دو طوكفيل، الذي كان شاهدا على عمليات الهجرة والاستيطان الأوربي في أمريكا الشمالية، والتمييز العنصري الرهيب الذي مورس على الهنود الحمر السكان الأصليين لأمريكا، "فأليكسي دو كوطفيل" كان يرى أهمية منطقة القبائل وإعطاء فكرة عن قابلية سكان هذه المناطق وإمكانية ضمها لصف الاستعمار وإدارة الاحتلال حول ما ذهب إليه في تقريره حول الجزائر بين 1837– 1847 بأن "القبائل ستكون في صفنا..." للمزيد حول أفكار الاستعمار أنظر: نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان، ترجمة وتقديم إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، 2008، الجزائر) فجل هذه النصوص تبرر عملية الاحتلال والاستيطان، والتي طبقت فعلا على أرض الواقع ..

خدمة للاستعمار في الجزائر وما ساعدته في توطين اللغة والثقافة الفرنسية الغربية، ومنه ربطها بالحضارة الغربية[1].

فكادت فرنسا أن تنجح[2] إلى حد بعيد في تحقيق أهدافها في القضاء على اللغة العربية خاصة أمام الترويج لفكرة أن الجزائريين مسلمون فرنسيون حتى وإن تم فصل العربية عن الإسلام، هذا ما أدى بأحد العرب المشارقة[3] لما زار الجزائر في تلك الفترة واندهاشه من الوضع المأساوي للغة العربية حيث وصف الوضع الخطير على أنه لو استمر ذلك الوضع، لأصبحت الجزائر مثلما حدث للأندلس، لأنه رأى وسمع وتحسس ما تقوم به فرنسا من منع اللغة العربية في جميع المجالات (إعلام، كتابة تدريس...)[4].

الأصل الثاني: لا كرامة لغير المستعمِر ورجاله والاستهانة بالكرامة الإنسانية للمستعْمَر (في مقدساته):

فالرجل الغربي أو الأوروبي كان -ولا يزال- يرى بأن الرجل الأبيض فوق كل الأجناس والأعراق روحيا وماديا، وكل ما عدا ذلك يجب تسخيره لخدمته، فهو لا يستحق أن يتساوى معه في الإنسانية، فالإنسانية لدى

---

(1) ناصر الدين سعيدوني الجزائر منطلقات وآفاق، المرجع السابق، ص ص 76 – 78.

(2) لأنها لم تنجح كما خططت له من القضاء تماما على اللغة العربية في الجزائر، فنظرتها التطبيقية تلك لم تكتمل، فلا يمكن بحال من الأحوال فصل الإسلام عن اللغة العربية أو اللغة العربية عن الإسلام، لأنهما وجهان لعمة واحدة. وهو القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ سورة الحِجْر الأية 9.

(3) هو محمد فريد بك زعيم مصري زار الجزائر في مطلع القرن العشرين (1905) حيث صرح في جريدة اللواء المصرية، حسب ما ذكر ناصر الدين سعيدوني، المرجع نفسه.

(4) ناصر الدين سعيدوني، التوجه المعادي للعروبة والإسلام في السياسة الفرنسية في الجزائر (1830 -1962)، الرابط الإلكتروني السابق.

الاستعمار ما هي إلا مراتب عليا ودنيا (السيِّد والخادم).. فهذا التمايز أضرّ كثيرا بلغات الأقوام المستعمَرة، كما حدث في الجزائر، فأرادت فرنسا محو اللغة العربية؛ لأنها كانت تدرك تماما قوَّة اللغة العربية، فلها القدرة والقوة على مجابهة اللغة الفرنسية، لأنها كانت لعهد قريب لغة عالمية لغة العلم والمعرفة وناقلةً لها من المحيط الهندي إلى الهادي، ومن الشرق إلى الغرب، فعهد الأندلس ليس ببعيد، فهي لغة الحضارات الإسلامية المتعاقبة، كما أنها من أهم اللغات المقدسة الباقية.

فقد كانت سائدة في أغلب جهات الوطن بالرغم من وجود لهجات عامية هنا وهناك ولكنها لغة الدين الذي هو سائدٌ في ربوع الوطن[1].

وكانت سلطة الاحتلال تنظر إلى لغة الجزائريين على أنها أكثر من لغة، فصنفت اللغة العربية إلى ثلاثة أنواع؛ عربية دارجة وهي التي يدرسونها في مدارسهم، ويتم تعليمها باللغة الفرنسية، وكانت تقرأ من اليسار إلى اليمين، ولغة كلاسيكية (اعتبروها لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة) لا تعدو تخرج من هذا الإطار، فقد اعتبروها ميتة، ولغة حديثة أو عصرية، تتمثل عندهم في لغة الجرائد والكتب المتداولة من المشرق العربي[2]. ومع ذلك فكل هذه الأصناف الثلاث حسبهم هي أجنبية عن الجزائر[3]. كما اشترطت فرنسا على الجزائريين أن كل ترقية اجتماعية او اعتلاء منصب أو دخول وظيفة يجب تعلم اللغة الفرنسية لأنها لغة رسمية في مختلف المجالات[4]. يعني

---

[1] ناصر الدين سعيدوني، التوجه المعادي للعروبة والإسلام .. المرجع نفسه.

[2] أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 44.

[3] محمد طمار، المرجع السابق، ص 396.

[4] ناصر الدين سعيدوني، التوجه المعادي للعروبة والإسلام في السياسة الفرنسية في الجزائر (1830 –1962) الرابط الإلكتروني السابق.

محاولة إلغاء اللسان العربي وحله باللسان الفرنسي يجعل لسان الجزائري لسانا فرنسيا في كل المعاملات القولية والكتابية[1].

هذا ما أدى إلى كل المَيؤوسين من المدارس العربية التوجه (مُكرهين) إلى المدارس الفرنسية واللغة الفرنسية، فتوسعت اللغة الفرنسية انتشارا في أوساط الجزائريين، حتى أصبحت مختلف المظاهر الحياتية (وكأن المرء في شوارع باريس) من أسماء للشوارع والأماكن والمدن والقرى، في إطار ما يسمى بفرنَسَة المحيط. فأصبح الوضع خطيرا على اللغة الوطنية.

وبالرغم من تباين المواقف الرسمية الفرنسية حول التعليم في الجزائر بين مؤيد لتدريس الجزائريين لغتهم ولغة المستعمِر وبين غير مؤيد وغير موافق لهذا الطرح، لاعتقادهم بأنه سيؤدي إلى ظهور فئات جزائرية متعلمة بالثقافة العربية + ثقافة فرنسية أوروبية، أي سيكونون متفوقين على المستوطنين، وهذا ما أدى إلى خوفهم من هذه الفكرة، فكانوا من الرافضين لها، والعاملين على إلغاء اللغة العربية في مختلف مدارس السلطة الاستعمارية..

ولكن استقرَّ الرأي على فكرة الاستعمار القائمة بتحقيق الهدفين (الموقفين السابقين) في وقت واحد، بعد استحواذ الكولون (المستوطنون) وفق خطة مدروسة وهي تعليم الجزائريين انطلاقا من سياسة الفَرْنَسَة، وظهرت هذه الفكرة أكثر وضوحا خلال نهايات ق19، ولكن الهدف منه هو تحقير كل ما يتصل بالثقافة العربية الإسلامية وحضارتها وهذا يعني رفع معنويات التنصير والمستوطنين، انطلاقا من سيادة اللغة الفرنسية. وابتداء من 1870، بدأت النظرة الاستعمارية عن طريق المستوطنين ينظرون إلى تدريس اللغة العربية

---

[1] رابح تركي عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس ... المرجع السابق، ص 135 136.

بنظرة انتقادية، لأنهم كانوا يرون أن اللغة العربية ما هي إلا وسيلة اتصال مع الأهالي وأنها ليست عاملا للثقافة والمعرفة العلمية[1].

وكان غلاة الاستعمار من المستوطنين سنة 1891 يعملون على منع تعليم اللغة العربية في المدارس القليلة التي أوجدتها سلطة الاحتلال في عهد نابليون الثالث، بحجة عدم ملاءمة اللغة العربية في التعليم، ولأنه يوجد اختلاف بين لغة الحديث ولغة الكتابة، وهذا ما قاله أحد المتفرنسين؛ "إن تعلم اللغة العربية أصعب من تعلم اللغة الفرنسية حتى بالنسبة للجزائريين"[2]. وهذا ما نجح فيه هؤلاء الغلاة من تحقيقه، فبالرغم من كونهم أشد المعارضين لتعليم الجزائريين إلا أنهم كانوا يستثنون تدريس وتكوين جزائريين يحتاجون إليهم كطبقة تعمل على تدعيم النفوذ الفرنسي في الجزائر مستقبلا[3].

نعتت اللغة العربية بالتخلف والجمود وبأنها لغة أدبية فقط لا تصلح للعلم والتقنيات. وأن اللغة الفرنسية هي اللغة العليا وأنها هي الوحيدة التي ستُدرَّس، وهذا ما أعلنه "الدوق دوروفيقو" حين كان حاكما على الجزائر سنة 1832 بأنه على الجزائريين أن يتعلّموا اللغة الفرنسية لأنها هي لغة السيادة ولغة المتصرين[4]. وهو أسلوب ترهيب حتى يحجم الجزائريون من دفع أبنائهم إلى مدارس الاحتلال، وبعدها يقول المستعمِر أن الجزائريين هم من كان سببا في جهلهم وعدم تعلُّمِهم. والحرص على إبقاء اللغة العربية أدراج الكتاتيب[5].

---

(1) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 39.

(2) إبراهيم مياسي، المرجع نفسه، ص 157.

(3) إبراهيم مياسي، نفسه، ص 158.

(4) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص 385.

(5) المرجع نفسه، ص 390.

وكأسلوب احتقار للغلة العربية؛ الاهتمام باللهجات المحلية والعامية[1] على حساب اللغة الفصحى واستعمالها، وهذا ما قام به رجال الإدارة الفرنسية في الجزائر بمنح شهادات أو إجازات باللهجات المغربية البربرية، وشهادات باللسان العامِّي، واعتبروها بديلة عن اللغة العربية الفصحى، وللإقبال على هذا الإجراء وتحقيقه على الأرض اشترطت سلطة الاحتلال للقبول في الوظائف والترقيات الإدارية بالإضافة إلى أنها أحد الشروط الأساسية في القبول بالجنسية الفرنسية[2]، حتى يُعتبرون مواطنين فرنسيين[3]. وهذا يدل على الاعتزاز والافتخار بلغتهم على حساب لغات الآخرين (المنهزمين).

وبنهاية الـ ق19 (1895) وبعد إصلاحات الوالي العام "جونار" في التعليم، بات على الجزائريين التوجُّه إلى اللغة الفرنسية من أجل التعلّم، وأن الأوروبيين أنفسهم بدأوا لا يرون في تعلم اللغة العربية ضرورة، لأنهم أصلا كانوا يحتقرونها ويحتقرون أي ثقافة عربية. فهذه النظرة الاستعلائية بدأت ملامحها أكثر بداية من 1875، عندما نادى المستوطنون بِشِعار "المنتصِر

---

[1] كانت تعتبر أن اللغة العربية ماثلة للاندثار مثلما اندثرت اللغة اللاتينية والتي تمخّضت عنها عدة لغات لاتينية كالفرنسية والإسبانية والإيطالية... لذلك ترى بأن اللهجات العامية والدارجة في كامل أقطار العالم العربي ستحل محل العربية الفصحى، لذلك كانت لا تريد بقاء اللغة العربية قائمة فتراها تعمل كل جهدها في جعل العربية مثل اللاتينية ولكنها لا تدرك أو ربما تُدرك بأنه مستحيل، لأن القرآن الكريم سيبقى محفوظا في الصدور وهذا بقاء اللغة العربية ما بقي هو. للمزيد انظر: أبو خلدون ساطع الحصري، في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية، سلسلة التراث القومي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، 1985، ص 33 ماقبلها وما بعدها.

[2] حسب قانون 08 مارس 1944 في إطار مشروع ديغول مع العلم، هذا القانون لا يلغي اللغة العربية الفصحى من التقدم في الوظائف ولكن الأولوية لشهادات أ، الإجازات العامية أو القبائلية.

[3] ناصر الدين سعيدوني، الرابط الالكتروني السابق.

والمغلوب" وهذا واضح عندما قالوا: "ليس علينا نحن المنتصرين أن نتعلم اللغة العربية، بل الواجب على الأهالي (الجزائريين) أن يدرسوا لغتنا"[1].

ورغم ذلك فإن للغة العربية أعظم أثر في النفوس إذا أُحْسن استغلالها واستخدامها[2]، فهاهم من تأثر باللغة الفرنسية والذين كانوا أحد نجاحات سياسة الفَرْنَسَة وإلغاء اللغة العربية، حين سألهم "باعزيز بن عمر"؛ لماذا تهرعون لسماع عبد الحميد بن باديس إذا خَطب؟ فيقولون: "إنه يُؤثِّرُ فينا بعربيّته أكثر مما يُؤثر فينا غيره بفَرَنْسِيَّتِه، لأنه يملك من وسائل التعبير عن الشعور الجزائري العام ما لا يملكه غيره، فشخصيته وإشاراته ووضوح ما يدعو إليه، وإخلاصه للمبدإ الذي يعمل له كلها تعبِّر عن رأيه تعبيرا لا يقِلُّ تأثيرا عن فصاحة لسانه وسِحرِ بيانه"[3].

الأصل الثالث: التنصُّل من ميراث الحضارة للبلاد المستعمرَة في بعديه الديني واللغوي:

فهذه الفكرة تعمل لتحقيق الفكرة التي سبقتها (تنصير البلاد الإسلامية (الجزائر))، فضرب ميراث الحضارة في الجزائر هو عملية لاقتلاع ميراث الجزائريين الديني واللغوي. فعمليات التبشير التي بُدأت بتنصيب أسقفية الجزائر وتوليَة "لافيجري" على أسقفية الجزائر 1868، وعملياته الخبيثة في تنصير وتمسيح أطفال الجزائريين في الجزائر أو في فرنسا بعد تهجيرهم ذكورا وإناثا، وما عمليات التهديم للمؤسسات الدينية الجزائرية من مساجد وجوامع وزوايا وكتاتيب، وتحويلها إلى كنائس ومستشفيات ومراكز عسكرية

---

[1] أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 42.

[2] وهذا ردا على من يُهين ويقزِّم اللغة العربية، ويُفخِّم اللغة الفرنسية ويُظهرها قوية سائدة.

[3] باعزيز بن عمر، من ذكرياتي مع الإمامين عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي، منشورات الحِبر الجزائر، 2006، ص ص48 – 49.

وإصطبلات للحيوانات ومحلات، وغيرها، يدخل في فكرة محاربة الإسلام والمسلمين في الجزائر. كما توجهت أيضا إلى فكرة ضرب اللغة العربية بإلزامية التعلم باللغة الفرنسية، وإحياء اللهجات المحلية من بربرية وغيرها كالدارجة، وإلغاء اللغة العربية من البرامج والمناهج التعليمية لكل من أراد التعلم والدراسة في مدارس الاحتلال.

فهذا التنصل بمثابة أحد أسسها المعادية للعروبة والإسلام، قامت فرنسا في الجزائر بتطبيق فكرة الجزائر فرنسية منذ وطأة أقدام جيوشها ومعمريها أرض الجزائر (1834)، فوضعت القوانين والمراسيم لتحقيق وتثبيت برامجها والاستحواذ والاستيلاء على الجزائر، فكانت المكاتب العربية (1834 – 1870) ومراسيم السيناتوس كونسيلت (1863 – 1865) وقوانين الأهالي الأنديجينا (1871 – 1927)[1].. وإن كانت كل هذه القوانين والإجراءات تختلف حسب أهدافها وغايتها في الجزائر من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية وغيرها، فإن الذي شجع أكثر سلطة الاحتلال في الجزائر هو النهج أو السياسة الرامية في إلغاء اللغة العربية رأس الثقافة الجزائرية، فهي لا تؤمن بوجود شعبين على أرض واحدة أي لا يمكن تواجد لسانين في رقعة واحدة، وهي إحدى النظريات الاستعمارية.

ومع أن إدارة الاحتلال كانت تعمل على تعليم اللغة العربية لموظفيها وضباطها ولنشر العربية بين المستوطنين، كانت تَحرِم الجزائريين من تعلم لغتهم[2]. فكانت تَحْرِصُ على استخدام اللغة العربية من أجل الترجمة، ولا

---

[1] ناصر الدين سعيدوني، التوجه المعادي للعروبة والإسلام في السياسة الفرنسية في الجزائر (1830 –1962)، الرابط الالكتروني السابق.

[2] أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 32.

يرون ضرورة مطالبة المنهزمين (الجزائريين) بتعلم لغة الغزاة (الفرنسية) فورا[1]. وفي هذا الإطار استغلت فرنسا العديد من العرب المشرقيين والمستشرقين الأوروبيين من أجل تعليم اللغة العربية للمستوطنين، وبعض الجنود بمختلف مراتبهم لأهداف استعمارية مرحلية حتى يتم التحكم في مختلف الأهالي، وبعدها تأتي مرحلة التخلي عنها. حتى أن بعض المصادر الفرنسية كانت تنوّه بدور "جوني فرعون"[2] بأنها كانت ناجحة، فقد كان يُدَرِّسُ اللغة العربية من خلال كتاب في النّحْو العربي. ولكنه في حقيقة الأمر كانت هذه اللغة هي لغة عامية حيث كان الكِتَاب المُدرَّسُ هو "النَّحْوُ الابتدائي للعربية الدارجة أو الجزائرية لاستعمال الفرنسيين" الذي صدر سنة 1832[3].

بالإضافة إلى محاولة استخدام طريقة مباشرة في لغة التدريس من ابتكار "إيرني كاري" (1829–1909) طُبِّقت في فرنسا وحاولوا تطبيقها في الجزائر خاصة على منطقة القبائل لاعتقادهم أن منطقة القبائل تشبه إلى حد قريب إحدى المناطق الفرنسية، وهذه الطريقة تعتمد على إلغاء اللغة الأصلية بالتدرُّج عن طريق وضع المُرادفات والمصطلحات للهجات المحلية واكتسائها بمفردات ومصطلحات فرنسية شيئا فشيئا حتى ينتقل الفرد المتلقي إلى تلقي

---

[1] المرجع نفسه.، ص24.

[2] جوني فرعون عربي من أصل سوري انتقل مع والده إلى فرنسا سنة 1821، وشارك مع الجيش الفرنسي في الحملة على الجزائر، كمترجم وكاتب خاص في إدارة الاحتلال بالجزائر... وكان له الدور الرئيسي في الوساطة اللغوية بين المحتل والجزائريين، ساهم في ترجمة نص البيان الذي قدمه دي بورمون إلى سكان الجزائر، كما كان له الدور الكبير في تكوين ضباط فرنسيين مثل لاموريسير، وبيليسيي دي رينو، ودوماس، كما قام بتحرير دروس للغة الفرنسية موجهة لحضر مدينة الجزائر ويهودها... أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص ص 25 – 26.

[3] أبو القاسم سعد الله، نفسه.

اللغة الفرنسية وتقبُّلها في النهاية[1]. بالإضافة أيضا إلى كتاب آخر صدر سنة 1923 يَنشر ثقافة التعليم باللغة العامية تحت عنوان "تعليم اللهجة الجزائرية في الجزائر Cours moyen d'Arabe parlé" للمؤلف محمد صوالح، والذي كان يهدف إلى سياسة التفرقة بين الجزائريين[2].

كما استخدمت إدارة الاحتلال أحد وسائل الضغط البيروقراطية في مجال العمل والتوظيف، فكانت كل المسابقات التي تخص المعلمين والمدرِّسين للغة العربية أغلب موادها تتألف من معرفة العربية العامِّية والدارجة كتابةً وحديثا..[3]. ورغم ذلك كانت سلطة الاحتلال تَشُنُّ جامَّ حربها على اللغة العربية العامية فلم تَسْلم هي أيضا، فقد أصبحت العامية مشوّهة أكثر من الفصحى[4]. إضافة إلى وجود تغلغل الفكر العُنصري في ممارسة السياسة الاستعمارية، إلى درجة أن أروقة السياسة لإدارة الاحتلال في الجزائر ميّزت حتى بين طبقات المثقفين المنتمين للتنظيمات السياسية والاقتصادية الفرنسية[5]، فنجد أن مجلس المندوبين الماليين قد فرّق بين تركيبته، فكان الجزائريون المتكلمون باللغة العربية – حسب تصنيف أعضاء هذا المجلس –

---

[1] فريد حاجي (جامعة الجزائر 2)، "العامية في الخطاب التربوي الاستعماري" ج2، الشروق اليومي، ع: 4829، 02 ذي القعدة 1436هـ/ 16 أوت 2015، الجزائر، 2015.

[2] هشام سعدالدين (جامعة الجلفة)، الشروق اليومي، عدد: 4830، 17 أوت 2015/ 03 ذي القعدة 1636، الجزائر.

[3] نفسه، ص34.

[4] أحمد حداد، المرجع السابق، ص ص 57 – 58.

[5] ذكر أحد الكتاب الجزائريين المتفرنسين الذين حققت فيهم فرنسا هدف القضاء على اللغة العربية وفق برنامج بعيد المدى، حيث قال: "اللغة الفرنسية هي المنفى الذي أعيشه، والواقع أن ما يفصلني عن الجزائر ليست هي الجبال ولا المحيطات بل هي اللغة الفرنسية، عن: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 138.

تعدادهم لا يصل حتى الربع، فقد كانوا يقدرون بـ 15 مقعدا، أما الأعضاء الآخرون فجلهم من المستوطنين وبعض الأمازيغ (البربر) وتعدادهم 54، حسب القانون 19 ديسمبر 1900، بعدما استقلت الجزائر ماليا عن حكومة فرنسا. مع العلم أنه حسب إحصائيات تلك الفترة كان تعداد سكان القبائل حوالي 700 ألف والعرب حوالي 3 ملايين و300 ألف نسمة[1].

ومن بين أهداف القضاء على العروبة والعربية، محاولة قطع كل أواصر وعلاقة تربط الجزائر مع بقية العالم الإسلامي والعربي، فقد كان اللسان العربي هو رابط استراتيجي إن صحّ القول، فهو يربط بين الشرق والغرب العربيين في مختلف أوضاع ومناحي الحياة، وقطع هذه الصلة من شأنه قطع أهم عوامل الوحدة الروحية حتى يتسنى لفرنسا بث فكرة أن الجزائر أقرب إلى فرنسا وإلى الغرب منها إلى غيرها من الأمصار العربية والإسلامية[2]. فلولا الإسلام وهجرات العرب لكانت الجزائر حسب نظرة الاستعمار من كيان أوروبا. لذلك نجدها عَمَدت على وضع الحواجز بين الجزائري وغيره من العرب، وفرض الثقافة الفرنسية الأوروبية، من أجل قتل اللغة العربية فهي من أهم المقوِّمات، اعتبرته فرنسا أخطر المقومات للهوية الوطنية، فكانوا له بالمرصاد، لذلك قامت بوضع العراقيل أمام أدوات اللغة العربية من نثر وشعر وفصيحٍ حتى لا يتطور لسان الجزائري الأصيل[3]. ومنع الكتاب العربي والمجلة والجريدة العربية من الدخول إلى الجزائر وتداولها بين أوساط

---

(1) عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر منذ البداية ولغاية 1962، البصائر الجديدة للطباعة والنشر، الجزائر، 2013، ص 183.

(2) ناصر الدين سعيدوني الجزائر منطلقات وآفاق، المرجع السابق، ص ص 80 – 81.

(3) محمد طمار، المرجع السابق، ص 387.

الجزائريين[1] مثل جرائد ومجلات "اللواء، والمؤيّد، والفتح، والزهراء، والأهرام وغيرها"[2]. فهذه الإجراءات كانت الغاية منها إزالة العوائق التي تحول بينها وبين عمليات إدماج الجزائريين في كيان المستعمر الفرنسي الأوروبي[3].

فكل من يُشَاهَد حاملا جريدة أو كتابا عربيا أو لديه سبورة في بيته يكون مستهدفا لجواسيس السلطة وبعدها تسلط عليه غرامات متفاوتة أو يسجن أو يحكم عليه بأعمال شاقّة.. وعليه فسياسة الفَرْنَسَة هي سياسة إقصائية للعربية، فهي بمثابة إحدى المنطلقات الأساسية في التوجه الاستعماري الفرنسي المعادي للعربية لسان حال المجتمع الجزائري.

الدعوة للعامية (الدارجة) كلغة في أوساط الجزائريين لكي يتفشى الجهل وتنتشر الأمِّيَّة حتى لا يستطيع المرء القراءة ولا الكتابة ومنه عدم القدرة على قراءة ولا تعلم القرآن الكريم ومنه تعاليم الإسلام. فهي كذلك ذريعة لتقسيم لغة واحدة إلى أكثر من لغة (لأن الجزائر كبيرة المساحة وعليه فإن الجزائريين تختلف لهجاتهم العامية من منطقة إلى أخرى)، أي لغة عامية متنوعة، ولغة فصيحة، لتفضيل الأولى عن الثانية بإدخالها رسميا في برامج التعليم فيتم تعليم هذه اللغات إن صح القول كلغتين مستقلة إحداهما عن

---

[1] يحي بوعزيز، قضايا وموضوعات من تاريخ الجزائر والعرب، المرجع السابق، ص 457.

[2] مازن صلاح حامد مطبقاتي، عبد الحميد بن باديس، العالم الرباني والزعيم السياسي، عالم الأفكار، الجزائر، 2011، ص 56.

[3] رابح تركي عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، المرجع السابق، ص ص 156– 157.

الأخرى، ورغم ذلك فهما أجنبيتان عن اللغة الحاكمة واللغة الرسمية للمستعمر وهي الفرنسية[1]. فهي فكرة لتشتيت اللسان الجزائري ليس إلاّ.

فبعد سقوط مقاومة الأمير عبد القادر 1847، ظهر الحقد الدفين تجاه اللغة العربية، وقد تجلى ذلك خصوصا بعد انهزام مقاومة الأمير عبد القادر، حيث قام جنود الجنرال دوق دومال بنهب وتخريب مكتبة الأمير، فقد قاموا بتمزيق وإتلاف كنوز هذه المكتبة[2].

ومنه فإن استبدال اللغة الفصحى باللهجات العامية المحلية من أجل فصل الرابط الأساسي بين العالم العربي والإسلامي وهو لسان القرآن الكريم، وتذبذبهم وتشرّدهم عن بعضهم البعض. وذهاب وحدتهم القومية عربيا وإسلاميا، وذهاب وحدتهم داخليا بتمزّق أواصر الهوية الوطنية، حتى يصبح لكل وطن عربي لغة خاصة به، ومُجزّءًا.

وبالنظر إلى الأساليب المتَّبعة في تحقيق هذا الأصل من أصول الاستعمار إنشاء إعلام ناطق بلغة المستعمَر لتضليلهم، فكانت أولى جريدة ناطقة بلغة الجزائر العربية هي جريدة "المُبشِّر"[3] صدرت سنة 1847، بالرغم من الضغوط والعراقيل في وجه العربية[4]، لم يكن الهدف منها كما قلنا حُبًّا في اللغة العربية بل من أجل تزييف الحقائق وتحريف التاريخ عبر صفحاتها، وحتى يتم نشرها بقدرٍ واسعٍ في أوساط الجزائريين التي اعتمدت على سياسة

---

[1] باعزيز بن عمر، من ذكرياتي مع الإمامين عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي، منشورات الحِبر الجزائر، 2006، ص 106 – 107.

[2] رحيم محياوي، دراسة مستقبلية، الاستيطان والتوطين، الاستعمار الفرنسي في الجزائر والحركة الصهيونية في فلسطين، منشورات جامعة عنابة، الجزائر، 2006، ص 39.

[3] تعتبر جريدة المبشِّر ثاني او ثالث جريدة تُصدر باللغة العربية في العالم الإسلامي.

[4] أبو القاسم سعدا لله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، المرجع السابق، ص 520.

التنصير والفَرْنَسَة وفق منهجية متدرِّجة، وهذا واضح من خلال ما تناولته منذ تأسيسها إلى غاية 1927[1].

إن سياسة التنصير وسياسة الإدماج لا يتأتَّى مفعولهما إلا بسياسة الفَرْنَسَة، باعتبار التنصير وسيلة وهدفا، والفَرْنَسَة وسيلة وهدفا، أما الإدماج فهو هدف فقط. والغاية من كل ذلك هو خدمة المدرسة الاستعمارية بإبعاد الجزائريين عن أصولهم وتراثهم، وصهرهم في بوتقة الفَرْنَسَة[2]. كما يهدف التعليم باللغة الفرنسية مكان اللغة العربية، لاستغلالهم في المصانع والمعامل والحقول، ليس في الوظائف العليا.. أي تكوين جزائريين من مساعدي الاستعمار حاملين لشهادات بعنوان (أهلي)، خدمة لفرنسا[3]. ونسيان اللغة العربية وما تعلّق بها مع مرور الزمن.

كما نلاحظ بأن فترة النظام العسكرية كانت سياسة التجهيل فيها متباينة نوعا ما من الفترة المدنية، ويَكْمُن ذلك بسبب سياسة المستوطنين الذين أصبحوا يتحكمون في زمام السلطة الاستعمارية في الجزائر بسبب قوة نفوذهم وتوغلهم في كافة إدارات الاحتلال، الذي ازداد حدّةً بعد 1870.

وكخاتمة لما تمّ تناوله، استخلص البحث على النتائج التالية:

- أن من خصائص الاستعمار (الفرنسي) هي هدم هُوِيات الشعوب المُستعمَرَة (الجزائر)؛

---

[1] وهذا بعد ظهور الوعي والفكر الإصلاحي التحرري في الجزائر بسبب احتكاكه بالعالم العربي والإسلامي.

[2] محمد مراح، باعزيز بن عمر، حياته وفكره الإصلاحي، ط1، منشورات الحِبر، الجزائر، 2010، ص 90.

[3] محمد مراح، المرجع نفسه.، ص 90.

والعنصر العربي، ويجب علينا أن نبقي على هذا التمايز والانقسام"[1]. ولكن هذه مغالطة وكأنه يدَّعي بأنه قبل وجود فرنسا في الجزائر كان هناك تمايُز عرقي وديني أي أن القبائل قبل دخول فرنسا إلى الجزائر كانوا غير مسلمين، ولا يتحدثون بالعربية... وهي إحدى المغالطات والأكاذيب والأباطيل التي زرعتها فرنسا، وهي عكس ما كانت عليه الحقيقة.

• **أما من الناحية السياسية**؛ فاستطاعت سياسة الفَرْنَسَة وإلغاء اللغة العربية من تكوين فئات أصبحت تعمل في الحقل السياسي فاستعملتها سلطة الاحتلال لزعزعة استقرار الفكر التحرري والاستقلالي من أذهان الجزائريين، كما حصل للعديد من شخصيات الهيئات والحركات والأحزاب الوطنية مثل تصريحات زعماء أحزاب في فترات قلّت فيه النخوة الوطنية، ومثل الأزمة البربرية التي كادت أن تعصف بحزب الشعب سنة 1947، وحتى قبيل اندلاع الثورة التحريرية المباركة.

▪ أنَّ مرادِفَتَي القراءة والكتابة، إذا غابتا، أدى ذلك إلى حدوث ما يسمى بالأمِّيَّة، وهذا ما سعت إليه حكومة الاستعمار في الجزائر، لأنه وبساطة هذا المفهوم يُمثِّل الجهل، فهو مرض فتاك ونَقِيصَة، ورذيلة فكرية وشلل عقلي ومعرفي، تُصاب به الأمم العاجزة عن تحقيق عكس ذلك. وهذا ما ذهب إليه الشيخ البشير الإبراهيمي حينما قال: "لا تفشوا الأمِّيَّة في أمة إلا إذا أفقدتها معظم خصائص الحياة"[2]. وقد كانت تقدر نسبة الأمِّيَّة بالجزائر بـ 95% من مجموع الأطفال، حوالي 700 ألف طفل لا يجدون إلى التعليم سبيلا، بالرغم من أن الجزائر المستعمرة كانت ليست خالية من التعليم، لكنه كان تحت يد إدارة

---

[1] ناصر الدين سعيدوني الجزائر منطلقات وآفاق، مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص 90.

[2] سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار المعرفة، الجزائر، 2009، ص 73.

الاحتلال[1] فهي تنظِّمه وتسيِّره حسبما تـراه في صـالحها، حيـث نجـد أن تعلـم المستوطن الأوروبي انتشر انتشارا غريبا وإجباريا عكس الفئة المحرومة وهـي فئـة الجزائريين فلا يمكن لهم الدراسة إلا إذا وافق الوالي العام. وقد كانـت المـدارس والمعاهد أكثر أهمية لدى سـلطة الاحـتلال هـي الـتي تنتشـر أغلبهـا في منـاطق الجزائر الساحلية والتلية وأهم المناطق هي قسنطينة وتلمسان والجزائر ووهـران، والذي يتركز فيها مختلف أطوار التعليم (ابتدائي وثانوي وعالي).

▪ من هذا المنطلق، فعلاقة الأمِّيَّة بالجزائر في عهد الاستعمار، كـان سـببه إلغاء اللغة الوطنية ونَفْيها من اللسان الجزائري، فإذا أُلغِـيَ أدَّى إلى حـدوث الأُمِّيَّة، وبما أن الجزائر تَدِين بالإسلام، والإسلام نظام متكامل، لا يتم ذلـك إلا بالعلم، والعلم لا يتأتّى من دون اللغة وتعلُّمها، وبـالأخصِّ لغـة القـرآن التي كانت إلى عهد قريب بالاستعمار الفرنسي، لغة عالمية.

▪ فكانت فرنسا تدرك تمام الإدراك حقيقـة اللغـة العربيـة لـدى الإنسـان المسلم عامة ولدى الفرد الجزائري خاصة، فكانت سياسـتها لمحاولـة القضـاء عليها ... لذلك نجد البشـير الإبراهيمـي، كـثيرا مـا يقـرن الجهـل أو الأمِّيَّـة بفقدان اللغة (القراءة والكتابة) حيث قال: "إن الأمم الحيَّة في وقتنـا هـذا مـا حييت إلا بالعلم الاختبـاري التطبيقـي وأسـاس هـذا العلـم – وإن عـلا – القراءة والكتابـة (اللغـة). ولَّمـا انتهـى العلمـاء مـنهم إلى أبعـد غايـة العلـم وتَسنَّمُوا منه أعلى ذروة. التفتوا يتبيَّنون الطريق الـتي وصـلوا منهـا إلى هـذه الغايات البعيدة فرأوا أن مفتاح الباب الذي منه دخلوا ومبدأ الطريـق الـذي منه وصلوا هو ((أَلِفْبَا)) وأن أول مُنْعِمٌ عليهم بهذه النِّعم الجليلـة هـو أول

[1] كان قانون 16 جوان 1881 يقر بمجّانية التعليـم للأوروبـيين وقـانون 28 مـارس 1882 يـنص على إجبارية التعليم المستوطنين.

من علَّمهم هذه الحروف الضئيلة[1]، فهذه الحروف إذن يقصد بها اللغة، فلا لغة دون حروف ترتكز عليها.

▪ وهذا ما لا تريده فرنسا في الجزائر وإبقائها جاهلة بلغتها الأصليّة، حتى لا تتمكن مثلما تَمكَّن أسلافها السابقون من تكوين حضارات علَّموا بها أوروبا من حمادية وزيَّانية وغيرها...

▪ فإذا كانت الدول تَبذُل وتَصرِف الأموال وتخترع طرائق للقضاء على الجهل وإبقاء لغاتها لغة راقية وترقيتها وتطويرها ونشرها إن أمكنها ذلك سبيلا. كما قامت فرنسا الاستعمارية بصرف الأموال واختراع الطرق للقضاء على لغات الشعوب المظلومة المقهورة على أمرها كما فعلت في الجزائر. ولكن نتساءل هنا أين مساعينا في ذلك نحن اليوم، أين علماء اللغة عندنا، أين نسبتنا من نسب لغات الشعوب في العالم الآن..؟

▪ اجتهدت فرنسا في استئصال اللغة العربية عن اللسان الجزائري، عن طريق وسائل متنوعة مادية ومعنوية، ووفق استراتيجيةٍ ممنهجة ذات أبعادٍ تُسْتخدَم حسب برمجتها.. كما استغلت عدم وجود ركائز في الجزائر ثابتة مثل التي عند تونس (الزيتونة)، والمغرب الأقصى (القرويين)، ومصر (الأزهر الشريف)... فقام ببث النَّعرات بين الكيان الجزائري (الواحد) في فكرة "بربر، عرب".

▪ التضييق وتعطيل الكتب والجرائد المنشورة باللغة العربية عربيا ومحليا كما فعلت بصحف وجرائد جمعية العلماء الناطقة بالعربية كما فعل شوتان رئيس حكومة فرنسا في ذاك الوقت.. فكانت فرنسا ترى بأنها –أصلا– لا تحتاج إلى قانون حتى تلغي العربية من الجزائر.. باعتبارها هي السلطة والقوة والمنتصرة.

---

[1] سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، نفسه، ص 74.

▪ كما اجتهدت فرنسا إلى تعميق الفُرْقة ووضع إحساسٍ مغايرٍ لما هو صحيح (تاريخي) في الانتماء العربي في الذات الجزائرية ماديا وروحيا.

▪ استخدمت المؤسسات التعليمية والتبشيرية والإدارية على جميع الأصعدة ومختلف مناحي الحياة لاحتقار اللغة العربية والاعتزاز بلغة المستعمر الأوروبية. حاولت فصل اللغة العربية عن الشخصية الجزائرية (ما عدا المساجد وأماكن العبادة) التي هي أصلا تحت سيطرتها.

▪ الاعتماد على المفكرين والمُنَظِّرِين والكُتَّاب الموالين للفكر العنصري والاستعماري لإيجاد بحوث ودراسات تخدم الاستعمار في القضاء على اللغة العربية باعتبارها أحد المقومات والركائز الأساسية لدى الجزائريين، وهذا عبر ثلاثة أصول فكرية من الأفكار الاستعمارية الفرنسية في الجزائر وهي: المعركة الاستعمارية المُنطلقَة من اجتثاث مصانع المقاومة الفكرية – لا كرامة لغير المستعمِر ورجاله والاستهانة بالكرامة الإنسانية للمُستعمَر (في مقدساته) – والتنصُّل من ميراث الحضارة للبلاد المستعمرَة في بعديه الديني واللغوي.

▪ محاولة فصل الجزائر عن القطر العربي بشقيه المغربي والمشرقي، كما حاولت فصل الجزائريين عرقيا (بربري أمازيغي – عربي مسلم)، وبث النزعة البربرية من أجل خلق جيل يُنفي العروبة ويحتضن فرنسا الغربية (روحيا وماديا). لحمايته من انتشار وتغلغل اللغة العربية مستقبلا، في إطار خلخلة الوحدة الوطنية والوحدة اللغوية معا.

▪ إلغاء الفكر القومي العربي (روحيا وعقائديا، لغويا، واجتماعيا)، فهو يصب في فكرة تشتيت صفوف العرب بين مختلف الاستعماريين (انجلترا، فرنسا..).

▪ محاولة تأكيد الشكوك في عروبة الجزائر وانتمائها العربي انطلاقا من مزاعمها التالية :

o بربرية الجزائر، ونفي عروبيتها، وأنهم جزائريون ولكنهم غير عرب.

o اللغة العربية ليست لغة علم وفكر حضاري ولا اقتصاد ولا تقدّم...

o الجزائر مسلمة وليست عربية مثلها مثل الدول الآسوية، كإيران، تركيا، باكستان.. الخ.

oممارسة اللغة العربية خطرٌ كبير، فقامت بتحييدِها فقط على مستوى مراكز العبادة.

▪ فإذا تحققت هذه الأفكار والإجراءات وقضت على ركائز الأمة الجزائرية يتحقق الهدف الأكبر لدى الاستعمار الفرنسي وهو إبقاء الجزائر تحت السيطرة الفرنسية كجزء لا يتجزأ من فرنسا الأم.

▪ إذا بقيت اللغة العربية قويّة في الجزائر أدى إلى ازدياد قوة الإسلام أكثر في القلوب، لذلك عملت فرنسا على تعميق الاختلاف بين الإسلام والمسيحية، بل العمل على إذابته في اللغة الفرنسية حتى يرضخ لإرادتها.

▪ يَذكر الشيخ الإبراهيمي بِحُرقة تَحزُّ في نفسه وكل من هو على شاكلته من الغيورين على حقيقة الاستقلال التّام، فهو يرى أن حرية الجزائر، وكل العالم العربي من رِبقة الاستعمار، يَكْمن في جوهره في عدم التبعية له بأي شكل من أشكال التبعية، أي لا يجب أن تكون له علاقة سابقة كان سببا في إلغائها أثناء الاستعمار، من تلك الثوابت الأساسية للكيان العربي من وطن وجنس، ودين، وأهمها اللسان، وهي اللغة العربية..، فقد ركز على أهم مقوم كان يراه وهو اللغة العربية، فهي الرابط بين الدين والوطن والجنس، حيث قال: أن "الاستقلال الحق هو استقلال اللسان عن لغة المستعمِر، وتحرير

الشعوب هو تحرير ألسنتها من لسان غيرها، وأن استقلال العرب لا يتم تمامه إلا بتعريب ألسنتهم وأفكارهم وهممهم وذممهم..[1]. وهذا ما قام به الشعب الجزائري عندما التفَّ حول جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لصدّ العدوان على مقوِّمات الأمّة، ومن بينها اللغة العربية، فانتشرت المدارس الحرة للبنين والبنات، حتى أصبحت كل منطقة من مناطق الوطن تحتوي على مدرسة من مدارس جمعية العلماء... ولعل دور هذه الجمعية في إعادة ركائز الهوية الجزائرية وعلى رأسها اللغة العربية، سيكون في بحث آخر مكَّمِّل لهذا البحث، من أجل إعطاء نظرة شاملة عن وضعية اللغة العربية بعد 1931 إلى غاية الاستقلال وما بعده..

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

السنة النبوية المطهّرة.

إبراهيم مياسي، مقاربات في تاريخ الجزائر 1930 – 1962، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، ج4، بيروت، لبنان، 1996.

- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1860 – 1900، ج1، عالم المعرفة، الجزائر، 2009.

- أبو القاسم سعدا لله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003.

[1] في قلب المعركة، نفسه، ص 208.

-أبو خلدون ساطع الحصري، في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية، سلسلة التراث القومي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، 1985.

- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، منشورات ANEP، الجزائر، 2010.

- أحمد حداد، الشيخ أحمد حمّاني، ودوره في الحركة الإصلاحية والوطنية (1333-1419هـ/ 1915-1998م)، دار هومة، الجزائر، 2014.

- باعزيز بن عمر، من ذكرياتي مع الإمامين عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي، منشورات الحِبر، الجزائر، 2006.

- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، 2003.

- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار المعرفة، الجزائر، 2009.

- حمدان بن عثان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق د. محمد العربي الزبيري، تصدير عبد العزيز بوتفليقة، منشورات، ANEP، الجزائر، 2005.

- رابح تركي عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، ط2، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003.

- رحيم محياوي، دراسة مستقبلية، الاستيطان والتوطين، الاستعمار الفرنسي في الجزائر والحركة الصهيونية في فلسطين، منشورات جامعة عنابة، الجزائر، 2006.

- سعيد بورنان، نشاط جمعية العلماء المسلمين في فرنسا، 1936-1956، دار هومة، الجزائر، 2011.

- الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

- عبد الرحمن شيبان، مقدمة مجلة الشهاب، أنشأها الإمام عبد الحميد بن باديس، دار المعرفة، الجزائر، 2008.

- عثمان سعدي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعروبة الجزائر، أشغال الملتقى الوطني حول الفكر الإصلاحي بتبسة، دار الهدى، الجزائر، 2009.

- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر منذ البداية ولغاية 1962، البصائر الجديدة للطباعة والنشر، الجزائر، 2013

- عمار جيدل، أفكار استعمارية وسبل دفعها كما كشفها نزهاء الغربيين، أوجين يونغ أنموذجا، دار جسور، الجزائر، 2013.

- كلمات القرآن الكريم من كلام تاج الدين أبي المحاسن اليماني وعبد الرحمن بن ناصر السَّعدي، جمع وترتيب وتصرف محمود بن الجميل، مكتبة الصفا، مصر، 2003

- لعموري عليش، مدخل إلى تاريخ العلوم عند المسلمين، دار الأمل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

- مازن صلاح حامد مطبقاتي، عبد الحميد بن باديس، العالم الرباني والزعيم السياسي، عالم الأفكار، الجزائر، 2011.

- محمد العربي ولد خليفة، المحَنَة الكبرى، دار الأمل للطباعة وانشر والوزيع، الجزائر 2009.

- محمد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كل أمة روح ثقافتها، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، 1989.

- محمد طمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006.

- محمد مراح، باعزيز بن عمر، حياته وفكره الإصلاحي، ط1، منشورات الحِبر، الجزائر، 2010.

- ناصر الدين سعيدوني، التوجه المعادي للعروبة والإسلام في السياسة الفرنسية في الجزائر (1830-1962) http://www.tarikh-alarabi.ma/html/adad32partie9htm

- عبد القادر خليفي، الدور النضالي للحركة الإصلاحية "جمعية العلماء"، أشغال الملتقى الوطني حول الفكر الإصلاحي بتبسة، دار الهدى، الجزائر، 2003.

- ناصر الدين سعيدوني الجزائر منطلقات وآفاق، مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2000.

- أليكسي دو طوكفيل، نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان، ترجمة وتقديم إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، 2008، الجزائر.

- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004.

- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج2، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004.

- يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830 – 1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.

- يوسف مناصرية، وضع الجزائر خلال الحرب العالمية الأولى، أعمال الملتقى الوطني حول ثورة الأوراس 1916م، إشراف جمعية أول نوفمبر، باتنة، 1416هـ/ 1996م، مطابع عمار قرفي، باتنة، الجزائر، 1996.

- فريد حاجي (جامعة الجزائر 2)، "العامية في الخطاب التربوي الاستعماري" ج2، الشروق اليومي، ع: 4829، 02 ذي القعدة 1436هـ/ 16 أوت 2015، الجزائر، 2015.

- Dictionnaire Le Robert illustré ،France ،2014

دور جمعية العلماء المسلمين في الحفاظ على اللغة العربية في منطقة وادي ريغ.

د. جمال قوي
جامعة قاصدي مرباح ورقلة.

مقدمة

تعرف الجزائر قاطبة بوجود وديان في مناطق شتى من أرجائها تسمى بها بعض المناطق على غرار وادي ميزاب ووادي سوف ووادي الساورة ووادي ريغ على سبيل المثال لا الحصر. أما هذا الأخير أي وادي ريغ فهي المنطقة التي ستنصب عليها دراستنا لنشاط جمعية العلماء المسلمين على قلته أو كثرته في الحفاظ على اللغة والهوية العربية بها، والتي كان لها فيها نشاطا فاعلا وفعالا مجابها لنشاط المستدمر الفرنسي على الأقل الذي سعى أنذاك بكل ما أوتي من قوة القضاء على ملامح الهوية العربية في المنطقة وفي الجزائر قاطبة.

1.التعريف بالمنطقة والموقع الجغرافي

تقع منطقة وادي ريغ في الحقيقة بين ولايتي ورقلة والوادي أو بتعبير أدق حسب آخر التقسيمات الإدارية الحديدة منطقة وادي ريغ هي الولاية المنتدبة لتقرت إضافة الى الولاية المنتدبة المغير، وهي بذلك تضم المدن الثلاث تقرت وجامعة والمغير، وتقع المنطقة في منخفض مستطيل الشكل يبدأ شمالا من رأس الوادي التابع لمدينة المغير على طول 160 كلومترا لينتهي في قرية قوق جنوبا والتي يوجد بها ضريح الولي سيدي بوحنية.

وقد حظيت هـذه المنطقـة بالعديـد مـن الكتابـات التاريخيـة حولهـا نظـرا لأهميتها وأهمية موقعها خاصة كمنطقة عبور علـى غـرار "يـاقوت الحمـوي" الذي سمى المنطقة "الزاب الصغير" في معجمه الذي يحمل عنوان "البلدان". كما حظيت أيضا المنطقة بكتابـة المـؤرخ الشـهير إبـن خلـدون الـذي سماهـا في كتاباته"بلاد ريغ" و"أرض ريغ"، كما أطلق عليها المؤرخـون في العصـر الحـديث بـ "صحراء قسنطينة".

أما تسمية المنطقة بوادي ريغ فيرجعها أغلب المؤرخين الى قبيلة ريغة الـتي سكنت المنطقة منذ القرن الخامس عشر.

كانت ولا تزال تقرت أهم مدن وادي ريغ بل عاصمة له سواء في العهـد الفرنسي أم بعده، وقد دخلها الفرنسيون تحت قيـادة الجنـرال ديفـو Devaux بتاريخ 05 ديسمبر 1954 لتكون بـذلك الفرصـة لولـوج الصـحراء الشـرقية الجزائرية بشتى أساليب القمع والعنف والوحشية وبالتالي الشـروع أيضـا في سياسة التجهيل والتهميش ومحو الهويـة والمعـالم العربيـة الإسـلامية وتعمـيم الأمية أو نشر الثقافة واللغة الفرنسية في أرجاء المنطقة من شمالها الى جنوبهـا كما هو الحال في جل المناطق الجزائرية المحتلة أنذاك.

2.نبذه عن جمعية العلماء المسلمين

تأسست جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين في الجزائـر تحديـدا بتـاريخ 05 ماي 1931 بقيادة العلامة عبد الحميد بـن بـاديس في نـادي الترقـي بعـد دعوات وجهت الى جميع علماء الجزائر المسلمين لنسج هيئة تكون مرجعـا في مجالها لتوحيد صفوف الأمة، وفي الحقيقة فإن التحضير لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يرجع الى سنة 1928 بضبط برنامج تنفيذي مـع مجموعـة من العلماء كانوا قد عادوا من تونس والمشرق العربي، وقد دعم هذا المجهود

باستجابة الشعب الذي بدأ يبني المساجد والمدارس من أمواله الخاصة، وفي البداية وفي ظل ضعف الأمكانات كلف عبد الحميد بن باديس:

- الشيخ الطيب العقبى ليتولى أمر العاصمة وما جاورها،
- الشيخ البشير الإبراهيمي ليتولى أمر الناحية الغربية من تلمسان،
- أما قسنطينة وما جاورها فقد بقيت تحت إشرافه شخصيا.

تولى هؤلاء الثلاثة أمور القطر بأكمله ثم تم الشروع في تشكيل الشعب التي كانت 22 شعبة في السنة الأولى من التأسيس لتصل الى 58 شعبة سنة 1938، والتي إستمرت في النشاط رغم كل العراقيل والاضطهاد الذي كان المعلمون والمشرفون عرضة له، لم تغفل الجمعية أيضا على النشاط مع الجالية في بلد المستعمر للقيام بنشاطها الإرشادي والإصلاحي والتعليمي هناك عن طريق إنشاء النوادي التي زودتها الجمعية بالعديد من العلماء والشيوخ والمعلمين، إذ أرسل إبن باديس في عام 1938 مثلا الشيخ سعيد صالحي مبعوثا الى فرنسا إضافة الى العديد من الشخصيات البارزة على رأسها مثلا الشيخ الفضيل الورتلاني وهذا للقيام بمجموعة من الدروس والمحاضرات في المدن الفرنسية ليتعلم أبناء الجالية العربية ضروريات دينهم ودنياهم.

3.أرضية نشاط الجمعية في المنطقة

على غرار كل المناطق الجزائرية وسعيا لتحقيق أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سعت الجمعية واجتهدت في النشاط وتشجيع النشاط في منطقة وادي ريغ من بعيد وقريب خاصة عن طريق التواصل مع علماء المنطقة لتجسيد برنامجها والمضي قدما في تحقيق الآمال الوطنية المشتركة المتعلقة خاصة بالحفاظ على الهوية واللغة العربية.

إن العديد من المتفرجين والمتتبعين لا يقدّرون حسب ما يبدو مجهود جمعية العلماء المسلمين في منطقة وادي ريغ خاصة أنها لم تصل الى المنطقة مباشرة بعد تأسيسها للصعوبة الجغرافية وقلة الإمكانات أنذاك، إلا أن الحقيقة تقول عكس ذلك بالنظر الى ما جابهته من صنيع الفرنسيين الذين إتخذوا من المنطقة عموما وتقرت خصوصا ملاذا لتجسيد مشاريعهم الاستدمارية الساعية لمحو الهوية واللغة والتنصير خاصة.

لهذا يجدر بنا قبل الحديث عن مجهودات جمعية العلماء المسلمين، التعريج على ما انجزته فرنسا في ظل إمكانياتها الضخمة المسخرة لتحقيق أغراضها الخبيثة، لنعرف بعدها تقدير حجم المجهود الذي قامت به الجمعية في تحطيم المجهود الفرنسي الضخم ليتبين لنا ضخامة وقيمة ما قامت به الجمعية.

4.النشاط الفرنسي في منطقة وادي ريغ

إن طبيعة المقال طبعا تدعونا الى تحديد طبيعة النشاط الاستعماري المقصود ها هنا وهو النشاط الثقافي والديني الذي قامت به فرنسا في المنطقة وليس العسكري. لقد سعت فرنسا بإسم الثقافة والعلم ومنذ دخولها الى المنطقة على غرار أغلب مناطق الوطن الى تأسيس مراكز تعليمية على النمط الفرنسي ومراكز دينية تنصيرية أيضا، فأسست بذلك المدارس الفرنسية هنا وهناك لنشر اللغة والثقافة الفرنسية عامة وكذا الكنائس لنشر الديانة المسيحية خاصة، ولم تتردد أبدا في دعمها المالي وغيره. أما المدارس فجعلتها حكرا على من تختار أما الكنائس فكانت مفتوحة ومرتبطة إرتباطا وثيقا مع المجتمع الواد ريغي حتى اختلطت بعض ممارساته الإسلامية مع المسيحية أحيانا، خاصة وأن الأخوات البيض نشطن كثيرا وتعلقن كثيرا بالمجتمع بواسطة طريقتهن وتعاملهن الطيب مع الناس النابعة من تعاليم المسيحة الكاثوليكية في الحقيقة لكن خدمة لمآرب استعمارية بالدرجة الأولى، وقد

كانت الأخوات البيض في المنطقة أيضا تقمن خاصة بعمليات توليد النساء في البيوت وغيرها، مما وثق الرابط بينهن وبين الأسر في ظل غياب الطب المحلي وضعفه، وجهل أغلب السكان لهذا بفضل سياسة التجهيل التي قادتها فرنسا الاستعمارية، إن هذه العلاقة بين الأخوات البيض خاصة والأسر عن طريق العمليات التي تبدو في الظاهر إنسانية للمجتمع، جعل جزءًا كبيرا من المجتمع يتعامل معهن دون حذر، مما سهل نشر بعض التعاليم المسيحية وخاصة خلطها مع التعاليم الإسلامية "دس السم في الدسم"، ومد من استعمال الفرنسية في المنطقة ولو بشكل غير متقن الى حد ما خاصة لغرض التواصل والتعامل مع من يعتقدهم المجتمع أطباء وهم في حقيقتهم مبشرين للديانة النصرانية بمفهومها الحديث.

وقد استطاعت فرنسا أيضا في منطقة وادي ريغ على غرار مناطق كثيرة من الجزائر، صناعة مجموعة من عملاء لها من أبناء المنطقة كانوا لها رغم قلتهم بمثابة خارطة الطريق لتفكيك بعض الألغاز الثقافية والاجتماعية، وأستخدمتهم كمفاتيح لها في نشر ماتريد من ثقافة ومسح ما تريد من أخرى.

وفي ظل هذا، سارعت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للتفاعل مع هذه المنطقة خاصة عن طريق شيوخها وعلمائها من أجل التنسيق للحفاظ على معالم الهوية العربية الإسلامية في ظل ما تقوم به فرنسا من سياسة مضادة، وهنا اتضح نشاط جمعية العلماء جليا.

5.نشاط جمعية العلماء المسلمين في منطقة وادي ريغ

مما لا شك فيه أن وصول جمعية العلماء المسلمين للنشاط في منطقة وادي ريغ أمر صعب نسبيا مقارنة مع الإمكانات الضئيلة لها، وبعد المنطقة عن الأقطاب الأساسية الثلاثة التي كانت مصدرا لصناعة الحدث والقرار.

إلا أن الجمعية أمضت نشاطها في المنطقة بأحرف من ذهب بتواصلها خاصة كما ذكرنا آنفا مع شيوخ المنطقة وعلمائها. وتجلى نشاط الجمعية خاصة في تأسيس المدارس الناشطة لتعليم أمور الدين والدنيا حفاظا على اللغة والهوية العربية الإسلامية خاصة ومجابهة للمد الفرنسي المتزايد في ظل الإمكانيات الفرنسية الكبيرة، بالميزانية الضخمة المخصصة لذلك علاوة على قوة الردع العسكرية التي تسهل إخضاع المستهدف للأشغال الثقافية اللغوية منها والدينية.

إن مقارعة الاستعمار في الحقيقة أنذاك بالإضافة الى كونها عسكرية بطرق شتى كانت أيضا ثقافية على يد جمعية العلماء المسلمين، وقد تجسد نشاط جمعية العلماء المسلمين في منطقة وادي ريغ عن طريق دعم إنشاء المدارس التعليمية الدينية خاصة منها وغير ذلك على غرار:

1.5 مدرسة الهلال:

وقد نشطت المدرسة بناحية جامعة وضواحيها، أنشأت شنة 1948 على يد الشيخ بن مبروك محمد لخضر وبمساعدة مدني بسرة والطاهر بن فضل وبن نونة الدراجي ومداني الصغير ومعمر بن مبروك.

وقد سهرت المدرسة على تعليم المواطنين الجزائريين في المنطقة تعاليم دينهم ودنياهم، ولغتهم العربية وقواعدها، مجابهة بذلك النشاط الثقافي الاستدماري في منطقة جامعة وضواحيها.

وقد زار البشير الإبراهيمي أبرز أقطاب جمعية العلماء المسلمين مدرسة الهلال بجامعة سنة 1949، وقد دعمت الجمعية المدرسة خاصة بتقديم الدروس والمحاضرات لإنارة درب المواطنين فيما يتعلق بدينهم ولغتهم حفاظا على هويتهم العربية الإسلامية.

2.5 مدرسة الفلاح

كانت جمعية في الأصل ثم تحولت الى مدرسة حرة عام 1940، إلا أن السلطات الفرنسية أمرت بغلقها سنة 1958، بأمر من الحاكم، ولما رفض الحاكم إستصدار رخصة فتح مدرسة الفلاح مجددا، هدده الشيخ أحمد العربي جاري بمقابلة الوالي العام بالعاصمة.

وكان نشاط مدرسة الفلاح على غرار مدارس منطقة وادي ريغ الأخرى تعليميا دينيا خاصة على الطريقة التقليدية، يتم فيها خاصة تعليم القرآن وعلوم الدين واللغة العربية على أيدي الشيوخ والمعلمين.

وقد زار البشير الإبراهيمي هذه المدرسة عام 1945 وزكى نشاطها وجمع تبرعات لدعم نشاط الجمعية هنا وهناك.

3.5 مدرسة النجاح الحرة

وتقع هذه المدرسة بالمغير أي في الناحية الشمالية من وادي ريغ والتي حاولت أن تكون إسما على مسمى من خلال مجهوداتها المبذولة في نشر العلم في منطقة المغير، ومن مؤسسيها الشيخ على خليل والشيخ لخضر بن ثابت ومحمد الصايم وغيرهم.....

وكانت تنشط تحت مظلة جمعية العلماء المسلمين في المنطقة وعلى نهجها. وكان لها من الفضل في نشر تعاليم الشريعة الإسلامية والمحافظة على اللغة العربية والهوية العربية الإسلامية في ظل نشاطات الاستعمار المضادة لذلك.

وليس ببعيد عن المغير كانت هناك أيضا **مدرسة الأمل بسيدي خليل** الواقعة حوالي 07 كلم جنوبي المغير والتي كانت أيضا ممثلة لمدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في منطقة وادي ريغ، والعاملة على نشر تعاليم الدين واللغة العربية خاصة.

ومن جهة أخرى فلم يقتصر نشاط جمعية العلماء المسلمين فقط على إنشاء وتشجيع المدارس المحلية، بل كان لها نشاط في التأليف للحفاظ على الهوية العربية الإسلامية ومن بين أعلام التأليف الديني واللغوي في المنطقة شيوخ كبار من أمثال:

أ.الطاهر العبيدي:

وهو العلامة الأصولي المجتهد واللغوي الصوفي هو الطاهر بن العبيدي بن علي بن بلقاسم بن عمارة بن بلقاسم بن سليمان بن عبد الملك بن الهادي بن أحمد خذير بن عبد العزيز بن سليمان بن سالم بن إبراهيم عبد الحليم بن عبد الكريم بن عيسى بن موسى بن عبد السلام بن محمد بن جابر بن جعفر بن محمد بن محمد بن عبد الله ابن ادريس الأصغر ابن ادريس الأكبر ابن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط بن الإمام علي (رضي الله عنهم).

ولد سنة 1886 الميلادية بمدينة وادي سوف، درس في الكتاب ليتعلم اللغة العربية ويحفظ القرآن الكريم إذ حفظ القرآن وأتقنه في سن التاسعة، وظهرت عليه بوادر النجابة في سن مبكرة، حيث بدأ في دراسة العلوم الشرعية واللغوية وحفظ المتون المعروفة في التفسير والفقه والحديث والأصول.

تتلمذ العلامة على يد مجموعة من الشيوخ أبرزهم الشيخ عبد الرحمان العبيدي، ومحمد العربي بن موسى، إضافة الى الشيخ القاضي بن عمارة "من قرية تاغزوت"، وكان يحضر دروس الشيخ الصادق بلهادي العقبي.

هاجر الشيخ الطاهر العبيدي في شبابه الى تونس طالبا لمزيد من التحصيل العلمي والديني واللغوي، وقد درس في الزيتونة أين ألتقى الشيخ عبد الحميد بن باديس وربطتهما علاقة صداقة متينة، وقد عاد الى أرض الوطن نظرا لظروف عائلته القاسية.

لما أحس الشيخ محمد العربي بن موسى بدنو أجله اختار من بين تلامذته الشيخ الطاهر لعبيدي ليخلفه في الإمامة والتدريس والذي شرع فيها عام 1902 بالجامع الكبير بمدينة توقرت، وكان تدريسه قائما على الأسس التالية:

- تعليم مسجدي ذو طابع ديني يماثل التعليم في الحواضر العلمية كالزيتونة والأزهر آنذاك، يقوم به في المسجد الكبير بعد صلاة الظهر ويتمثل في تحفيظ متون الفقه وشرحها على مذهب الإمام مالك.

- دروس في التفسير تقام بعد صلاة المغرب يحضرها عدد كبير من أبناء المنطقة من مختلف الأعمار حتى العنصر النسوي، وكان الشيخ يميل في تفسيره إلى الأسلوب القصصي مقتصرًا كل يوم على آية واحدة متفحصا متمعنا متعمقا في أبعادها العقائدية والتشريعية واللغوية والتاريخية، وقد ختم تفسيره للقرآن الكريم بعد 32 سنة، فكان يومها حفلا عظيما وشرفا كبيرًا لهذا العلامة الفذ، وكان ذلك يوم 10 محرم 1353 هـ الموافق لـ 17 أفريل 1935م.

ربطت العبيدي بابن باديس صداقة منذ أيام طلبهما العلم بالزيتونة، وفي سنة 1919 م (1337 هـ) التقى الشيخان بتوقرت وتعاهدا على خدمة الإسلام والعربية، وبعد عودة ابن باديس إلى قسنطينة بعث إليه الشيخ الطاهر بقصيدة يمدحه فيها.

لم يكن العبيدي صراحة ممثلا لجمعية العلماء المسلمين في المنطقة نظرا لكون وظيفته تابعة للوظائف الفرنسية، إلا أنه كان رجل صلح وإصلاح إذ استنجد به (باشاغا) مدينة وادي سوف سنة 1938 لإزالة خلاف وقع بين الطرقيين وممثلي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فمكث مدة سنة مدرسا في الجامع العتيق بالوادي، ثم عاد عام 1939م إلى تقرت بعد أن أزال الخلاف بين الطرقيين وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهذا يعني تعاطفه مع الجمعية رغم عدم انتمائه الرسمي إليها.

ترك الشيخ إرثا علميا زاخرا، وكنزا غاليا، وصدقة جارية، تشهد لـه أمـام الله يوم القيامة، يبلغ عدد المؤلفـات والرسـائل الـتي تركهـا قرابـة العشـرين مؤلفـا، أغلبها مخطوطا والتي طبع منها هـي: (النصـيحة العزوزيـة، ونصـيحة الشـباب، رسالة الستر)، وتدور موضوعات مؤلفاته عموما حول العلوم الشرعية والفقهية واللغوية والصوفية، وبعض القضايا الفلسفية والاجتماعية.

بعد الاستقلال ضعفت صحته، فأصيب سنة 1966 بمرض عضـال ألزمـه الفراش ثمانية عشر شهرا، توفي على إثرها يوم 28 جانفي 1968 وكان يومـا مشهودًا خرجت لجنازته تقرت عن بكرة أبيها مودعة أباها الشيخ الذي كـان نبراسا يضيء بالعلم النافع ويشع بالعلم الصالح في تلك الليالي الاستعمارية الحالكة، والتي سعى زبانيتهـا إلى تغريـب الشـعب ومسـخ هويتـه، وتحريـف عقيدته، فتصـدى الشـيخ لتلـك الأعمـال، فقـام ينشـر العقيـدة الصـحيحة والآداب الفاضلة، وحافظ على اللغة بلسان عربي مبين، مصـدره كتـاب الله وسنة رسوله، ﷺ.

ب.نشطاء جمعية العلماء في المنطقة

حسب الروايات الشفهية فقط نشط الكثيرون في جمعية العلمـاء المسـلمين إبان الفترة الاستعمارية رغم قلة نشاط الجمعية وعدم بروزه كثيرا في منطقـة وادي ريغ، ومن بين نشـطاء الجمعيـة علـى سـبيل المثـال لا الحصـر الشـيخ المولدي بن حميدة الذي لا يزال على قيد الحياة وكذا الشيخ على كافي الـذي كان في بعثة الجمعية الى الزيتونة والذي لا يزال على قيد الحياة أيضا ويحكـي كثيرا عن تداخل اسمه مع علـي كـافي الـذي كـان مطلوبـا لـدى السـلطات الفرنسية وتم توقيفة على الحدود بسـبب تشـابه الأسمـاء، وقـد كـان نشـاط الجمعية متعلقا خاصة بالنشاط التوعوي والنشاط التدريسي للعلـم الشـرعي واللغة العربية خاصة حفاظا على القالب العربي في المنطقة.

خاتمة:

إن الملاحظ لتاريخ جمعية العلماء المسلمين وإمكانياتها لا يشك أبدا في أن نشاطها وصل الى مناطق بعيدة من أرض الجزائر، بل يشك أن تحركها كان فقط في المناطق الشمالية القريبة من مراكز القرار على غرار قسنطينة وتلمسان والعاصمة، أما المدقق يجدها سعت بكل ما أوتيت من قوة أنذاك للوقوف ضد جميع أشكال محاولات التنصير ومسخ الهوية، والدليل على هذا هو وصول نشاطها رغم قلته الى مناطق بعيدة عن مراكز الحدث ومنا طق تأسيسها رغم شح المصادر والموارد، فها هي حتى في وادي ريغ المنطقة الصحراوية أو واحات الصحراء الجزائرية تبذل قصارى الجهد لتنتصر للغة العربية والهوية العربية المسلمة التي ربما لولا جهودها المستميتة لظهرت منطقة وادي ريغ بعد الاستقلال في حلة فرنسية غريبة عن الجسم الجزائري العربي المسلم، فبجهودها وسياستها وتنسيقها مع علماء وشيوخ المنطقة الذين بدورهم لم يتركوا سبيلا إلا سلكوه تحقيقا لغايتهم السامية. فكان للجميعية بذلك بكل جزم الفضل الكبير في الحفاظ على اللغة العربية والدين الإسلامي في منطقة وادي ريغ.

المراجع:

- رضوان شافو، أوراق بحثية في قضايا تاريخية، مديرية الثقافة لولاية الوادي، الطبعة الأولى 2015.

- رضوان شافو، الحركة الإصلاحية والسياسية بإقليم وادي ريغ، ورقة مقدمة في مؤتمر وطني، 2012

- عبد الحميد قادري، تقرت البهجة ماضيا وحاضرا، دار الوعي، الرويبة، الجزائر 2010.

- عبد الرحمان بن محمد إبن خلدون، مقدمة إبن خلدون، المكتبة العصرية، لبنان.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر بيروت، الطبعة الثانية، 1995.

www.oulama.dz

مكانة اللغة العربية
في المشروع الإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

أ.أحلام بوعلاق
جامعة باجي مختار ـ عنابة

مقدمة:

إننا إذا حاولنا البحث في أهم العوامل التي أسهمت في المحافظة على اللغة العربية في الجزائر من المشروع الاستدماري الفرنسي الذي خطط للقضاء على العربية واستبدالها باللغة الفرنسية، نجد أن أهمها يعود إلى الجهود الكبيرة التي بذلتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من خلال التصدي لذلك المشروع الامبريالي الذي وضع خصيصا لمحو العربية لغة الشعب الجزائري وأساس هويته.

فقد شغلت اللغة العربية مكانة محورية في المشروع الإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حيث تكاتفت جهود أعضائها واتحدت على الارتقاء باللغة العربية والحفاظ عليها. انطلاقا من هنا تسلط هذه المداخلة الضوء على جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة اللغة العربية، ومكانة اللغة من المشروع الإصلاحي للجمعية، ونسعى من خلالها للإجابة عن جملة من الاشكالات أهمها:

ـ ماهو موقع اللغة العربية من المشروع الإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين؟

ـ كيف تصدت الجمعية لمشروع فرنسة الشعب الجزائري؟

ـ ماهو موقف الجمعية من الصراع بين اللغة العربية والفرنسية في فترة الاستعمار؟ وإلى أي مدى أسهمت في الارتقاء باللغة العربية؟

1 ـ الصراع بين اللغة العربية والفرنسية في الجزائر:

أدى الوضع المأساوي الذي كان يتخبط فيه المجتمع الجزائري نتيجة الاستعمار الفرنسي الاستيطاني إلى تخريب وزعزعة مقومات الأمة الجزائرية ومحوها، 'ويعتبر أفظع شيء أصاب الأمة الجزائرية في تاريخها الحديث. لم تستطع ولم تتمكن. بشكل واضح وكامل، لا الحركات الثورية ولا السياسية ولا الثقافية الفردية البطولية. التي سبقت جهاد ابن باديس. من تداركه وتوقيف نخره واستنزافه لجهود وطاقات وإمكانات المجتمع الجزائري الفكرية والبشرية والمادية، وعجزت عن تحقيق التغيير في بنيته الذاتية مما يؤهله ويمكنه من التحرر من عوامل وأسباب وشروط القابلية للاستعمار...'، ويعود ذلك إلى 'أنّ الاستعمار لا يجهل أن العلم سيف قاطع، فإذا تسلح به الجزائري أمكنه أن يقاومه، فسعى حينئذ في تجهيل الأمة الجزائرية، فشغله الشاغل هو إفناء العنصر الإسلامي بالتفقير وتجهيل ما بقي منه، وماهي إلا فترة حتى أصبحت البلاد فارغة من العلم...' بعدما كانت الكتاتيب والمساجد منتشرة في مختلف الأنحاء والمناطق الجزائرية لتعليم الشعب الجزائري لغته وتلقينه الثقافة الإسلامية، لكن السياسة الفرنسية منذ قدومها استهدفت مقومات الأمة الجزائرية المكونة لهويتها، وسعت لمحوها، فكانت اللغة العربية أبرز ما اهتم الاستعمار بمحاربته، حيث منعت تعليم اللغة العربية في المدارس الجزائرية، وتمّ استبدالها باللغة الفرنسية في مختلف المجالات 'وإن وقع في بعض الحالات تمدين أو تحضير فإنما كان على حساب محو التاريخ الوطني ومسخ الشخصية الأصيلة وطمس الحضارة القومية وهدم أركانها كما كان يحدث

بالقياس إلى الأطفال الجزائريين الذين يتعلمون في المدارس الفرنسية، فإن هذه المدارس كانت تعلمهم مع الفرنسيين تعليما فرنسيا محضا: يمجد الحضارة الفرنسية ويدرس التاريخ الفرنسي ويمقت كل ماهو عربي...' فمحور المخطط الفرنسي كان فرنسة الألسنة والعقول.. كما أدركت السياسة الفرنسية أنه' لا بقاء للإسلام إلا بتعليم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأن لا تعليم له إلا بتعليم لغته فناصبوا تعليمها العداء وتعرضوا لمن يتعاطى تعليمها بالمكروه والبلاء.. وسعوا سعيهم وبذلوا جهدهم حتى استصدروا هذا القانون: قانون العقاب الرهيب.. فهمت الأمة هذا الشر والكيد المدبرين لدينها وقرآنها ولغة قرآنهما ودينها، وفهمته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الممثلة للأمة في دينها وقرآنها ولغة دينها وقرآنها والناطقة في الدفاع عنها في هذه الناحية بلسانها والمعاهدة لله وللأمة على ذلك الدفاع إلى آخر رمق من حياتها..'

كما أن قرار 8 مارس 1938 الذي أصدرته وزارة الداخلية الفرنسية، القاضي بجعل اللغة العربية في الجزائر لغة أجنبية، جعل جمعية العلماء المسلمين برئاسة عبد الحميد ابن باديس تعلن رفضها لهذا المشروع، ونتيجة لذلك يقول ابن باديس: قد فهمنا ـ والله ـ ما يراد بنا، وإننا لنعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا، وسنمضي ـ بعون الله ـ في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا ولن يصدنا عن ذلك شيء، فنكون قد شاركنا في قتلها بأيدينا وإننا على يقين من أن العاقبة ـ وإن طال البلاء ـ لنا، وأن النصر سيكون حليفنا لأننا قد عزمنا إيماننا، وشاهدنا عيانا أن الإسلام والعربية قضى الله بخلودهما ولو اجتمع الخصوم كلهم على محاربتهما..

وكاد المخطط الاستعماري أن ينجح في فرنسة الشعب وإفناء اللغة العربية لولا عدة عوامل:

ـ أنهم بعنصريتهم ظلوا لا يختلطون بالشعب ويتعالون عليه، يستغلونه ويستبدون به، فظلت معهم لغتهم لم تغز إلا المدن ونجا منها الريف والبادية.

ـ أنهم بحرصهم على إبقاء الشعب في أدنى درجات الأمية قصروا التعليم على أتباعهم وقلة قليلة من أبناء الجزائر، وبهذا ظلّ الشعب الأميّ يتكلم العربية وإن لم يعرف كيف يكتبها ويقرؤها.

ـ أن الإسلام ظلّ حصن اللغة العربية في قلوب الجزائريين يمارسون به شعائر صلاتهم ويتعلمون عن طريقه لغتهم، ومن هنا قام العلماء بالعبء الأكبر في المحافظة على اللغة طوال سنوات الاستعمار.

وقد أدى المخطط الاستعماري الذي استهدف اللغة العربية إلى تحريك الرأي العام عامة والطبقة المثقفة والمتعلمة خاصة، فكان ظهور رجال كالإمام عبد الحميد ابن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمي وغيرهما... في خضم تلك الأوضاع الرديئة بمثابة النور الذي أضاء في المجتمع الجزائري بعدما خيّم عليه ظلام الاستعمار ردحا من الزمن، وتجسد ذلك في تجسيد مشروع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي قامت بتوعية الشعب الجزائري بالوضع المأساوي الذي يعيشه، إضافة إلى تحسيسه بالمستوى المتدني الذي نزل إليه جراء الاستعمار من جهة وقابليته الاستعمار من جهة أخرى. كما لا يمكننا أن ننكر جهود العديد من الحركات المناهضة للاستعمار في الجزائر قبل ظهور الجمعية، إلا أن التغيير الذي أحدثته جمعية العلماء المسلمين كان ضربة موجعة للمشروع الامبريالي الفرنسي، بعدما وحدت شمل خيرة رجالها على إعلاء كلمة الحق والانتصار للجزائر ودينها ولغتها وتاريخها وحضارتها، 'فلا عجب إذا رأيت هذا الصراع يحتد ويمتد حتى يشمل الجزائر كلها والجزائريين في

معظمهم، فإذا الجزائريون المثقفون بالعربية ينهضون لصراع الاستعمار وكأنه صراع طبيعي لتأصل جذوره في أنفسهم مع ما كان يجشمهم من ذلك الصراع من عذاب ونكال.. وقد سقط في أيدي المستعمرين بالجزائر فلم يدروا ما يصنعون إزاء هذه الظاهرة اللغوية القوية، فلم تك هذه العربية لغة الجزائريين وحدهم ولا لغة الحياة اليومية وحدها.. ولكنها كانت لغة العرب جميعا ولغة الإسلام في شعائره وصلواته، وما يصنع المستعمرون الفرنسيون إزاء كل هذا والعرب عن أيمان الجزائريين وعن شمائلهم.'

2 ـ جمعية العلماء المسلمين ودورها في إصلاح اللغة العربية:

أُسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لخدمة المجتمع الجزائري وإصلاح ما تمّ افساده من قبل الاستدمار الفرنسي، الذي سعى للقضاء على العربية والعروبة والإسلام، ففكرة تأسيس الجمعية جاء إجابة لدعوة خاصة من لجنة تأسيسية متألفة من جماعة من فضلاء العاصمة، وغرض الدعوة هو تحقيق فكرة طالما فكّر فيها علماء القطر فرادى، وهي تأسيس جمعية العلماء المسلمين ... وانتخبوا بالإجماع الشيخ عبد الحميد ابن باديس شيخا لها في أثناء غيابه، ووضع الشيخ البشير الإبراهيمي نظام الجمعية ومنهج عملها الإصلاحي الذي كان محوره إعادة الاعتبار للغة العربية لغة القرآن واللغة الرسمية للشعب الجزائري. وتبعا لذلك عملت الجمعية على وضع قانون ممنهج تسير وفقه، كان أوله بناء المدارس الأهلية في المدن والقرى لتدريس اللغة العربية ومبادئ الدين... وقد تطلب ذلك رجالا من خيرة ما أنتجته المدرسة الباديسية لإصلاح ما أفسده المستعمر.

وقد انتقدت جمعية العلماء السياسة الاستعمارية بشدة، لأنّ 'العملية النقدية ضرورية في أية حركة تقوم على منهج ونظام، يهدف إلى تحقيق أهداف معينة، وإلى تسجيل غايات في الواقع التاريخي... لأنّ جوهر التغيير

الاجتماعي والإصلاح النفسي والخلقي، يقوم على أساس النقد، والحركة الإصلاحية في الجزائر قامت على الصراع بين ظاهرتين: ظاهرة النقائص والعيوب، وظاهرة الفضائل والاستعداد النفسي لتقبل الحقيقة...". وتبعا لذلك قام الفكر الإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين بالتصدي لذلك المشروع الامبريالي الفرنسي الذي اعتمد على القوة لفرض هيمنته على الشعب الجزائري صاحب الأرض، الذي لم يرضخ ولم يستسلم للاستعمار منذ دخوله أرض الجزائر، حيث قاومه بشجاعة ليس لها مثيل، ويرى ابن باديس أنّ 'الشعب الجزائري وما ينطوي عليه من أصول الكمال واستعدادات عظيمة للخير وهو ما عمل على تنميته، والنضال من أجل تغليبه على جوانب النقص وعوامل السكون... ويصف الأمة الجزائرية بأنها أمة معوانة على الخير منطوية على استعدادات الكمال وأنها ذات نسب عريق في المحامد والفضائل...'

وتبعا لذلك شغلت اللغة العربية مكانة أساسية في مقاومة الجمعية للاستعمار، حيث دعت إلى ضرورة الوحدة والاتحاد بين الشعب، لأنه 'إذا كان تاريخ الأمة وحياتها المشتركة وحضارتها يمثل جسمها فإن اللغة هي روحها، فالباحث الاجتماعي يستطيع من خلال اللغة فقط أن يستخلص عادات أمة من الأمم وتقاليدها وجوانب الضعف وجوانب القوة فيها وبالتالي يستطيع أن يكتشف عبقريتها وحقيقتها، وفرنسا عندما أرادت أن تدمج الشخصية الجزائرية عمدت إلى مقاومة اللغة العربية حتى تقضي عليها فتقضي بذلك على القومية...' كما أن الشعب الجزائري بفضل الله وجهود الجمعية أدرك أنه إذا تشبث بلغته ملك زمام أمره، وقد استوعبت جمعية العلماء مقولة 'إذا استعبدت أمة ففي يدها مفتاح حسبها ما احتفظت بلغتها'. فأخذت تبني المدارس العربية الإسلامية الحرة بجهودها الضئيلة وشيدت منها مايزيد عن 170 مدرسة وذلك تحت اشرافها، وهذه المدارس أمكنها أن

تكوّن نخبة عربية اسلامية من الفتيان والفتيات، ثـم أسسـت الجمعيـة معهـد عبد الحميد بن باديس التكميلي...' والباحث في سيرة ابن باديس ومشـروعه الإصلاحي في خدمة اللغة العربية يجد أنه قطع وعدا علـى نفسـه بـأن يخـدم اللغة العربية ويعيد لها الاعتبار حيث يقول: 'إنني أعاهدكم على أنـني أقضـي بياضي على العربية والإسلام كما قضيت سوادي عليهما، وإنها لواجبات.. وإنني سأقصر حياتي علـى الإسـلام والقـرآن ولغـة القـرآن ولغـة الإسـلام والقرآن..'، ويرى محمد البشير الإبراهيمي أن جهود عبد الحميد بـن بـاديس في خدمة الدين واللغة والأدب والثقافة.. تعد ' أقوى الآثار في تكـوين هـذه الملكات وتقويم هذه الألسنة وتثقيف هذه الرماح، فمن تلامذته كتاب القطر اليوم، ومن تلامذته شعراء القطر اليـوم، ومـن تلامذتـه المفكـرون والـدعاة الذين هم دعائم الحركة الإصلاحية، وقد أصـبح الطـراز الأدبـي الجزائـري طرازا مستقلا يُحتذى به ليست عليه مسحة التأثر والمحاكاة...'

فبالإضافة إلى جهود عبد الحميد ابن بـاديس، لم يتخلـف الـرئيس الثـاني للجمعية الشيخ البشير الابراهيمي في الدفاع على اللغة العربية قائلا: 'اللغـة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هـي في دارهـا وبـين حماتها وأنصارها وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواصر مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل، ممتدة مع الماضي لأنهـا دخلـت هـذا الـوطن مـع الإسلام مع ألسنة الفاتحين ترحل برحيلهم وتقيم بإقـامتهم، فلمـا أقـام هـذا الإسلام بهذا الشمال الأفريقي إقامة الأبد وضرب بجرانـه فيـه أقامـت معـه العربية لا تريم ولا تبرح، مادام الإسلام مقيما لا يتزحزح، ومن ذلك الحـين بدأت تتغلغل في النفوس وتنساغ في الألسنة واللهوات وتنساب بـين الشـفاه والأفواه، يزيدها طيبا وعذوبة أنّ القرآن بها يُتلى فأصبحت لغـة ديـن ودنيـا معا...' فقد اعتـز الإبراهيمـي بالعروبـة ودعـا إلى ضـرورة التمسـك باللغـة العربية لأنها العامل الأساسي للتحـرر مـن الجهـل والاسـتعمار، 'فالشـعب

الجزائري الأصيل قضى بوحدته على الطائفية والعنصرية بفضل الإسلام الذي وحد بين بربره وعربه، وجعلهما أمة واحدة متماسكة متلاحمة لا انفصال لها، فمهما حاولت يد العبث أن تمتد بين صفوفه لتفرق ما جمعته يد الله إلا وباءت بالفشل والهزيمة.' فبفضل الحملة الإصلاحية لجمعية العلماء أدرك الشعب الجزائري أنه إذا تمسك بلغته ملك زمام أمره، وهو ما جعله يقاوم ويجاهد في سبيل الحفاظ على هويته 'فجهاد ابن باديس مع أخيه في الجهاد محمد البشير الابراهيمي خاصة، وباقي العلماء عامة، ابتداء من عشرينيات هذا القرن وإلى غاية تأسيس جمعية العلماء، إنما جاء كمرحلة من مراحل العمل الإصلاحي الجهادي الذي كان قد شرع فيه ابن باديس مباشرة بعد رجوعه من الحجاز سنة 1913، واستقراره بقسنطينة وعمله بمساجدها، ويعتبر تأسيس وظهور الجمعية بشكل مؤسسة اجتماعية تجمع جهود العلماء العاملين وتنظمها في العمل الإصلاحي الجهادي بالنظر إلى ما سبقها من جهد وجهاد ابن باديس ومن سبقه كالشيخ المجاوي والشيخ الصالح بن مهنا وغيرهما كثير، حلقة متطورة شكلا ومضمونا في سلسلة حلقات العمل الإصلاحي الجهادي الثقافي المتعددة والمتسلسلة والمتكاملة، في تاريخ الجهاد الثقافي للشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي، والذي تنوعت فيه الجهود بين الفردية والجماعية...'

ونجد قصيدة رائعة نظمها الشاعر محمد العيد محمد علي خليفة، ألقيت هذه القصيدة في الاجتماع التأسيسي الأول لجمعية العلماء بنادي الترقي بعاصمة الجزائر تمجيدا لجهود جمعية العلماء ودورها النبيل في اصلاح المجتمع الجزائري:

على الرحب حلوا أجمعين على الرحب فأنتم ضيوف في حمى الله والشعب
طلعتم علينا كالكواكب في الدُّجى وسؤتم إلينا كالسحائب في الجدب

جحاجحة عُربُ القرائح واللُّغى فأهلا وسهلا بالجحاجحة العرب

فكما أن هنالك أبطالا يدافعون بأنفسهم في سبيل الحرية، هناك من يدافع بقلمه وفكره وما آتاه الله من علم وثقافة... وفي ذلك يقول الشاعر محمد الشبوكي:

دعوها فإن الله قد شق لها الدربا فهبت إلى الميدان تستهل الصعبا
وتعلن في الدنيا كفاحا مظفرا أقامت به للدين منطلقا صلبا
فحررت الأفكار من كل لوثة وحطمت الأصنام تستوحد الربّا
وبارك رب الناس في خطواتها فحققت المسعى وأيقظت الشعبا
فباهى بها التاريخ في كل محفل وطبقت الآفاق شهرتها وثبا
معاهدها للناشئين مشيدة على الجهل والتخريف أعلنت
وفي كل صقع لاح ناد ومسجد لكي يستبين الرشد من شاب أو شبا

3 ـ أساليب الجمعية في المحافظة على اللغة العربية:

وضع الشيخ عبد الحميد ابن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين أساليب دقيقة وبرامج ممنهجة لتوعية الشعب الجزائري الذي سيطر عليه الجهل وتمكنت منه الفرنسية في حياته ومعاملاته ورأى أن 'الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، علينا أن نكرم أنفسنا بتكريم أرواحنا بتنزيهها عن مساوئ الأخلاق وتحليتها بمكارمها، وتكريم عقولنا بتنزيهها عن الأوهام والشكوك والخرافات والضلالات وربطها على العلوم والمعارف وصحيح الاعتقادات...'

وتبعا لذلك شغل تعليم اللغة العربية مكانة محورية في المشروع الإصلاحي الذي وضعه ابن باديس لأنه آمن أنه' لن يصلح العلماء إلا أذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في

مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم... ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه، في مادته وصورته، فيما كان يعلّم عليه الصلاة والسلام وفي صورة تعليمه.. " فكان تعليم اللغة العربية للشعب الجزائري الأميّ حاضرا رغم قساوة الظروف وحصار الاستعمار لكل ماهو عربي، وكان ذلك من خلال:

ـ الدروس المسجدية:

أسهم التعليم المسجدي في انتشار اللغة العربية بين أوساط الجزائريين في فترة الاستعمار، رغم سياسة العقاب والترهيب التي تمارسها فرنسا، من خلال غلق المدارس ومنع التعليم في المساجد، ' ويوضح ابن باديس الدور الفعال الذي يؤديه المسجد في تعليم عامة الناس وتثقيفهم فيقول: إذا كانت المساجد معمورة بدروس العلم فإن العامة التي تنتاب تلك المساجد تكون من العلم على حظ وافر، وتتكون منها طبقة مثقفة الفكر، صحيحة العقيدة، بصيرة بالدين، فتكمل هي في نفوسها ولا تهمل وقد عرفت العلم وذاقت حلاوته، وهكذا ينتشر التعليم في الأمة ويكثر طلابه من أبنائنا...'

ـ تأسيس المدارس:

سارعت جمعية العلماء المسلمين إلى توعية الشعب وحثه على طلب العلم لمقاومة الاستدمار الذي تعيشه البلاد، ونجد خطابا للعلامة عبد الحميد ابن باديس استثار الحماسة والحمية في النفوس، والنخوة في الرؤوس، وأسال في العيون الدموع والعبرات وكان خطابا محكما وجيزا، وآية من آيات البيان ختمه بقصيدة من شعره البليغ مطلعها:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

مـن قـال حـاد عـن أصـله أو قـال مـات لقـد كـذب
أو رام إدماجـــا لـــه رام المحـــال مـــن الطلـــب

وقد ختمها بهذا البيت الرائع:

فـــإذا هلكـــت فصـــيحتي تحيـــا الجزائـــر والعـــرب

وتعتـبر **جمعيـة التربيـة والتعلـيم الإسـلامية**:' أول جمعيـة تعنـى بالتربيـة والتعليم، يرخّص لها في قسنطينة، وقـد كـان مكتـب التعلـيم العربـي النـواة الأولى التي انبثقت عنها هذه الجمعية' وكان الشيخ عبد الحميـد ابـن بـاديس رئيسا لها، وعن تأسيس هـذه الجمعيـة يقـول العلامـة: وفي سـنة 1349هـ ـ 1930م رأيت أن أخطو بالمكتب ـ مكتـب التعلـيم العربـي ـ خطـوة جديـدة وأخرجه من مكتب جماعة إلى مدرسة جمعية فحررت القانون الأساس لجمعية التربية والتعليم الإسلامية، وقدمته باسم الجماعة المؤسسة إلى الحكومة فوقع التصديق عليه.'

وقد أسس عبد الحميد ابن باديس هذه الجمعية التربوية في ظروف حرجة وأوضاع كارثية كان يتخبط فيها المجتمع الجزائري، فكانت الجمعيـة اسـتجابة للعديد من العوامل نذكر أهمها:

ـ تضاعف نشاط الإرساليات التبشيرية في الجزائر.

ـ انحسار التعليم العربي الإسلامي.

ـ مرور قرن كامل على الاحتلال الفرنسي للجزائر.

وتبعا لذلك اتخذت الجمعية التربوية من التربية والتعليم سـلاحا لتجـاوز الأوضاع المتردية، فاعتمدت على نشر المعارف العربية الإسلامية. اضـافة إلى ذلك عمل ابن باديس على تأسيس مكاتب لتعلـيم أبنـاء المسـلمين الـذين لم

يتمكنوا من الالتحاق بالمدارس الحكومية، وذلك لتثقيف أفكارهم بالعلم وباللسان العربي، كما اتسع نشاط الجمعية من خلال إرسال البعثات العلمية إلى بعض الدول العربية لإتمام تحصيلهم العلمي وإعدادهم لغد مشرق.

كما عملت الجمعية على تشجيع الشعب الجزائري على طلب العلم لأنه محور النهضة وأساس التحرر من تبعية الاستعمار، وهو ما يؤكده نداء الابراهيمي، 'يا أبناءنا، إن الحياة قسمان: حياة علمية وحياة عملية، وإن الثانية منها تنبني على الأولى قوّة وضعفا وإنتاجا وعقما وإنكم لا تكونون أقوياء في العمل إلا إذا كنتم أقوياء في العلم، ولا تكونون أقوياء في العلم إلا إذا انقطعتم له ووقفتم عليه الوقتَ كله، إنّ العلم لا يعطي القياد إلا لمن مهره السهاد وصرف إليه أعنّة الاجتهاد...' لأنه أدرك أن 'السبيل القويم الذي يؤدي إلى حفظ الجيل الجديد من هذه الشرور المتوارثة وإلى توثيق عرى الأخوة بين أفراده، وإلى توحيد أفكاره ومشاربه واتجاهاته، وإلى تصحيح فهمه للحياة وتسديد نظرته إليها، وتشديد عزيمته في طلبها، هو المدرسة العربية التي تصقل الفكر والعقل واللسان وتسيطر عليها، وتوجيه الجيل الناشئ إلى الإسلام والعرب، وإلى الشرق والروحانية، فعلى هذه المدرسة يتوقف جزء كبير من ذلك الواجب الثقيل وعليها يتوقف حظ كبير مما نرجوه لهذا الجيل، وبهذه المدرسة نستطيع أن نبرئ ذممنا من حقوق أبنائنا وأن نكفر عن سيئات اجترحتها أجيالنا الماضية...' فلا تفوته خطبة ولا اجتماع ولا مقال إلا ونجده يحرض الشباب على طلب العلم والاستنارة بمختلف المعارف والعلوم:' وأنتم ـ يا أبنائنا ـ بواكير نهضة علمية قد أطلّ زمانها، وجاء إبانها، وظهرت تباشير فجرها الصادق، ولمعت مخايل مُزنها الوادق، والعلم ـ إن كنتم لا تعلمون ـ هو أساس الوطنية، وقطب رحاها، ومركز دائرتها ودليل سيادتها...'

ـ الصحف والمجلات:

قامت جمعية العلماء المسلمين بتأسيس العديد من الصحف التي لعبت دورا محوريا في الإصلاح الوطني، من خلال توعية الشعب وتثقيفة، كما كانت منبرا ومتنفسا للأدباء والخطباء للتعبير عن أوضاعهم وأوضاع الشعب الجزائري، وبهذا لعبت دورا كبيرا في إحياء اللغة وإعطائها المرونة والحيوية والتخلص من المحسنات البديعية التي تشبث بها كتابنا من قبل، فقد تطور الأسلوب فصار مطبوعا يتناول اللفظ السهل المعبر عن المعنى الصحيح في وضوح وجلاء...' ومن أبرزها نذكر:

- **المنتقد:**

جريدة أسبوعية أسسها عبد الحميد ابن باديس ونخبة من أعضاء الجمعية، وقد برزت هذه الجريدة 'لتلفت الجزائريين المسلمين إلى حقيقة وضعيتهم بين الأمم، بأنهم أمة لها قوميتها ولغتها ودينها وتاريخا، فهي لذلك أمة تامة الأممية لا ينقصها شيء من مقومات الأمة...' ويتجسد من خلالها الفكر النقدي المقاوم للاستعمار من تسمية الجريدة، ' التي يبين اسمها عن معنى النقد الذي كانت تخشاه أرباب الطرقية وتقاومه في مناهج تربيتها للمريدين وللجمهور بتلك العبارة المعروفة " اعتقد ولا تنتقد"... وما جاء في مبدأ النقد أنه لا يتعرض للأشخاص، فيما يختص بأحوالهم الشخصية وإنما يتوجه إلى سلوكهم الذي يمس شؤون الأمة فانتقدت الحكام والمديرين والنواب والقضاة والعلماء ومن يتولى شأنا عاما من أكبر كبير إلى أصغر صغير من الفرنسيين والوطنيين...' فكان النقد هادفا إلى تبيين الحقيقة والتعبير عن إرادة التغيير.

- **الشهاب:**

كانت عبارة عن مجلة أسبوعية أول الأمر، ثم لم تلبث أن أصبحت شهرية، فهي من جهود ابن باديس والجمعية، جسدت' لسان الشباب الناهض في القطر الجزائري ولم يكن يومذاك من شباب إلا شباب أنساه التعليم الاستعماري لغته وتاريخه ومجده، وقبح له دينه وقومه وحقره في نفسه تحقيرا...' كان شعار الشهاب متمثلا في أربعة ألفاظ هي: (الحرية، العدالة، الأخوة، السلام)

فحملت الجريدة فكر رجال الجمعية وتطلعاتهم وتعبيرهم عن حقيقة الأوضاع في أبحاثهم ومقالاتهم سواء شعرا أم نثرا، ' ولو تصفحنا أعدادا كثيرة منها لوجدنا محمد العيد ومحمد الهادي السنوسي وسحنون والزاهري وأبا اليقظان في طليعة الشعراء الذين كانوا ينشرون أشعارهم بالشهاب، وكانت مواضيع قصائد هؤلاء الشعراء تتناول في معظمها الأحداث التي كانت تدور في الجزائر أو في كل قطر من أقطار الوطن العربي وكانت هذه الأشعار في معظمها تمتاز بالمسحة الوقارية المتزنة...' وهو ما أسهم في الحفاظ على اللغة العربية وترسيخها في المجتمع من خلال القصائد والأشعار التي تثير حماسة الشعب وتحرك عواطفه لرفض اللغة الفرنسية ومقاومتها.

- **البصائر:**

وقد سبقت البصائر صحف ثلاث أخرى وهن : السنة والشريعة والصراط، وكانت كل منهن تصادر من قبل الاستعمار الفرنسي الذي سعى دائما للقضاء على بوادر النهضة الأدبية والعلمية والثقافية والفكرية في الجزائر، ' فالتراث الوطني ملك للأمة كلها في مختلف أجيالها الماضية واللاحقة والمحافظة عليه والعمل على نشره من أوكد الواجبات وأشرفها، لأنه وفاء لهذا الماضي الوطني وأهله ولأنه الصلة الايجابية الفعالة بين ماضي

الوطن وحاضره ومستقبله.' فما بالك باللغة العربية لغة القرآن الكريم واللغة الرسمية للشعب، وهذا ما جعل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تبذل كل تلك الجهود من أجل المحافظة على اللغة العربية من الزوال، وهو ما نجحت فيه بشهادة التاريخ.

الخاتمة: بأحرف من ذهب نقشت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين اسمها في سجل التاريخ الجزائري والعربي والعالمي كأقوى حركة اصلاحية مؤثرة وفعالة وناجحة في مقاومة القضاء على الهويات من قبل الاستعمار... ويحق لنا أن نفتخر بها ونعيد إحياء أفكارها وبعثها من جديد، لتكون قدوة للأجيال في التحدي والنضال من أجل البقاء.

المراجع المعتمدة:

ـ عبد الرشيد زروقة: جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي (1913 ـ 1940)، دار الشهاب، بيروت، ط1، 1999.

ـ محمد الطمّار: تاريخ الأدب الجزائري، وزارة الثقافة (الجزائر عاصمة الثقافة العربية)، 2007.

ـ عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925 ـ 1954)، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر.

ـ محمد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007.

ـ محمد الحسن فضلاء: الشذرات' من مواقف الغمام عبد الحميد بن باديس'، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2010، ص117، نقلا عن: البصائر، العدد 107، 8 أبريل 1938.

ـ محمد بهي الدين سالم: ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، دار الشروق، بيروت، ط1، 1999.

ـ عشراتي سليمان: ابن باديس (حواشي وهوامش من الصميم استبصار في خطوط المرايا المضببة)، دار الغرب للنشر، الجزائر، الجزء الثالث.

ـ أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (عيون البصائر)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج3، ط1، 1997.

ـ عمار الطالبي: آثار ابن باديس، الشركة الجزائرية، الجزائر، ج2، المجلد الثاني، ط3، 1997

ـ شعراء الجزائر: ديوان محمد العيد محمد علي خليفة، موفم للنشر، الجزائر، 2010.

ـ محمد الشبوكي: ديوان الشيخ الشبوكي، دار هومه للطباعة والنشر، الجزائر، 2007.

ـ عيسى عمراني: المدرسة الباديسية ومناهجها الدراسية، تقديم الدكتور: عبد العزيز فيلالي، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، ط1.

ـ مصطفى محمد حميداتو: عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، ط1، 1997.

ـ البصائر: لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، السنة الأولى، ديسمبر 1935.

جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين
ودورها في التخطيط للّغة العربيّة والارتقاء بها :

نادية حسناوي ج/ عنابة

إنَّ للّغة قيمة جوهريّة في حياة كل أمّة فهي الأداة التي تعبر عن الأفكار والمفاهيم فتقيم بذلك روابط التّواصل بين أبناء الأمة الواحدة كما أنّها أكثر من مجرد مجموعة من المفردات أو القواعد النحويّة فهي مرآة للعقل البشري وقناة تعبر من خلالها ثقافة معينة لتصل إلى العالم المادي، لذلك إذا ما ضاعت ضاع معها عنصر حيوي من الحلم الإنساني[1](*) ولهذا فإنَّ أهمية اللّغة العربيّة تكمن في:

أهمية اللّغة العربية في المجتمع:

لقد أدركت الأمم أهميّة لغاتها في حياة شعوبها فتأهبت بشتى الطرق والأساليب للعناية والارتقاء بها نحو سلم الحضارة والتقدم والرقيّ، ولا

---

[1](*): من المفكرين والفلاسفة الذين نوهوا بأهمية اللّغة **ماكس مورو** حيث يقول: "باللّغة وباللّغة وحدها يندمج الفرد في المجتمع، ويتلقى تراث الأمة الفكري والشعوري والأخلاقي والاجتماعي، التراث المنحدر من قرائح الكتَّاب والشعراء والمفكرين السابقين منهم والمعاصرين" ويقول الفيلسوف الألماني" إنَّ لغتي هي مسكني، وهي موطني ومستقري، هي حدود عالمي الحميم ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها وبعيونها أنظر إلى بقية الأرجاء لكون الفسيح" ينظر: – تمام حسَّان: علم اللّغة بين المعيارية والوصفيّة ص 70

– التمهيد في اكتساب اللّغة العربية: ص 87

مجلة اللسان العربي، الرباط، العدد 58، 2004 ص39 .

جرم أن اللّغة العربيّة أولى بهذه العناية من طرف أبنائها وهذا لأنها من أقدم اللغات الحيّة على وجه الأرض وعلى اختلاف العلماء والباحثين حول عمر هذه اللغة لا يوجد شك في أنّ العربيّة التي نستعملها اليوم أمضت ما يزيد على ألف وستمائة سنة وهي "اللغة السامية الوحيدة التي قدر لها أن تحافظ على كيانها وأن تصبح عالمية"[1] وما كان ليتحقق ذلك لولا نزول القرآن الكريم بها وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[2] ويقول أيضا: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[3] فهي بذلك لغة الإسلام التي يُتعبد بها وعلى هذا الأساس كان تعلمها مطمحًا لكل المسلمين – عربا كانوا أم عجماً- فأصبحت بذلك العروة الوثقى التي تجمع بين الشعوب العربيّة والإسلامية.

وفيما يلي تندرج بعض الأقوال التي تتجلى من خلالها أهمية اللّغة العربية وبراعتها، تقول الكاتبة زغريد هونكة في كتابها شمس العرب تسطع عن الغرب "لقد استطاعت العربية استيعاب جميع العلوم التي بلغتها الحضارات التي سبقتها، مضيفة إليها علوما جديدة بمصطلحات ومفاهيم جديدة"[4] ويشهد المستشرق جروبناوم في مقدمة لكتاب – تراث الإسلام – "إن اللّغة العربية هي محور التراث العربي الزّاهر هي لغة عبقرية لا تدانيها لغة في مرونتها واشتقاقاتها، وهذه المرونة في اللّغة والاشتقاق اللّذين ينبعان من ذات اللّغة جعلتها تتسع لجميع مصطلحات الحضارة القديمة بما فيها من

---

[1] ينظر: الموسوعة العربيّة العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط2، ج21، ص131.

[2] سورة يوسف، الآية 3

[3] سورة الحجر، الآية 9

[4] أحمد شفيق الخطيب، منهجيّة بناء المصطلحات وتطبيقاتها، مجلّة مجمع اللغة العربيّة، دمشق، المجلّد 75 ج3، 2002، ص 497 .

علوم وفنون وآداب وأتاحت لها القدرة على وضع المصطلحات الحديثة لجميع فروع المعرفة"[1].

ولعل هذه الأقوال تشيد بعبقرية اللّغة العربية وتقر بصلاحيتها لتدريس واستيعاب جميع العلوم والفنون والتقنيات وذلك لانتظام مبانيها وكثرة مفرداتها، فاللّغة العربية تتميز بجملة من الخصائص التي تتفوق بها على غيرها من اللغات وتكتسب بها ثراءً لغويا وتكتسي بها صفات جمالية تضفي عليها طابع الإعجاز والعبقريّة

واللّغة ظاهرة اجتماعيّة تتأثر بالمحيط الاجتماعي الذي تنمو فيه وتتأثر به ولهذا نقف عند علاقة اللّغة بالمجتمع:

علاقة اللغة بالمجتمع :

يتحتم على من يريد دراسة سلوك الإنسان أن يعكف على دراسة لغته، لأنَّ اللّغة كانت ومازالت وىستظل إحدى القوى التي ساعدت الإنسان على الخروج من عالم الحيوانية إلى التطور والقدرة على التفكير وتحقيق درجة التقدم التي عليها الإنسان اليوم لأنَّه لا يمكن التعرف على هذا الكائن الحي خارج الحقل اللّغوي فكل شيء في هذا العالم مرتبط باللّغة "فقد نشأت مع نشوء العمل وتطورت معه من دونها لن نحسن عملنا، ولن يتقدم عملنا وفننا، ولن تتقدم حياتنا ولن تكون لنا حضارة"[2] فاللّغة إحدى أهم وسائل النشاط العلمي والفكري والاجتماعي

---

[1] كارم السيّد غنيم، اللغة العربيّة و الصحوة العلميّة الحديثة، مكتبة ابن سينا، دط، مصر، 1989 م، ص 42.

[2] الهادي نهر، اللسانيات الاجتماعيّة عند العرب، دار الأمل للنشر والتوزيع أ اربد الأردن، 2010، ص 46.

وبما أنّها عبارة عن كائن حي ينمو ويتطور داخل المجتمع فإنها تتأثر بعوامل كثيرة في تطورها يرجع أهمها إلى ستة أسباب وهي:

1-عوامل اجتماعيّة خالصة تتمثل في حضارة الأمة ونظمها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها وثقافتها العامة واتجاهاتها الفكريَّة

2-تأثر اللّغة باللّغات الأخرى

3-عوامل أدبيّة تتمثل فيما تنتجه قرائح الناطقين باللغة وما تبذله معاهد التعليم والمجامع اللغوية وما إليها في سبيل حمايتها والارتقاء بها

4-عوامل طبيعيّة تتمثل في الظواهر الجغرافيّة والفيزيولوجيَّة وما إليها

5-عوامل لغويّة ترجع إلى طبيعيَّة اللغة نفسها وطبيعة أصواتها وقواعدها وذلك أنَّ عناصر اللغة نفسها قد تنطوي على بعض نواح تؤثر في تطور.[1]

فوجود ظاهرة لغوية يتطلب شرطين أساسين متلازمين هما عناصر العضوية في المخ الإنساني والمحتوى الفكري للرموز اللغويّة التي لا تأتي إلاَّ عن طريق العيش في المجتمع الإنساني فاللّغة هي الخاصية التي تلازم الإنسان، تلازمه كناطق (أي كمفكر) يتلفظ برموز لها دلالتها الفكريّة وتلازمه في حياته الاجتماعيّة كوسيلة للاتصال بالآخرين، وتنشأ في تفاعل الأفراد فيما بينهم في الحياة الاجتماعيّة بكيفيّة تلقائية مستقلة عن إرادة بعضهم بعضا فهي ظاهرة من إنتاج المجتمع وحده، وبهذا نجد الميزة النطقيّة والاجتماعيّة اللتين عرف بهما الإنسان متلازمتين في الظاهرة اللّغويّة.[2]

وهذه الظاهرة اللغويّة – اللغة العربيّة- لها استعمالات متعددة في مجتمعنا الجزائري ولهذا نقف عند واقع استعمالها في المجتمع الجزائري.

---

[1] علي عبد الواحد الوافي، اللغة والمجتمع، دار إحياء الكتب، ط2، 1951م، القاهرة مصر، ص 8-9

[2] أحمد بن نعمان، التعريب بين المبدأ والتطبيق –في الجزائر والعالم العربي-، الشركة الوطنيّة لنشر والتوزيع، الجزائر، 1401ه-1981م، ص 67.

واقع استعمال اللّغة العربيّة في المجتمع الجزائري:

تعد اللّغة العربيّة قطعة من حياة المجتمع نشأت فيه وسارت معه وتطورت فيه، وكان تاريخ اللّغة وسيظل مجالا رحبا نتصفح من خلاله تاريخ الحضارات الإنسانية ففي كل مجتمع مهما كانت طبيعته وحجمه تؤدي اللّغة فيه دورا ذا أهميّة أساسية بوصفها من أقوى الروابط بين ذلك المجتمع وهي في الوقت نفسه رمز لحياتهم المشتركة فلا توجد أداة يمكن التواصل بها في المجتمع غير اللغة وهي الأداة الأكثر كفاءة في تأكيد خصائص الجماعة.

وتكمن العلاقة القائمة بين اللّغة وبين اعتزاز الجماعة بقوميتها في كونها رمزا لهويّة حتى إنَّه من الممكن إحياء لغة طال موتها مثلما فعلت إسرائيل في بعث اللغة العبريّة في عصرنا الحالي كي يجتمع عليها اليهود مختلفو الألسنة وهذا حفاظا منهم على تمسك مجتمعهم ووحدته.[1]

وأما في الجزائر فالوضع اللّغوي يتسم بالتعدد مما خلق تواجد لغات كثيرة منها:

1-لغة المنشأ (العربيّة الدارجة، أو الأمازيغيَّة) وفي الأداء للدارجة والأمازيغيّة تأديات متنوعة حسب كل منطقة،

2-العربيّة الفصحى (لغة المدرسة)،

3-اللغة الفرنسيّة(لغة المدرسة)،

4-الهجين اللغوي والذي يسمع في التجمعات السكانيّة.

وهذا التعدد لكل منه نصيبه في المجتمع من حيث الاستعمال ولهذا نجد أن لغة المنشأ هي لغة شفوية وهي المتواجدة أكثر في المجتمع والعربيّة الفصحى والفرنسيّة تكتسبان في المدرسة، وكلنا يعلم أنَّ اللّغة العربيّة هي لغة التاريخ والحضارة ولغة القرآن الكريم، الكل يعلم هذا الأمر ويدركه ولكن السؤال المطروح في هذا المقام لماذا تركت اللغة العربيّة في مجتمعنا وأهملت بين أهلها؟ لماذا الذي يتكلم العربيّة في مجتمعنا يصبح رمزا لسخرية ورمزا لكل ما هو قديم؟

فتأثير اللّغة الفرنسيّة على المجتمع الجزائري واضح للغاية ولافت للانتباه فنرى الفرد الجزائري نصف كلامه – بل أغلبه- بالفرنسيّة حتى إنَّ بعض المناطق تحسّ كأنَّ اللغة الرسميَّة فيها هي الفرنسيّة وكأنك في أوروبا حتى وصل الأمر بهم أنهم يتعجبون ممن يتكلم بالعربيَّة كأنَّه مازال في العصر القديم ويرمز إلى الماضي.

لكن في هذا المقام ليس العيب في تعلم اللغة الفرنسيّة ولكن العيب في ذلك يكمن في التكلم بها في غير حاجة لها بين أفراد المجتمع.

وأما في مجال التعليم فحدث ولا حرج، نجد الطلبة مهتمين باللغة الفرنسية والانجليزيّة وبعض اللغات الأخرى أما العربيّة فيهملونها ولا يتقنونها لا في الجانب الإملائي ولا في النطق الصحيح عند القراءة ناهيك عن الإعراب والشكل.

وهناك عدة أسباب أدت إلى ترك اللّغة العربيّة

أسباب ترك استعمال اللغة العربيّة في المجتمع الجزائري:

1-الاستعمار الفرنسي ومحاولته لطمس الهويّة العربيّة والإسلامية،
2-التكلم باللّغة الفرنسيّة في بلد عربي لغير الحاجة إليها،
3-ضعف الاهتمام باللّغة العربيّة من الجهات الرسميّة،

4-إعطاء اللغة الفرنسيّة أهميّة كبرى على حساب اللغة العربيّة واعتبارها لغة العلم والثقافة،

5-التكلم بالعاميّة والدارجة،

6-تربية الأولاد في المحيط الأسري والمدرسة وتعويدهم على التكلم بالفرنسيّة ليقال أنّه مثقف.

7-أن ينتشر أفراد شعب على أثر الهجرة أو الاستعمار في مناطق جديدة بعيدة عن أوطانهم.[1]

ونسرد في هذا المقام بعض الكلمات والمصطلحات المتداولة في الحديث العام في المجتمع الجزائري:

شكرا : merci

شكرا جزيلا: merci beaucoup

عفوا : de rien

بالتأكيد : bien sur

لو سمحت : s'il vous plait

حسنا : bon

نعم : oui

لا: non

موافق: d'accord

عذراً: pardon

---

[1] علي عبد الواحد الوافي، اللغة والمجتمع، ص 13

لا بأس: ça ne fait rien

أرجوك: je vous en prie

من بعدك: après vous

أنا آسف: je suis désolé

وغيرها من الكلمات المتداولة في التخاطب اليومي وعلى الرغم من ثـراء اللغة العربية بالمفردات التي تعبر عن المفاهيم والخصائص التي تتميز بها والتي تبرز من خلالها عبقريتها وقـدرتها علـى التوالـد لاسـتيعاب العلـوم وشـتى الفنون، إلاَّ أنها تواجه واقعًا وتحديات نتطرق إليها فيما يلي:

واقع اللّغة العربية والتحديات التي تواجهها:

أصبحت اللّغة العربية عرضة لعدة اتهامات تخـص الأدوار الـتي يجـب أن تقوم بها في مواجهة التحدي التقني الحديث، ذلـك أنهـا وجهـا لوجـه أمـام مدينة زاخرة زاحفة وحياة جديـدة ومطالـب سـريعة، وهكـذا كتـب عليهـا – اللّغة العربيـة – أن تواجـه أقصـى وأصـعب امتحـان في تاريخهـا بعـد أن تكاثرت عليها الخطوب من كل الجهات.

– من جهة أهلها الذين فقدوا سيادتهم الحضارية فتقاعسوا عن التقدم في مختلف المجالات من بينها مجال اللّغة ومن جهة الكميّـة الهائلـة والغزيـرة مـن المصطلحات والتعابير والأسماء الجديدة التي راحت تتدفق يومًا بعد يـوم إلى عالمنا العربي فأصبحت – العربية – تُنادي بصوت حزين:

رجعت لنفسي فاتّهمت حصـاتي ونـاديت قومي فاحتسـبت حيـاتي

رموني بعقـم في الشـباب وليـتني عقمت فلم أجزع لقـول عُـداتي

ولـدت ولمـا لم أجـد لعرائسـي رجـالا وأكفـاء وأدت بنـاتي

وسـعت كـلام الله لفظـا وغايـة وما ضقت عن أي بـه وعضـات
فكيف أضيق اليـوم عـن وصـف آلة وتنسيق أسماء لمخترعـات".[1]

- تنافس اللّغات الأجنبية:

بعد عصر العولمة أصبحت اللّغة الإنجليزية اللّغة الأولى التي تنافس العربية حتى بين مستخدميها وأهلها، حيث يقول **كوبر** أنَّ الإنجليزية شجرة عملاقة تخنق كل الشجيرات التي تنمو بجانبها، فاللّغة العربيّة ليست بمنجاة مـن هـذا المد الطوفاني لكمّ الإنجليزية وغيرهـا مـن اللّغـات كمـا لا ننكـر أنهـا تتـأثر بعوامل القوة والضعف بالإضافة إلى أعدائها الذين وجـدوها فرصـة سـانحة للقضاء عليها بدعوى عدم ملائمها للحضارة الحديثة، فراحوا يبثون دعواهم الهدامة مثل المناداة باستخدام العامية بدل الفصحى في الكتابة والتدريس، أو المناداة بكتابة العربيّة بالحروف اللاتينية، أو المنـاداة بدراسـة العلـوم الحديثـة بلغات أهلها[2](*)، واستخدام العربية في الأدب والشعر والحياة اليومية[3].

---

[1] كارم السيد غنيم، اللغة العربيّة والصحوة العلميّة الحديثة، ص 6

[2] (*): كان من خصائص هذه المرحلة الموازاة باللّغة العربية تأسيس مجامع لغوية عربية ثورتهـا حسب التسلسل الزمني التاريخي.

- المجمع العلمي بدمشق سنة 1919م.
- مجمع اللغة العربية بمصر مجمع الخالدين، 1932م.
- المجمع العلمي العراقي 1947.
- انعقاد مؤتمر المجامع اللّغوية دمشق (29-09-1956).
- إنشاء مكتب تنسيق التعريب الرباط، 1961م.
- تأسيس مجمع اللّغة العربية، الأردن، 1976 وبعدها مجامع في كل من السودان، ليبيا والجزائر.

للاستـزادة: ينظر، أحمد محمد قدور، مدخل إلى فقه اللّغة، ص 157-158 منشورات اتحاذ الكتاب العرب، 1998م

[3] فداء ياسر الجندي، العرب والعربيّة في عصـر الثـورة الحاسـوبيّة، دار الفكـر، ط1، دمشـق – سوريا 2003، ص104

- ولعل من أسباب تخلفها عن اللّحاق بركب اللّغات العالمية كالإنجليزية والفرنسيّة مثلا تلك الهوة الواسعة بين المجتمعات العربية وإنجازات العلم.

"في ظل العولمة وتوسع حركة المعلومات تتعرض العربيّة لحركة تهميش نشطة بفعل الضغوط الهائلة النّاجمة عن طغيان الإنجليزية على الصعيد السياسي والاقتصادي والتكنولوجي والمعلوماتي"[1] مما أدي بالعربية للوقوع في أزمة وأنَّ هذه الأزمة تتفاقم مع توسع الفجوة الرقمية[2](*).

- ظهور اللّهجات المحليّة المستعملة في التداول اليومي.

-الاتجاهات السلبيّة نحو استعمال العربيّة الفصيحة في التخاطب اليومي وفي مختلف المجالات.

-نفور جيل الشباب من اللّغة العربيّة الفصيحة وتفضيلهم للّهجات المحليّة.

-صعوبة مناهج اللّغة العربية في المدارس من حيث عدم ملائمتها لأذواق النشء وصعوبة النحو.

ومن هذا المنطلق وبعرضنا للتّحديّات التي تواجه اللّغة العربيّة نهدف إلى تسليط الضوء على أهم الركائز للنهوض بها والمحافظة عليها ألا وهو التخطيط اللّغوي.

---

(1) نبيل علي، الثقافة العربيّة وعصر المعلومات، دار المعرفة، ط2، 2001 م، ص238 .

(2) (*): الفجوة الرقمية وأوّل ما استخدم هذا التغيير عام 1995م للدلالة على المدة الواسعة التي تفصل بين من يملك الأدوات الحديثة لتوليد المعرفة واستغلالها نشرها ومن لا يتسنى له ذلك وبالتي لا تتاح له فرصة تملك كما وكافيًا من المعرفة ولا توليدها ولا توظيفها لمصلحته.

- ينظر: منصور فرح، الفجوة الرقمية في المجتمع العربي وأثرها على اللّغة العربية، مجلة المجتمع الجزائري للغة العربية، العدد3، 2007، ص 80، ما بعدها.

مفهوم التخطيط اللّغوي:

بدأ مفهوم التخطيط اللّغوي أوّل الأمر بما يسمى بتحديد اللّغة بمعنى اختيار لغة من بين مجموعة من اللّغات في الدوّل المتعددة لغويًا كالهند وغيرها ثم تطور هذا المفهوم إلى ما يسمى بتطور اللّغة وخاصة إذا كانت اللّغة قومية هي لغة أغلبية المجتمع.[1]

وعندما نتكلم عن السياسة اللّغوية فإننا نعني بذلك القوانين الرسمية التي تخطط لتهيئة لغة معينة في مجتمعات متعددة اللّغات فتجعلها لغة رسمية بسلطة القانون والدستور ومن المصطلحات التي أعطيت لهذا المفهوم التنمية اللغوية L'Aménagement linguistique وكذلك التخطيط اللغوي أو الهندسة اللّغوية planification linguistique وقد اعتبر العالم "هاوجن" أوَّل من استخدمه سنة 1959 م في ندوة عقدت بكولومبيا في مقالة عنوانها "تخطيط اللّغة المعيارية في النرويج الحديث" فعرّفه كالآتي: "نشاط يستهدف إعادة الضبط والتشكيل الهجائي والقواعد اللّغوية وقاموساً لإرشاد الطلاب والخطباء في مجتمع لغوي غير متجانس."

ويعرفه "**ويستن**" التخطيط اللّغوي بأنّه مصطلح حكومي سلطوي طويل المدى بوصفه جهدا واعيا لتغيير اللّغة ذاتها أو لتعديل وظائفها في مجتمع يهدف لحل مشكلات الاتصال والتواصل بين أفراده[2].

وقد ورد تعريف للتخطيط اللّغوي عند خولة طالب الإبراهيمي في كتابها "الجزائريون والمسألة اللغوية" كالآتي: التخطيط اللّغوي هو: -مواجهة اللّغة

---

[1] مصطفى عوض بن ذياتي، التخطيط اللغوي والتعريب، جامعة البلقاء، الأردن.

[2] خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغويّة عناصر من أجل مقاربة لغويّة للمجتمع الجزائري، ترجمة محمد يحياتن، ص 187.

الأجنبية المسيطرة ومحاولة بسط اللّغة العربّية ومن خلالها الحق في الوجود العربي الإسلامي وفي مطلب التعليم باللغة العربية.

- إثبات الهوية الشخصيّة الوطنية مع التحرر من رقبة تيار التعريب وضغط الثقافة الأجنبيّة المكتسحة.

- البحث عن الهويّة العربيّة مع الطموح إلى المشاركة بقسط في النهوض بالثقافة العربيّة واقتحام البعد الحضاري الكامن فيها والتسلح به لخوض المواجهة الدائرة بين الحضارات في العالم.[1]

فالقاسم المشترك بين هذه التعاريف المقدمة للتخطيط اللغوي أنّه مصطلح سلطوي حكومي مرتبط بقرار سياسي يدرس علاقة اللّغة بالمجتمع الذي تنتمي إليه من أجل المحافظة عليها، وقد كان الاهتمام به منصبا على معالجة المشكلات اللّغوية التي نتجت عن طمس الهوية اللّغوية العربيّة والقومية لبعض الدول المستعمرة.

ويتجلى مفهومه الحديث في كونه يجعل من اللّغة العربيّة لغة علم وحياة وإدارة، وذلك يعني سيادة الفكر العربّي والقيّم العربيّة واللّسان العربي في حياة المجتمع باسترداد الهويّة الحضاريّة والشخصية العربيّة للشعوب العربية المنبت والمنشأ[2].

والجدير بالذكر أن ظهور علم التخطيط اللّغوي قد تزامن مع تقدم العلوم الاجتماعية والاقتصادية مما أدى إلى تأثر علماء التخطيط اللّغوي بتلك العلوم خصوصا التي تبحث في طرق تطوير دول العالم النامية وتحديثها

---

[1] خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغويّة عناصر من أجل مقاربة اجتماعيّة لغويّة للمجتمع الجزائري، ترجمة محمد يحياتن، دار الحكمة، ط 1، 2007 م، ص 187.

[2] ينظر، وليد عناني، عيسى برهومة، اللّة العربية وأسئلة العصر

اقتصاديا واجتماعيا وتربويا ولغويا ولهذا نرى أن هذا التزامن أدى إلى تأثر علم التخطيط اللّغوي بمعطيات العلوم المعرفية ومثال على ذلك ما حدث في تركيا كأنموذج عندما كانت لغتها تكتب بحروف عربية ثم اتخذ مصطفى كمال أتاتورك سنة 1927 قرارا بتتريك اللّغة التركيّة عن طريق نقل حروفها إلى اللاتينية وتنفيذا لهذا القرار تم إنجاز مجلس لغوي يتولى إنجاز هذه المهمة ومن خلال تأليف المعاجم وتوليد المفردات وتطويرها وبناء مصطلحات وذلك بالتعاون مع وزارة الإعلام والمدارس والجامعات التركية لاستيعاب نشر ما تم تتريكه وتمثيله.[1]

إذن وفي هذا الصدد كيف ننهض باللّغة العربية؟ من هنا يكمن دور التخطيط اللّغوي في النهوض والارتقاء باللّغة العربيّة لأنّه ذو مرجعية إسلامية مفادها أنَّ اللّغة العربية لها دور رئيسي في بناء الأمة وهي رمز الهوية الوطنية والقومية- وإن اللّغة العربية مصدر رئيسي من مصادر الدخل القومي وهي من مقومات وجود الأمة الإسلامية، وهي حق مكتسب، لا تشكل عائقا للازدهار والتقدم.

والسياسة اللّغوية العربية تعمل على التكامل بين اللّغات الأجنبية والعربية لا طغيان اللّغات الأجنبيّة على حساب اللّغة العربيّة.

وهكذا فإن التخطيط اللّغوي ورسم سياسة لغوية عربية أصبح علمًا قائما بذاته يهدف إلى وضع إطار نظري يهدف إلى ما يلي:

1-وصف الوضع اللّغوي وغير اللّغوي القائم في البلاد العربية.

---

[1] ينظر، لويس جان كالفي، حرب اللّغات والسياسات اللغوية، ترجمة د، حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز الدراسات الوحدة العربية، ط1، 2008، بيروت لبنان، ص 261، 262.

2-تقسيم الاتجاهات المغايرة نحو العربية والتعريب وتقديم الأسباب الواجبة أو المانعة لإنجاح عملية تعميم العربية وتعريبها.

3-التنبؤ بمستقبل اللّغة العربية والتعريب وتوقع العثرات أو النجاحات لنتائج تقييم العربية.

4-استخلاص مبادئ عامة التي تكون بمثابة حقائق وثوابت لعملية التعريب.[1]

وهذه نقاط وأهداف التخطيط اللّغوي المنشودة لتعميم العربية والحفاظ عليها لأنَّ اللّغة العربية قديمًا كانت مكانتها محفوظة بين لغات الأرض وهذا:

للعامل الديني: وهو من أقوى العوامل وصار تعلمها وإتقانها مطلبًا يرجوه العامة والخاصة وذلك لتعلم مبادئ الدين الجديد وقراءة القرآن وممارسة ذلك اجتماعيا.[2]

ففي هذا الصدد أخذت المجتمعات الغربية تعمل جاهدة من أجل الحفاظ على لغاتها ونشرها على نطاق واسع ومثال ذلك المجتمع الفرنسي فقد دأبت فرنسا جاهدة للحفاظ على لغاتها من خلال العديد من التجارب نذكر منها:

المجتمع المدني:

---

[1] ينظر، صالح بلعيد، لماذا نجح القرار السياسي في القيام وفشل في .... ؟ عن تعميم استعمال العربية في الوطن العربي عوائق، غايات، دار هدمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2002م، ص 126.

[2] د/ فواز عبد الحق الزبون، التخطيط اللغوي والتعريب.

مما لا شك فيه أن الرهان على المجتمع المدني هو إحدى البداهات التي تنبني عليها، فلسفة التنمية للمجتمعات المعاصرة، وهذا هو الدور الذي أصبحت تلعبه المجتمعات المدنية في الغرب ونذكر في هذا المقام:

- المجتمع الفرنسي الذي عمل ما بوسعه بأن تكون الفرنسية فوق كل اعتبار، كما سعى الفرنسيون بكل ما أوتوا من قوّة إلى عدم السماح لأي خدش يمس لغتهم.

- أما المؤسسات التربوية فلا تقبل أي خطأ على لغتهم التي تصدر من الناطقين بها بل تعمل جاهدة على الصفاء اللّغوي الذي طبع اللّغة الفرنسية.

- فرض اللّغة الفرنسية في وسائط الإعلام

- العمل بالترجمة الفورية في أشرطة الأفلام والفيديو.

- إسناد جوائز للمتفوقين في اللّغة الفرنسية كل سنة.

- عقد المهرجانات الممجدة للغة الفرنسية في كل المناسبات العامة.

- تخصيص أسبوع كامل للاحتفاء باللّغة الفرنسية.

- نصب لوحات في الشوارع تقول: إنني أحب اللّغات جميعا ولكنني أفضل لغتي.

- في السنة يخصصون أسبوعاً وطنيا لا يحصل الحديث فيه إلاَّ باللّغة الفرنسية وفي كل الأماكن ودون رقيب وهذا تطبيقا لإيمانهم وشعارهم المعروف بـ "**اللّغة الوطنية إن لم أمارسها لا يمارسها غيري**".

- فقد فرضت الجمعيات المدنية في فرنسا يوماً سنويا لإجراء "امتحان في الإملاء" يشارك فيه كل الفرنسيين وتسند جائزة لمن لم يرتكب أي خطأ.[1]

فماذا أعد العرب للّغتهم في ظل زحام اللّغات .....؟؟؟؟

إذا كان المجتمع الغربي قد عكف للحفاظ على لغته وجعلها في مصاف اللّغات العالمية وذلك بتوفير شتى الوسائل في سبيل المحافظة عليها وترقيتها.

إذن ماذا أعد العرب للغتهم في ظل زحام اللّغات؟

في هذا المقام نسلط الضوء على المجتمع المدني الجزائري وهل كان له نفس الدور الذي قام به المجتمع المدني الفرنسي.

مخطئ من يعتقد أنَّ النهوض باللّغة العربية من عمل المختصين فقط (لغويون ونحاة) ولا علاقة لها بالحياة السياسية والاجتماعية.

صحيح أنَّ للّغويين وللنحاة جوانبهم الجزئية من دراسة للأصوات والتراكيب وجمع المادة ولكن للسياسيين والمجتمع المدني دفع قوي للاستعمال والتعميم، حيث تمكين اللّغة الوطنية يرتبط باستخدامها في التعليم وفي الإدارة وفي المسرح وفي الصحافة وفي كل المجالات وأوَّل واجب فعله هو استعمالها ولا نقف عند حدود القواعد النحوية نتعلمها ونعلمها لأولادنا فاللّغة وضع واستعمال وليست اختزان[2].

---

[1] صالح بلعيد، لماذا نجح القرار السياسي في الفيتنام وفشل في .....؟ عن تعميم استعمال العربيّة في الوطن العربي –عوائق وغايات–، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002 م، ص125.

[2] وليد عنابي: عيسى برهومة، اللغة العربية وأسئلة العصر دار الشروق والتوزيع، ط1، عمان الأردن، ص 257.

ونسلط الضوء في هذا المقام على جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين [*] التي تعتبر إحدى المجتمعات المدنيّة التي عملت على الدفاع عن اللغة العربيّة ومنه تطرح الإشكاليّة الأساسية في هذا البحث وهي:

كيف ساهمت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في التخطيط للحفاظ على اللّغة العربيّة والارتقاء بها؟

وفي ظل التقدم العلمي والتكنولوجي وطغيان اللّغات العلميّة (الإنجليزية، الفرنسيّة)

ما هي الأدوار والمهام التي تؤديها جمعية العلماء المسلمين للحفاظ على اللّغة العربيّة رمز الهوية؟

دور جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في التخطيط للغة العربيّة للحفاظ عليها وترقيتها:

إنَّ اللغة هي المعبِّر الرئيس عن مسألة الهويَّة الوطنيّة، وتعد تجربة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين هي تجربة المجتمع المدني الذي يعمل على الدفاع عن لغته وبالتالي الدفاع عن مجتمعه وربط أفراده بهويتهم وتكمن هذه الهوية في اللّغة العربيّة ولهذا سعت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين إلى تحقيق هذا الهدف وقد خاضت تجربة مهمة جدا سواء في مجال التربيّة والتعليم أم في إطار الوعي السياسي والحضاري.

وللإعلام دور بارز في نشر اللغة العربيّة سواء منه المنطوق أم المكتوب، وقد ساهم إعلام جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على اللغة العربيّة والتخطيط لها في سبيل ترقيتها ومن وسائل إعلامها الجرائد والمجلات منها: الشهاب والبصائر.

ومن خلال هذه الورقة البحثية أردنا الوقوف عند النصوص المكتوبة والتي عملت على ترقيّة اللغة العربيّة والحفاظ عليها.

فمسألة اللّغة في فكر الجمعيّة أمر محسوم فلا حديث عن المفاضلة بين لغة مقتدرة معرفيا وأخرى ليس لها حظ من تطور العلم الحديث، بل الحديث كل الحديث عن اللغة تمثل هويّة الشعب الجزائري ولغة الشعب المسلم الذي سعى الاستعمار الفرنسي بكل وسائله لطمس كل معالم الانتماء الحضاري لهذا الشعب، بل كان مبدءًا أصيلاً ذلك الذي تبناه رجال الجمعيّة منذ أن نادوا بالإصلاح.

واللّغة العربيّة مرتبطة بالدين كما هو معروف فهي ليست غريبة عن هذا المجتمع ولم تكن دخيلة مثل لغة المستعمر بل هي كما يقول الشيخ البشير الإبراهيمي في مقال له بعنوان - اللغة العربية في الجزائر- "اللغة العربيّة في الجزائر ليست غريبة ولا دخيلة بل هي في دارها وبين حماتها وأنصارها وهي ممتدة الجذور مع الماضي مشتدة الأواخي مع الحاضر طويلة الأفنان في المستقبل، ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسن الفاتحين ترحل برحالهم وتقيم بإقامتهم فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد أقامت معه العربيّة"[1]

وقال في مقال آخر بعنوان – التعليم العربي- اللّغة العربيّة هي لغة الإسلام الرسميّة ومن ثمة فهي لغة المسلمين الرسميّة ولهذه الأمة الجزائرية حقان أكيدان كل منهما يقتضي وجوب تعلمها فكيف إذا اجتمعا حق من حيث أنها لغة الدين الأمة المسلمة وحق أنها لغة جنسها بحكم أنّ الأمة عربيّة الجنس والدين معا ومن هنا نشأ ما نراه من حرص متأصل في هذه الأمة على تعلم العربية.

---

[1] البصائر، عدد 41، عام 1948م.

وقال في مقال آخر "إن العربية هي لسان العروبة الناطق بأمجادها الناشر لمفاخرها وحكمها فكل مدع للعروبة فشاهده لسانه وكل معتز بالعروبة فهو ذليل إلى أن تمده هذه المضغة اللينة بالنصر والتأييد، فلينظر أدعياء العروبة الذين لا يريدون ألسنتهم على بيانها ولا يريدون أفكارهم على حكمتها في أية منزلة يضعون أنفسهم"[1].

هذه النصوص عبارة عن مقتضبات لشيخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين البشير الإبراهيمي والتي تلخص من خلالها فلسفة المشروع الحضاري الذي أرادت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين أن تخدم به دينها ولغتها وأمتها، ولو أردنا في هذا الصدد أن نستدل بنصوص أخرى لتبيان مكانة اللغة العربيّة في هذا المشروع الحضاري العظيم لكان هناك الكثير وليس فقط الإبراهيمي من كتب ودافع عن اللغة العربيّة ونظر في مسألتها بل كان رجال الجمعيّة قد كتبوا نصوصًا راقية وعاليّة المستوى وذلك لتمجيدها وترسيخها في المجتمع الجزائري وكل ذلك عبر وسائل إعلامها ومن خلال كذلك الموسوعات والمجلات التي خدمت مسألة الهويّة في الجزائر

ولهذا كان للإعلام دور بارز في التخطيط للحفاظ على اللّغة العربيّة رمز الهويَّة

ولعبت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين دورا بالغ الأهميّة في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر في الحفاظ على الهويّة الوطنيّة من خلال السياسة التي انتهجتها وهذا بنشر التعليم العربي الإسلامي على نطاق واسع حيث شملت مدارسها كافة المناطق الجزائرية فقد بلغت جملة مدارسها أكثر من 150 مدرسة حتى عام 1954 م يتردد عليها أكثر من خمسين ألف طفل يدرسون فيها مبادئ اللغة العربيّة وآدابها وأصول الدين الإسلامي والتاريخ

---

[1] البصائر، العدد 02، عام 1947م.

الجزائري والإسلامي طبق برنامج يجمع ضرورات العلم وبين الإيجابيات الإسلامية والقوميّة والوطنيّة الصحيحة[1]

وقد كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة عبد الحميد بن باديس تعمل على تكوين جيل قرآني – في الجزائر- وذلك عن طريق تدريس القرآن لتلامذتها بأسلوب حي – وطريقة فعالة – وأما من ناحيّة الكتب فقد عملت الجمعيّة على إصلاح الكتب الدراسيّة سواء في التعليم المدرسي – أم في التعليم المسجدي- أم التعليم والتهذيب في النوادي وهي وسيط في المدارس والمساجد وهذه هي المؤسسات التربوية التي كانت جمعيّة العلماء تقوم بالتعليم فيها فقد كانت تختار من الكتب ما هو أقرب إلى الإفادة وأعون على تحصيل الملكة العلميّة لدى التلاميذ وتجنب تلك الكتب الجامدة المعقدة كما كانت تقرر على تلامذتها في حصص المطالعة الكتب الحيّة السهلة.[2]

وقد عملت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين من جهة أخرى على إصلاح طرق التدريس في مدارسها فقد طبق المعلمون في مدارسها طريقة سهلة وحديثة-في تعليم العربيّة –وذلك بتلقين التلاميذ أبسط القواعد – وأسهل التراكيب – ثم الإكثار من التمارين العمليّة كي ترسخ القواعد في أذهانهم –وركزوا على المعنى- وابتعدوا عن الزخارف اللّفظيّة- وحرصوا على إشراب المتعلمين معنى ما يقرؤون واجتهدوا في تربيّة ملكة الذوق، كما عملوا على تطهير اللغة العربيّة من الكلمات الدخيلة – والاستعمالات

---

[1] تركي رابح عمامرة، جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين التاريخيّة (1931 م- 1956 م) ورؤساؤها الثلاثة، المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الجزائر، 1425ه-2004م، ص99.

[2] تركي رابح عمامرة، جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين التاريخيّة (1931م-1956م) ورؤساؤها الثلاثة، ص 104.

المستهجنة- وشجعوا تلامذتهم على الخطابة – وارتجال القول- في المحافل بدون تلعثم.

الخاتمة:

إنَّ اللّغة هي رمز الوجود ومن مقومات أي دولة والحفاظ عليها وتوحيدها مطلب شرعي لأنَّ قوة شخصية الفرد تكمن في قوة لغته ولهذا كان للمجتمع المدني دور فعّال في التخطيط للغة والحفاظ عليها في سبيل ترقيتها وكانت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين من المجتمعات المدنيّة التي عكفت على الدفاع عن اللغة العربيّة من خلال التخطيط لها في سبيل المحافظة عليها وهذا من خلال وسائل إعلامها المكتوبة والنصوص التي كانت تكتب ممجدة للغة العربيّة والتي تعمل كذلك على انتشارها وكذلك من خلال السياسة التي انتهجتها الجمعيّة في تلقين هذه اللغة في مدارسها واتباع الطرق الفعالة وتبسيط قواعدها لتلقينها لتلامذتها وبهذا تكون جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين قد عملت على التخطيط للغة العربيّة في سبيل ترقيتها والمحافظة عليها.

جهود ابن باديس التربوية وأثرها على الهُوية

د.عبد القادر بوزياني
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه، بعثه الله رحمة للعالمين، وإمامًا للمتقين، وحجة على الخلائق أجمعين، هاديًا إلى أقوم الطرق وأوضح السبل، صلى الله عليه وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

الجزائر بلد عربي إسلامي لغته العربية ودينها الإسلام، تعرضت إلى الاستعمار الفرنسي الذي دام قرنا واثنين وثلاثين سنة، ومهما طال الليل فسيأتي الصباح بنوره وضيائه، أراد طمس دينها ولغتها وهويتها وأصالتها، ضنا منه أنه فرنس الأمة الجزائرية وعزلها عن بقية الأقطار الإسلامية، ولكن: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ﴾ سورة التوبة الآية 32.

وعلى أثر ذلك ظهرت حركات تحررية ودعوات إصلاحية وفكرية تدعو إلى تغيير الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية السائدة في البلاد المستعمرة، عربية كانت أو غير عربية، يقودهم زعماء من المصلحين أمثال: محمد بن عبد الوهاب (1703ـ1791م) جمال الدين الأفغاني (1839ــ1897)،

ومحمد عبده (1849ــ1005م)، وعبد الرحمن الكواكبي (1848 ت 1902م) وعبد القادر المجاوي، وغيرهم.

وتأثرت الجزائر برياح التغيير والإصلاح فجاء ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يوم خمسة (05) مايو 1931 في (نادي الترقي) بالعاصمة الجزائر، يرأسها الإمام عبد الحميد ابن باديس (1889ــ1940م) ـ رحمه الله ـ وهي جمعية إسلامية في سيرها وأعمالها، جزائرية في مدارها وأوضاعها، علمية في مبدئها وغايتها، تستدعيه ضرورة هذا الوطن وطبيعة أهله.

غرضها إحياء الشعب الجزائري والنهوض به وإصلاح مجتمعه وزرع القيم والأخلاق الإسلامية الرفيعة وتطهير الإسلام من بدع وخرافات بعض طرق الصوفية المنحرفة، وإحياء الثقافة العربية ونشرها بعد أن عمل المستعمر على وأدها، والمحافظة على الشخصية الجزائرية بمقوماتها الحضارية والدينية والتاريخية، ومقاومة سياسة الاحتلال الرامية إلى القضاء عليها، وإيقاد شعلة الحماسة في قلوب الشباب وشرفاء الجزائر بعد أن بذل الاحتلال جهده في إطفائها حتى تنهار مقاومة الجزائريّين، وفق أنظمة لا تصادم قانونا جاريا ولا تزاحم نظاما ما رسميا ولا تضر مصلحة أحد، ولا تسيء إلى سمعته فجميع أعمالها دائرة على الدين الإسلامي ولغته، اتفقت جميع أمم الحضارة على حمايتها وعلى التعليم والتّعلم، وكذا جميع قوانين الحضارة على احترامها وإكبار أهلها والمحافظة على هويتها من أجل أن تتبوأ مكانة رائدة بين الأمم وفق هويتها الإسلامية والعربية. شعارها:«**الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا**».

هذه الملامح الرئيسة لدعوة الإصلاح والتغيير والتجديد، لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين حاول الشيخ بن باديس أن يستوعب واقع الشعب الجزائري بكل مكوناته، وما تعرض له من محاولات طمس الهوية وممارسة عملية

التذويب، عن طريق الثقافة والسياسة والتربية والتعليم، وتشكيل الطابور الخامس الملحق بفرنسا والمروج لها، سياسة وثقافة وحضارة. كما أنه لم ينس الأساليب السياسية والثقافية المستمرة في السيطرة على العالم الإسلامي، المتمثلة في سياسة: (فرق تسد)، وسياسة التجويع (جوع الكلب يتبعك).

وسنحاول من خلال هذه الدراسة إبراز جهود الإمام ابن باديس الفكرية، والتربوية من خلال ما جُمِعَ من آثاره، وإظهار أصالتنا الإسلامية وانتمائنا وهويتنا. وإعادة إحيائها هو السبيل إلى بناء جيل قادر على صنع نهضة جديدة، مسايرة لعصر التكنولوجيا والعلمنة، والعولمة، ملقح ضد أي فيروس الذوبان والانسلاخ عن الأصالة والهوية الوطنية.

فجاءت عناصر هذا العمل على الشكل الآتي:

- حالة التعليم في عهد ابن باديس.
- أهمية العلم وطلبه عند ابن باديس.
- جهود ابن باديس في مجال إصلاح المناهج التربوية
- رأي ابن باديس في المنهج الدراسي.
- طريقة ابن باديس التعليمية.
- نظرة ابن باديس لتعليم المرأة.
- حالة التعليم في عهد ابن باديس.

علم المستدمر الفرنسي منذ غزوه 1830 للجزائر أن استقراره واستتباب أمره، لن يتم إلا بالقضاء على الدين الإسلامي واللغة العربية، فناصبه العداء، وتعرّض لمن يعلِّمه بالمكروه والبلاء. فشنت حربًا شعواء على المراكز الثقافية، وأوقفت نحو ألف مدرسة ابتدائية وثانوية وعالية موجودة في الجزائر كانت تقوم بنشاطها. واتبعت سياسة التجويع حتى لا يستطيع الأهالي مزاولة التعليم، والانصراف إلى البحث عن لقمة العيش، بحيث أن أعدادا

ضخمة منهم، حرمت من التمتع بالخدمات العامة، كالصحة والتعليم، والتي كانت تتوفر للوافدين الأوروبيين، والواقع أنّ كل اهتمام الإدارة الاستعمارية كان يقتصر على توفير الخدمات للمستوطنين دون سواهم من دافعي الضرائب الجزائريين.

ورغم دعاية نابليون الثالث بتعليم الأهالي لتسهيل استيعابهم، إلا أن الإدارة أهملت التعليم الوطني خاصة بعد ثورة المقراني، وانتشار المشاعر المعادية للجزائريين بين المستوطنين.

إلا أنها قامت بذر الرماد في العيون فأنشأت مدارس لقلة من الجزائريين التابعين لسياستها، وكان هدفها من وراء ذلك توفير بعض الموظفين البسطاء للعمل في الإدارات المحلية ولتسهيل الاتصال والتواصل بين المواطنين والمستعمرين. ونجحت السلطة الفرنسية منذ 1880 في منع تعليم اللغة العربية في المدارس القليلة التي كانت موجودة، بحجة اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة، حتى قال أحد الجزائريين المتفرنسين: "إن تعلّم اللّغة العربية أصعب من تعلّم اللّغة الفرنسية حتى بالنسبة للجزائريين. ويجدر بالذكر أن معظم الجزائريين كانوا ينظرون إلى هذا التعليم نظرة حقيرة ولا يسمحون لأبنائهم وبالخصوص لبناتهم بارتياد تلك المدارس خوفا من ذوبان شخصيتهم الجزائرية، وإلحاق العار ببناتهم المسلمات مفضلين عليها الكتاتيب والزوايا.

وفي سنة 1930 احتفلت فرنسا بالذكرى المئوية لاحتلالها الجزائر، وأقيمت بهذه المناسبة تظاهرات عظيمة ومَجّدت الحكومة الفرنسة إنجازاتها في جميع الميادين. بعد ذلك أصبح عدد المدارس والتلاميذ يرتفع ولكن دائما بصورة نسبية. فوضعت الحكومة الفرنسية بعد الحرب العالمية الأولى تخطيطا يهدف إلى تعميم التعليم لفائدة أبناء الجزائريين بصفتهم "فرنسيين مسلمين" كما قررت تطبيق التعليم الإجباري الذي نصّ عليه قانون 1882.

دخلت بالفعل هذه القرارات حيز التطبيق وأصبح عدد المؤسسات والتلاميذ يرتفع من سنة إلى أخرى. فألغت الحكومة الفرنسية "تعليم الأهالي "بموجب مرسوم مؤرّخ في 5 مارس سنة 1949 ولكن رغم هذه المحاولات بقي العديد من الأطفال الذين كانوا في السّن الدّراسي الإجباري محرومين من التعليم.

يصف لنا ابن باديس تلك الحالة بقوله: (مضت سنوات في غلق المكاتب القرآنية، ومكاتب التعليم الديني العربي، والضنّ بالرخص، واسترجاع بعضها حتى لم يبقوا منها إلا على أقل القليل).

ولم تقف عند هذا الحد بل راحت تعرّض معلّمي التعليم العربي إلى مضايقات مستمرة وتهديدات متواصلة، إلا أن كثيرًا منهم استبسلوا في سبيل القيام بواجبهم نحو دينهم ولغتهم. وكان على رأسهم الشيخ عبد الحميد ابن باديس ـ رحمه الله ـ الذي ما ادّخر جهدًا في نشرهما، ومحاربة أعدائهما باللسان والقلم، من ذلك قوله: (فهمنا -والله- ما يُراد بنا، وإنّنا نعلن لخصوم الإسلام والعربيّة، أننا عَقَدْنَا على المقاومة المشروعة عَزْمَنَا، وسنمضي - بعون الله- في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا، وإننا على يقين من أنّ العاقبة - وإن طال البلاء- لنا، وأن النصر سيكون حليفنا، لأننا قد عرفنا إيمانًا، وشاهدنا عيانًا، أن الإسلام والعربية قضى الله بخلودهما، ولو اجتمع الخصوم كلهم على محاربتهما.

يشخّص لنا ابن باديس حالة الشعب وإمكانية علاجها، فيقول: (إن الذي يُبقي لنا في المسلمين الرجاءَ، ويفسح لنا الأمل، ويبعثنا على العمل، هو أن ما عليه أكثرنا ليس عن زهد في الإسلام، ولا عن قلة محبة فيه، وإنما هو عن جهلٍ طال عليه الأمد، وغفلةٍ توالت على الحقب. وللجهل دواؤه الشافي وهو التعليم، وللغفلة علاجها النافع وهو التذكير).

ولا شك أن ذلك التضييق على تعليم الدين واللغة العربية، من قِبَل الاستعمار، كانت له آثار سلبية كبيرة على الشعب الجزائري بأكمله، حيث نشأت أجيال لم تتعلم من الإسلام إلا ما ورثته من الآباء والأجداد، مع ما أُدخل عليه من بِدع، وما أُهمل من أخلاقه وآدابه. غير أنّ ما وصلت إليه حالة التعليم الديني والعربي من انحطاط، لم تثن الدعاة ورجال الإصلاح عن مواصلة جهودهم في تربية وتعليم أبناء الأمة، فالشعب الجزائري فطره الله على الإسلام ولن يرضى به بديلاً، وأن ما أصابه -من غفلة وجهل- سوف يزول بعون الله أولاً، ثم بجهود الدعاة والمربين ثانيًا.

نتوصل إلى أن وضع التعليم الديني والعربي في زمن ابن باديس، كان يمثل صورة واضحة للصراع الحضاري بين الشعب الجزائري المسلم، الذي يريد أن يحيا للإسلام وبالإسلام، وبين الاستعمار الفرنسي الصليبي، الذي جثم على صدره عقودًا طويلة لتحويله عن دينه، إلا أن عناية الله ولطفه بهذا الشعب، جعلته يستيقظ على صيحات المصلحين، ويا لها من يقظة مباركة، زلزلت الأرض تحت أقدام الصليبيين، فكانت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ **الإسراء**: 80 – 81.

أهمية العلم وطلبه عند ابن باديس

العلم نور يبصر به المرء حقائق الأمور، له مقام عظيم في شريعتنا الغراء، يقول الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾. **المجادلة**: 11.

ويقول أيضا: ﴿* أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ **الرعد**: 19.

والعلم مقدم على القول والعمل، فلا عمل بدون علم، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾. **الإسراء**: 107-109.

وقد أمرنا الله تعالى بالاستزادة من العلم فقال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. طه: 114. قال القرطبي(ت 671هـ): (لو كَانَ شَيْءٌ أَشْرَفُ من العِلْمِ لَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَهُ ﷺ أن يَسْأَلَهُ المَزِيدَ منه كما أَمَرَ أن يَسْتَزِيدَهُ من العلم).

والعلم أفضل الجهاد، إذ من الجهاد، الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الأئمة من ورثة الأنبياء، وهو أعظم منفعة من الجهاد باليد واللسان، لشدة مؤنته، وكثرة العدو فيه. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾. الفرقان: 51-52.

يقول ابن القيم (ت691هـ/ 751 هـ ـ1292 / 1349 م): (فهذا جهاد لهم بالقرآن، وهو أكبر الجهادين، وهو جهاد المنافقين أيضًا، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين، بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾. ومعلوم أنَّ جهاد المنافقين بالحجة والقرآن.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو في منزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاءه لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره».

فأهل العلم هم الثقات العدول الذين استشهد الله بهم على أعظم مشهود، وهو توحيده جل وعلا. فهم ورثة الأنبياء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. فعن قيس بن كثير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقا يبتغي فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إنَّ الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر».

وقد أدرك الإمام ابن باديس أهمية العلم والتعليم بالنسبة للمسلمين عامة، وللأمة الجزائرية خاصة التي حوربت في دينها ولغتها وشخصيتها خاصة، فوجّه جل اهتمامه لنشره، والعمل به، وتوضيح معناه، وأنواعه، ووجوب طلبه، وطرق تحصيله، معتمدًا في ذلك على الآيات القرآنية الصريحة والأحاديث النبوية الصحيحة.

يقول ابن باديس حول العلم بأنه: (إدراكٌ جازم مطابق للواقع عن بيّنة، سواء كانت تلك البيّنة حسًا ومشاهدة، أو برهانًا عقليًا كدلالة الأثر على المؤثر، والصنعة على الصانع، فإذا لم تبلغ البينة بالإدراك رتبة الجزم فهو ظن، هذا هو الأصل. ويطلق العلم أيضًا على ما يكاد يقارب الجزم، ويضعف فيه احتمال النقيض جدًا، كما قال تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾. يوسف:81. فسمى القرآنُ إدراكهم لما شاهدوا: علمًا.

ويبسط هذا التعريف فيقول: (إن العلم هو إدراك أمر على وجهٍ لا يحتمل أن يكون ذلك الأمر على وجه من الوجوه سواه، وهو عام، ويليه الظن، وهو إدراك أمر على وجه هو أرجح الوجوه المحتملة، وهو معتبر عندما تتبين قوة رجحانه فيما لا يمكن فيه إلا ذاك، وهذه هي الحالة التي يطلق عليه فيها لفظ العلم مجازًا).

وإنما شُرِّف العلم لكونه وسيلة إلى التقوى، التي يستأهل بها المرء الكرامة عند الله والسعادة الدائمة، ذلك لأن العلم مع الإيمان، رفعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾. المجادلة:11. ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾. فاطر: 28.

وفي هذا يقول الرسول الكريم ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: «مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهه في الدين».

فالعلم هو الطريق إلى خشية الله وعبادته، كما يجب أن يُعبد، فهو الأصل الذي تنبني عليه سعادة الدنيا والآخرة، وهو أساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا.

واستيقن ابن باديس أن البشرية بدون علم، تعود إلى حيوانيتها، ذلك لأن (الإنسان خاصيته التفكير في أفق العلم الواسع الرحيب، فمن حَرَمَ إنسانًا - فردًا أو جماعة- من العلم، فقد حَرَمَهُ من خصوصيته الإنسانية، وحوّله إلى عيشة العجماوات، وذلك نوع من المسخ).

وكذلك أن العلم هو حياة القلوب وإمام العمل، وإنما العمل تابع له، فهو وحده الإمام المتبع في الأقوال والأفعال والاعتقادات، فمن دخل في العمل بغير علم، لا يأمن على نفسه من الضلال، ولا على عبادته من الفساد والاختلال.

فسلوك الإنسان في حياته، مرتبط بتفكيره ارتباطًا وثيقًا، يستقيم باستقامته، ويعوج باعوجاجه، ويثمر بإثماره، ويعقم بعقمه، لأن أفعاله ناشئة عن اعتقاداته، وأقواله إعراب عن تلك الاعتقادات، واعتقاداته ثمرة إدراكه الحاصل من تفكيره ونظره).

ولا يتأتى ذلك العلم والنظر إلا بالتعلّم وبذل الجهد في ذلك، يقول تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾. الرحمن:1-4.

ويقول تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾. العلق:1-5.

ويقول رسول الله ﷺ: (إنما بُعثتُ مُعَلِّمًا). فالتعلم هو الطريق الصحيح لاكتساب العلوم والمعارف، ويكفي العلم شرفًا أن العلماء ورثة الأنبياء، وفي هذا يقول ابن باديس: (لا حياة إلا بالعلم، وإنما العلم بالتعلم، فلن يكون

عالمًا إلا مَن كان متعلمًا، كما لن يَصْلُحَ معلمًا إلا مَن قد كان متعلمًا، ومحمد ﷺ الذي بعثه الله معلمًا، كان أيضًا متعلمًا، علّمه الله بلسان جبريل، فكان متعلمًا عن جبريل عن ربِّ العالمين، ثم كان معلمًا للناس أجمعين).

جهود ابن باديس في مجال إصلاح المناهج التربوية

لقد اهتم ابن باديس بموضوع التربية وبذل جهدا كبيرا فيه وعده أساس الإصلاح والتغيير والنجاح في الحياة، فوضع له مناهج وبرامج مبنية على نظرة شاملة تتميز بطابع ديني ولغوي في الغالب يقوم على دراسة العلوم الشرعية وما يتصل بها، ثم الأدب العربي شعرا ونثرا، وفنون اللغة العربية، مع شيء من التاريخ، والجغرافيا، والرياضيات، وتعليم بعض الحرف اليدوية البسيطة. وهذا يعود إلى جملة من الأسباب نذكر منها: ثقافته الدينية، تأثره بمنهج مدرسة التجديد الإسلامي التي ظهرت في العالم الإسلامي العربي في القرن الثامن عشر. معاناة الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر جراء الاستعمار الفرنسي واضطهاده للغة العربية.

كما استلها من تجاربه اليومية في حلقات الدروس في المساجد والكتاتيب والمدارس، وحتى في النوادي والأسواق إضافة إلى ما تعلمه في جامع الزيتونة، ومن الواقع المعاش، ونظرته إلى متطلبات العصر، وأولويات المجتمع ومعتقداته.

وقد كان الدافع إلى ذلك هو شعور ابن باديس بالحالة الخطيرة التي آلت إليها حالة الدين الإسلامي واللغة العربية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي. فما هو هذا المنهج؟ وما هي طريقة التدريس التي كان يطبقها ابن باديس في هذا الميدان؟

مفهوم المنهج

المنهج كما يعرفه بعض الباحثين المحدثين على أنه: «مجموع الخبرات التربوية ـ الثقافية، والإجتماعية، والرياضية والفنية التي تهيؤها المدرسة

لتلاميذتها داخلها وخارجها، بقصد مساعدتهم على النمو الشامل في جميع النواحي وتعديل سلوكهم طبقا لفلسفتها التربوية».

والمنهج بهذا المفهوم يتضمن جميع أساسيات ما تقدمه المدرسة إلى تلاميذها من خبرات سواء عن طريق المقررات الدراسية أم أنواع النشاط أم الطريقة التي يتبعها المدرس أم الوسائل التعليمية التي يستخدمها أم غير ذلك.

رأي ابن باديس في المنهج الدراسي

يرى ابن باديس أن مناهج التربية الأساسية في عملية الإصلاح يكمن في الرجوع إلى الطريقة النبوية طريقة السلف الصالح من الصحابة والتابعين، يقول في ذلك: «ولن يصلح التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه، في مادته وصورته».

حيث بُعِث الرسول ﷺ معلما وهذا ما رواه مسلم في قوله: (إنما بعثت معلما). ويقرر أن مبنى التعلم والتعليم في القرون الثلاثة الأولى للإسلام هو على (التفقه في القرآن والسنة)، وهذا هو منهج النبي ﷺ ـ ومنهج أتباعه من الصحابة التابعين من بعده. ويدعو إلى دراسة كتاب "الموطأ" للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه ـ ومنهج الإمام الشافعي في كتابه "الأم".

والواقع أن الشيخ عبد الحميد بن باديس قد تأثر في تخطيط منهجه التربوي أيضا بأبي بكر بن العربي صاحب كتاب "العواصم من القواصم".

ونشر هذا في دراسة مركزة في مجلة "الشهاب" تحت عنوان: «صلاح التعليم أساس الإصلاح»، جاء فيها: «لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم. ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره، فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم».

وقبل أن نتطرق إلى رأي ابن باديس في إصلاح المناهج والبرامج الدراسية، نوضح أولاً مفهوم الإصلاح عنده، والمدارس التي أثّرت في منهجه التربوي.

يعرّف ابن باديس الإصلاح بقوله: (هو إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله، بإزالة ما طرأ عليه من فساد). ويقول: (صلاح الشيء: هو كونه على حالة اعتداله في ذاته وصفاته، بحيث تصدر عنه أو به أعماله المرادة منه على وجه الكمال).

وقد لاحظ ابن باديس أن المناهج والبرامج المتبعة في زمانه، ليست في حالة اعتدال، سواء في صورتها أو مادتها، لإهمالها كثيرًا من المبادئ الخالدة التي جاء بها الإسلام، فهو يرى أنه (لن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه، في مادته وصورته، فيما كان يعلّم ﷺ، وفي صورة تعليمه).

ويرى ضرورة إعداد المناهج المناسبة لتنشئة أجيال المستقبل وتربيتها التربية الصالحة، موضحًا ذلك بقوله: (إن أبناءنا هم رجال المستقبل، وإهمالهم قضاء على الأمة إذ يسوسها أمثالهم، ويحكم في مصائرها أشباههم. ونحن ينبغي هنا أن نربّي أبناءنا كما علّمنا الإسلام، فإن قصّرنا فلا نلومنّ إلا أنفسنا، ولنكن واثقين أننا نبني على الماء ما لم نعدّ الأبناء بعدّة الخُلُق الفاضل، والأدب الديني الصحيح).

وينصح ابن باديس رجال التربية في عصره على ضرورة إعادة النظر في البرامج التربوية، فيتساءل مستنكرًا: (فهل نعدّ منهجًا ينبت به أبناؤنا نباتًا حسنًا فيكون رجاؤنا عظيمًا، أم نستمر على ما نحن عليه فيضيع الرجاء؟ ذلك ما نُسأل عنه يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلا من أتى اللهَ بقلبٍ سليم).

ويوضح في هذا السياق أهمية إصلاح تلك البرامج، مؤكدًا على الصبغة المتميزة التي ينبغي أن تكون عليها، فيقول: (فالتعليم هو الذي يطبع المتعلّم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره. ونعني بالتعليم: التعليم الذي يكون به المسلم عالمًا من علماء الإسلام، يأخذ عنه الناسُ دينهم، ويقتدون به فيه).

طريقة ابن باديس التعليمية

كان أهل المغرب يبعثون أبنائهم إلى المساجد والكتاتيب والزوايا منذ الصغر للتّعَلُم، ولم تكن هناك سِنٌّ معينة يبدأ عندها الطفل في تلقي العلم، وإنما كان الأمر متروكًا للآباء، فمتى وجدوا أن الطفل بدأ في التمييز والإدراك أرسلوه إلى المساجد.

وقد تأثر المغاربة بطريقة أهل الأندلس الذين فروا إلى المغرب في طريقتهم تعليم الصبيان التي يصفها ابن خلدون بقوله: (وأما أهل الأندلس فمذهبم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك ورأسّه ومنبع الدين والعلوم، جعلوه أصلاً في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسّل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها، وتجويد الخط والكتاب).

ومن قبل قال ابن خلدون: (اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين يكون مفيدًا لو تمّ ذلك بالتدريج شيئًا فشيئًا، قليلاً قليلاً، فيلقى على المتعلم مسائل من كل باب من الفن، هي أصول ذلك الباب.

وقد تأثر ابن باديس إلى حد كبير بالطريقة الأندلسية في التدريس وإصلاح التعليم، يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، واصفًا الطريقة التي ارتضاها وابن باديس لتربية النشء: (وكانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس

في اجتماعنا في المدينة، في تربية النشء، هي ألا نتوسّع له في العلم، وإنما نربّيه على فكرة صحيحة، ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا).

أما ابن باديس رحمه الله فلم يحدّد سنًا معلومة لالتحاق الطلبة بالمدارس، فكان من بين متعلميه من تناهز أعمارهم الثلاثين سنة.

وكان يحرص على الكيف أكثر من حرصه على الكم، يرى التركيز على الفهم وإعمال الذهن وتشغيل قوى المخيلة، أكثر من شحن الذاكرة .

أما طريقته في التدريس فهي تختلف حسب اختلاف نوعي التعليمين. فالتعليم المسجدي للكبار له طريقة الإلقاء والمحاضرة، والحوار والاستفهام، والمراجعة، ويستعمله في تدريس مواد الأدب العربي، والحضارة الإسلامية والدروس البلاغة وتفسير القرآن الكريم وشرح الحديث النبوي الشريف، تخرج عليه مجموعة من الطلبة أسند إليهم مهمة التدريس معه في الجامع الأخضر.

واتبع الطريقة الجزئية في المراحل الأولى المبتدئة. واستعمل الطريقة القياسية مع الصفوف المتقدمة. هذا بالنسبة إلى الطريقة المتبعة، فماذا عن الكتب المدرسية؟

الكتب المدرسية

يلاحظ أن الكتب المدرسية كانت في معظمها من الكتب المقررة في المدارس المصرية في ذلك العهد، ولم يكن يهتم كثيرا بطرق التدريس التي كان علماء التربية في عصره يَجْرُونَ تجاربهم وأبحاثهم عليها لاختيار النوع الأفضل منها، وذلك لسببين هما:

أ.كان ابن باديس مشغولا ببعث الدين الإسلامي، ونشر تعليم اللغة العربية بأية طريقة كانت خشية اندثارهما في الجزائر.

ب. كان الشيخ ابن باديس ينتمي إلى رجال التربية التقليديين مع التفتح على مستجدات العصر فابتدع طريقة خاصة به، وقد كانت دروسه بصفة عامة تمتاز بالحيوية والنشاط وروح الجد المشوب بقليل من المرح والدعابة لكي تخفف من عنائها على الطلبة. يقول أحد تلاميذه: «والحيوية في دروس عبد الحميد بن باديس، زيادة على ما اختصت به من الفضائل، وكانت في شدة اتصالها بالحياة أيا كان نوع الفن، وفي تلك النصائح الثمينة التي كان يربي بها تلاميذه، والأخلاق الطيبة التي يغرسها فيهم، وفي الروح العظيمة التي يوحي بها إليهم، فينشئون على الطموح والتطلع إلى المجد والاستماتة في سبيل الأمانة التي حملوها». وكان يصب كل تعاليمه في السياسة، والدين، والاجتماع، والأخلاق، والاقتصاد، والوطنية.

نخلص إلى أن ابن باديس جمع بين طريقة أهل المغرب في تركيزه على القرآن الكريم، الذي هو كتاب هداية للبشرية، وأساس تعليم الدين والتفقه فيه، وبين طريقة أهل الأندلس في تعلم الشعر وقوانين العربية، إضافة إلى إثراء برامجه بمادة الحساب والصنائع اليدوية، لأهميتها اللازمة للكسب والعمران، مشيرًا بذلك إلى ضرورة ربط المواد الدراسية بحاجات المجتمع ومتطلباته. وهذه الطريقة تمتاز بميزة الرجال العظماء وباعثي النهضات الكبرى في التاريخ ويكفيه فخرا أن جيشا عظيما من تلاميذته يحملون لواء الإسلام ونشر اللغة العربية في الجزائر وغير الجزائر.

مواد التدريس

نلاحظ أن المواد الدراسية في منهج ابن باديس التي كان يعدها في الجامع الأخضر تشتمل على المواد الآتية:

1. تفسير للكتاب الكريم وتجويده.
2. الحديث النبوي الشريف(موطأ الإمام مالك).

3. الفقه (على المذهب المالكي) من (أقرب المسالك)، و(رسالة ابن عاشر).

4. العقائد الدينية وأن تؤخذ من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

5. الآداب والأخلاق الإسلامية.

6. العربية بفنونها من نحو، وصرف، وبيان ولغة أدب من (قَطْرِ النَّدَى)، والشعر من (ديوان الحماسة وديوان المتنبي)، إضافة إلى تدريس (مقدّمة ابن خلدون).

7. الفنون العقلية كالمنطق والحساب وغيرهما. وتعليم الطلبة بعض الصنائع اليدوية .

هذه المواد توضح بكل جلاء نوع التعليم الذي كان ابن باديس يقوم بنشره بين تلامذته وهو لا يخرج في مجمله عن كونه تعليما دينيا ولغويا مع قليل من العلوم العقلية حسب تعبيره نفسه. باحثا باستمرار عن التنقيح والتعديل لهذه المواد في كل عام دراسي جديد تقريبا ويتضح هذا في بيان أصدره في شهر ديسمبر 1936 تحت عنوان: "بيان عن الحركة العلمية بالجامع الأخضر ونفقاته". فقد أضيفت عدة مواد جدبدة للمواد القديمة التي سبق ذكرها وهي: الفرائض والجغرافيا والتاريخ وأصول الفقه ودروس المواعظ.

دامت الحركة التربوية لدى ابن باديس حوالي سبعة وعشرين سنة (1913 ـ 1940)، لذلك لا نستطيع أن نتتبع بانتظام التطور الذي حصل في المواد العلمية التي كان يدرسها لتلامذته، وإنما هي بصفة عامة كافية للحكم على نوع التعليم والثقافة التي كان يتزود بها التلاميذ في الجامع الأخضر بقسنطينة. وهذه الكتب هي:

1. كتاب "الموطأ" في الحديث للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه.

2. أقرب المسالك.

3. الرسالة في الفقه لابن أبي زيد القيرواني.
4. ابن عاشر (في الفقه).
5. الزندبوى
6. المفتاح
7. التنقيح
8. السلم
9. المكودي
10. القطر (في القواعد)
11. الأجرومية
12. الزنجاني
13. لامية الأفعال
14. السعد
15. الجوهر المكنون
16. ديوان الحماسة لأبي تمام
17. ديوان المتنبي
18. أمالي القالي
19. مقدمة ابن خلدون.

نخلص إلى أن ابن باديس كان يريد أن يبلغ تلاميذته مستوى عاليا في الثقافة الإسلامية واللغة العربية والتحصيل العلمي. في اختيارهم للكتب

المناسبة التي يأخذون منها معارفهم وأخلاقهم. فعلى كثرة الكتب والشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها.

دور المعلم

يؤمن ابن باديس ـ رحمه الله ـ بأن دور المعلّم أساس نجاح العملية التربوية، وأن إصلاح المناهج يرتكز على المعلم الكفء. وأن شخصية المعلم لها تأثير كبير على تكوين شخصية التلاميذ. فالمتعلمون يقلدون معلميهم ويتخذونهم قدوة لهم في سلوكم العام حتى ولو لم يشعروا بذلك لذا كان على المعلم أن يكون على قدر كبير من الخلق الحسن والتربية الإسلامية حتى يكون قدوة للناشئة وأن يتخذ الدروس وسائل نافعة في تكوين العادات الحسنة لدى المتعلم، وفي تهذيب أخلاقه، وإحياء ضميره وتقوية إرادته وتربية حواسه وتوجيه ميوله الفطرية لفعل الخير.

يقول ابن باديس في "أثر المعلم": «أنه في طور تربية وتعليم في كفالة أب روحي عاطف عليه ويعنى به مثل أبيه أو أكثر». وقد كان ابن باديس يلتزم بهذا التوجيه ويطبقه على نفسه، فكوّن رجالا حملوا لواء الثورة المباركة وعملوا على بعث النهضة العربية الإسلامية.

لذلك نراه قد ركّز على أمرين هامين:

1. أن يكون المعلم متمكنًا من العلوم والفنون التي يتصدر لتدريسها، مستوعبًا لتفاصيلها وفروعها.

2. أن يكون المعلم ملمًا بمبادئ فن التعليم، حتى يتمكن من التأثير في طلبته ومعاملتهم بحسب ما يلائمهم في الجوانب المعرفية والسلوكية، ذلك أن أهم ما يحتاج إليه المعلم هو: (معرفة أساليب التفهيم، وفهم نفسية

المتعلمين، وحسن التنزّل لهم، والأخذ بأفهامهم إلى حيث يريد بهم، حسب درجتهم واستعدادهم).

وقد أرشد ابن باديس إلى الاستفادة من خبرات المعلمين، والأخذ بآرائهم في ما يهمّ التعليم ومدارسه ونظمه وأساليبه، بغية التوصل إلى توحيد مناهج التعليم وترشيده .

ودعا في رسالته التي وجهها إلى رجال التربية والتعليم في الجزائر، إلى عقد مؤتمر عام لتبادل الآراء والخبرات في مجال التربية، قصد تحسين وتطوير الجوانب التالية :

- أسلوب تربية الناشئة.
- طريقة اختيار الكتب.
- تعليم البنت المسلمة ووسائل تحقيقه.
- وسائل تنظيم وترقية التعليم المسجدي.

إضافة إلى الاستفادة من خلاصة تجاربهم في مجال التربية والتعليم.

نتوصل إلى أن الشيخ عبد الحميد بن باديس يرى أن الإصلاح ينبغي أن يبدأ من المعلم الذي تبنى عليه العملية التربوية فهو القدوة الحسنة التي تطبع نفوس المتعلمين، في كل إصلاح وتدفعهم إلى العمل على تغيير ما بأنفسهم كي يغير الله ما بهم من سوء وانحطاط، ثم إلى تغيير مؤسسات المجتمع بقصد إصلاحها وتقويم اعوجاجها، يقول ابن باديس: «فإننا نربي والحمد لله تلامذتنا على القرآن ونوجه نفوسهم إلى القرآن من أول يوم وفي كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال تعلق هذه الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودهم».

نظرة ابن باديس لتعليم المرأة

الأسرة هي اللَّبِنَةُ الأولى في بناء المجتمع المسلم، لذا كان تعليم المرأة أمرًا حيويًا بالنسبة لمستقبل الأمة، فهي مدرسة الأجيال، إذا صلحت صلح البيت، وإذا فسدت فلا تلد إلا نَكِدًا، فنوع تعليم البنات هو دليل من سيتكوّن من أجيال الأمة في مستقبلها.

جاء في الحديث النبوي الشريف: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

وتعد الأم المصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتديّن الأم هو أساس حفظ الدين والخُلُق. والضعف الذي نجده من ناحيتهما في رجالنا، معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت، بسبب جهل الأمهات وقلة تدينهن.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾. (سورة التحريم :6). قال الضحاك في ذلك: (حق المسلم أن يُعلم أهله من قرابته وإيمائه وعبيده، ما فرضَ الله عليهم، وما نهاهم الله عنه).

وقال الله تعالى مخبرًا عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾. سورة مريم: 55.

كان أهالي الجزائر في زمن الاستعمار يمنعون بناتهم من الذهاب إلى المدارس الحكومية، لأن القائمين عليها ليسوا مسلمين. واستمر الأمر كذلك إلى أن منعوهن من التعليم في الكتاتيب الحرة، غَيْرَةً على الأعراض وحفاظًا على الدين في نظرهم.

بقيت المرأة بعيدة عن التعليم إلى أن ظهرت بوادر الحركة الإصلاحية، فنادى الشيخ ابن باديس بضرورة تعليم البنات، وتوفير المكان المناسب لهن دون الاختلاط بالذكور.

النساء شقائق الرجال في التكليف (فمن الواجب تعليمهن وتعلّمهن، وقد علمهنَّ رسولُ الله ﷺ، وأقرهنّ على طلب التعلم، واعتز بهن، وتفقدهن، كما في حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ خرجَ ومعه بلال، فظنّ أنه لم يُسْمِع النساء، فوعظهنّ وأمرهنَّ بالصدقة، فجعلت المرأة تلقي القُرْطَ والخَاتَم، وبلال يأخذ في طرف ثوبه. وللمرأة في المجتمع مسؤولية القيام بالجانب الداخلي للحياة على تشعب مهامه، يقول رسول الله ﷺ: (والمرأة راعيةٌ على أهل بيت زوجها وَوَلَدِه وهي مسؤولةٌ عنهم).

نلاحظ الشيخ عبد الحميد بن باديس أولى اهتمامًا كبيرًا بتعليم المرأة الجزائرية المسلمة، المثل الدينية والقومية والأخلاقية مدركًا الخطر المحدق بالأمة إذا تركت المرأة بغير تعليم. يقول عن وظيفتها في الحياة هي تربية الإنسان والقيام بشؤون البيت حيث قال: «المرأة خلقت لحفظ النسل، وتربية الإنسان في أضعف أطواره وحمله وفصاله ثلاثون شهرا».

ولو أمعنا النظر في مسؤولية المرأة، لوجدناها تتحمل العبء الأكبر من أعباء الحياة، ذلك لأنها هي الحامل والمرضع، والحاضن للأطفال، والملازم لهم في مختلف أطوار نشأتهم. لذلك وجب تهيئتها، وإعدادها الإعداد اللازم لمثل تلك المهمة.

وفي ذلك يقول الإمام عبد الحميد بن باديس: «علينا أن نكمّل النساء تكميلاً دينيًا، يهيئهُنَّ للنهوض بالقسم الداخلي من الحياة، وإعداد الكاملين ومساعدتهم للنهوض بالقسم الخارجي منها، وبذلك تنتظم الحياة انتظامًا طبيعيًا تبلغ به الإنسانية سعادتها وكمالها».

وإذا أردنا إعداد المرأة المسلمة للقيام بوظيفة تربية الأجيال، فلابد من توافر الشروط التي تؤهلها للقيام بذلك، مثل العلم الشرعي والعمل به، وهو ما يشير إليه ابن باديس بقوله: «إذا أردنا أن نكوِّن رجالاً، فعلينا أن نكوِّن

أمهات دينيات، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتعليم البنات تعليمًا دينيًا، وتربيّتهنّ تربية إسلامية، وإذا تركناهنّ على ما هنّ عليه من الجهل بالدين، فمحال أن نرجو منهن أن تُكَوِّنَّ لنا عظماء الرجال. وشرّ من تَرْكِهِنّ جاهلاتٍ بالدين، إلقاؤهنّ حيث يُرَبَّيْنَ تربيةً تنفّرهنَّ من الدين، أو تحقّره في أعينهنَّ، فيصبحن ممسوخات لا يلدن إلا مثلهنّ».

ويذهب الشيخ ابن باديس إلى عدم اختلاط البنات بالذكور في التعليم، لأن في ذلك مفسدة لهم، وعليه: (فلا يجوز اختلاط النساء بالرجال في التعليم، فإما أن يُفْرَدْنَ بيوم. وإما أن يَتَأَخْرَنَ عن صفوف الرجال).

ويميل الشيخ إلى أن يجعل لتعليم النساء يومًا خاصًّا، ويتكرّر هذا اليوم بقدر الحاجة، ولما كانت الحاجة دائمة فاليوم مثلها. ومن قبل قال سحنون: (وأكره للمعلم أن يعلّم الجواري يخلطهنّ مع الغلمان، لأن ذلك فساد لهم).

ومن مبادراته لتشجيع المرأة على طلب العلم، إقرار مجانية التعليم للبنات، وفي هذا يقول الشيخ: (ندعو إخواننا المسلمين إلى المبادرة بأبنائهم وبناتهم إلى المكتب (مكتب جمعية التربية والتعليم بقسنطينة).. فأما البنون فلا يدفع منهم واجب التعليم (الرسوم) إلا القادرون، وأما البنات فيتعلمنّ كلهنّ مجانًا، لتتكون منهن -بإذن الله- المرأة المسلمة المتعلمة).

نخلص إلى أن الشيخ ابن باديس كان واعيا بأهمية تعليم المرأة الجزائرية وإعدادها علميا وخلقيا فهي نصف المجتمع والمدرسة الأولى لصناعة الرجال وتربية الأطفال وحاضنتهم على القيم الدينية والخلقية والاجتماعية والوطنية والقومية للشعب الجزائري.

خاتمة:

تُقاس الأمم بما تنتجه من الرجال المصلحين العاملين، ويعدّ الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله، نموذجًا لهؤلاء للعلماء العاملين المجاهدين في القرن العشرين، وآثاره مازالت زادًا علميًا ومادة دسمة لطلاب العلم والباحثين.

ولقد كانت دعوته لإصلاح المجتمع الجزائري والنهوض به ودفعه إلى التطور وإنقاذه من مخالب الاستدمار الفرنسي الخاشم، بصب جهوده على التعليم وإصلاح مناهج وبرامج التربوية واعتبر نجاحها متوقف إلى حد كبير على مقدار ما يراعي هذا المنهاج معتقدات الأمة وعاداتها وتقاليدها، وأن أخذ أو اقتباس المناهج التربوية الغربية، مسلّمة، دون رفض أو طرح ما لا يتفق وخصائص الأمة وثوابتها، قد يوجد انشطارًا أو ثنائية في الكيان الاجتماعي والفكري لأفرادها. مركزا على الجانب الديني والخلقي واللغوي في تربية النشء. ويرى أن العلم التعليم هو أساس كل عملية إصلاحية في المجتمع حتى يبق متصلا بهويته وأصالته العربية الإسلامية، ومحافظا على لغته العربية وكيانها، واعتبره الدرع الواقى للجزائر من خطر الاندماج والتجنيس والتنصير والذوبان في فرنسا. وكانت دعوة ابن باديس إلى ضرورة الاهتمام بإعداد المعلم الصالح، القوي في دينه وتكوينه، لأن إنجاح العملية التربوية، يتوقّف إلى حد كبير على وجود المربّي، الذي يحقّق بسلوكه وممارساته التربوية المثال الصادق لأهداف المنهج التربوي المراد إقامته وتحقيقه.

واتضحت لي عظمة هذا الرجل، وأصالة أفكاره وآرائه التربوية، حيث أصبح عَلَمًا من أعلام الإسلام بفضل الله تعالى، ثم بفضل شدة اتصاله بكتابه وسنة رسوله الكريم ﷺ، اللذين وجّها منهجه، وأكسباه ما وصل إليه من وضوح في الرؤية، وسداد في الخطى، الأمر الذي جعله موفقًا في دعوته الإصلاحية، خاصة في جانبها التربوي.

وصلِّ اللهم وسلِّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش.

1. "العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية"- عبد الحميد بن باديس، رواية وتعليق- الأستاذ محمد الصالح رمضان- مطابع الكيلاني القاهرة. بدون تاريخ

2. "المقدمة" ابن خلدون (عبد الرحمان)، المكتبة التجارية، القاهرة بدون تاريخ.

3. (التفسير) مجالس التذكير، من كلام الحكيم الخبير "مجموعة دروس في التفسير نشرها لعبد الحميد بن باديس كافتتاحيات لمجلة الشهاب الشهرية"، جمع وترتيب وإعداد ومراجعة وتعليق، محمد الصالح رمضان وتوفيق محمد شاهين- دار الكتاب الجزائري – مطبعة الكيلاني بالقاهرة بدون تاريخ.

4. ابن باديس حياته وآثاره- عبد الحميد بن باديس، أربعة أجزاء (مجموعة مقالات ودراسات بقلم ابن باديس) أعداد وتصنيف الأستاذ عمار طالبي –دار اليقظة العربية –دمشق سنة 1968.

5. أضواء على القضية الجزائرية، إبراهيم كبة مطبعة الرابطة بغداد 1956.

6. الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، دكتور محمد قاسم، دار المعارف- القاهرة سنة 1968.

7. التبشير والاستعمار في البلاد العربية د/ عمر فروخ- ود/ مصطفى الخالدي- ط1- بيروت 1953.

8.التربية في الإسلام أو التعليم عند القابسي، د/ أحمد فؤاد الأهواني، ط/ 1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة سنة 1955.

9. التربية وأثرها في الفرد والمجتمع، رياض محمد عسكر، لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة 1948.

10.التربية والتعليم في الإسلام، د/ محمد أسعد طلس، ط/ 1، دار العلم للملايين، بيروت سنة 1957.

11.التربية وطرق التدريس، صالح عبد العزيز وآخر، 3 أجزاء، دار المعارف القاهرة، سنة 1951.

12.تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم الحفناوي، (جزآن) مطبعة فونتانة- الجزائر 1905/ 1908.

13.ثورة الجزائر وثورتها المباركة محمد علي دبوز، المطابع التعاونية- دمشق 1965.

14.الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد، دكتور أحسان حقي المكتب التجاري بيروت 1961

15.الجزائر في مرآة التاريخ، عبد الله شريط، ومحمد الميلي، مطبعة البعث قسنطينة 1965.

16.الحركة الجزائرية الوطنية (1900/ 1930) د/ أبو القاسم سعد الله منشورات دار الآداب – بيروت 1969.

17.دراسات في المناهج، د/ وهيب سمعان وأخرون، ط/ 2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة سنة 1966.

18.رجال السلف ونساؤه- عبد الحميد بن باديس، جمع وتصنيف ومراجعة وتعليق وتقديم محمد الصالح رمضان –وتوفيق محمد شاهين –نشر مكتبة الشركة الجزائرية- الجزائر 1964

19.زعماء الإصلاح في العصر الحديث أحمد أمين، القاهرة 1948.

20.سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (الثالث) قسنطينة، محمد البشير الإبراهيمي (محرر)، المطبعة الجزائرية الإسلامية سنة 1963.

21.شروط النهضة، مالك بن بني، ترجمة عبد الصبور شاهين، وعمر كامل مقساوي- ط2 – مكتبة دار العروبة، القاهرة 1961.

22.عيون البصائر، محمد البشير الإبراهيمي – القاهرة- دار المعارف 1963.

23.فتح الجزائر: (مذكرات) المارشال ماكمهون رئيس جمهورية فرنسا 1873، ترجمة حامد مصطفى، الشركة الإسلامية للطباعة والنشر المحدودة – بغداد –بدون تاريخ.

24.فرنسا في الجزائر- عبد العاطي جلال، العالمية للطبع والنشر القاهرة 1956.

25.كتاب الجزائر، أحمد توفيق المدني: ط2 نشر دار الكتاب الجزائري 1963.

26.ليل الاستعمار فرحات عباس ترجمة أبو بكر رحال- مطبعة فضالة بالرباط- المغرب بدون تاريخ.

27.مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير.

28.محاضرات عن تطور السياسة الفرنسية في الجزائر، دكتور صلاح العقاد معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة 1959.

29.المدرس في المدرسة والمجتمع، د/ أبو الفتوح رضوان وآخرون، دار الثقافة، القاهرة بدون تاريخ.

30.من هدى النبوة- عبد الحميد بن باديس جمع وتصنيف ومراجعة وتعليق وتقديم محمد الصالح رمضان –وتوفيق محمد شاهين –نشر مكتبة الشركة الجزائرية- الجزائر سنة 1966.

31.المناهج، د/ الدمرداش سرحان وأخر، ط/ 1، مكتبة الأنجلو المصرية 1966.

المجلات والجرائد

1.جريدة المنتقد عبد الحميد بن باديس، (18 عددا)، قسنطينة سنة 1925.

2.جريدة الشهاب، عبد الحميد بن باديس، (1925 ـ 1929م).

3.مجلة الشهاب عبد الحميد بن باديس، شهرية (11 سنة) من عام 1929 ـ 1939م).

4.جريدة السنة المحمدية، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سنة 1933م.

5.جريدة الصراط السوي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سنة 1933م.

6.جريدة البصائر، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سنة (1935 ـ 1939م).

تنظم النَّدوة بمدينة قسنطينة مدينة العلم والعلماء؛ المدينة المضيافة، التي أنجبت أفذاذا صنعوا أمجاد الوطن وعبدوا بمساهماتهم وتضحيَّاتهم الكثير من طرق النَّصر قديما وحديثا، من صاحب إفريقيا للأفارقة، إلى مقاومة أحمد باي إلى رائد النَّهضة الجزائرية الشَّيخ الإمام عبد الحميد بن باديس وصاحب رائعة: «شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب»، إلى الأديب الألمعي صاحب المقولة الشهيرة: «الفرنسية منفاي»، هذه الأفعال والمقولات التي تتكامل فيما بينها لتؤسّس لدستور أمَّة، كما يصادف انعقادها الاحتفال بذكرى ثورة أوَّل نوفمبر المجيدة والمضفَّرة باسترجاع سيادتنا التي اغتصبت لمدة قرن ونيف من الزَّمن، حاولت فيها الكولونيالية الفرنسيَّة طمس معالم المجتمع الجزائري من دين ولغة، بل حاولت وبكلِّ الوسائل وبمباركة الحلف الأطلسي ومساعدته تشتيت الأمَّة الجزائرية ليسهل عليها إبادة الشَّعب الجزائري واندثاره، ولكن هذا الشَّعب الأبيِّ لم يكن كما ظلَّت تروِّج له الكولونيالية ومن يدور في فلكها، إذ انتفض في هبَّة واحدة وواعدة إلى أن حالفه النَّصر واسترجع سيادته، هذه السِّيادة التي ينبغي الحفاظ عليها باستماتة وبكل الطُّرق والوسائل، حتَّى لا تتعرَّض للمساومة أو التَّهديد.

2016